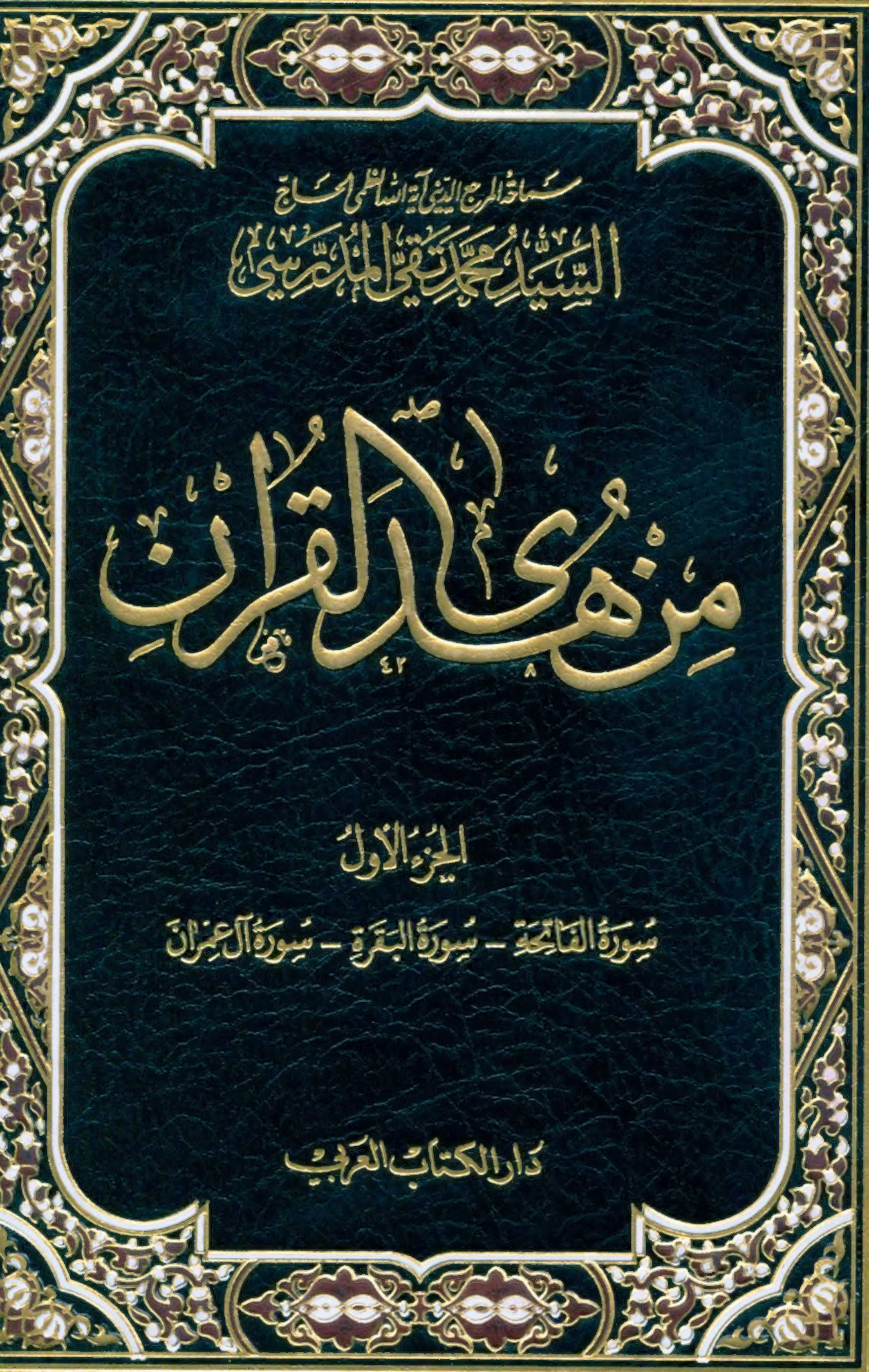

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الأول
سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران
دار الكتاب العربي


والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة


من هدى القرآن
١

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الأول

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٢٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ .

الإهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

أهدي ثواب كتابي هذا إلى روح زوجتي الوفية (أم صالح) التي اختطفتها المنية في شبابها، تقديراً لمساعدتها إياي على صعوبات الحياة.

وأسأل العليّ القدير أن يتغمدها برحمته الواسعة.

محمد تقي المدرسي

بين يدي الكتاب

كان القرآن الكريم ولا يزال هو الملهم الدائم والصائب لنهضة الأمة وتقدمها، لأنه يحوي بين دفتيه بلسمًا شافيا لجراحات الأمة وآلامها، بما يتوافر فيه من بصائر وهدى تتناسب مع مشاكل الإنسان المتجددة.

بيد أن المشكلة التي رافقت تعامل المسلمين دوما مع القرآن الكريم، تكمن في أسلوب الاستفادة الضعيفة من بصائره، إن لم نقل هجرانهم له وابتعادهم عنه، كما تشير إليه بعض الآيات.. وبناء على هذا النمط من التعامل مع بصائر القرآن، أصبحت الأمة الإسلامية وللأسف بعيدة عن مرشدها الحكيم الذي يدرك ملابسات الظروف والمشاكل، ويحدد الحلول الناجعة بلحاظ هذه الظروف، على هذا الأساس أيضا أصبح التعامل مع القرآن الحكيم تعاملا سطحيًا حتى أفقد الأمة القدرة على الاستفادة من حيوية القرآن، والتفاعل الإيجابي معه في الحالات المتجددة في الحياة.

ولقد أدرك سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) سر التعامل الصحيح مع القرآن الحكيم وكيفية الاستفادة منه، وحسب معطيات هذا السر بدأ مشواره المبارك مع القرآن في بداية السنين الأولى من باكورة حياته العلمية الدينية، حيث تفاعل مع القرآن واستنتج الأفكار الأصيلة منه، ودعا إلى الرجوع إلى القرآن الكريم والارتباط به إرتباطًا وثيقًا وشاملاً.

ويتضح هذا الاهتمام في ثنايا دراساته الفكرية ومحاضراته الجماهيرية، حيث يركز في جميعها على أن القرآن هو المورد الغني بالبصائر الربانية في مقابل الأفكار الوضعية التي يتم نشرها هنا وهناك.

وقد عبر سماحته (دام ظله) عن اهتمامه بالقرآن من خلال استنباط الفكر السليم

منه، وحضوره الفعّال في أفكاره ومؤلفاته في جميع المجالات الفقهية والفكرية والسياسية والاقتصادية بصورة متميزة وفريدة.

ولكن الأهم من كل ذلك، أنّ سماحة المرجع المدرسي عكف لسنوات عديدة على دراسة القرآن الكريم والتدبر في آياته واستلهام البصائر والقيم الإلهية منه، وتسجيلها في هذا التفسير (من هدى القرآن) ليكون في متناول المؤمنين الذين يسعون لفهم القرآن واستيعاب شرائعه لتطبيقها في الحياة.

وقد امتاز هذا التفسير عن التفاسير الأخرى بميزات عديدة استقطبت اهتمام العلماء والباحثين في الحوزات العلمية والجامعات ومراكز الدراسات المختلفة. وهنا نرى من المناسب أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى بعض أقوال أصحاب الاختصاص حول تفسير (من هدى القرآن)، والتي نعتقد أنها تسلّط الضوء على بعض معالمه وميزاته.

التفسير في نظر الباحثين

١- يقول المحقق آية الله الشيخ محمد هادي معرفة ﷺ عن تفسير (من هدى القرآن):

إنه «تفسير تربوي تحليلي شامل، يبحث فيه المؤلف عن الربط الموضوعي بين الواقع المعاش؛ وبين الحقائق الراهنة والدلائل البيّنة التي أبانها القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً، كمنهج تربوي وأخلاقي، يستهدف وضع الحلول الناجعة لكل مشكلات العصور المختلفة حتى قيام الساعة.

قال المؤلف: «واعتمدت فيه على منهج التدبر المباشر، انطلاقا مما بينته في التمهيد، أي منهج الاستلهام مباشرة من الآيات، والعودة إلى القرآن ذاته، كلما قصرنا عن فهم بعض آياته وفق المنهج الذي علمنا إياه الرسول الكريم ﷺ وأئمة أهل البيت ﷺ حيث أمرونا بتفسير القرآن ببعضه».

فكان تفسيرًا تحليليًّا تربويًّا، لم توجد فيه المعمعات الجدلية، ولا الخرافات الإسرائيلية، معتمدًا شرح الآيات وذكر مقاصدها العالية وأهدافها السامية، ومعالجة أدواء المجتمع معالجة ناجعة موفقة»[1].

---

(١) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ج٢، ص٤٧٣، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢- وتحدث الباحث والمفكر الإسلامي واعظ زاده خراساني[1] (عن هذا التفسير) -بعد بيان مقدمة ضافية حول الأساليب والمناهج المختلفة في التفسير التي ظهرت بشكل تدريجي عبر التسلسل الزمني- قائلاً:

«.... والآن، وبعد أن رسمنا هذه الصورة عن تاريخ وأصناف تفاسير القرآن. لنبحث عن تفسير من هدى القرآن، فمن أي الأنواع هو؟ وما هو النهج الذي يتبعه؟».

يجيب الباحث عن هذا السؤال بقوله:

«يعتبر هذا التفسير -الذي خرج إلى النور في ثمانية عشر مجلداً باللغة العربية- من التفاسير المطوّلة، وبالرغم من اهتمامه بالروايات، إلاّ أنه يعتمد -من بين الأساليب الكثيرة- الأسلوب العلمي والاجتماعي والتربوي.

ثم يضيف:

«وهو يفسر القرآن بالقرآن قبل أن يرجع إلى التفاسير -التي نادرًا ما يرجع إليها- ذلك لأنه -كما يقول- كان يخشى أن يضع بينه وبين القرآن حجابًا من كلام البشر.

إذن فإن هذا المنهج في التفسير لا يعتمد على نقل آراء الآخرين وقبولها أو ردها، بل إنه يتدبر بشكل مستقل في آيات القرآن اعتمادًا على فهم السياق القرآني، ولدى مواجهة أية مشكلة فانه يرجع إلى الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام، وبإمكاننا القول بأن ما كتبه المؤلف في تفسير الآيات هو نتاج تدبره الشخصي وأفكاره المستلهمة من القرآن.

ولا يستطرد -المؤلف- خلال تفسيره إلى الموضوعات المعترضة كالتي نجدها في التفاسير المطولة كتفسير (الرازي والمنار والميزان) تحت عناوين مستقلة.

ولكنه يطرح عنوانًا واحدًا لتفسير مجموعة من الآيات، كما نجد كمثال في الجزء الأول، ص ١٢٠: يفسّر الآيات الواردة حول خلق الإنسان تحت عنوان: (الشخصية الإنسانية، كيف يجب أن تكون)، وفي ص١٥١ يفسّر مجموعة أخرى من الآيات تحت عنوان: (دور رسالات الله في بناء الحضارات).

---

(١) مدير مجموعة القرآن في مؤسسة الأبحاث الإسلامية. انظر: مقدمة الترجمة الفارسية لتفسير (من هدى القرآن) تحت عنوان: (تفسير هدايت).

وفي طليعة تفسير الآيات يشير -المؤلف- إلى معاني المفردات القرآنية، ثم يقدم استلهامه العام عن الآيات تحت عنوان (هدى من الآيات)، ثم يشرح الآيات مفصلًا تحت عنوان (بينات من الآيات) وهنا يذكر أحياناً بعض الأحاديث المناسبة».

ويضيف الباحث الخراساني:

«وبشكل عام فإن المميزات التالية هي الملاحظة في هذا التفسير:

١- يتبع في أسلوب الكتابة منهجًا خاصًا وإبداعيًا لا نجده في سائر التفاسير الأخرى، فهذا التفسير يحتوي على موضوعات بسيطة ومحببة إلى القلوب، وفي الوقت نفسه مرتبة ومنظمة.

٢- يحاول المؤلف عدم تكرار موضوعات التفاسير الأخرى، وعدم حشد أقوال وآراء الآخرين الموجودة في أغلب التفاسير المطوّلة لكيلا تحجب فكر القارئ عن المعنى المقصود للمؤلف.

٣- يتبع التفسير منهج التحليل النفسي في إظهار الجوانب التربوية في القرآن.

٤- يكتفي في نقل الأحاديث بقدر الضرورة ويتجنب ما يؤدي إلى حيرة القارئ.

٥- وفي نقل قصص القرآن يكتفي بالنقاط المستفادة والمستلهمة من آيات القرآن، ولا يلجأ إلى نقل التاريخ والقصص (خارج إطار القرآن)، وهكذا يتجنب نقل الروايات الإسرائيلية الشائعة في ذيل القصص القرآنية.

٦- وتنطوي التمهيدات التي ذُكرت في بداية التفسير على موضوعات جديدة مثل: تعريف القرآن ووصفه على ضوء القرآن والسنة، السبب في حاجة القرآن للتفسير، عدم إحاطة البشر بالمفاهيم القرآنية، ضرورة التدبر في القرآن، منهج التدبر القرآني، الفرق بين منهج التدبر والتفسير بالرأي، علاقة التدبر بالصفات النفسية والعقلية للإنسان، وبالحقائق الخارجية التي يجب عرضها على القرآن، والتلمذ على القرآن وحل المشاكل الاجتماعية والحياتية في ظل القرآن.

هذه القضايا يبحثها المؤلف في التمهيدات، كما يبحث المؤلف في هذه التمهيدات الموضوعات القرآنية التالية: التزكية والتعليم، الظاهر والباطن، المحكم والمتشابه، بأسلوب

جديد، وبالرغم من أن هذه الموضوعات تبحث في متون أو مقدمات التفاسير وفي كتب العلوم القرآنية. إلا أن أسلوب معالجة المؤلف لها أسلوب جديد وإبداعي..»[1].

٣- كتبت مجلة (دوحة القرآن)[2] الأسبوعية المهتمة بالدراسات والأبحاث القرآنية، في عددها ٤٣ دراسة مفصّلة تحت عنوان: (المفسّرون المعاصرون) حول تفسير (من هدى القرآن) جاء فيها:

«... شهد هذا القرن نمو النظرات المتنوعة والمناهج الجديدة، والمعايير الحديثة، وبشكل عام شهد اتجاهًا خاصًا في مجموع حركة تفسير القرآن، ومن جملة التفاسير التي شهدها هذا القرن هو تفسير (من هدى القرآن) الذي جاء حصيلة سنوات من الجهد والتدبر والتفكّر للمفسّر الجليل آية الله السيد محمد تقي المدرسي.

ويحمل المفسّر أفكارًا ونظرات خاصة في مجال العلوم الإنسانية والفلسفة والعرفان ونقد الثقافة الغربية، وقد نشرت بقلمه الدراسات والأبحاث والمقالات الكثيرة في الصحف العربية، في العراق وإيران ولبنان. وقد عمل على إصلاح الحوزات العلمية عن طريق التنظيم وإدخال البرامج الحديثة التي تتناسب ومتطلبات العصر.

وتقول الدراسة:

وحول الباعث الذي دفعه لكتابة تفسير (من هدى القرآن) يشير المفسّر إلى أنه: منذ بداية توجُّهي إلى التفسير لاحظت فراغًا فيه من بُعدين هامّين:

الأول: اتّساع الفجوة بين التفاسير المكتوبة والواقع المعاش للأمة، حيث كان هدف أغلب المفسرين إلا نادرًا توضيح كلمات القرآن، وليس تطبيقها على حقائق الزمان، ولذلك لم يهتمّوا أكثر بتأويل القرآن وتنوير الواقع بضيائه، في حين أن الهدف الأسمى للآيات إنما هو تذكير الإنسان بالله واليوم الآخر ثم تبصيره نفسه وواقعه ليعيش بصورة أنبل وأفضل، ولعلّ الظروف السياسية لأغلب المفسرين وانغلاق بيئتهم الاجتماعية كانت تمنعهم من ذلك.

وقد حاولتُ أن أُعالج الفراغَ بقدرٍ محدود من خلال التفسير والمحاضرات.

(١) راجع مقدمة الترجمة الفارسية من تفسير (من هدى القرآن).
(٢) تصدر باللغة الفارسية في طهران واسمها: (كلستان قرآن).

الثاني: وجود فجوة بين التفاسير والأحاديث المأثورة عن النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام اللهم إلاّ تلك التي تهتمّ بصورة مباشرةٍ بتفسير آيةٍ كريمة، علماً بأنّ كلّ أحاديث الرسول وأهل بيته في الواقع تفسيرٌ للقرآن، لأنها ليست سوى انعكاس نور الوحي على أفئدتهم، فلابدّ إذن أن نبحث عن منهجٍ جديدٍ لتوصيل التفسير بهذا الرافد العظيم من الروايات الشريفة، ولكن كيف؟.

إنّما يكون بإلغاء قيد اللفظ منها والتوجه إلى المعاني، فعندما نستوحي من آيةٍ كريمةٍ حقيقةً نبحث في النصوص عمّا يتصل بها من بصائر توضيحيةٍ فنثبتها في تفسير تلك الآية ليتكامل المعنى.. مثلاً عندما نبحث عن آيةٍ كريمةٍ تبصّرنا بدور العلم والعلماء نثبت في توضيحها وتفسيرها نصوصًا مأثورةً حول العلم، بغضّ النظر عن ورودها حول تلك الآية أم لا، لأنها بالتالي تفسيرٌ للآية سواءً ذُكرت فيها الآية أم لا.

وبالذات الأدعية المأثورة التي هي بحقٍّ كنوز المعارف الإسلامية، وهي بالتالي قبسات من نور الوحي تجلّت على ألسنة سادة العرفاء الميامين النبيّ وأهل بيته الهداة عليهم السلام. أفلا ينبغي أن نستفيد منها في تفسير آيات العرفان التي هي نصف القرآن أو تزيد؟.

وحول منهج التفسير في (من هدى القرآن) تقول الدراسة:

ويقوم آية الله المدرسي، -المفسّر والباحث القرآني المعاصر،- في مطلع كل سورة ببيان فضيلة السورة وأهميتها بالاعتماد على روايات المعصومين عليهم السلام كي يدفع بالقارئ إلى المزيد من التدبر فيها وباشتياق ورغبة عارمين.

ثم يشير باختصار إلى المضامين العامة للسورة تحت عنوان (الإطار العام) حيث يقدم للقارئ صورة إجمالية عن السورة تعينه على التوصل إلى انطباع كلي عن كل سورة.

ثم يقوم المؤلف -كسائر المفسرين- بتقسيم كل سورة إلى عدة مجموعات من الآيات ويذكر تحت كل مجموعة من الآيات عدداً من الإشارات التي تأتي جميعها في إطار شرح وتفسير الآيات والكشف عن أسرارها، ويجري هذا الأسلوب في جميع سور القرآن وفي كل مجموعات الآيات المختلفة، وتفصيل هذا الأسلوب تحت العناوين التالية: معاني الألفاظ، هدى من الآيات، بينات من الآيات.

١- ألفاظ الآيات

أول شيء يجذب الانتباه في بداية تفسير الآيات هو شرح ألفاظ الآيات، حيث يبادر المؤلف إلى توضيح وشرح معنى الألفاظ التي تحتاج إلى التوضيح، وهو يكتفي من شرح الألفاظ بما يعين القارئ على فهم واستيعاب معنى الآيات.

٢- هدى من الآيات

يتبع المؤلف في عرض الموضوعات والدخول إلى التفسير المنهج التالي؛ فبعد ذكر مجموعة من الآيات وشرح مفرداتها، يشير إلى التوجيهات العامة الكامنة في مجموعة الآيات، كما يذكر تدبره واستنباطه الكلي منها، وهذا القسم يأتي تحت عنوان (هدى من الآيات) ويعتبر هذا الفصل الذي يحتوي على التوجيهات العامة للآيات وعلى نتائج تدبرات المؤلف الخاصة، هو أهم ما يميز هذا التفسير. إن الهدف الأساسي من هذه العملية هو توضيح وتبيين المحاور المهمة في الآيات، وخلق الجو المناسب لفهم آيات القرآن مع ملاحظة الترابط الوثيق فيما بينها من حيث المضمون. وفي الحقيقة فإن المفسِّر يقدم للقارئ الروح العامة المهيمنة على الآيات.

٣- تفسير الآيات

هذا القسم من التفسير الذي يأتي عادة تحت عنوان (بينات من الآيات) يشكل في الحقيقة قلب التفسير الذي يوضح المقصود من الآيات، ويأتي في كل التفسير تحت كل قسم من الآيات، كما أن كل قسم من الآيات يدخل تحت عنوان فرعي معين نظرًا للموضوع الذي يشكل محور الآيات.

ثم تشير الدراسة إلى المنهج الذي يتبعه السيد المرجع المدرسي (دام ظله)، من تفسير القرآن بالقرآن، والاستفادة من الروايات المناسبة، وإبطال الإسرائيليات التي تسلّلت إلى كتب التفسير. وحول الموضوع الأخير تقول الدراسة:

«من أخطر مشاكل كتابة التفسير هو وجود الإسرائيليات في المصادر التفسيرية، لاسيما تلك الأخبار المتعلقة بالأمم الغابرة، وقصص الأنبياء، وحكاية خلق السماء والأرض، وأيضاً خلق الإنسان.

وبنظرة عابرة إلى بعض التفاسير القديمة نلاحظ أنها قد سقطت في مستنقع الإسرائيليات،

وأن هناك الكثير من الحكايات التاريخية الإسرائيلية قد تسللت إليها، وفي التفاسير المعاصرة ليسنا لانجد أي أثر للإسرائيليات فحسب، بل إن أغلب المفسرين المعاصرين ختموا على هذه الإسرائيليات بختم البطلان وأشاروا على الباحثين في القرآن بعدم الوثوق بها، ومن جملة هذه التفاسير التي رفضت الإسرائيليات نستطيع أن نشير إلى تفسير (من هدى القرآن)، فقد اكتفى هذا التفسير في نقل الحكايات والقصص القرآنية بما يُستفاد من القرآن نفسه، ولم يركز اهتمامه على نقل التاريخ والقصص، وهو بذلك قد تجنب بشكل تلقائي نقل الروايات الإسرائيلية عند التعرض لقصص القرآن.

وإذا ما بادر المؤلف أحيانًا بنقل بعض الروايات الإسرائيلية الشائعة فإنه يقوم بنقدها ومناقشتها، من ذلك القصة الموضوعة حول النبي داود وزوجة (أوريا)، حيث يقول المؤلف بعد نقل القصة والرد عليها: «والأشكل في الأمر أن هذا الرأي (أي قصة داود وزوجة أوريا المكذوبة) تسرب إلى كثير من تفاسيرنا».

ثم تقول الدراسة:

إن أحد مميزات هذا التفسير هو اهتمامه بالجوانب الاجتماعية والتربوية للآيات، وقد تم تأليفه بأسلوب تحليلي تربوي مع التأكيد على القضايا الاجتماعية، كما يلاحظ المفسِّر الحاجات والتساؤلات العصرية ويطرحها بشكل يتناسب وتفسير الآيات.

ويعتقد المؤلف بإمكانية معالجة المشاكل الاجتماعية والحياتية على ضوء القرآن والتوصل تحت ظل القرآن إلى المجتمع المثالي المطلوب، وأن القرآن يستجيب لكل حاجات الإنسان ويقضي على كل العقبات التي تقف في طريق تقدم البشرية.

وفي الحقيقة فإن اتجاه التفسير هو نحو التوعية، وتحليل الآيات من زاوية تأثيراتها الإصلاحية في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية. من هنا فهو يقدم الكثير من البحوث فيما يرتبط بقضايا العصر في المجالات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأخلاقية، والنفسية و... وهو عندما يشرح ويفسر الآيات يشير إلى إحدى القضايا المعاصرة في المجالات المذكورة، وبذلك يربط بين القرآن وبين الحقائق الملموسة في حياة الإنسان.

وفي نهاية المطاف تقول الدراسة:

«لابد من الإشارة إلى أن إحدى ميزات هذا التفسير هو سهولة التعبير والابتعاد عن

التعقيد في الكتابة، ذلك لأنه لم يكن هدف المؤلف فهم الآيات فحسب، بل كان اهتمامه ينصب على تفهيم المخاطب ورضا القارئ لاسيما جيل الشباب».

بين يدي الطبعة الثانية

ما يزيد على عقد من السنين كان ثمة حاجة متزايدة وإلحاح على إعادة طباعة تفسير (من هدى القرآن) بعد نفاذ الطبعة الأولى. ولذا تقرر إيكال هذا الأمر إلى لجنة تقوم بالمراجعة والتنقيح والتحقيق، وكان لضخامة العمل وانشغال سماحة السيد المرجع (دام ظله)، خصوصًا مع التغيرات الحادثة في العراق وانتقال سماحته إلى أرض الوطن -كربلاء- الأثر في بطء إنجاز هذا العمل، إذ كان يتطلب مراجعة سماحته المستمرة من قبل اللجنة.

ولقد بذلت اللجنة جهوداً كبيرة في مراجعة التفسير مراجعة شاملة، وتنقيحه لغويًا وطباعيًا وأيضًا ملاحظة بعض النقاط التي أكد عليها سماحة السيد المؤلف (دام ظله) في المضمون والصياغة، وتوثيق الروايات المنقولة، وأيضاً إضافة بعض الروايات التي كان من الضروري إلحاقها بتفسير بعض الآيات..

كما قامت اللجنة بإعداد فهرس موضوعي للتفسير يعين الباحثين على الاستفادة الفضلى منه.

وتجدر الإشارة إلى أن اللجنة رفعت إلى سماحة السيد المرجع اقتراحين:

الأول: يتعلق بالتوسع في التفسير من خلال محاضرات سماحته التالية للتفسير، حيث إنه (دام ظله) لم ينقطع عن التفسير وما يزال.

الثاني: إضافة بعض البحوث في البحوث التمهيدية لإطلاع القارئ على بعضٍ من آراء سماحته المنهجية.

وقد تفضل سماحته (دام ظله)، في الثاني ببعض البحوث التي يجدها القارئ في المجلد الأول. في حين ارتأى سماحته في الأول عدم التوسع لأن التوسع سيغير التفسير عن هدفه

الأساس.

ونلفت النظر إلى أن القسم الفني في اللجنة اقترح جعل أجزاء التفسير في هذه الطبعة (١٢) مجلداً بدلا من (١٨) مجلداً في الطبعة الأولى، ومع إضافة مجلد الدليل تصبح (١٣)، وذلك جمعا بين سهولة اقتناء التفسير للقارئ الكريم، وبين الناحية الفنية. ومن هنا نستطيع القول: إن الطبعة الثانية تمتاز بالتنقيح والمراجعة، إضافة إلى كونها مزيدة.

اللجنة المشرفة

وقد تشرف مكتب سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) في الشام (السيدة زينب عليها السلام) برعاية هذا العمل الكبير، والذي نأمل أن يكون نافعًا للأمة.. ولإنجاز هذا العمل أُطلِقَت لجنة تهتم بهذا المشروع بإشراف سماحة الشيخ أمين المحفوظ، ترسم خطوات العمل وآلياته وتشرف على تنفيذه. وقد بذل العديد من الإخوة حفظهم الله جهدهم في إنجاز العمل، ومن المناسب أن نذكرهم بالثناء والتقدير:

١ - السيد مكي المأمون.

٢ - السيد محمود الموسوي.

٣ - الشيخ معتصم سيد أحمد.

٤ - الأستاذ طالب خان.

٥ - الأستاذ حسين كريمو.

٦ - الأستاذ علي ضميري

كما كان الإشراف العام تحت رعاية مكتب سماحته في طهران.

وختامًا؛ نسأل الله أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله مفيدًا ومضيفًا لمشروع التفسير ما ينفع الباحثين، إنه تعالى ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

مكتب سماحة المرجع الديني

آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

دمشق - السيدة زينب عليها السلام.

١٥/٨/١٤٢٨هـ.

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين.

لقد منّ الله سبحانه عليّ حيث وفقني للنظر في كتابه العزيز والتدبر في آياته الكريمة واستخراج الدرر المشعة من بحاره الواسعة.. واليوم بعد مرور سنين متطاولة على نشر الطبعة الأولى لموسوعة (من هدى القرآن) التي تضمنت تلك الدرر، وبعد أن تلقيت بفضل الله تعالى تشجيعًا عليها من قبل أولي البصائر والفكر المنير في الأمة، وبعد أن ترجمت وطبعت باللغة الفارسية، ونفذت الطبعة الأولى منها، بعد كل ذلك؛ قام أخوتي الأعزاء في المكتب مشكورين بإعادة النظر فيها، وتوثيق نصوصها وتصحيح أخطاءها المطبعية وايضا إصلاح بعض ما فيها من كلمات متشابهة، وقد قمت بمراجعة بعضها، واليوم حيث تتهيأ هذه النسخة للطباعة ينبغي أن أسجل الملاحظات التالية:

أولًا: إن جهد أخوتي الكرام في إعادة النظر في هذه الموسوعة يعد جهدً متميزًا، واسأل العلي القدير أن يتقبل منهم ذلك بقبول حسن ويسبغ عليهم به الجزاء الوافي.

ثانيًا: لأن النظر في كتاب الله المجيد عمل عظيم فإن احتمال وقوع أخطاء غير متعمدة في هذه الطبعة لا يزال قائمًا والمرجو من الإخوة القرّاء أن يتأملوا فيها ببصيرة نافذة ليتجاوزا تلك الأخطاء. ذلك لأن الكمال لله وعمل البشر أيًا كان لا يخلو من نقص.

ثالثًا: إني آمل أن أوفق وبالتعاون مع إخوة مؤمنين لتأليف موسوعة جديدة في هذا المضمار اضمنها تدبراتي الجديدة وتتميز بأمرين:

ألف: بالتوسع فيما أوجزناه سابقًا.

بساء: ببيان ما يتصل بالأوضاع المستجدة، فإن مثل القرآن مثل الشمس، وعلينا أن نستنطق آياته في كل واقعة حادثة.

والله سبحانه هو المستعان ونسأله أن يوفقنا للمزيد من خدمة كتابه، وأن يدخر ذلك عنده ليوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، إنه سميع بصير.

محمد تقي المدرسي

كربلاء المقدسة

١٨/ شوال/ ١٤٢٨هـ.

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين

وبعد:

قبل أكثر من ست سنوات حين عزمت على تسجيل تأملاتي التي استفدتها من القرآن، ت ما يلي:

أبتدئ في تفسير القرآن الحكيم، في بيت من بيوت الله، في يوم السبت الموافق ١/٤/١٣٩٨هـ ١١/٣/١٩٧٨م، في مدينة (الكويت). وعلى الله أتوكل في إتمامه.

واعتمدت فيه على منهج التدبر المباشر، انطلاقا مما بينته في (التمهيد) أي منهج الاستلهام مباشرة من الآيات والعودة إلى القرآن ذاته كلما قصرنا عن فهم بعض آياته وفق المنهج الذي علّمنا إياه الرسول الكريم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام حيث أمرونا بتفسير القرآن ببعضه.

وإني أحاول ربط الواقع الراهن بآيات الذكر. حيث إن ذلك هو الهدف من تفسير القرآن.

أوَلَيس مثل القرآن مثل الشمس تطلع كل نهار بإشراقة جديدة على عالم جديد.

ولا أدّعي أنني أبيّن هنا معاني كلام الله كاملا، بل إنما حاولت أن أسجل فقط تلك البصائر التي استفدتها شخصيًا عبر تدبري في القرآن.

ولا أنسى دور أخوتي -من تلاميذ درس التفسير الذي كنت أُلقيه- في بلورة رؤاي وأفكاري (والله الموفق وعليه التوكل).

هذا ما كتبته قبل أكثر من ستة أعوام، أما اليوم فقد أكملت التدبر في القرآن كله وسجلت

خلاصة الأفكار التي استلهمتها من التدبر في هذا التفسير، وذلك عبر مرحلتين:

ألف: من بداية القرآن وحتى سورة النحل كتبت التفسير بيدي، حيث كنت آوي إلى مسجد أو مقام هادئ، حاملا معي القرآن والقلم والقرطاس، وربما هموما كثيرة، مما تخص الأمة، فأجلس كالتلميذ أمام كتاب ربي وأقرأ مجموعة آيات، وأتدبر فيها، وإذا لم يسعدني ذكائي لفهم أبعاد آية كريمة سألت الله سبحانه أن يعينني على ذلك، ثم أسجل في البدء خلاصة الأفكار التي استوحيها منها، وبعدئذ أتدبر في آية آية وأسجل تأملاتي فيها بتفصيل أكثر.

وفي بعض الأحيان كانت الأفكار تتزاحم وأجدني عاجزا عن تسجيلها فأختار بعضها فقط ليتناسب مع المنهج الموجز الذي اخترته لهذا التفسير، بينما أنتفع بالبقية في أحاديثي العامة أو في سائر كتاباتي.

ولم أكن أكتب كل يوم أكثر من درس واحد:

أولًا: لأن مشاغلي كانت تمنعني من ذلك.

ثانيًا: لخوفي من أن تصبح تأملاتي هزيلة.

بـــاء: وبعد ثلاث سنوات شعرت بالحاجة إلى الإسراع في إتمام التفسير، وكنت أخشى ألا أوفّق لإكماله، فأخذت أسلوب إلقاء دروس في التفسير، تسجل على الشريط ثم تكتب وربما تعاد صياغتها بصورة تتناسب مع أدب التأليف، وهكذا وفقني الله سبحانه وتعالى لمتابعة التفسير عبر المحاضرات ابتداء من سورة النحل وحتى آخر القرآن.

وكانت فائدة ذلك مضافا إلى سرعة العمل، إيجاد مكتبة صوتية في تفسير القرآن، وهكذا كان حيث احتمل أكثر من خمسمائة شريط كاسيت تفسيرا موجزا لكل آي الذكر الحكيم وانتشرت في البلاد الإسلامية بفضل الله. ولعل القارئ يجد بعض المفارقات بين نصفي التفسير، حيث يعتمد النصف الأول منه على ضغط الكلمات، بينما يعتمد النصف الثاني على الشرح والتفصيل.

علما بأن أحد الإخوة كان يحمل معه مرة تفسير سورة الرعد، فنسيه في سيارة أجرة مما دعاني لتفسيرها مرة أخرى ولكن هذه المرة عبر المحاضرة، ولعل ذلك كان خيرا لي.

واليوم تم إعداد أربعة أجزاء للطبع هي التي تحتوي على سور الحمد والبقرة وآل عمران

(جزء) وسورتي النساء والمائدة (جزء) وسورتي الأنعام والأعراف (جزء) وسور الأنفال والتوبة ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل (جزء).

وفي الختام أسجل الملاحظات التالية:

أولًا: إن لآيات القرآن الحكيم أبعادا مختلفة، وحسب تعبير تراجمة الوحي وأئمة الهدى عليهم السلام أن له تخوما وبطونا تصل إلى السبعين، ويكاد لا يستطيع شخص مثلي أن يطلع على بعد واحد منها فكيف بسائرها؟! لذلك فحين أكتب معنى الآية فلا أدعي أنه كل معانيها وأبعادها، بل لا أدعي أنه بالتأكيد المعنى الأقرب، إنما أسجل فقط وفقط ما فهمته من الآيات، مع اعترافي بقصور فهمي. والواقع أن كل التفاسير القرآنية ليس إلا بيانا لبعض الموضوعات التي تصدق عليها الآيات كما تصدق على غيرها، وأن القرآن سيظل فوق التفاسير لا يحيط بكنه معانيه إلا الله، ومن ارتضاه الله لغيبه.

ثانيًا: كان منهجي في التفسير تدبراً للآيات قبل الرجوع إلى التفاسير التي نادرا ما كنت أرجع إليها، وذلك لأني كنت أخشى أن أضع بيني وبين القرآن حجابا من كلام البشر.

ثالثًا: بعد إتمام التفسير اقترحت على بعض الإخوة، استخراج معاني مفردات القرآن من تفسير مجمع البيان للعلامة الطبرسي، الذي أعتبره الأكمل من بين التفاسير المعتبرة، وقد فعلوا ذلك مشكورين، حيث وضعت تحت رسم القرآن تسهيلا للمراجعة، وإكمالا للفائدة.

رابعًا: إني مدين في إعداد التفسير للطباعة لإخوتي الأفاضل في مؤسسة دار الهدى، وإخوتي في مكتبي، والإخوة في دار البصائر، وأسأل الله أن يجزيهم عن القرآن الحكيم خير الجزاء.

خامسًا: أرجو من القراء الكرام أن يهدوا إليَّ عيوب كتابي ويبتغوا بذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى لأن ذلك يعتبر مساهمة في تقريب الناس إلى الذكر الحكيم.

سادسًا: اعتمدنا في كتابة القرآن على المصحف المعروف في العالم الإسلامي وبالذات في الدول العربية والمعتمد من قبل دور الفتوى ووزارات الأوقاف.

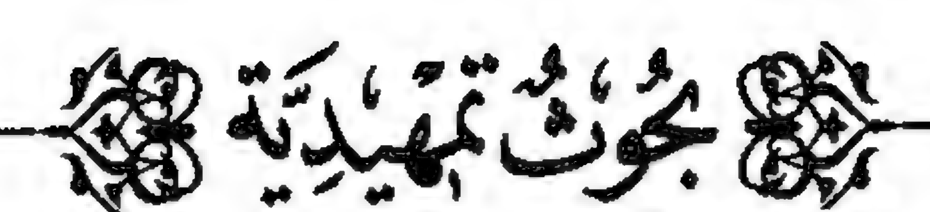
وأسأل الله سبحانه أن يجعل هذا الجهد القليل وسيلة لي إليه ويتقبله مني وينفعني به يوم

الجزاء الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم يجعل الولدان شيبا، وأن ينفع به أمتنا الإسلامية وبالذات المجاهدين منهم في سبيل الله، بحق محمد سيد النبيين وآله الهداة الميامين. وصلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما كثيرا..

محمد تقي المدرسي

١٣/ ١٢/ ١٤٠٥هـ

٣٠/ ٨/ ١٩٨٥م.



الفصل الأول : ما هو القرآن ولماذا ندعو إليه

الفصل الثاني : مسائل قرآنية

الفصل الثالث : منهج التدبر في القرآن

بحوث تمهيدية

قبل أن نبدأ تفسير القرآن الحكيم لابد من بحوث تمهيدية تتناول:

ألف: ما هو القرآن؟ ولماذا يعجز فهم البشر عن الإحاطة بأبعاد القرآن الحكيم.

وهكذا نبين المراد من القرآن كما ورد في آيات الذكر وفي السنة وأخيرا نبين لماذا ندعو إلى القرآن.

بـــاء: نذكر مجموعة بحوث قرآنية مقتبسة من كتابنا السابق بحوث في القرآن الحكيم وهي البحث عن القرآن والتفسير بالرأي، والقرآن بين التزكية والتعليم، والقرآن بين الظاهر والباطن، وبين المحكم والمتشابه، ومعنى الأحرف السبعة في القرآن وكيفية إثبات معاني القرآن.

جيم: كيفية التدبر في القرآن حيث نقتبس -مرة أخرى- من كتابنا (بحوث في القرآن الحكيم) منهجا موجزا في كيفية الاستلهام من القرآن، الذي يعتبر أساس تفسيري للذكر الكريم.

حيث يتناول موضوعا عن التدبر والصفات النفسية، ثم عن التدبر والصفات العقلية، ثم عن السياق ودوره في فهم القرآن، ثم عن كيفية ربط القرآن بالواقع، وكيف يمكن تطبيق القرآن، وأخيرا نبين موجزا لمنهج التدبر.

الفصل الأول:

ماهو القرآن ولماذا ندعوا إليه

* القرآن في آيات الذكر الحكيم.
* القرآن في السنة.
* حقيقة الكتاب الكريم.
* لماذا ندعو إلى القرآن؟.

القرآن في آيات الذكر الحكيم

قبل أن نبدأ تفسير القرآن الحكيم، لابد من بحوث تمهيدية، نتناول فيها كيفية التدبر في آيات القرآن الحكيم، وتلخص هذه المنهج الذي أتبعته في تفسير القرآن.

وقبل كل شيء نتساءل ما هو القرآن؟.

ولماذا يعجز فهم البشر عن الإحاطة بأبعاد القرآن الحكيم؟.

إن القرآن لم ينزل لجيل واحد أو لقرن معيَّن، بل هو كلام الله العظيم الذي يمتد مع الزمن من يوم أنشأه الله إلى يوم يرث الأرض ومن عليها، ويمتد مع البشرية من يوم نزل من السماء مكملا لرسالات الله وحتى يوم البعث، لذلك فإنه كتاب يسع الجميع ولا يسعه أحد.

ولأن البشر يتكامل فلابد أن يبقى القرآن أمامه دون أن يبلغه أدني تقدم حضاريٍّ أو توغل في آفاق المعرفة، وإذا عجز العقل البشري المحدود عن الإحاطة بأسرار القرآن جميعا، أفلا تعجز لغته عن صفة القرآن؟ بلى، إن القرآن حين يصف نفسه يفتح أمامنا آفاقا من المعرفة. إذا أوغلنا فيها فسوف نستطيع أن نعرف المزيد من خصائص القرآن ومن صفاته المثلى.

ولا يعني ذلك عجزنا عن معرفة أي شيء من القرآن، كلا، بل يعني ضرورة السير قدما في آفاق المعرفة القرآنية، دون أن نقف عند حد أو أن يصيبنا كلل.

إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يتعب منه قارئه. وكلما ازداد تلاوة له ازداد إليه شوقا، لماذا؟.

لأنه مع كل قراءة يجده طريًّا جديداً، ويجد فيه علما طارفا، وأفقا حديثا، بلى، قد يتعب

الإنسان في استيعاب المزيد من معارف القرآن، دون أن يمل القرآن عن العطاء، والعطاء بغزارة. كما السحب الخيرة المعطاءة، تفيض الأرض ببركاتها المستمرة دون أن تتوقف هي عن العطاء.

إذن علينا أن نبحر في محيط القرآن الواسع، الذي تتلاشى الشواطئ أمام أمواجه. ونتساءل بماذا نستعين إذن في فهم كتاب الله المجيد؟.

والجواب: بالقرآن ذاته، لأنه لم يترك بعدا في المعارف ألا وأوسعه هدى وبينات ومن أبرزها البعد المختص بمعرفة القرآن ذاته.

فما هو القرآن وكيف وصف القرآن نفسه؟.

أكثر من مائة آية تبين خصائص القرآن. وإذا أضفنا إليها عشرات الآيات التي تحدثنا عن الشؤون المختلفة للقرآن الحكيم، فإنها ستكون ذخيرة علمية غنية نحصل بالتدبر فيها على معرفة واسعة بالقرآن. وبما أننا قد فسرنا هذه الآيات ضمن تفسيرنا الشامل للقرآن، فسنكتفي في هذه البحوث التمهيدية بذكر مجموعة من هذه الآيات لنذكر بعدئذ بعض الأحاديث الشريفة، التي تعتبر بحق شرحا للآيات القرآنية لأنها تستلهم منها النور والبصائر. إذن كيف وصف القرآن نفسه؟.

القرآن نور، القرآن كتاب مبين، القرآن سلام، القرآن صراط مستقيم. هذه هي الصفات التي جاءت في الآية التالية: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وفي القرآن بصائر تعطي المؤمن قدرة على رؤية الحقائق مباشرة، ومن دون حجاب.

وفي القرآن هدى يبيّن الاتجاه السليم في الحياة.

وفي القرآن رحمة وفلاح لمن آمن به واتبع هداه.

هكذا جاء في الآية: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] ولابد أن يتفكر الناس، لكي يحصلوا على المعرفة من خلال أمثال القرآن، هكذا يقول القرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

---

(١) المائدة: ١٥-١٦.
(٢) الأعراف: ٢٠٣
(٣) الحشر: ٢١.

لقد عجزت كل الأقاويل التي حاولت تفسير ظاهرة القرآن، لأنه وحي من الله فلا هو بقول شاعر يسبح في غمرات أحلامه، ولا هو بقول كاهن يتخرص فيقول كلاما مجملا لا يعني من ورائه شيئا. هكذا يقول القرآن: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وجاء القرآن ليتدبر فيه الناس، شريطة أن يفكوا عن قلوبهم أقفالها ليروا الحقيقة مباشرة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2]. ومن يتدبر في القرآن يعرف أنه من الله، لأنه لا اختلاف فيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[3]. والقرآن موعظة يهز أعماق الضمير، والقرآن شفاء يطهر الصدور من الحقد والحسد والعقد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

والقرآن كتاب الله الذي أعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[5].

وفي القرآن من كل مثل عبرة، ومن كل سبيل منار، ومن كل علم درس، ولكل خير قدوة، ولكل معروف وسيلة. يعطي لكل حادثة مثلا سابقا، ولكل ظاهرة قانونا عاما، ولكل مشكلة طارفة حلا واقعيا تليدا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[6].

والقرآن آيات مبينات، القرآن مثل من واقع التأريخ الغابر للحاضر ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[7]. ولو أن القرآن أنزل على الجبال لخشعت، لان القرآن يذكر الإنسان بالله الذي يخشاه كل شيء ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[8].

---

(١) الحاقة: ٣٨-٤٢.
(٢) محمد: ٢٤.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) يونس: ٥٧.
(٥) الإسراء: ٨٨.
(٦) الإسراء: ٨٩.
(٧) النور: ٣٤.
(٨) الحشر: ٢١.

القرآن في السنة

لقد تحدثنا في الدرس الذي مضى عن وصف القرآن لنفسه في آيات الذكر الحكيم. وهانحن نتحدث لكم عن وصف الحديث للقرآن. ولا ريب أن الحديث يعتبر شرحا وافيا أو مقتضبا لآيات الذكر الحكيم.

جاء عن عبد الله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ حُرُمَاتٍ ثَلَاثاً لَيْسَ مِثْلَهُنَّ شَيْءٌ: كِتَابُهُ وَهُوَ حِكْمَتُهُ وَنُورُهُ، وَبَيْتُهُ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلنَّاسِ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ تَوَجُّهاً إِلَى غَيْرِهِ، وَعِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وآله»[1].

وجاء في حديث مسند ومروي عن النبي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ فَأَجَبْتُ وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِّي فِيهِمْ»[2].

في حديث مسند آخر عن الرسول صلى الله عليه وآله، قَالَ رَسُولُ اللهِ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ فِي دَارِ هُدْنَةٍ وَأَنْتُمْ عَلَى ظَهْرِ سَفَرٍ، وَالسَّيْرُ بِكُمْ سَرِيعٌ، وَقَدْ رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ؛ فَأَعِدُّوا الْجَهَازَ لِبُعْدِ الْمَجَازِ.

قَالَ: فَقَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا دَارُ الْهُدْنَةِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: دَارُ بَلَاغٍ وَانْقِطَاعٍ، فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ[3]. وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ، وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَحْصِيلٌ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، وَلَهُ ظَهْرٌ

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٤، ص١٨٥.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠ ص٣٦٩، وهو من الأحاديث المتواترة لدى المسلمين.

(٣) الماحل الذي يخبر السلطان عن رعيته سعاية (وشاية) فإذا أخبر القرآن ربنا المتعال عن عمل سيئ قام به أحد العباد فإن الرب سبحانه يصدقه.

وَبَطْنٌ، فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ، وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ، ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَهُ تُخُومٌ وَعَلَى تُخُومِهِ تُخُومٌ، لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ فِيهِ مَصَابِيحُ الْهُدَى، وَمَنَارُ الْحِكْمَةِ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْمَعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الصِّفَةَ»[1].

قال الإمام الرضا عليه السلام، عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام إن رجلاً سأل أبا عبدالله: «مَا بَالُ الْقُرْآنِ لَا يَزْدَادُ عَلَى النَّشْرِ وَالدَّرْسِ إِلَّا غَضَاضَةً؟[2]. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[3].

قال الرسول صلى الله عليه وآله: «فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ»[4] وقال: «الْقُرْآنُ غِنًى لَا غِنَى دُونَهُ وَلَا فَقْرَ بَعْدَهُ»[5]، وقال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ فَتَعَلَّمُوا مَأْدُبَتَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[6].

وقال الرسول صلى الله عليه وآله: «إِنْ أَرَدْتُمْ عَيْشَ السُّعَدَاءِ وَمَوْتَ الشُّهَدَاءِ وَالنَّجَاةَ يَوْمَ الحسرة وَالظِّلَّ يَوْمَ الْحَرُورِ وَالْهُدَى يَوْمَ الضَّلَالَةِ فَادْرُسُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ كَلَامُ الرَّحْمَنِ وَحِرْزٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَرُجْحَانٌ فِي الْمِيزَانِ»[7].

ووصف الإمام علي عليه السلام القرآن مرة فقال: «عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ وَالنُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ وَالرِّيُّ النَّاقِعُ وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ»[8].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَنْطِقُونَ بِهِ وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ»[9].

عَنِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَقُلْتُ: يَا

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٢.
(٢) حداثة وطراوة.
(٣) بحار الأنوار: ج٢ ص٢٨٠.
(٤) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٣٧.
(٥) وسائل الشيعة: ج٦، ص١٦٨.
(٦) وسائل الشيعة: ج٦، ص١٦٨.
(٧) بحار الأنوار ج٨٩، ص ١٧.
(٨) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٢٤١.
(٩) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٢٢.

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام! إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ سَمِعْنَا الَّذِي نَسُدُّ بِهِ دِينَنَا وَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ سَمِعْنَا أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً مَغْمُوسَةً لَا نَدْرِي مَا هِيَ. قَالَ عليه السلام: أَوَ قَدْ فَعَلُوهَا. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ :أَتَانِي جَبْرَئِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِكَ فِتْنَةٌ. قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ فَقَالَ: كِتَابُ اللهِ فِيهِ بَيَانُ مَا قَبْلَكُمْ مِنْ خَبَرٍ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ وَلِيَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَعَمِلَ بِغَيْرِهِ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ لَا تُزِيغُهُ الْأَهْوَاءُ وَلَا تُلْبِسُهُ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ...»[1].

هكذا تصف الأحاديث الشريفة المروية عن الرسول صلى الله عليه وآله، وعن الأئمة الهداة تصف القرآن الحكيم.

نرجو من الله أن يوفقنا لاستيعاب هذه النصوص الكريمة والتفاعل مع القرآن إنه ولي التوفيق وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

(١) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٢٤.

حقيقة الكتاب الكريم

الذي خلق الخلق بالحق، أنزل الكتاب بالحق، فالحق هو عنوان الكائنات، وهو محتوى الرسالات -والحق هو الغاية التي يسعى البشر نحو معرفتها، فإذا أحاط به علماً اطمأنت نفسه، وتحسس ببرد اليقين في وجدانه- قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[١].

ولأن الكتاب أنزل بالحق فهو يورث الهدى وينفي الشك، فهو -بالتالي- لا ريب فيه وأنه هدى (لمن توفرت فيه قابلية الهداية، وهي التقوى بشرائطها المعروفة من الإيمان بكل الحقائق والتسليم والصلاة والزكاة) قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

ومحتوى الكتاب شاهد عليه فمثلاً قصص الكتاب عبرة لأولي الألباب (فإذا اعتبروا بها اهتدوا، وإذا اهتدوا صدقوا بالكتاب، وعلموا أنه حق وليس بالهزل) ولا يمكن أن يكون افتراء، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

والرسول لا يتحمل مسؤولية كفر الناس بالكتاب أو جهلهم، لأنه حق مبين. فمن لم يؤمن به فهو محجوب عنه، وإنما الأعمى الذي لا يرى ضياءه، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[٤].

كتاب مبارك

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ ﴾[٥].

---

(١) البقرة: ١٧٦.
(٢) البقرة: ١-٢.
(٣) يوسف: ١١١.
(٤) الإسراء: ١٠٥.
(٥) دخان: ١-٣

والكتاب مبارك لأنه ينمي مواهب البشر العقلية ويزكيه ويفتح له آفاق الحياة ويزيده هدىً وفلاحًا، ومن آفاق بركة الكتاب أنه أنزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾(١).

وشهر رمضان ربيع القرآن، لأن فيه ليلة القدر، ليلة قال عنها ربنا عز وجل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي أن فيها تتنزل الملائكة تنزيلاً بالبركة على الإنسانية جميعاً، لأن فيها ولد القرآن؛ الكتاب ذو البركة والرحمة والعطاء والعناية الإلهية. ففي هذه الليلة يبارك الله للناس بالعطاء والرحمة أيضاً، وذلك لشرف القرآن الكريم.

كتاب النور

إن الإنسان ليبقى في ظلمات الغفلة والجهل والحميات، ظلمات بعضها فوق بعض، حتى ينزل الله على رسوله الكتاب ليخرج الناس من ظلمة الغفلة بالتذكرة (وإثارة عقله)، ومن ظلمة الجهل (بالتعليم)، ومن ظلمة الحمية (بالتزكية وإلزامهم كلمة التقوى)، وهناك يهتدي الناس السبيل إلى الله، حيث يتقربون بالأعمال الصالحة إلى ربهم، قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(٢).

وهكذا يصف الرب تعالى القرآن: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

والقرآن روح وجسد؛ وروح القرآن وغايته الهدى والنور والذكرى، وجسده الألفاظ والكتابات المدوّنة على أوراق المصحف أو الصوت الذي يردّده القارئ.

وجسد القرآن متاح للجميع، بمن فيهم من لا يؤمن بما أنزل الله بدءاً.

أما روح القرآن وضيائه وهداه وذكراه وما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام: «لقد تجلّى

(١) القدر: ١-٥.
(٢) ابراهيم: ١
(٣) المائدة: ١٥-١٦

اللهُ لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»[1]، فإنها تختلف تماماً، إذ لابد من سمو الروح -روح الإنسان- لكي تلتقي وتعي روح القرآن فالروح الإنسانية يلزمها التزود بالبصيرة ووسيلة الاكتشاف.

وكما النور لا ينفع إلا من له بصر، كذلك الكتاب لا يدركه إلاّ من له لُبّ. فإذا لم يكن للإنسان عقل سليم، فإنه يعجز عن درك معاني القرآن.

ثم القرآن حقيقته كتاب، والكتاب يعني الثابت، وللقرآن ثوابت واضحة ومبينة، تبين الحقائق وتكشف أصول الحياة العامة.

وغاية الكتاب: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ ﴾، لكن ينتفع به: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾، فيصل به ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ في الدنيا والآخرة.

القرآن تفصيل لكل شيء

خلق الله تبارك وتعالى الكون وجعل فيه سننًا وقوانين، فكان من طبيعة هذه السنن -وفق المشيئة الربانية- أن تتصل بأسماء الله الحسنى.

فقانون معاقبة الظالم والأخذ على يد الطغاة مرتبط باسم من أسمائه تعالى، وهو أنه قائم بالقسط، وأنه منتقم وجبار وعادل. أما قانون الإحسان إلى المحسنين. وأن الإنسان إذا ما عمل عملًا صالحًا فجزاؤه الإحسان، فإنه يرتبط ارتباطًا مباشرًا برحمة الله وهو الرحمن الرحيم. وهكذا باقي السنن الأخرى في الحياة، كلها تتصل بأسماء الله الحسنى.

فإذا عرف المخلوق خالقه، وعرف أسماءه الحسنى، استطاع أن يعرف من خلالها سنن الله في الطبيعة والحياة، بمعنى أن قوانين الله جميعًا تجري ضمن حكمة بالغة ، وأن الإنسان كلما استطاع تطبيق هذه الحكمة، استطاع أن يتجنب مزالق الحياة وأن يتجاوز عقباتها.

إن ربنا سبحانه وتعالى أودع كتابه المجيد معرفته، ومعرفة أسمائه، ومعرفة سننه، ومعرفة البصائر التي ينبغي أن يسير وفقها الإنسان في حياته. فكلما قرأنا القرآن بدقة وتدبّر، كلما استطعنا التعرف على الأصول العامة التي تسيّر الحياة.

لنلاحظ قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾[2]، حيث

---

(١) بحارالأنوار: ج٨٩، ص١٠٧.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

توضح الآية ضرورة أن تتسم العلاقة الزوجية بالتوازن. وتحت هذا القانون تنضوي جملة من الأحكام الجزئية الكفيلة بحفظ توازن العلاقة الزوجية، وضمان عدم تعرضها للمشاكل والمشاحنات التي غالباً ما تحدث عند الجهل بهذه القاعدة الذهبية المقدسة، أو في حالة عدم التسليم لها والعمل بها.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، وهذا نصٌ واضح يعكس أصلاً عاماً يقضي بقيمومة الرجل في المحيط العائلي. ومن هذه العبارة يفهم الفقيه المتمرس جملة من الأحكام.

إن كلمات القرآن كلها قواعد عامة، وبيان للسنن الحاكمة في الحياة. ولا يمكن معرفة الحياة دون معرفة السنن. ومعرفة السنن أمر متوقف على معرفة القرآن والتأمل بعقل رشيد في آياته الكريمة.

وهذا سر (خلود القرآن)، فهو يبقى مع الزمن ويتحرك أمامه، بينما الحياة تتطور، والناس يختلفون، والأجيال تخلّف أجيالاً.

فلا تجد في الكتاب الكريم آية، إلا وتجدها ثابتة دائمة. وحتى أن الحديث عن الأمم السابقة، تجده حديثاً عن التأريخ البشري الثابت وما فيه من عبر باقية وسنن إلهية جرت في الماضين وستجري في اللاحقين إلى يوم القيامة، لأنها سنن غير قابلة للتبديل أو التحويل.

وكما ثبات السنن، كذلك التشريعات القرآنية، فهي تشريعات ثابتة على الرغم من وجود التفاوت في تأويلاتها وتطبيقاتها.

فالسر الأساس في خلود القرآن واستمراره، أنه لا يزداد مع مرور الزمن وتبدل الأفراد والمجتمعات والحضارات إلا نضارة وتألقاً، وبهذه المعجزة القرآنية الخالدة يكون كتاب الله مهيمناً على الحياة كلها ومحيطاً بالدائرة الزمنية والمكانية.

كتاب مبين

والقرآن يتصف بالبيان، فهو كتاب علم وهدى، ولا تتم فائدته إلاّ بأن يكون بلسان مبين يعرب بوضوح عن الحق) قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

وهكذا كان الكتاب عربياً، حتى يعرب للناس عن الحقائق، والعربية لسان الذين بعث

(١) الزخرف: ١-٣

إليهم الرسول بالكتاب، فكان من المفروض التبيان لهم.

ومن تيسير القرآن بعث الرسول المعلم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، ومخاطبة العقل والفطرة. لذا كان (القرآن) تذكرة.

ومن تيسيره أن القرآن نزل بالعربية ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]. واختيار العربية دون بقية اللغات كلباس وقالب للوحي القرآني إما بمعنى أن نزوله كان بلغة العرب التي هي أوسع لغات العالم في بيان الحقائق وهي قادرة على تبيان دقائق المطالب بكل جمال ودقة في التعبير. وإما بمعنى فصاحته لأن أحد معاني كلمة (عربي) هو الفصيح، ويبدو أن كلا المعنيين في نطاق دلالة الآية. ونستكشف من ذلك إن إحياء اللغة العربية هو أحد سبل فهم القرآن[3].

وجملة القول؛ أنه مبين يعرب بوضوح عن الحقائق، وأنه مبارك ينمي مواهب البشر الروحية والجسمية وفي كل أفق، وأنه يصدق الكتب الإلهية السابقة، وأنه نور ينجي البشر من ظلمة كبره وغروره، ومن ظلمة غفلته ونسيانه، ومن ظلمة جهله وعناده، ويشفي غفلته بالتذكرة، وجهله بالتبصرة، وحميته بالتزكية.

كيف نتلقى الكتاب؟

الاستماع والتدبر

الاستماع إلى القرآن (لتلقي وحيه من دون حجاب أو إعراض أو الإيمان ببعضه والكفر بالبعض) إنه أحد أهم حقوق الكتاب علينا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]. ومن أبعاد الاستماع:

ألف: الإنصات والتوقير، فعن زرارة قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام يَقُولُ: **يَجِبُ الْإِنْصَاتُ لِلْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَإِذَا قُرِئَ عِنْدَكَ الْقُرْآنُ وَجَبَ عَلَيْكَ الْإِنْصَاتُ وَالِاسْتِمَاعُ**»[5].

---

(١) الدخان: ٨٥.

(٢) الزخرف: ٣.

(٣) ولعل العربية هي اللغة الأم التي تدل ألفاظها على المعاني دلالةً حقيقية.

(٤) الأعراف: ٢٠٤.

(٥) وسائل الشيعة: ج٦، ص٢١٥.

لا تتحدث عند تلاوة القرآن. بل أنصت له خاشعًا، واطرد عن قلبك وساوس الشيطان بالاستعاذة بالله، حتى لا يُحرف آيات الذكر في قلبك، ولا يلقي إليك أمانيه.

باء: الاستماع يستهدف التأمل فيه ودراسته، قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

ودراسة ما في الكتاب طريق معرفة بصائره وأحكامه والتدبر في آياته، واستنطاقه، والشهادة على بعضه بالبعض الآخر، وهكذا استحضار جملة الآيات عند تلاوة آية كريمة. فإن القرآن يصدق بعضه بعضًا.

فينبغي للمؤمن أن يكون حازمًا جديًّا عند تلاوة آيات الكتاب، بحيث يكون مستعدًا للتنازل عن كل أفكاره السابقة ومواقفه ومصالحه والتوجه إلى الله وحده بالقرآن وبما يأمره به أو ينهاه عنه.

تجنّب تحريف الكتاب وتبعيضه

ومن الناس من يحرف الكتاب، أما بتغييره تغييراً خاطئاً، وأما بكتابة شيء ليس من الكتاب ودسه في الكتاب افتراء على الله.

أما تحريف الكتاب عن مواضعه، (وتفسيره بغير ما أنزل، بل بالرأي وحسب الهوى) فإنه شائع، وقد لعن الله اليهود وجعل قلوبهم قاسية فحرفوا الكلم عن مواضعه، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾(٢).

ومثل هؤلاء الذين يتعمدون تحريف الكتاب (وتفسيره بغير الحق، أو تأويله في غير أصحابه) لا يطمع في إيمانهم.

قال الله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

ولعل من هؤلاء من يلوي لسانه بالكتاب ويحرفه (فيقرأه في غير موضعه -مثلًا- محاولًا

---

(١) الزمر: ١٨.
(٢) المائدة: ١٣.
(٣) البقرة: ٧٥.

تطبيقه على غير ما أنزل، أو يقرأ بعضه ويسكت عن بعض حسب هواه، أو يفسره بغير ظاهره اتباعًا لهوى نفسه أو ما أشبه..) -فمثلًا- يقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله، أو أنه حين يبعث الله رسولاً تتحقق به بشارة الأنبياء السابقين تراه لا يصدق به ولا ينصره مدعياً أنه غير المقصود في الزبر، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

أما أشدهم وقاحة فهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم ينسبونه إلى الله (ولعل منهم الذين يفتون الناس بأهوائهم ثم يزعمون أنهم يبيّنون حكم الله، كما ذكر العلامة الطبرسي في تفسير الآية) قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وتبعيض الكتاب وأخذه عضين، كان من أسوأ ما قام به أهل الكتاب الضالون (ولا يزال البعض يقوم به) قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

القيام بالقرآن

البداية هو العزم الأكيد بالأخذ بوحي السماء: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4]، وقال الله سبحانه مخاطبًا نبيه يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[5].

وسبيل الأخذ بعد العزم التدبر للأخذ بأحسن ما في الكتاب: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[6]، ولعله ما يخالف هوى النفس، ويوافق الظروف الموضوعية لكل مجتمع، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ

---

(١) آل عمران: ٧٨.
(٢) البقرة: ٧٩.
(٣) البقرة: ٨٥.
(٤) الأعراف: ١٧١.
(٥) مريم: ١٢.
(٦) الأعراف: ١٤٥.

﴿هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[(١)].

والقيام بأن يكون المؤمن حافظاً لكتاب الله (راعياً لحدوده) فهو أمانة الله بذمة أهله، وأن يكون شهيداً على تطبيقه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[(٢)]، ومن القيام الأخذ بمعارفه ومناهجه في:

ألف: في حقل التربية والتعليم، وفي حقل الثقافة والإعلام، وفي كل الحقول المعرفية.

باء: في تنظيم المجتمع على أساس التقوى، بعيداً عن التمييز (الطبقي، العنصري، الحزبي) وعلى أساس العمل الصالح والتواصي بالحق والتعاون على البر، وعلى أساس العدالة.

تاء: التطلع إلى بناء دولة الحق، لتحقيق ذات القيم الربانية في الأرض، مثل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ودفع الفتنة، ونصرة المستضعف.

الاستشفاء بالقرآن

كما في الأبدان كذلك في الأفئدة أمراض شتى، فالذاتية والاستئثار والحسد والضغينة والعصبية والجزع والبخل والجبن أمراض. والقرآن شفاء من كل الأمراض، والمؤمنون هم الذين يداوون به أنفسهم ويطهرون به قلوبهم وأفئدتهم، وكلما مروا بآية قرآنية استوعبوها واتخذوا منها دواءً وشفاءً، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٣)].

وكما في الفرد كذلك في المجتمع، القرآن شفاء لأمراضه، فوصاياه الأخلاقية شفاءٌ لأمراضه السلوكية، وأحكامه شفاء للطبقية والتفرقة العنصرية والظلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[(٤)].

---

(١) الزمر: ١٨.
(٢) المائدة: ٤٤.
(٣) الإسراء: ٨٢.
(٤) فصلت: ٤٤.

وهكذا يستشفي المؤمنون بالقرآن فيصبح لهم رحمة، أما الظالمون فإنهم لا ينتفعون بالقرآن ووصاياه وأحكامه فيكون لهم خسارة.

ومن هذه الآية نعرف أن على المجتمع وعلى الفرد أن يبحث عن حلول مشاكله في القرآن وشفاء أمراضه وأدوائه.

وهكذا ينبغي البحث في آيات القرآن عن دواء لأمراض القلب:

ألف: إذا تركتَ حقاً إلى باطل بسبب العصبيّة، فعليك أن تقرأ من آيات الذكر ما تروِّع به نفسك، وتعرف مصير الظالمين في الدنيا وعاقبتهم في الآخرة.

باء: وإذا ألهاكَ عن ذكر الله بيعٌ أو تجارةٌ، فتركتَ مسؤوليّتَك بركوبِ شهواتِ الدنيا، فاقرأ آيات الذكر التي تُخشِع القلب، وتُنبِّهه بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

جيم: وإذا ضَعُفَتْ هِمّتُكَ، وخارَتْ عزيمتُكَ، ولم تجد في نفسكَ الهمّة الكافية لتحدي الظلم والطغيان، فاقرأ مثلاً سورة هود، حيث تبيِّن استقامةَ الأنبياء عليهم السلام في مواجهة الضلالة.

لماذا ندعو إلى القرآن؟

في سياق حديثنا عن البحوث التمهيدية لتفسير القرآن الحكيم، نطرح السؤال التالي: لماذا ندعو إلى القرآن؟.

أول سؤال يطرح علينا هو السؤال عن السبب الذي ندعو من أجله للقرآن الحكيم، والواقع إن هناك عدة أسباب تفرض علينا العودة إلى القرآن والتدبر فيه، ونحن إذ نذكر بعضها بصورة مقتضبة لا نملك سوى الاعتراف بعجزنا عن الإحاطة بها جميعا.

أولًا: لكل منا رغباته المشروعة التي يتمنى أن يجد سبيلا مستقيما إليها، والقرآن الحكيم هو ذلك السبيل المستقيم المؤدي إلى مصالح كل شخص ورغباته المشروعة.

وليست أهمية القرآن وعظمته منحصرة في أنه يحقق للناس رغباتهم ومصالحهم المشروعة ويهديهم إلى سبل السلام المؤدية إلى مصالحهم، بل وأهم من ذلك، لأنه يرسي قواعد للشخصية المتكاملة التي تستطيع بلوغ مآربها المشروعة بسهولة بالغة.

ثانيًا: ومصالح الإنسان بدورها ليست سوى بعض تطلعاته الكبيرة، وأما بعضها الآخر فيمكن الحصول عليه في بحث الإنسان الدائم عن الحق والخير وسعيه المستمر لتحقيقهما.

إن الإنسان يبتغي إقرار دعائم الحق كما يريد الوصول إلى المصالح، وأهم ما يصبو إليه الإنسان هو التوفيق بين هدفيه هذين وهو تحقيق الحق، وبلوغ المصلحة.

والقرآن هو ذلك الحق الذي يبتغيه البشر ويسعى من أجل معرفته وتنفيذه، وهو إضافة إلى ذلك يهدي الإنسان إلى التوفيق بينه وبين المصالح الخاصة.

ونعود ونتساءل، من منا لا يريد أن يكون إنسانا طيبا يبتعد عن الجريمة والفحشاء، ويلتزم الطرق المستقيمة ويتحلى بالسلوك الممتازة؟

ولكن كم واحد منا يستطيع أن يفعل ذلك؟ طبعا القليل فقط يستطيع ذلك، لماذا؟

لأن ضرورات العيش لا تدع فرصة للفرد للتفكير في الخير والحق، ولكن القرآن يوفر هذه الفرصة، إذ إنه يهدي البشر إلى السبل القويمة للمصالح التي لا تتنافى مع الخير والحق، بل يتكامل معهما.

ثالثًا: نصطدم في حياتنا بعدة مشاكل فمن صديق ينقلب علينا ومن قريب يشاكسنا، ومن خسارة تفاجئنا، وقد تصل بنا المشاكل إلى حد الخروج عن محور الضبط، وبالتالي الانهيار في هاوية اليأس والضياع.

ولكن القرآن الحكيم يضع الحلول الحاسمة للمشاكل جميعا، بل وأكثر من ذلك يصنع الإنسان القادر على وضع الحلول المناسبة في الوقت المناسب.

هذا حول الإجابة عن السؤال التالي:

لماذا نحن أساسا ندعو إلى القرآن الحكيم؟.

ولكن الدعوة إلى القرآن شيء، والاستفادة منه شيء آخر. نحن بالإضافة إلى دعوتنا إلى القرآن، ندعو إلى التدبر فيه، لماذا؟ لأن التدبر في القرآن هو الطريق المستقيم إلى العمل به، ولا يعمل بالقرآن غير ذلك الذي يتدبر في آياته الكريمة فيفهم محتواه.

إن التدبر في القرآن يعطي للإنسان فرصة لفهم محتوى القرآن الحكيم، لأن الله سبحانه وتعالى أودع في كتابه الكريم نورا يهدي البشر إلى ربه العظيم فيؤمن به، وبعد الإيمان يطبق شرائعه.

من هنا ليس على الإنسان سوى أمر واحد هو الانفتاح على القرآن والاستعداد لفهمه له وهذا يكون بالتدبر فيه. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

إن القرآن ذاته نور، وليس علينا أمام النور إلا أن نفتح أعيننا، وأن نستقبل أمواج النور، وأن نرى بالنور كل الأشياء.

إن الكفار والفاسقين اختاروا لأنفسهم العمى فلم يفتحوا أعينهم على النور المبين،

(١) المائدة: ١٥-١٦.

وعملوا المستحيل في سبيل حجب النور الباهر عن التسرب إلى قلوبهم خوفا من إمكانية تأثرهم به وتنورهم بشعاعه الكبير.

لقد كان الكفار يتواصون بهذه المقولة التي نقلها القرآن الحكيم عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾[1].

إنهم كانوا يحذرون من النور ويتهربون منه. ولقد جاء أحدهم إلى الرسول يسأله عن قرآنه، فلما كلا النبي بعض آيات الكتاب ضعف الرجل وشد على فم الرسول ﷺ بيده قائلا: «أناشدك الله والرحم إلّا سكتَّ». ثم تولى إلى قومه قائلا أنه سحر يؤثر.

انه لم يستطع الصبر على تيار النور الذي كاد يلف قلبه لذلك أسكت النبي وتولى هاربا. إن المطلوب من الإنسان هو الانفتاح على القرآن واستماع آياته بتدبر وتجرد.

إذن سوف يجد المرء كيف تحدث المعجزة.

لقد حاول رجل مجرم[2] أن يتسلق جدارا لينهب المال ويغتصب النساء فسمع صوتا ينبعث من داخل البيت ويتلو هذه الآية الكريمة: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3].

فاستمع إلى الآية بضع ثوان ثم انفجر باكياً وقال: بلى آن، الوقت الذي يخشع قلبي القاسي لذكر الله، وما نزل من الحق، بلى آن فنزل عن الجدار وتولى بوجهه شطر المسجد واعتكف فيه إلى الأبد، إن تدبر هذا الرجل في آية واحدة حوله من مجرم متمرس بالجريمة إلى معتكف في

---

(١) فصلت: ٢٦.

(٢) كان في أول أمره شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تاليًا يتلو: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. فقال: يا رب قد آن، فرجع وأوى الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. فتاب الفضيل وآمنهم فصار من كبار السادات، قدم الكوفة وسمع الحدث بها، ثم انتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات في المحرم سنة ١٨٧ وقبره بها.

هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الفنديني الزاهد الصوفي المشهور أحد رجال الطريقة ولد بأبيورد من بلا خراسان وقيل: بسمرقند ونشأ بأبيورد من أصحاب الصادق عليه السلام ثقة عظيم المنزلة قيل: لكنه عامي. نقلًا عن بحار الأنوار: ٧٥، هامش: ٢٥٥.

قال النجاشي في رجاله (ص٣١٠): «الفضيل بن عياض: بصري، ثقة، عامي، روى عن أبي عبد الله عليه السلام...». وعده الشيخ في رجاله (ص٢٦٩): من أصحاب الصادق عليه السلام؛ قائلا: «الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي الزاهد الكوفي».

(٣) الحديد: ١٦.

محراب العبادة، فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن أفلا يتحول من رجل إلى مَلكَ؟ بل وإلى من هو فوق درجات المَلَكَ.

نرجو من الله أن يجعلنا من الذين يتدبرون في القرآن، وفي آياته الكريمة ويحصلون منها على النور المبين إنه ولي التوفيق.

الفصل الثاني:



- ضرورة التدبر في القرآن.
- القرآن والتفسير بالرأي.
- القرآن الحكيم والتذكرة.
- القرآن بين التزكية والتعليم.
- القرآن الحكيم بين الظاهر والباطن.
- القرآن الحكيم بين المحكم والمتشابه.
- القرآن الحكيم والأحرف السبعة.
- القرآن الحكيم وبناء الحكمة.

ضرورة التدبر في القرآن

هذه هي فوائد القرآن. وهي بالذات الأسباب التي تدعونا إلى التدبر فيه. لأن القرآن لا يفيد إلا من عمل به.. ولا يعمل به سوى الذي يتدبر فيه فيفهم.

بل إن التدبر في القرآن هو الوسيلة الوحيدة للعمل به. إذ إن الله تعالى أودع كتابه الكريم نورا يهدي البشر إلى ربه العظيم -فيؤمن به- وبعد الإيمان يطبق شرائعه، من هنا ليس على الإنسان سوى أمر واحد هو الانفتاح على القرآن. والاستعداد لفهمه. وهذا يكون بالتدبر فيه.

يقول الله سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

إن القرآن ذاته نور، وليس علينا أمام النور إلا أن نفتح أبصارنا لنراه، ونرى به الأشياء جميعا.

و التدبر في القرآن. لا يعني تحميل آياته الكريمة، آراء وأفكارا إضافية، كلا. بل التسليم لعلوم القرآن والتأمل في معاني آياته وتبصر الحياة عبرها، والسعي نحو فهم حقائق الطبيعة، وآفاق النفس بها.

وهنا يكمن الفرق بين تفسير القرآن بالرأي الذي نهى عنه الدين أشد النهي والتدبر في القرآن الذي أكد عليه الدين أشد تأكيد.

وقد اختلط على البعض هذان الأمران. فحجب عن نفسه نور الفرقان زاعما أنه فوق مستواه.

بلى، إن البشر لا يرقى إلى مستوى القرآن، ولكن شعاعه كما الشمس لا تزال تشرق على العيون البصيرة. فمن احتجب عنه باتباع هوى، أو تفسير برأي، فقد ضل عنه. ومن سلم له، وفرغ قلبه من كل فكرة سابقة حين يقرؤه، فإن الله يهديه سواء السبيل.

---

(١) المائدة: ١٥-١٦.

يقول العلامة الطبرسي وهو يشرح الفرق بين التفسير بالرأي والتدبر في الذكر: «واعلم أن الخبر قد صح عن النبي ﷺ وعن الأئمة القائمين مقامه عليهم السلام أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح، والنص الصريح، وروت العامة أيضا عن النبي ﷺ أنه قال: من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ، قالوا وكره جماعة من التابعين القول في القرآن بالرأي كسعيد بن المسيب، وعبيدة السلماني، ونافع، وسالم بن عبد الله، وغيرهم، والقول في ذلك أن الله سبحانه ندب إلى الاستنباط، وأوضح السبيل إليه، ومدح أقواما عليه فقال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]، وذم آخرين على ترك تدبره والإضراب عن التفكر فيه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2]، وذكر أن القرآن منزل بلسان العرب فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[3].

وقال النبي ﷺ: «إِذَا جَاءَكُمْ عَنِّي حَدِيثٌ فَاعْرِضُوهُ عَلَى كِتَابِ الله فَمَا وَافَقَهُ فَاقْبَلُوهُ وَمَا خَالَفَهُ فَاضْرِبُوا بِهِ عَرْضَ الحَائِطِ» فبين أن الكتاب حجة ومعروض عليه وكيف يمكن العرض عليه وهو غير مفهوم المعنى فهذا وأمثاله يدل على إن الخبر متروك الظاهر فيكون معناه إن صح أن من حمل القرآن على رأيه ولم يعمل بشواهد ألفاظه فأصاب الحق فقد أخطأ الدليل.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «القُرْآنُ ذَلُولٌ ذُو وُجُوهٍ فَاحْمِلُوهُ عَلَى أَحْسَنِ الوُجُوهِ»[4].
وروي عن عبد الله بن عباس أنه قسم وجوه التفسير على أربعة أقسام:

- تفسير لا يعذر أحد بجهالته.
- تفسير تعرفه العرب بكلامها.
- تفسير يعلمه العلماء.
- تفسير لا يعرفه إلا الله عز وجل؛

فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن وجمل دلائل التوحيد، وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم، وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام، وأما الذي لا يعلمه إلا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة»[5].

---

(١) النساء: ٨٣.
(٢) محمد: ٢٤.
(٣) الزخرف: ٣.
(٤) عوالي اللآلي، ج٤، ص١٠٤.
(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٢.

القرآن والتفسير بالرأي

يزعم فريق من المسلمين أن التدبر في القرآن غير مسموح به إلا للذي أوتي نصيبا كبيرا من العلم. ويستندون -في زعمهم هذا- إلى بعض الروايات المأثورة التي نهت الناس عن تفسير القرآن بالرأي.

ولكن هذا الزعم غير منطقي أبدا. إذ إن الله كان أعلم بكتابه، وبخلقه حيث أمرهم بالتدبر في آيات القرآن. بل حيث خاطب بالقرآن كل إنسان وفي كل أرض وفي كل عصر. يقول الله سبحانه في كتابه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وهل يمكن أن يبعث الله بيانا للناس جميعا، ثم ينهاهم عن تفهمه له، أو التدبر فيه، إذن فما فائدة البيان؟.

إن خطابات القرآن تهتف بالناس كافة وتقول يا أيها الناس، أو بالمؤمنين جميعا وتقول: يا أيها الذين آمنوا، وهذا يعني أن الله يريدهم أن يسمعوا كلامه، ويتفهموه. فهل نستطيع أن نزعم أنه لا يجوز التدبر فيه؟.

ولا يمكن أن نقول: إن الروايات تنهى عن التدبر الذي أمر به الله. بل الأكثر منطقية القول بأن الروايات نهت عن شيء، والآية أمرت بشيء آخر، أو أن الروايات بينت حدود التدبر التي لا يجوز تجاوزها عنها.

فأي شيء نهت عنه الروايات؟.

الواقع أن على الإنسان أن يتبع الحق الذي يعرفه ويدع الذي لا يعرفه، إن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ١٣٨.
(٢) الأسراء: ٣٦.

وكذلك لا يجوز على للإنسان -في شريعة الإسلام- أن يقول شيئا لا يعلم به. قال الله سبحانه: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١). وقد اعتبر القرآن القول بغير علم كبيرة يعظمها الله ويستحقرها العباد، فقال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(٢).

ومن هنا لا يجوز أن ننسب فكرة أو عملا لأحد، ما لم نتأكد يقينا انتسابها إليه. كذلك لا يجوز تفسير كلام أي فرد إلا بعد التأكد من إرادته فعلا لما نفسره، وإلا اعتبر ذلك نوعا من التحريف في كلامه وضربا من التهمة.

وتشتد خطورة الأمر بالنسبة إلى الله العظيم، فأي قول ينسب إليه يجب أن نتأكد بالعلم اليقين انه قاله وآلا كنا قد افترينا على الله كذبا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾(٣). وكذلك أي تفسير لكلام الله المجيد لا نعلم يقينا مطابقته للواقع يعد نوعا من الافتراء على الله؛ لأنه يعتبر ضربا من نسبة القول إليه دون التأكد من ذلك.

وكان في الأمة الإسلامية -ولم يزل- فريق يريدون أن يستغلوا الدين لمصالحهم الشخصية، أو يستخدموه لإثبات أهوائهم المضلة، وهكذا يبدؤون بتفسير الآيات القرآنية حسب آرائهم الخاصة. إن هؤلاء يريدون أن يجعلوا كتاب الله تابعا لأفكارهم فيحملونه ما لا يحتمل.

وقد أراد الإسلام تطويق هذا الفريق، فجاء في الكتاب: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٤).

هكذا وضح القرآن نوايا هذا الفريق الفاسد ونهى -بشكل قاطع- عن تأويل القرآن للوصول إلى الأغراض الفاسدة.

وجاءت الروايات تنهى عما نهت عنه الآية أيضا، ولكن بتعبير آخر وهو (التفسير بالرأي)، والذي يعني القول حسب الهوى الشخصي، وهو يقابل التفسير وفق الحق والواقع،

---

(١) البقرة: ١٦٩.

(٢) النور: ١٥.

(٣) النحل: ١١٦

(٤) آل عمران: ٧ (سنتناول- بإذن الله - موضوع المحكم والمتشابه في بعض الصفحات القادمة).

بالرغم من أن القول بالرأي -بصفة عامة أو تفسير أي كلام منسوب إلى أحد حسب الرأي- هو الآخر محرم؛ فإن كل ذلك بالنسبة إلى كلام الله الحكيم يعتبر أشد حرمة، لذلك خصت الروايات هذا الأمر بالذكر، وهو (أي تخصيص الروايات للذكر بشدة التحريم) غير خارج عن القواعد العامة. وإليك بعض تلك الروايات:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ إِنْ أَصَابَ لَمْ يُؤْجَرْ، وَإِنْ أَخْطَأَ خَرَّ أَبْعَدَ مِنَ السَّمَاءِ»[1].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ الْحَقَّ فَقَدْ أَخْطَأَ»[2].

وروي عنه صلى الله عليه وآله أيضا أنه قال: «مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[3].

إذا فهناك حقيقة لا ريب فيها هي أن القول بالرأي -خصوصا في تفسير القرآن الحكيم- حرام أشد ما تكون الحرمة.

ولكن لا يرتبط ذلك بالتدبر في القرآن، إذ التدبر هو: التفكير المركز في الآية لمعرفة الحقيقة التي تذكّر بها معرفة تعيينية.

فالتدبر: إنما هو لتحصيل العلم بالقرآن، حتى لا يقول الإنسان برأيه في تفسير القرآن وإنما بالعلم.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٢٠٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٢٠٥.
(٣) عوالي اللآلي: ج٤ ص١٠٤.

القرآن الحكيم والتذكرة

كلام الله المنزل هو خطاب إلهي لهذا الإنسان المخلوق الكريم، وبهدف تحقيق الرحمة والخير له في الدنيا تماما كما في الدار الآخرة.

والخطاب مع الإنسان هو حديث مع عقله، فما هو العقل؟. وكيف نستدل عليه ونهتدي به.

نقول في الجواب:

النور يكشف ذاته بذاته؛ كذلك العقل يهدي إلى ذاته بنفسه، وهل يبصر أحدنا عينه بغير عينه؟.كذلك العقل يكشف ذاته بذاته، ولا يحتاج أحدنا لكي يعرفه إلاّ أن يتذكر به، فهو كالمصباح الذي رانت عليه الأوساخ فإنّه يكفيك أنْ تنظّفه لتراه ثم ترى الأشياء به!.

وغفلة الإنسان عن العقل هي المسؤولة -أساساً- عن ضلاله وجهله، فهو آنئذٍ- يكون كمن سدّ نافذته عن ضياء الشمس، أو سدَّ عينه عنه، أفيرى شيئاً؟!.

وهكذا تكون معرفة العقل والثقة به مفتاح المعارف، لأنّ مَنْ يشكّ في عقله يغفل عنه، ويهمل الانتفاع به. وفي حديث مأثور: «اعْرِفُوا الْعَقْلَ وَجُنْدَهُ وَالْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا»[1].

وهكذا كان الوحي إثارة للعقل وتذكرة به، وبيان لكيفية خلقه وأنه قد خلقه الله من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ عنده، فأكرمه وحَمّله المسؤولية حين قال له: «وَبِكَ أُثِيبُ وَبِكَ أُعَاقِبُ»[2].

وهكذا من خلال التنبُّه الذاتي ومراجعة أنفسنا: كيف عرفنا الحقائق الأولية؟ وكيف نوقن بها ونستريح إليها بلا أيّ ريبٍ أو تردد؟ من خلال ذلك يتجلّى لنا نور العقل من داخل أنفسنا.

(١) الكافي: ج١، ص ٢٠.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص ٣٦٨.

بين العلم والتذكرة

لقد إستخدمت في الأدب القرآني كلمة (التذكّر)، إنطلاقا من الحقيقة التالية: أنَّ الله قد أودع في الإنسان العقل، وجعله وعاءً لأصول العلم ومعدناً لركائز المعرفة، فلا يحتاج الأنسان بالنسبة إليها إلى ما سوى التذكرة بها والتنبيه إليها.

فالتذكرة هي بلورة معادن العلم التي أودعها الله في الإنسان، وبتعبير أفضل: هي بلورة واستثارة العقل الذي يهدي به اللـه من يشاء إلى صراط مستقيم.

فالتذكرة تقوم بدور تفعيل المعلومات الكامنة واستثارة دفائنها تمهيداً لاستنباط حقائق أخرى منها ومن دون تكلّف.

سبل التذكّر

وهكذا تتكامل عناصر المعرفة عند البشر بالتذكُّرة بها، أما آيات الذكر الحكيم فإنّها تأتي لتوقظ عقل الإنسان وتذكُّره بالحقائق التي غفل عنها، ولعل الوسيلة المثلى هناك الأمثال وهي الحقائق الواضحة التي ينبّه القرآنُ البشرَ إليها، مثلًا: التمايز بين الأعمى والبصير، وبين الأصم والسميع، كما التمايز بين الضال والمهتدي. وكل حقيقة لابد أنْ يتنبه إليها الإنسان بمجرد التذكرة بها، يقول اللـه تعالى عن ذلك: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

ومن أجل أن يتحقق التذكّر عند الإنسان بالرسل، فإنَّ الله تعالى يَسَّرَ القران بلسان النبي ﷺ تيسيرًا، وأعرب عنه إعرابًا وأوضحه للناس بيانًا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وهكذا كانت آيات الله في الكتاب، والتي تثير قلب البشر وتهديه إلى آيات الله في الكائنات، هي وسائل تذكرة البشر.

وهكذا ينبّه القرآن البشر بما ذرء الله في الأرض، واختلاف ألوانه، وأنّ له ما في السماوات والأرض فهو الحاكم فيهما، وأنّه قَدَّر الموت بين البشر، وأنّه قادر على أنْ يبدّل أمثالهم، وأنّه وسع كل شيءٍ علمًا، وأنّه لا شفيع إلا مِنْ بعد إذنه، فلابد أنْ تخلص العبادة له، وأنّه لا يجير منه

---

(١) هود: ٢٤.

(٢) الدخان: ٥٨.

أحد، وأنّه الهادي لا هادي سواه، كل تلك الإثارات تترى في القرآن تذكرة للبشر.

وصفوة القول؛ إنَّ الهدف من تصريف الأمثلة في القران ، إنّما هو التذكرة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[1].

والتصريف يأتي بمعنى التفريق والتفصيل في الآيات وقراءتها على مكث. ولعل أحد معاني التصريف هو بيان المَثَل الحَسَن مقابل الأمثال التي يضربها الناس، فكلما ضرب الناس مثلاً أو أشاعوا قيمةً وثقافةً، بيّن الله المَثَل الأَحْسَنَ في تلك الموضوعة التي يبين الناس فيها أمثالهم. وقد قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2].

آفاق التذكرة

وأصل كل الحقائق هي تلك الحقيقة الكبرى؛ حقيقة الألوهية وخالقية الله تعالى لهذا العالم، وأنَّ بيده ملكوت السماوات والأرض، هذه الحقيقة يعرفها الإنسان بأدنى تذكرة، وهي أول كل علم. يقول الله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3].

وتفيض من هذه الحقيقة شلاّلات المعرفة فالمعارف الإلهية ينبوع أصول الشريعة، وهي مُودَعةٌ في فطرة البشر أو عقله، فمن عرف الله بأسمائه الحسنى عرف سنن الله ووصاياه، وبالتالي عرف تلك الأصول وأنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وألاّ يقرب أحد مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن، كما يأمر بالقسط في المكيال والميزان، والعدل في القول، والوفاء بالعهد، وهكذا سائر بصائر الكتاب وآياته وبيِّناته.

والقرآن الكريم يذكِّرنا بتلك القيم ويهدينا إلى ضرورة الارتفاع إلى مستوى وعيها والتذكرة بها، لكي يفقه كل إنسان أبعاد تلك القيم، ولا يتّبعها تقليدا للآخرين، وإنّما بوعي منه واستيعاب لحقائقها. يقول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

---

(١) الإسراء: ٤١.

(٢) الفرقان: ٣٣.

(٣) المؤمنون: ٨٤-٨٥.

(٤) النحل: ٩٠.

إنَّ هذه القيم الفاضلة إنطوت عليها فطرة كل بشر، كما أنَّ إنكار الفحشاء والبغي من فطرة البشر أيضا، والى ذلك تشير الآية الكريمة الأخرى، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

هذه الآية الكريمة توحي بأن هذه القيم؛ الوفاء بالكيل والميزان بالقسط، والقول بالعدل، والوفاء بالعهد، تلكم وصايا الله تعالى التي لابد أنْ يتذكَّرها الإنسان وتتبلور فطرته بها حتى يعمل بها بصورة عفوية وانبعاثا من فطرته ومن داخل نفسه.

شروط التذكرة

وبالرغم من أنَّ التذكرة أبسط مرحلة من مراحل المعرفة، وإنها -كما هو معروف- تعني الانتباه وإثارة المعارف الكامنة في فطرة البشر، إلا أنَّ الكثير من الناس يعرضون عن التذكرة بسبب مواقف سابقة لديهم، -وبالتالي- ليس كل من ذُكِّر يتذكر، وإنما فقط من أراد ان يتذكر هو الذي يمكن أنْ يتذكر، فأهم شرط من شروط التذكرة عقد عزمات القلب عليها.

ومن شروط التذكرة؛ التقوى، والخشية، وأن تكون لمن أرادها أذن واعية.

ومن هنا، فإنّ الداعي إلى الله ثمَّ إلى الحق إنما يختار لدعوته الذين يجد لديهم أرضية طيبة لكلمته، ويترك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرَّتهم الحياة الدنيا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[2].

التذكرة وتعقل الوحي

إنّ سجال الفلسفة البشرية في الجدل حول (النقل والعقل) والعلاقة بينهما ما زال يصطنع المذاهب. وإذا كنا ننحى بعيدًا عن تطرّف النقل أو العقل بحسب ما درجت عليه عبارات البشر، فإنّ المعضلة الحقيقية تكمن عند اولئك في القدرة للوصول إلى معادلة التوازن

---

(١) الأنعام: ١٥٢.

(٢) الأنعام: ٧٠.

والتكامل والانسجام بينهما، اليسا هما كلًا من لدن الله العليم الحكيم؟.

وإنّما التذكرة تُعتبر من مفاتيح فهم هذه المعادلة التي تحقق التوازن بين العقل والوحي. وتوضيحا نقول:

أولاً: دعنا نتجاوز الدوران حول الألفاظ التي اصطُلِح عليها في الثقافات البشرية التي لانعتقد أبداً أنّها العقل وإنما هي أفكار عرضة للصواب والخطأ بحسب موازين علم المناهج، بل المناهج البشرية التي تُسمّى بـ(العقلائية، العلمية) هي كذلك ليست العقل وإنما هي مكتسبات العقل مُضافةً إلى الخبرة المعرفية البشرية بما فيها من نسبة الخطأ.

بينما الوحي منهج (موثوق، معصوم) عقلائي من مناهج المعرفة. والعقل مهيمن على المناهج برمّتها. فالتقابل إنّما هو بين مصادر المعرفة وليس بين الوحي والعقل كما يحلو لدعاة التجديد أن يتصوروها. من هنا نعرف إن سر أرجحية الوحي إنما هو بسبب مصدره (الإلهي) المعصوم، وقد تَقلّ درجة الاعتماد عليها بسبب توسط المناهج البشرية بيننا وبينه في مثل خبر الثقة، فهناك يكون المعيار هو المناهج العقلية الأقرب إلى الصواب.

ثانيًا: هناك فرق بين دورين لمصادر الوحي: دور التعليم ودور التذكرة، فبينما يكون دور التعليم معتمداً على التسليم المطلق حيث أن الوحي نازل من لدن العليم الحكيم، يكون دور التذكرة هو إستثارة العقل ثم التسليم لما ينتهي إليه التفكّر السليم.

لذا فإنّ التذكرة تعتمد على إستنطاق العقل واستثارته تنبيها له لحقائق يجدها في كيانه ويقر بها وجدانًا، ويتأكد دور التذكرة في مرحلة الاحتجاج والحوار والتعريف بهذا الدين في أصوله ومعارفه الاعتقادية والأخلاقية حيث يؤمن الإنسان من خلال انفتاح عقله على الحقائق وإذعانه بها.

وهذا هو دور التذكرة في مجال فهم القرآن حيث أن (التذكّر) وسيلة مثلى لعبور العقل من الآيات القرآنية إلى بصائرها وحقائقها الموجودة في باطنه وفي آيات الطبيعة المحيطة به. وحين تكون الآيات جسرا للعقل للنفاذ للحقائق فلن يقف عند ظاهرها، وإنما ينفذ إلى غورها البعيد.

ثالثًا: لا ريب في حجية العقل، ولا ريب في أن الوحي والعقل صنوان، كما إن (التذكّر) عنوان إستنطاق العقل بالوحي، إلا أنَّ المعوّل على ما يريد القرآن إيصاله من حقائق للبشر. أما الثقافات البشرية فهي مخلوطة حيث تتراكم الحجب بين العقول وبين الوحي، وهكذا ترى

الكثير من الناس يجعلون ثقافاتهم محل عقولهم، وهكذا تراهم يختلفون فيما بينهم، بينما العقل واحد عندهم جميعاً.

فالعقل بما حباه الله من (قدرة الفهم) يُسلّط نوره على النص ليفهمه كما هو بقطع النظر عن معتقدات الإنسان، فثمة فارق بين أن يفهم الإنسان وبين أن يقبل (الحكم) بما فهمه من النص تسليماً وكلاهما حَسَن.

نعم العقل الفطري وما يمتلكه من موازين واضحة (بديهية) يشكل حائلا دون الفهم المعوج للوحي. أليس الوحي والعقل هما من منبع واحد؟ كما أن الموازين الحق تحول دون تحريف الوحي حسب الهوى كما وتكون أبدًا حجة الله البالغة على الذين يتركون المحكمات ويتبعون المتشابهات إبتغاء الفتنة. والله العالم وهو المستعان.

القرآن بين التزكية والتعليم

للقرآن الحكيم هدفان أساسيان لو عرفناهما عرفنا بعض الجوانب الغامضة منه، وهما تزكية الناس وتعليمهم، لقد أشار الكتاب إلى هدفيه هذين في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] فالآيات القرآنية التي تتلى على الأميين تهدف تزكيتهم ثم تعليمهم الكتاب والحكمة.

فما هو الفرق بين (التزكية) و(التعليم)؟ وكيف يجمع القرآن بينهما مرة واحدة؟.

١- التزكية: هي تنظيف النفس البشرية من رواسبها الجاهلية سواء كانت من نوع الأفكار الباطلة، أو المعتقدات الفاسدة، أو الأخلاق السيئة.

التزكية هي تربية الإنسان المتكامل الذي يفجر طاقاته العقلية والجسدية جميعا باتجاه الخير والحق.

وكلمة التزكية مشتقة من الزكاة وهي الطهارة. وأساس التزكية تقوية الإرادة البشرية، وتحكيم حس التحرر من الأهواء والشهوات. تحكيمه في سلوكه. ولا تهدف التزكية أكثر من تطهير البشر وتنظيفه.

بينما التعليم يهدف إلى إضافة المعارف الجديدة للإنسان، لدفع عجلة البشر إلى الأمام. وهو يعتمد على طاقة العقل الكامنة فيه.

فالعلاقة بين التزكية والتعليم تشبه إلى حد بعيد العلاقة بين تنظيف ماكنة السيارة وبين وضع الوقود فيها. إذ التنظيف يغسل المواد الضارة والوقود يضيف مواد جديدة.

فوقود الإنسانية في مسيرتها الحضارية العلم. ولكن هذا الوقود لا ينفع دون تنظيف

(١) الجمعة: ٢.

ماكنة الإنسان من الأخلاق الفاسدة والأفكار الباطلة.

من هنا تكمل عملية التزكية عملية التعليم وتأتي الواحدة تتمة للأخرى.

٢- أما كيف يجمع القرآن بين التزكية والتعليم؟ فهذا يجب أن نبحث فيه عبر عدة نقاط:

الأولى: إن القرآن الحكيم يوجه الناس إلى الحق، بالحق ذاته، فلا يجعل الباطل وسيلة لدعوة الناس إلى الحق شأن سائر الكتب التربوية التي قليلا ما تنظر إلى الوسيلة التي تحقق الهدف التربوي، من هنا يبين القرآن الحكيم السنن الكونية والقوانين الفطرية التي تحكم الحياة وتوجه الناس إلى معرفتها لكي يزكوا أنفسهم بمعرفتها.

وتوجيه القرآن نحو هذه السنن والقوانين يهدف إلى أمرين:

الأول: هداية الناس إلى طريق صلاحهم الذي لا يعدو أن يكون التوفيق بين حياتهم وبين متطلبات السنن العامة.

الثاني: تعليم الناس تلك السنن. ومن الطبيعي أن يختفي الهدف الثاني من ظاهر القرآن، إذ إن سياق الكتاب يسير باتجاه التزكية مما ينبئ عن أنها الهدف الوحيد الذي ينشده القرآن، ولكن بالرغم من ذلك فإن نظرة فاحصة تهدينا إلى البيانات العلمية التي تنطوي عليها الآيات. فمثلا في سورة الرعد نجد الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] إنها حقيقة تربوية يتعرض إليها الكتاب لتثبيت المسؤولية الشخصية في نفوس الأمة.

وقبل هذه الآية وبعدها تذكرات بهذه الحقيقة.

ولكن النظرة الفاحصة تهدينا إلى وجود ما هو أشمل و أوسع دلالة في هذه الآية. إنه القانون الاجتماعي الذي يربط بين الحضارة وبين تطوير الصفات النفسية، ويقول: كلما كثر بناء قوم على هدمهم. تقدمت بهم الحضارة، ولا يكثر البناء على الهدم على صعيد الواقع إلا بعد وجود قابلية نفسية مناسبة على صعيد الذات.

لقد جعل هذا القانون العلمي في هذه الآية وسيلة لتزكية الإنسان وتحميله مسئوليته الكاملة تجاه التطورات الخارجية.

---

(١) الرعد: ١١.

ونلاحظ وجود منعطف صارخ في سياق بعض الآيات الهدف منه بيان حقيقة علمية ترتبط بواقع التزكية التي يهدفها ظاهر السياق.

فمثلا يقول الله سبحانه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]. نرى في السياق منعطفا صارخا عند قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ حيث لا يرتبط ظاهرا بما قبله من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وبما بعده من قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾.

ووضع هذا المنعطف إنما هو لبيان سنة فطرية تجري في العباد، هي فقدهم للتوازن إذا ثقلت عليهم النعم، باعتبار أن النعمة بحاجة إلى قدر من التحمل والضبط، ربما بقدر أو أكثر مما تحتاج النقمة إليها.

إن إبداع هذا المنعطف في سياق الآية الذي يبدو مستقيما بدونه - إنما هو لهدف بيان الحقيقة العلمية، في ثنايا التوجيه النفسي، ليس فقط من أجل توظيفها في خدمة التزكية، بل وأيضا من أجل بيانها للناس.

الثانية: والأسلوب التربوي الذي يتبعه القرآن الحكيم - في تزكية النفس - أسلوب علمي بذاته. إنه أسلوب مرحلي يتابع مراحل التزكية، بما يتناسب معها من الإثارة العاطفية، والتوجيه الفكري والزخم الإيماني. إنه أسلوب يربط - بحكمة بالغة - بين الفكرة الموظفة والهدف المنشود.

و بكلمة: إن البشرية تسعى منذ قرون في سبيل وضع مناهج علمية للتربية والقرآن سبق البشرية جميعا في استخدام كل هذه المناهج وغيرها مما يطول بيانها تفصيلا.

وهذا يهدينا إلى حقيقتين:

١- إن بوسعنا معرفة المناهج العلمية الأصوب عن طريق تتبع المناهج القرآنية آية آية، وموضوعا بموضوعاً.

٢- إن بوسعنا الانطلاق من نقطة واحدة في دراسة هذه المناهج إلى قاعدة شاملة عند

---

(١) الشورى: ٢٦-٢٨.

ملاحظتنا للقرآن الحكيم تماما، مثل انطلاق المهندس القدير من النظر إلى عمارة واحدة إلى معرفة القاعدة الهندسية التي قامت وفقها هذه العمارة. ومثل تفهم الطبيب الحاذق من وصفة طبية القاعدة العلمية التي استند إليها ذلك الذي كتبها، وهكذا..

فمعرفة المناهج قد تهدينا إلى السنن الفطرية التي روعيت عند وضع هذه المناهج وبالتالي نستطيع فهم السنن هذه.

القرآن الحكيم بين الظاهر والباطن

بعد أن تعرفنا على خطي القرآن المتشابكين خط التزكية وخط التعليم، وعرفنا أن الهدف الأهم الذي يبدو من سياق آيات القرآن هي التزكية، بعد ذلك نستطيع أن نهتدي إلى الظاهر والباطن.

فالظاهر هي التزكية، بينما الباطن هو التعليم.

وقد جاء في حيث مأثور: «**ظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ**»[1]، والحكم هي الشريعة مع موجبات تنفيذها من ترغيب وترهيب وقصص وأمثال. بينما العلم هي السنن الفطرية التي بيَّنها القرآن المجيد، والقوانين العلمية التي أشار إليها.

وجاء في حديث آخر: «**ظَهْرُ الْقُرْآنِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ، وَبَطْنُهُ الَّذِينَ عَمِلُوا بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ**»[2].

ومن المعروف أن قصة الذين نزل فيهم القرآن تعتبر الجانب التربوي منه، ولكنه حينما ينتزع القرآن من القصص سننا عامة تشمل الذين نزل فيهم وتسع الذين عملوا بمثل أعمالهم. تعتبر - آنئذ - تلك السنن علما بالتاريخ أو الاجتماع أو ما أشبه.

وجاء في حديث آخر: أن رجلا قال: سألت الإمام عليه السلام عما يعني بقوله: للقرآن ظهر وبطن؟ قال: «**ظَهْرُهُ [تَنْزِيلُهُ] وَبَطْنُهُ تَأْوِيلُهُ، وَمِنْهُ مَا قَدْ مَضَى وَمِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْرِي كَمَا تَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، كُلَّ مَا جَاءَ تَأْوِيلُ شَيْءٍ يَكُونُ عَلَى الْأَمْوَاتِ كَمَا يَكُونُ عَلَى الْأَحْيَاءِ**»[3].

وهذا الحديث يؤكد معنى الحديث الأول، ويتضافران على أن تنزيل القرآن هو الظاهر

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤ ص١٣٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٩٤.
(٣) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص٩٤.

الذي يدل على اللفظ، بينما التأويل وهو أيضا بطن القرآن إنما هو الواقع العلمي الذي يهدي إليه الظاهر وينطبق على كل من يشارك أولئك في أعمالهم.

وقد عبرت بعض الأحاديث عن علوم القرآن بـ(البطن) لأنها تخفى على الناس، ثم تظهر بالتدبر، وحسب اختلاف الناس -من النواحي العقلية والعلمية تختلف درجات الخفاء- حتى يعتبر الواقع الواحد، ظهرا بالنسبة إلى فريق، وبطنا بالنسبة إلى فريق آخر. لذلك تعددت البطون والأظهر بقدر تعدد درجات الناس في العقل والعلم. وجاء في حديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ شَيْءٍ مِنَ التَّفْسِيرِ فَأَجَابَنِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ ثَانِيَةً فَأَجَابَنِي بِجَوَابٍ آخَرَ، فَقُلْتُ: كُنْتَ أَجَبْتَنِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِجَوَابٍ غَيْرِ هَذَا. فَقَالَ: **يَا جَابِرُ إِنَّ لِلْقُرْآنِ بَطْناً وَلِلْبَطْنِ بَطْناً وَلَهُ ظَهْرٌ وَلِلظَّهْرِ ظَهْرٌ**»[1].

وهكذا فسر الإمام عليه السلام آية واحدة عدة تفاسير حسب درجات السائل، إذ إنه حينما عرف تفسيرا يشرح ظاهر القرآن استعد علميًا، لمعرفة تفسير يشرح بطنه.

بهذا نعرف معنى عدة أحاديث مأثورة تقول: إن للقرآن سبعة أبطن أو سبعين بطنا.

وبهذا أيضًا نعرف قيمة التدبر باعتباره الكاشف لبطون القرآن كلما تدبرت ازددت علما.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٩٢، تفسير العياشي: ج١ ص١١.

القرآن الحكيم بين المحكم والمتشابه

لأن القرآن المجيد خطاب مباشر من الله خالق كل إنسان وإلى كل إنسان فلابد أن يكون مفهوما لهم جميعا بقدر ما يكون مهيمنا عليهم. يكون مفهوما لأنه خطاب، ويكونه مهيمنا لأنه من الله.

ولأن الناس درجات في العلم والإيمان، فلابد أن تكون آيات القرآن درجات فتنشأ المشكلة، حيث تكون الدرجة العالية غير مفهومة لمن هم في الدرجات الدنيا.

وهنا يتدخل القرآن ذاته لحل هذه المشكلة بأن يوقف هؤلاء الناس عند حدهم ويأمرهم بترك الآية غير المفهومة لهم. تركها لمن يفهمونها ممن تتناسب درجاتهم معها، في الوقت نفسه يكون عليهم أن يستوحوا من تلك الآيات التي تنالها أفكارهم وتتفق مع مستوى نضجهم. والقرآن الحكيم يسمي الآية المفهومة بـ(المحكم)، في حين يدعو الآية التي هي أعلى من مستوى فهم القارئ بـ(المتشابه) ويأمر الناس باتّباع المحكم وترك المتشابه.

ومن هنا نعرف أن الناس ليسوا سواء في المحكم والمتشابه. إذ إن المحكم الذي يبدو واضحا عند فرد -لأنه في مستوى فهمه- يكون متشابها عند فرد آخر، لأنه أعلى من مستواه.

من هنا جاء في الحديث في تفسير المتشابه بأنه: «مَا اشْتَبَهَ عَلَى جَاهِلِهِ»، وعليه يجب على من لم يؤت، فهم آية عليه أمران:

١- أن يقف عند الآية، ولا يصيبه الغرور فيزعم أنه قادر على فهم الآية، فيفسرها برأيه فيضل ويضل الآخرين.

٢- أن يلتمس من هو أعلى درجة منه لعله يتعلم منه معنى الآية. ولو لم يفهم -حتى مع التعليم- فعليه أن يدع علمه إلى أهله.

هذه الحقائق هي التي تذكر بها الآية الكريمة التي تقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾[1].

وجاء في الحديث: عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَعْمَلُ بِهِ وَنَدِينُ اللهَ بِهِ، وَأَمَّا الْمُتَشَابِهُ فَنُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَعْمَلُ بِهِ»[2].

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٩٨.

القرآن الحكيم والأحرف السبعة

جاء في حديث شريف: «أُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلُّهَا شَافٍ: كَافٍ أَمْرٍ وَزَجْرٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ وَجَدَلٍ وَقِصَصٍ وَمَثَلٍ»[1].

وجاء في حديث آخر: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ كُلٌّ مِنْهَا شَافٍ كَافٍ، وَهِيَ أَمْرٌ وَزَجْرٌ وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ وَجَدَلٌ وَمَثَلٌ وَقِصَصٌ»[2].

وقد تضافرت الأحاديث التي تقول: إن القرآن نزل على سبعة أحرف. وذهب فريق من المسلمين إلى تفاسير بعيدة لهذه الكلمة فقد قال بعضهم: إن الله أوحى سبع مرات، سبع كتب كلها قرآن. بيد أن الجانب التربوي الذي يهدفه سياق ظاهر القرآن بحاجة إلى هذه الأحرف السبعة فقسم منه أمر بالخير وقسم نهي عن شر، وقسمان منه ترغيب لمن عمل بالخير ووعد له بالجنة و الفلاح وترهيب لمن اقترف الشر ووعيد له بالنار والشقاء. كل ذلك ليكون قوة تنفيذية نابعة من الآية ذاتها.

يبقى الجدل، وهو ضروري في كتاب يحمل سمة العقيدة لأن هناك شبهات راسخة في قلوب البسطاء يجب تصفيتها قبل البدء بتزكية النفس، وطريقة التصفية الجدل والمناقشة الهادفة.

وللقرآن سمة هامة تطبع جميع مناحيه. وهي سمة الحيوية التي تجعل من الفكرة واقعا يتحرك أمام أعين الناس. وتحقق هذه السمة بواحدة من اثنتين: إما القصص التاريخية التي لها حقيقة مضت، وإما الأمثال التي لا حقيقة خارجية لها.

وهذا التقسيم في القرآن الحكيم سيعطينا فرصة لفهم كتاب الله؛ إذ إن مجرد تقسيم النص- أي نص كان يعطي الفرد قدرة هائلة على اكتشاف خفاياه!.

---

(١) بحار الأنور: ج٩٠، ص٩٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٤.

القرآن الحكيم وبناء الحكمة

إن العلم المبثوث في القرآن يتطلَّب الأذن الواعية والعقل المتدبِّر، والعلم هو معرفة شبكة العلاقات بين الأشياء (السنن). ويبدو أن القرآن قد رسم معارفه وعظاته في شبكة من العلاقات، ينبغي السعي لمعرفتها للظفر بالمعارف القرآنية كما يرقمها بغض النظر عن توقعاتنا المبنية على الخبرة البشرية.

ومن مفاتيح أبواب المعرفة القرآنية ما نشير إليه بـ(أدب الحكمة).

الحكمة في الأدب القرآني

لقد بعث الله رسوله إلى الناس ليتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

والسؤال ما هي الحكمة؟، أليست معرفة أصول العلم؟.

وخلاصة القول في ذلك؛ إنه إذا كان الكتاب دستورًا، فإن الحكمة شريعة ومنهج للعمل بالكتاب. فجملة القيم الاجتماعية التي بها ينتظم الحكم الصحيح هي، الحكمة.. كالتي نقرأها في سورة الإسراء من حرمة الدم والمال والعرض وما أشبه، وكالتي آتاها الله تعالى لقمان عليه السلام من شكر الله وشكر الوالدين وما أشبه، وكالتي أوحى بها الله تعالى إلى النبي عيسى ابن مريم عليه السلام في الإنجيل.

إنّ هناك علاقة بين الحُكم والحكمة، وإنَّ الحُكم الصحيح (في المتغيرات وفي القضاء بالذات) هي الحكمة، وفي أربعة موارد ذُكِرَت فيها مصاديق الحكمة في القرآن، رأينا أن في ثلاثة

(١) الجمعة: ٢.

منها يتحدث السياق عن القيم الأخلاقية، وهي في سور البقرة ولقمان والأحزاب، أما في سورة الإسراء فإن القيم التشريعية أضيفت فيها إلى القيم الأخلاقية.

وهكذا يكون الكتاب تلك البصائر والأحكام الثابتة التي تعكس سنن الله التي لا تتغير، بينما الحكمة هي القيم العامة والأصول الكلية التي لو عرفها الإنسان عرف كيف يحكم بين الناس في الحوادث الواقعة.

وكانت تلك مِنَّة كبرى إمتنَّ بها الرب تعالى على هذه الأمة، حيث بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله (يذكِّرهم بالله ويوقظ عقولهم ويُنمّي معارفهم)، ويزكّي قلوبهم (ويطهرها من الفواحش الباطنية كالكبر والغفلة والحسد والشح)، ويعلِّمهم الكتاب (وفيه كل الحقائق)، ويعلِّمهم الحكمة (الشريعة ومنهج الحكم)، وقد نقلهم الله بنبيه من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام حيث كانوا من قبل في ضلال مبين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وإذا كان الكتاب جملة الحقائق والبصائر، فإن الحكمة هي فقه الكتاب، وتعقّله، ومعرفته بحيث تصدر الأحكام الصحيحة منه، وبحيث ينتظم العيش على أساسه، ويتم تدبير متغيرات الحياة وفق تعاليمه.

القرآن الكريم حِكَمٌ وأحكام

الله نور السماوات والأرض، ونوره يتجلى في مشكاة النبوة، ثم في مصباح الإمامة، ويشع على روابي الفقه والإيمان، وأنّى إنتشر هذا النور فسوف لا ينفصل عن معدن التوحيد، أو مشكاة النبوة ومصباح الإمامة.

ولا تكاد تمرّ على آية قرآنية إلا وفيها إسم مبارك من أسماء الله الحسنى، تتصل به معاني الآية إتّصال النور بالمصباح، والحُكم بالحكمة، والدليل بالحقيقة، والحكمة بالسُّنّة، والسُّنّة بالأسماء الحسنى، وتتدرج حِكَمُ الأحكام بهذا النسق من حكمة أقرب إلى التوحيد، إلى ما هو أقرب إلى الحقائق الواقعة، كل حكمة تتفرع مما هي أسمى منها وأقرب إلى أسماء الله الحسنى.

إنَّ ربنا قرَّب لنا الأمثال، وساق إلينا البصائر، وأنزل الحكمة، وعلَّم الأسماء لكي يفقه عباده دينه، ويعلموا مراده منهم ويعملوا بذلك.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

وهذا هو الذي ندعو اليه.. التبصُّر في الدين لمعرفة ما خفي علينا من أحكام من خلال تلك الحِكَم التي بيَّنها ربنا في كتابه.

سنن الله.. حكم الشرائع

وإذا تدبّرنا أكثر فأكثر في جملة الكتاب الكريم لوجدنا إنّ ربنا سبحانه يبيِّن فيه سننه في الخلق، التي هي اصول الحكمة، والحقائق التي تنتهي إليها علل الشرائع. كيف ذلك؟ دعنا نفصل القول في ذلك.

القرآن كتاب الخليقة الناطق عنها، والمذكِّر بحقائق الكائنات وبعلاقاتها وبِعِبَرِها وبقوانينها العامة، وآفاق حركتها.

ربنا يبيِّن في كتابه ما هو هذا العالم الذي يحيط بنا؟ وما هي أهداف خلقته؟ ونحن مَنْ؟ وماهي غاية خلقتنا؟ كما يبيِّن سنن الله التي أجراها في الخلق.. مثلا سُنّة الصيرورة، سُنّة الزوجية، سُنّة التطوّر، سُنّة الهلاك، سُنّة الصراع، سُنّة المسؤولية والجزاء.

وحينما يذكِّر بسننه التي تلتصق أكثر فأكثر بحياتنا، يُفصِّل القول فيها تفصيلا، ويبصِّرنا بأنفسنا وما تعمل فيها من شهوات عاصفة، وأهواء جامحة، ونوازع فطرية خيّرة، ويضرب لنا من كل شيء مثلا، ويقصّ علينا عِبَرَ الغابرين، ويحدّثنا عَمَّن نجا كيف نجا، وعَمَّن هلك لِمَ هلك؟.

وأحكام الشريعة مطابقة لسنن الله في الخلق.. إنّها الحق كما الخلق حق، فهي تعبيرات عن سنن الله في الكائنات.

فحين يأمرنا الله بتحدي الطاغوت وتجنّبه، فهذه شريعة إلهية مطابقة لسُنَّةٍ بيَّنها ربنا سبحانه عبر قصص الذين اتبعوا الطاغوت فدمرهم الله شر تدمير.

وحين يأمرنا باتباع رسل الله وطاعة أوليائه، يسوق لنا مثلا للذين آمنوا من واقع المؤمنين الذين اتّبعوا النبي نوحاً عليه السلام فنجّاهم الله من الطوفان، ومثلا للذين كفروا من واقع الذين كفروا فأغرقهم الله.

فكل حُكْمٍ يتبع حِكْمَةً، وكل حكمة تتصل بسُنّة، وقد بيَّن الله الحُكْم، وعلَّم حكمته، وذكَّر بسُنَّته.

ولنضرب مثلًا قرآنيا من سورة الزمر، وكيف نهى الله عن اجتناب الطاغوت فقال

سبحانه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(١).

وهكذا تجد كيف يبيّن الله سبحانه و تعالى برنامجًا متكاملًا للحرية والاستقلال، والمحافظة على الكرامة الإنسانية المتمثلة في العبودية الخالصة لله.

أولًا: يأمر بتقوى الله.. وهي أصل كلّ فضيلة وحِكْمة كلّ شريعة، ويُرغّب فيها بالحسنة التي تنتظر المتقين في هذه الدنيا، ويحرّض على الهجرة (إن لزم الأمر)، ويأمر بالصبر على الأذى في جنب الله، ويَعِدُ الصابرين أجراً كبيراً وبلا حساب. إنّ هذه وصايا وأحكام شرعية.

ثانيًا: يأمر بإخلاص العمل لله، وبالتالي التمرد على الآلهة التي تُعبد من دون الله، وينذر العصاة بعذابِ يوم عظيم، ويتحدى الكفار الذين يعبدون ما شاءوا من دون الله، ويحذّرهم بأنهم الخاسرون أنفسَهم وأهليهم يوم القيامة، ويصف العذاب الذي يحيط بهم، وتلك سُنَّة الله التي لا تتبدل: إنّ الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة ونيران ملتهبة، وإنّ الكفر في الدنيا ظُلَلٌ هناك محيطة ولهب عظيم.

ثالثًا: ويحدِّد -تبعا لهذه السُنَّة وتلك الحكمة- برنامج الاستقلال الثقافي، حيث يعني عدة واجبات عملية:

ألف: إجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله، والاجتناب من الطاغوت أمر عام، ويتمثّل هنا في التسليم الثقافي بلا تفكّر أو تعقّل، مما يُدعى اليوم بـ(نَفِّذ ثم ناقش).

باء: الاستماع إلى القول، ومعروف إنّ الاستماع غير السّماع، فهو عملية تفهّم وتعقّل، وهكذا لايجوز الانغلاق المطلق دون الدعوات والأفكار المستجدة، إنما يجب الاستماع إليها.

جيم: الانتخاب القائم على أسس منطقية، واختيار الأحسن وفقا لهدى الله ونور

---

(١) الزمر: ١٠-١٨.

العقل، حيث يختم القران الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. وهدى الله يتمثّل في الوحي بينما اللب هو العقل.

وصايا الكتاب سُنَنٌ وحِكَم

في سورة الإسراء وابتداء من آية (٢٠) والى آية (٣٩) يأمرنا الله بوصايا رشيدة ويختمها بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾.

تعال نتلو معا آيات من هذه المجموعة ثم نتدبّر فيها: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾[1].

من خلال التدبّر في هذه الآيات الكريمة نجد مثالًا رائعًا لنهج القران في التذكرة بالسُنّة والحكمة عند الأمر بالوصية الإلهية، مما يتمثّل الهرم المتين: الله وأسماءه الحسنى، سنن الله في الخليقة، الحكمة القائمة على تلك السنن، الوصيّة المنبعثة منها الأحكام الفرعية:

١- أسماء الله الحسنى (التوحيد) قال الله سبحانه: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

٢- السُنّة الإلهية (الجزاء الحسن، وقبول توبة الأوّابين) قال سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

٣- الحكمة (التربية عند الصغر) قال الله سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

٤- الوصية (الإحسان إلى الوالدين) ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٥- الحكم الفرعي (حقوق الوالدين) قال سبحانه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

(١) الإسراء: ٢٢-٢٥

وليس بالضرورة أن تُذكَر هذه المنظومة جميعاً كلما ذُكِرت مفردةٌ منها، بل قد يكتفي السياق ببعضها، لأنَّ ما سواها قد بُيِّنت في آيات أخرى، كما ليس بالضرورة أن تُذكَر بذات الترتيب الذي استعرضناه آنفاً، لان للقران منهجه الفريد الذي يُنظِّم الحقائق حسب البلاغة وفصل الخطاب.

تعال نتلو ونتدبر -مرة بعد أخرى- في وصايا القران -في هذه السورة- قال ربنا تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[1].

إذا تدبَّرنا ضمن المنهج السابق في هذه الآيات: أين أسماء الله، وأين سُننه، وأين الحكمة والوصية، والحكم في هذه الآيات الكريمة؟ لعرفنا ما يلي:

١- أسماء الله نجدها في خاتمة المجموعة (الخبير البصير) قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

٢- السنة الإلهية التي نراها في الخليقة إعتمادًا على هذين الاسمين المباركين تتمثل في (تقدير الرزق حسب حكمته البالغة سبحانه)، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾. وهناك سُنَّة إلهية أخرى ذكَّر بها في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾.

٣- أما الحكمة فهي المتمثلة في الاقتصاد في المعيشة، والاعتدال في المواقف قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾.

٤- وعن الوصية(حرمة التبذير) قال سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾.

٥- الأحكام الفرعية (إيتاء حقوق الفقراء) قال سبحانه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾. وكذلك حكم آخر: (القول الميسور لمن لا تقضي حاجته) قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾.

---

(١) الإسراء: ٢٦-٣٠.

وفي الآية التالية جمع القران بين السُّنَّة والحكمة والوصية، بينما ذَكَّر فيما سبق بأسماء الله الحسنى، ولم يذكر ربنا سبحانه الأحكام الفرعية للوصيّة ربما لأنها مُفصَّلة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾(١).

هنا نجد البصائر الثلاث:

١- السنة الإلهية: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ ﴾.

٢- الحكمة: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

٣- الوصية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ ﴾.

أما الحديث عن أسماء الله الحسنى فقد جاء في الآية السابقة عليها في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾. وفي آية كريمة أخرى نجد فقط الحكمة والوصية، لأنَّ غيرهما قد ذُكِرَ ربما في هذا السياق أو في مواضع أخرى، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾(٢). فقد ذكَّرنا ربُّنا بالوصيّة، وشفَّعها بحكمتها.

أما الآية التالية فقد بيَّنت الوصيَّة وحدها، لأنَّ حكمتها بيِّنة أو مذكورة في آيات أخرى، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾(٣).

وعندما حدَّد السياق العلاقات الاقتصادية بين أبناء المجتمع وأوصى باحترام حقوق الضعفاء المالية (مثل مال اليتيم)، وبالوفاء بالعهد(ولعل من أبرز مصاديقه العقود)، وبإيفاء الكيل، ثم بَيَّن حكمة هذه الوصايا جميعا (فيما يبدو لي) والتي تتمثل في أنها عمل صالح ذات عاقبة حسنى فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(٤).

وفيما يرتبط بأعراض الناس، وما يُفرِّق بينهم من نميمة أو غيبة فتهدم بنيانهم، يوصي ربُّنا عباده بتحرّي الحقائق، ويذكِّر بالسُّنَّة الإلهية التي هي المسؤولية، حتى عن مواقف الإنسان

---

(١) الإسراء: ٣١.
(٢) الإسراء: ٣٢.
(٣) الإسراء: ٣٣.
(٤) الإسراء: ٣٤-٣٥.

القلبية تجاه الآخرين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[1].

وينهى ربُّنا عن التكبّر، ويبيّن سُنَّة هذه الوصية الاجتماعية، بأنّ الإنسان كيان ضعيف فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[2].

ويبيّن حكمة ذلك أيضا (فيما يبدو) والتي تتمثل في أنَّ هذه الصفات قد تكون حميدة، ولكنها إذا كانت تعكس روح التعالي والتكبر تكون مكروهة، فيقول سبحانه: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[3].

وفي خاتمة هذه الآيات ذات الوصايا الثمانية يُذكّرنا ربك بأنّها من الحكمة الإلهية (التي تتشعب منها أحكام شرعية كثيرة) كما أنها بدورها تتشعب من توحيد الله، وإخلاص العبودية له فيقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[4]. تَدبَّر كيف وصل السياق بين الحكمة وبين التوحيد (والنهي عن الشرك بالله) باعتباره ينبوع الحِكَم، وقد قال النبي ﷺ: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الله عَزَّ وَ جَلَّ»[5].

وهكذا نستوحي من التدبر في هذه الآيات الكريمة، إنَّ أحكام الشريعة تتفرع من شجرة التوحيد، وإنّ أصولها الحكمة والسُّنَن الإلهية، وإنَّ الراسخين في العلم يسعون أبداً لمعرفة أصول الحكمة، وآفاق السنن.

وهكذا يُعلِّمنا الدين كيف ينبغي أن نتعامل مع الأحكام الشرعية، فنعمل بظاهرها ونتعرف على باطنها. فظاهرها -كما جاء في صفة القران الكريم-: «فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ»[6].

التكامل المعرفي بين الأصول والفروع

بين معرفة الأصول المُحْكمة في الشريعة، ومعرفة ما يتفرَّع عنها تكامُليّة لو تأمّلناها فإنّها سوف تُساهم في فقه الأحكام، وتُيَسِّر لنا إستنباط الفروع من الأصول. ومن أجل توضيح هذه

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) الإسراء: ٣٧.
(٣) الإسراء: ٣٨.
(٤) الإسراء: ٣٩.
(٥) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٢١.
(٦) الكافي: ج٢، ص٥٩٨.

البصيرة نستذكر جملةً من الحقائق:

أوّلا: النّظام المعرفي القرآني شديد المتانة، وهو ينطلق من حقيقة واحدة لاتني تتوسّع حتى تصبح شاملةً لكلّ الموضوعات، فقد قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

ثانيًا: كما بيّن القرآن والحديث أصول الشريعة، كذلك بيّنا -بوفرةٍ كافيةٍ- الأحكام المتفرّعة عنها، وهكذا زَخرت كتب الحديث بآلاف الأحاديث التي بيّنت تفاصيل الأحكام.

ثالثًا: إنّ الأحكام التي تتناول الفروع تتّصل بالأصول، وهي مستوحاة منها، إلاّ أنّ علاقة الأحكام بأصولها لم يُصرَّح بها إلاّ يسيراً. ولعلّ السبب يعود إلى أنّ الأحاديث كانت في البدء على شكل دروس متّصلة الحلقات، ثم -وفي عهدٍ لاحقٍ- جُزّأت وقُسّمت حسب الموضوعات المختلفة، ثم دُوّنت في مجاميع للحديث، فربما كانت أصولها مذكورة في بداية كلّ درس ثم حُذِفَت عند التجزأة، أو أنّ النّبي وأهل بيته المعصومين (عليه وعليهم صلوات الله تعالى) لاحظوا المستوى العلمي للمحيطين بهم فلم يفصّلوا القول دائماً عن حِكَم الأحكام وعلل الشرائع.

رابعًا: حينما نتلقّى من الوحي أصلاً شرعيًا عامًا، فإنّنا بحاجة إلى أمثلة واقعيّة تزيده وضوحاً، وكلّما ازدادت تلك الأمثلة -التي هي تجليات لذلك الأصل وتطبيقات له- كلّما إزداد ذلك الأصل وضوحاً. ومن هنا نجد القرآن الكريم يضرب الأمثال للحقائق التي يُذكّر بها.

خامسًا: بالرغم من عدم ذكر الأصول عند ذكر كثير من الأحكام الواردة في الأحاديث الشريفة، إلاّ أنّ الكثير منها قابلة لجعلها تطبيقات لتلك الأصول، لما فيها من إشارات واضحة أو مناسبةٍ بين الحكم والموضوع .. مناسبةٍ تورث يقيناً.

إنّ رد هذه الأحكام الفرعيّة إلى تلك الأصول يجعلها أشدّ وضوحاً، وأكثر شفافيّة.

سادسًا: بالتدبّر في آيات الأحكام في كتاب الله المجيد، وما فيها من بيان لحكمة تشريعها، ومع التدبّر في محكمات الكتاب وما فيها من أمثلة واضحة تُعتَبر تطبيقات لها، وبالدراية للأحاديث التي تناولت الأحكام مع التصريح بحكمتها وعلّتها، ثم إضافة هذه الثروة العلمية

---

(١) إبراهيم: ٢٤-٢٥

إلى ما يحصل عندنا من معرفة الأحكام التي تمَّ ردّها إلى أصولها المحكمة.. أقول: بكل ذلك يستطيع الفقيه أن يستوضح أكثر فأكثر محكمات الكتاب والسُنّة وأصولها وأواخيها، وعندئذٍ يسهل عليه ردّ الفروع المتشابهة إليها.

سابعًا: لقد ورد في الأحاديث أنّ كل ما ينطق به أئمة أهل البيت عليهم السلام هو من القرآن المجيد، وورد أنّهم يلقون بالأصول وعلى فقهاء شيعتهم التفريع، وجاء في بعض الأحاديث: أنّ في حديثهم محكمًا ومتشابهًا، ولابدّ من ردّ المتشابه إلى المحكم، فإذا تأمَّلنا في كل هذه البصائر وتدبَّرنا في آيات المحكم والمتشابه، وما فيها من أنّ المحكمات هي أمّ الكتاب، يحصل عندنا المزيد من الثّقة بأنّ السبيل الأقرب إلى معرفة حكم الفروع الجديدة والمتشابهة، هو النظر في المحكمات سواءً في القرآن أو السُنّة، والتي هي أصول الشريعة، واستنطاقها لمعرفة الفروع. وإليك النصوص التي أشرنا إليها:

قال الله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

وجاء عن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «خَطَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله بِمِنًى فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ مَا جَاءَكُمْ عَنِّي يُوَافِقُ كِتَابَ الله فَأَنَا قُلْتُهُ وَ مَا جَاءَكُمْ يُخَالِفُ كِتَابَ الله فَلَمْ أَقُلْهُ»[2].

وقال أيوب بن الحرّ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: كُلُّ شَيْءٍ مَرْدُودٌ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكُلُّ حَدِيثٍ لَا يُوَافِقُ كِتَابَ الله فَهُوَ زُخْرُفٌ»[3].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُلْقِيَ إِلَيْكُمُ الْأُصُولَ وَعَلَيْكُمْ أَنْ تُفَرِّعُوا»[4].

وجاء عن الإمام الرضا عليه السلام: «عَلَيْنَا إِلْقَاءُ الْأُصُولِ وَعَلَيْكُمُ التَّفْرِيعُ»[5].

وروي أبي حَيُّونٍ مَوْلَى الإمام الرّضا عن الإمام الرّضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ رَدَّ مُتَشَابِهَ

(١) آل عمران: ٧.
(٢) الكافي: ج١، ص٦٩.
(٣) الكافي: ج١، ص٦٩.
(٤) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٦١.
(٥) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٦٢.

الْقُرْآنِ إِلَى مُحْكَمِهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: إِنَّ فِي أَخْبَارِنَا مُحْكَماً كَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ وَ مُتَشَابِهاً كَمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ فَرُدُّوا مُتَشَابِهَهَا إِلَى مُحْكَمِهَا وَ لَا تَتَّبِعُوا مُتَشَابِهَهَا دُونَ مُحْكَمِهَا فَتَضِلُّوا»[1].

ثامنًا: ولعلّ الفقهاء الذين جعلوا ميزان الأعلميّة في الفقه بمعرفة الأشباه والنظائر كانوا يشيرون إلى هذا المنهج، إذ من الواضح أنّ الفرع لايُقاس إلى فرع مثله، وإنّما الفرع يُردّ إلى الأصل. بلى، قد يوضّح الفرعُ معنى الأصل باعتباره مثلًا تطبيقيًا له، ثم يردّ إلى ذلك الأصل حكم فرعٍ آخر. وهكذا يصبح إتّساع أفق المعرفة الفقهيّة ميزاناً للأعلميّة.

تاسعًا: وهكذا يُصبح التأمّل في محكمات الآيات، وردّ المتشابهات إليها، والتدبّر فيما بيّنه الربّ تعالى من الحكمة وسيلةً قريبةً إلى إستنباط الأحكام، والله المُستعان.

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١١٥.

الفصل الثالث:

منهج التدبر في القرآن

* حقيقة التدبر في القرآن الحكيم.
* التدبر والصفات النفسية.
* التدبر والصفات العقلية.
* القرآن الحكيم واثبات معانيه.
* التدبر والسياق القرآني.
* التدبر وآفاق السنة الشريفة
* التدبر والسياق الموضوعي للسورة.
* التدبر والواقع الخارجي.
* التدبر والتطبيق القرآني.
* موجز لمنهج التدبر في القرآن.

حقيقة التدبر في القرآن الحكيم

نور الشمس يغمر الأرض فيُضيء الأشياء والأشخاص، ويُظهر الألوان، ثم يقف دوره عند هذا الحد ليبدأ دور العين بعملية الرؤية والملاحظة، وكذلك القرآن يؤدي دوره عندما ينشر الهداية ويبيّن الحقائق، وبعد ذلك تبدأ مهمّة القلب والبصيرة في إدراك هذه الحقائق واستيعابها، فإذا أقفل الإنسان بصيرته وقلبه فإنه لن ينتفع بهدى القرآن ولن يعرف الحقائق، تماماً كمن يغمض عينيه فإنه لا يرى الأشياء رغم سطوع نور الشمس عليها ووضوحها.

وهكذا فإن القرآن لا يلغي دور العقل والتفكّر، ولكن من المتعذر على العقل أيضاً أن يكشف الحقيقة بدون القرآن، كالعين التي يستحيل أن ترى الأشياء بدون الضوء، ومن جهة أخرى فإنّ العقل والتفكّر لايلغيان دور القرآن، كما أن العين لا تلغي دور الضوء.

إذن أمامنا حقيقتان؛ ينبغي أن نعيهما جيدا:

الحقيقة الأولى: حقيقة القرآن (النور والذكر والبصيرة والهدى):

١- ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[١]، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

٢- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣]، ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤].

٣- ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥]، ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى

(١) النور: ٣٥.
(٢) الأعراف: ١٥٧.
(٣) الحجر: ٩.
(٤) البقرة: ٢٢١.
(٥) الأعراف: ٢٠٣.

وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١].

٤ - ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

وهذه الصفات لو تدبَّرنا فيها قليلًا لرأينا أنها تعني الحقيقة التي تساعد العقل على التفكّر، والقلب على التدبر، وليس هناك ما يلغيها ويحل محلها.

الحقيقة الثانية: إنَّ القرآن لايُلغي دور العقل، وإنما هو المثير لدفائنه والمذكِّر بقيمه ومعاييره. وسنجد هذه الحقيقة جلية لدى التأمل في فروق التدبر عن التفسير والتأويل والعلاقة بينها.

ما هو التدبر؟

للتدبر بُعدان:

البُعد الأول: التفكير العميق المنظَّم الذي يستهدف التعرف على عمق الشيء.

البُعد الثاني: البحث عن السنن الإلهية التي تذكُر بها آيات القرآن.

ومناهج التدبر هي آليات للتفكير، ولعلّ جوهرها يمكن في طرح الأسئلة التي تستحث التفكير في الآيات لينفذ عبرها إلى حقائقها. وليكون الحديث أكثر تحديدا ينبغي إستيضاح علاقة التدبّر بالتفسير والتأويل.

بين التفسير والتدبر

التفسير في اللغة: هو البيان وكشف القناع عن الشيء، فتفسير الكلام معناه الكشف عن مدلوله، وبيان المعنى الذي يشير إليه والإهتمام برفع الغموض الذي قد يكون في الكلام.

وهو بالنسبة للقرآن شرح وتوضيح الآيات القرآنية ذاتها فيما يرتبط بالقرآن ذاته، حروفه وكلماته وجمله وآياته، وسياق المجموعة التوجيهية في القرآن وارتباط آيات السورة مع بعضها.

---

(١) القصص: ٤٣.
(٢) البقرة: ٣٨.
(٣) النحل: ٨٩.

بينما غاية التدبر شيء آخر، فالكلمة مشتقة من (الدُّبُر) وهو مؤخرة الشيء ونهايته، وهذا يوحي بأن التدبر هو تجاوز ظواهر المعاني والغور إلى معرفة ما وراءها.

قال العلامة الطبرسي ﷺ: «التدبّر: النظر في عواقب الأمور»[1]. وعاقبة الأمر هي ما يؤول إليه الأمر، وهو تأويله. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2]، وقال عزوجل في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾[3]. فتأويل الإنذار هو تحقق ما انذر به واقعًا، وتأويل الرؤيا تحوّلها إلى حقيقة واقعة، ويبدو أن التدبر هو البحث عن التأويل.

فلهاتين المفردتين (التفسير، التدبر) أبعاد مختلفة:

١- التدبر ممارسة آلية للفهم، بيد التفسير توضيح للفهم الذي يحصل عند المفسّر.

٢- غاية التدبر أوالتفسير -نظريا- مختلفة. فغاية التدبر معرفة العاقبة والبحث عن النظائر والمصاديق في الخارج ليقترب من التأويل. وغاية التفسير هو تبديد الغموض المرتبط بظاهر الآيات، بغض النظر عن المصداق في الخارج، فالتفسير يستهدف تبيان الصورة العامة للآية. بَيْد أن دراسة هذا الظاهر للنفاذ للباطن (السنن العلمية) هو هدف التدبر. لذا فإنّ التفسير يهتم بالتحليل اللغوي أكثر مما سواه، ويأتي التدبّر من بعده لأنّه ينطلق إلى السنن الكامنة وراء ظاهر الآية.

٣- كلمة (التدبر) هي من الصيغ التي تنطوي على الإشارة إلى بذل المجهود في الأمر، والذي يستخدم الإنسان فيه طاقاته، فكلمة (تَصَرَّفَ) غير كلمة (صَرَفَ) إذ الأولى تعني السيطرة على الشيء، ومحاولة صرفه بقوة أو بجهد، كذلك (التحدُّث) يعني إستخدام الجهد في الحديث، وهكذا فإن (التدبّر) يعني بذل الجهد في التفكير للوصول إلى معرفة عواقب الأمور.

نعم هذه المفارقات دلالية، بينما في الواقع الخارجي قد نجد في أعمال كثير من المفسرين أنّه من نوع التدبّر إذ يتجاوز الظاهر إلى الواقع، بلى إن مفردة (التفسير) قائمة على الكشف ولا تشير إلى الجهد ولا إلى العمق، بينما في مفردة (التدبّر) نجد إشارة إلى بذل الجهد في سبيل الوصول إلى العمق.

---

(١) مجمع البيان: ج٣، ص٢٧٠.
(٢) الأعراف: ٥٣.
(٣) يوسف: ٣٧.

بين التفسير والتأويل

في جذر (تأويل) من الناحية اللغوية؛ رأيان: هناك مَنْ يرى أنّه مشتق منْ (آلَ)، بينما يرى آخرون أنّه مشتق منْ (أوَلَ). لكن بملاحظة مذاهب المفسرين نجد:

١- أنّ مذهب غالب المفسرين هو وضع التأويل في إطار التفسير، فالوظيفة الأساس للتأويل عندهم هو فهم النص. والتأويل -بالتالي- (آلية) منهجية لمعالجة بعض المشكلات في فهم النص، مثل (التناقض الظاهري بين الآيات).

٢- وهناك رأي آخر يصنِّف التأويل خارج التفسير بلحاظ (المآل) والعاقبة والواقع الخارجي، بقرينة الاستعمال القرآني، ولعل هذا الرأي هو الأقرب، حيث أنّ الروايات جعلت التنزيل مقابل التأويل.

أليس القرآن حجة في كلّ عصر؟، أوليس الرجوع إليه يُعتبر أساس التسليم لله ودينه في الحوادث الواقعه؟.

وهكذا كان للقرآن: «ظَهْرٌ وَبَطْنٌ»[1] و «ظَهْرُهُ [تَنْزِيلُهُ] وَبَطْنُهُ تَأْوِيلُهُ، وَمِنْهُ مَا قَدْ مَضَى، وَمِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْرِي، كَمَا تَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ»[2].

وبناءً على هذا التفسير يمكن أن نلتفت للفروق بين التأويل والتنزيل:

ألف: إن التفسير بيان ما خفي على الناس من حقائق الوحي، بينما التأويل، تطبيق حقائق الوحي على القضايا الخارجية وهكذا يكون التفسير بمثابة الخطوة الأولى في فهم النص وهو -لهذا- تمهيد للتأويل.

باء: ومن جهة أخرى نجد أنّ التأويل وسيلة من وسائل تفسير الوحي، لأنَّ الرسول كان يطبّق حقائق الوحي عمليًّا على الظروف المتغيِّرة، وبذلك يُعلِّم الناس كتاب الله ومنهج تطبيق سائر الحقائق على الظروف المختلفة.

جيم: والتفسير ثابت بينما التأويل يتغيّر حسب المصاديق.

صفوة الكلام: التدبّر مرتبط بتطبيق الآيات على الواقع الخارجي، بينما التفسير يرتبط بذات الآيات، حيث نكتشف معنى الآية الكريمة عن طريق تفسير الآيات ببعضها، ومعرفة

(١) الكافي: ج٢، ص٥٩٨.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٩٦.

معاني المفردات من المراجع اللغوية، وربط الجمل ببعضها، والاستفادة من السياق، واستخراج معنى الكلمة من مقارنتها بمفردات مماثلة جاءت في آيات أخرى من القرآن الحكيم، وتفسير الآيات بالروايات والأحاديث الشريفة وبالاستفادة من العلم الحديث.

أمّا في التدبر فيتمّ البحث عن السنن الألهية التي تجري في الخليقة وهي العلم ثم يأتي دور (التأويل)، فنحمل الآية القرآنية إلى الواقع الخارجي، ونبحث عن انطباقها على الناس والأشياء والأحداث المتغيِّرة.

فإذا جاء في القرآن كلمات مثل: الذين آمنوا، الذين كفروا، المنافقون، المستكبرين، المستضعفين... فينبغي علينا أن نحاول تحديدهم وتشخيصهم واقعياً، ولا نكتفي بمعرفة معاني هذه الكلمات ومدلولاتها اللغوية فقط، أو مدلولاتها أثناء نزول الآيات فحسب، وهذا لن يتسنّى إلا للراسخين في العلم ومَنْ اتّبع نهجهم، والله المستعان.

التدبر والصفات النفسية

عدة صفات نفسية ينبغي أن يتحلى بها المتدبر في القرآن ليستطيع فهم آياته المجيدة حتى يتسنى له بعد تطبيق طرق التدبر على نفسه معرفة الحقائق التي تنطوي عليها الآيات، وإليك بعض هذه الصفات.

١- الإيمان بالقرآن على أنه كتاب أوحى به الله رب السماوات ليكون لعباده مبشرا ونذيرا، وهاديا إلى الحق بإذنه وسراجا منيرا.

لابد أن نقرأ القرآن بوصفه خطابا موجها إلينا من الله العظيم، فقد جاء في الحديث: «فِيهِ الْمُنَاجَاةَ مَعَ الرَّبِّ بِلَا وَاسِطَةٍ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَقْرَأُ كِتَابَ رَبِّكَ وَمَنْشُورَ وَلَايَتِكَ، وَكَيْفَ تُجِيبُ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ وَكَيْفَ تَمْتَثِلُ حُدُودَهُ»[١] إنه وثيقة ارتباطنا بالمبدئ المعيد، بالله.

إنه المنقذ من كل ضلال وشقاء. جاء في الحديث: «الْقُرْآنُ عَهْدُ اللهِ إِلَى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِهِ وَأَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسِينَ آيَةً»[٢].

إن القرآن قد يخاطب رسوله في نصوصه ولكنه لا يعنيه فقط، بل ويعني معه كل شخص تالٍ له، جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام إن القرآن نزل على لغة: «إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ»[٣] أي إنه خطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وآله ولكنه شامل أيضا لك ولي ولكل التابعين له. حينما يقول القرآن: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[٤] يجب أن أبادر بالاستغفار لأنه خاطبني شخصيًّا بذلك.

وحينما يقول الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يجب أن استعد لتلبية أمره. وأقول: لبيك

(١) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٤٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص٦٠٩.
(٣) الكافي ج٢، ص٦٣٠.
(٤) محمد: ١٩.

اللهم لبيك ماذا تأمرني؟.

وحينما يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أقول نعم. ماذا نعمل؟ وهكذا.

لقد كان أولياء الله العارفون يتلون القرآن بهذه الصفة فكانت جلودهم تقشعر وقلوبهم ترتجف حين يقرؤون آية، بل كانوا يصعقون لعظمة وقع الآية في نفوسهم.

لقد تلا الإمام الصادق عليه السلام آية في صلاته ورددها مرات. فصعق صعقة ووقع مغشيًّا عليه. فلما أفاق سئل عن ذلك منه قال: «مَا زِلْتُ أُرَدِّدُ الآيَةَ عَلَى قَلْبِي وَعَلَى سَمْعِي حَتَّى سَمِعْتُهَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِ بِهَا فَلَمْ يَثْبُتْ جِسْمِي لِمُعَايَنَةِ قُدْرَتِهِ»[1].

٢- وتنشأ من صفة الإيمان بالقرآن صفة كريمة أخرى هي الاستعداد لتطبيق آياته.

إن هذه الصفة شرط هام في فهم آيات الله إذ إن التسليم المسبق لنتائج البحث عن الحق يساعد النفس على البحث المجرد، كما أن الاستكبار والتردد في قبول نتائج البحث العلمي يقلل من قيمة هذا البحث عند الإنسان وبالتالي يصرفه عنه.

من هنا كان على الإنسان أن يجعل القرآن إمامه، ويسلم إليه زمام أمره قبل أن يبدأ بتلاوة آياته حسبما يصف الإمام علي عليه السلام المؤمن الصادق فيقول: «قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ»[2].

وإن فريقًا من الناس يتلون القرآن فيؤوِّلون آياته حسب أهوائهم ابتعادًا عن العمل بها. إن هؤلاء لايؤتون فهم القرآن أبدًا. بل إن تلاوة القرآن ستزيدهم وزرًا ووبالًا.

إنما يؤتى علم القرآن من تواضع للحق وسلَّم لله وفتش عن الواقع، واستعد سلفا لاتباع الحقيقة إذا انكشفت له.

---

(١) جامع السعادات: ج٣، ص٣٠١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ٨٧.

التدبر والصفات العقلية

إن أهم الصفات العقلية الضرورية للتدبر هي التركيز والشجاعة.

١- إن تركيز شعاع الشمس عبر زجاجة مقعرة هو الذي يتسبب في تحويل هذا الشعاع إلى طاقة جبارة، كذلك تركيز شعاع الفكر عبر نقطة واحدة سوف يضاعف من فاعلية الفكر ويكشف الحقائق بوضوح.

وبمدى أهمية التركيز يكون مدى صعوبته إذ إن النفس تقاوم التفكر في أمر واحد، ولكن على الذي يريد الفهم أن يروض نفسه على صفة التركيز فيظل يوجه اهتمامه إلى شيء واحد عدة لحظات حتى يعرفه.

ولهذا جاء في الأحاديث الأمر بترتيل القرآن لأنه أقرب إلى التركيز من التهامه. فجاء في حديث: قال أمير المؤمنين عليه السلام، في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1] قال: «بَيِّنْهُ تِبْيَاناً وَلَا تَهُذَّهُ[2] هَذَّ الشِّعْرِ وَلاَ تَنْثُرْهُ نَثْرَ الرَّمْلِ وَلَكِنْ أَفْزِعُوا قُلُوبَكُمُ الْقَاسِيَةَ وَلاَ يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قال: «قِفْ عِنْدَ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَتَفَكَّرْ فِي أَمْثَالِهِ وَمَوَاعِظِهِ...»[4].

٢- والشجاعة هي الصفة العقلية الثانية التي لابد أن يتحلى بها من شاء العلم، ذلك أن عدم الثقة بالنفس يتسبب في تردد الشخص في نتائج بحوثه وهنا تبرز أهمية الشجاعة النفسية في قبول النتائج.

---

(١) المزمل: ٤.

(٢) الهذ: سرعة القراءة، أما النثر: فالتباطؤ فيها بحيث لا ترتبط كلماتها.

(٣) الكافي: ج٢، ص٦١٤.

(٤) بحار الأنوار: ج٨٢، ص٤٣.

إن الحق يظهر لكثير من الناس، إلا أن قليلا منهم يراه. لماذا؟ لأن أكثرهم يخشى رؤيته، يخاف أن يتعارض مع مسبقاته الفكرية ورواسبه التقليدية، يخاف أن يتناقض مع أفكار مجتمعه وبيئته، لذلك لا يقترب منه، بل يغمض عينه إذا اقترب الحق منه. هكذا يجب أن نتحلى بشجاعة الفهم، إذا أردنا أن نخوض حقل التدبر، يجب أن نجعل الحق فوق كل شيء. فليكن معارضا لأفكارنا السابقة أو ليكن متناقضا مع أفكار الناس، لابد أن نقول إننا سوف نتبعه إذ إننا بهذه الروح الشجاعة نستطيع كشف الحقائق.

إن آراء المفسرين حول الآية يجب ألاّ تعيقنا عن التدبر من جديد في معناها بالرغم من احترامنا لها، إذ ربما يكونون جاهلين بمعناها، أو ببعض معانيها، بيّنما يوفقه الله لها.

القرآن الحكيم وإثبات معانيه

ما هي الإثباتات اللغوية التي يمكننا الاعتماد عليها في فهم القرآن الحكيم؟ نرى ثلاثة إثباتات رئيسية لمعنى القرآن: اللغة، والسياق، والتفسير المضمون.

ألف: اللغة

بالرغم من أن اللغة العربية أشمل وأدق وأجمل اللغات في أنها تعطي لكل حقيقة لفظا قريبا يتناسب معها تماما، وبالرغم من أن العرب اختاروا لكل تطور ينشأ في شيء لفظا يخصه ويوحي إلى تلك الحقيقة متلبسة بذلك التطور.

بالرغم من هذا وذاك فإن الكلمات العربية اكتنفها الغموض، مما أفقد اللفظ إيحاءه وظلاله، فلم نعد -نحن العرب- نملك رهافة الحس التي كانت تكشف الفرق ما بين لفظتي (قرب - اقترب) أو (فكر - افتكر)، حتى لم نعد نعرف الفرق بين كلمتي (سار وسارب) و(دلك وأولج) وما أشبه. ويعود ذلك إلى:

أولًا: كثرة استعمال الألفاظ في غير معانيها الأدبية، فحينما يستعمل العربي كلمة قرب في المجال المحدد لـ(اقترب)، أو حتى كلمة سار في موضع كلمة سارب، تختلط ظلال الكلمتين مع بعضهما، وتضيع الإيحاءات الخاصة.

ثانيًا: تعلقت أذهاننا بمعاني جامدة ومحددة لألفاظ عربية، وفقدنا الشعور بمحور شعاع الكلمة، نحن حينما نستعمل كلمة (جن) يتبادر إلى أذهاننا المخلوق الغريب، دون أن نفكر ولا لحظة في ارتباط كلمة (ج ن ن) مع هذا المخلوق، ونستعمل كلمة جنين دون أن نعرف أن هناك علاقة تناسب مع معنى الولد في بطن أمه (جنين) ومعنى المخلوق الغريب (جن) وهي أن كليهما مستور عن أعين الناس.

وكذلك نطلق لفظة الخمر للدلالة على السائل المسكر، ونطلق لفظة الخِمار للدلالة على الساتر لوجه المرأة، ولا نلاحظ أن علاقة اللفظين ببعضهما إنما هي من ناحية الستر، فهذا يستر الوجه، وتلك تستر العقل.

وهكذا تتداخل إيحاءات اللفظ العربي ببعضها ونفقد بذلك فهم أهم سمة من سمات اللغة العربية التي إن فهمناها لسهل علينا فهم القرآن كثيرا.

من هنا يتوجب علينا الخروج من الفهم التقليدي للألفاظ العربية نحو أفق أسمى، يستشم المعنى الإيحائي العام منها.

وهذا الخروج ضروري لفهم القرآن الحكيم إذ إنه في قمة البلاغة التي تتلخص في رعاية التناسب الشامل بين الموضوع واللفظ، وبين الواقع والتعبير. فيكون كشف المنحنيات التعبيرية والإيحاءات اللفظية ذا أهمية خاصة في القرآن أكثر من أي كتاب آخر لأنها معنية فيه بشكل لا يوصف.

يبقى السؤال: عن كيفية الخروج؟.

والجواب: على الفرد:

١- أن يتجرد أولا عن موحيات المناخ الفكري الذي يصور له معنى جامدا للفظ.

٢- ثم الرجوع إلى المادة الأساسية التي تجمع كل التصريفات للكلمة، والتفكير في المعنى المناسب لربط هذه المجموعة باللفظ، فمثلا: نجمع معاني يعرشون، عرشا، معروشات ونعود إلى تصريفات اللفظ الأخرى، عريش، وعرش وما أشبه لنستنبط منها جميعا معنى البناء الفوقي لأنه يجمع معاني سرير الملك والبناء، والمرفوع، وسيباط الكرم، والخيمة من الخشب هذه المعاني التي ذكرتها العرب لهذه الألفاظ.

٣- قياس موارد استعمال اللفظ ببعضها ليعرف المعنى المشترك الذي يمكن أن يتصور معنى جامعا بين هذه الموارد. ومن الطبيعي أن يعتبر في الاستعمال أن يكون على لسان أهل اللغة المعتنين بالبلاغة.

والأدباء اليوم يكتشفون ظلال الكلمات وإيحاءاتها من موارد الاستعمال في منطق البلغاء أكثر مما يكتشفونها في بطون الكتب اللغوية.

وذلك لأن ما في كتب اللغة لا يعدو أن يكون تسجيلا ميتا لموارد الاستعمال، أو استنباطه لمعنى مشترك منها قد قام به مؤلفو الكتب، ومن هنا يكون تَعُّرف الشخص ذاتيا هذه الموارد إستنباطه بنفسه المعنى الجامع بينها، أفضل من تقليد كتب اللغة.

وبكثرة النظر في موارد الاستعمال يؤتى الفرد حسّاً أدبيا مرهفا يجعله يميز بين كلمتين مترادفتين بشكل دقيق، بالرغم من أنه قد لا يستطيع الإفصاح عما يعرفه بدقة وتحديد. وإذا كان قياس موارد الاستعمال ببعضها أفضل السبل لمعرفة المعنى الحقيقي للفظ ما، فإن افضل قياس من هذا النوع هو قياس موارد استعمال الكلمة في القرآن ذاته، إذ إنه -ولا ريب- ذروة البلاغة العربية، التي عجز عن تحديه أبلغ فصحاء العرب.

من هنا يجدر بالذي يريد التدبر في القرآن ذاته، أن يبحث عن المعنى المحدد للكلمة في آيات القرآن ذاته، ليجد -بقياس بعض المواقع المستعملة فيها الكلمة ببعضها- المعنى الدقيق الذي يقصده القرآن.

باء: السياق

لو بحثنا عن أول يوم تعلمنا فيه اللغة لعرفنا أن السياق كان أول سبيل لهذا التعليم. فالوالد استعمل لفظ العصا عندما كان يتكلم عن الضرب فعرفنا أنها وسيلة الضرب، والوالدة أطلقت لفظة الولاعة حينما تكلمت عن الطبخ فعرفنا أنها وسيلة النار.

ولا ريب أن وجود اللفظ في إطاره المتناسب يوحي بمعناه ربما أكثر من تفسير اللفظ دون سياق يحدُّه.

والقرآن الحكيم ذلك الكتاب البليغ الذي يناسب بين المفردات في إطار السياق بحيث يصعب عليك تبديل لفظة بأخرى دون أن تضر بتناسب الكلمات.

لذلك يهدينا السياق ذاته إلى المعاني الدقيقة للكلمات؛ لأنها وضعت في موقع متناسب جداً مع تلك المعاني، فإذا أردنا أن نعرف بالدقة معنى اللفظ كان علينا مراجعة ما قبلها وما بعدها، لمعرفة ما يتناسب معها من معنى لهذه الكلمة، فمثلا لو أردنا، أن نكتشف معنى (قصد) في هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

لو أردنا ذلك لقارنا بين القصد، والجائر، والهداية، حتى نعرف معنى القصد. لأنه جاء

(١) النحل: ٩.

في مقابل الجائر الذي يعني المائل، فالقصد هو المستقيم، والجائر هو الظالم فالقصد هو العادل.

أو إذا أردنا التعرف على معنى (نفش) في هذه الآية: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[1]، لو أردنا ذلك لم يكن علينا إلا قياس كلمة نفشت بالحرث والغنم والحكم. لنعرف أن المراد منه هو إتلاف الحرث، وهكذا.

وقد جاء رجل إلى صحابي فسأله عن معنى (الأب) الذي جاء في الآية الكريمة، ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2]، فلم يعرفه. فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله، وفي ذلك قال: «يَا سُبْحَانَ الله أَمَا عَلِمَ أَنَّ الْأَبَّ هُوَ الْكَلَأُ وَالْمَرْعَى!. وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ اعْتِدَادٌ مِنَ الله تَعَالَى بِإِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ بِمَا غَذَّاهُمْ بِهِ وَخَلَقَهُ لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ مِمَّا يَحْيَا بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَ تَقُومُ بِهِ أَجْسَادُهُمْ...»[3].

جيم: التفسير

معرفة الإطار التاريخي الذي شاهد نزول الوحي، ومعرفة المورد الخاص الذي نزلت فيه، والموقف الاجتماعي الذي وجهته الآية لها أثر كبير في تفهم المعنى الدقيق للآية.

ومعرفة تفاسير أئمة الوحي عليهم السلام للآية قاطعة في معانيها. بيد أن تفاسير الأئمة عليهم السلام قد تختلف بينها أو تبين تطبيقا واحدا للآية. وهنا لابد أن نتخذ منها سبيلا لفهم المعنى العام الذي يحل مشكلة الاختلاف -من جهة- ويعطي الآية تطبيقات أشمل من جهة ثانية. ولذلك يجب ألاَّ نجمد في النصوص الواردة في تفسير الآيات على أنها المعاني الوحيدة التي تحملها، بل نتخذ منها وسيلة لفهم المعنى الأشمل للآية. وندرس كيف ولماذا انطبقت الآية على المورد الذي يعينه التفسير لنعرف أنه هل يمكن تطبيق الآية أيضا على موارد متشابه أم لا؟.

فمثلا جاء في بعض النصوص التفسيرية أن الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[4] نزلت في حق عمار بن ياسر[5]، حسناً فهل من الممكن تجميد الآية في عمار؟ كلا. بل يجب أن نفكر كيف جاءت الآية تطبيقا على حالة عمار، أليس لأنه كان قد أكره

---

(١) الأنبياء: ٧٨.

(٢) عبس: ٣١-٣٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٢٤٧.

(٤) النحل: ١٠٦.

(٥) راجع: بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٢٣، الدر المنثور: ج٤ ص١٣٢، تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٩٠.

على الشرك فأعطاهم بلسانه ما أحبوه؟ أوَليَس الموقف ذاته لو تكرر لرجل اليوم وصنع مثل ما صنعه عمار تنطبق عليه؟.

إن هذا الأسلوب من التفكير يجعل القرآن حيا في أذهاننا أبدا. وقد أمر به الدين، حيث جاء في الحديث عن عبد الرحيم القصير أنه قال: كنت يوماً من الأيام عند أبي جعفر عليه السلام فقال: «يَا عَبْدَ الرَّحِيم. قُلْتُ: لَبَّيْكَ. قَالَ عليه السلام: قَوْلُ الله ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] إِذْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: أَنَا الْمُنْذِرُ وَعَلِيٌّ الْهَادِي، مَنِ الْهَادِي الْيَوْمَ؟.

قَالَ -الراوي- فَسَكَتُّ طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ هِيَ فِيكُمْ تَوَارَثُونَهَا رَجُلٌ فَرَجُلٌ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْكَ فَأَنْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ الْهَادِي. قَالَ: صَدَقْتَ يَا عَبْدَ الرَّحِيمِ إِنَّ الْقُرْآنَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَالْآيَةَ حَيَّةٌ لَا تَمُوتُ فَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ إِذَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْوَامِ مَاتُوا مَاتَتِ الْآيَةُ لَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَلَكِنْ هِيَ جَارِيَةٌ فِي الْبَاقِينَ كَمَا جَرَتْ فِي الْمَاضِينَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحِيمِ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: «إِنَّ الْقُرْآنَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ وَإِنَّهُ يَجْرِي كَمَا يَجْرِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَكَمَا يَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَيَجْرِي عَلَى آخِرِنَا كَمَا يَجْرِي عَلَى أَوَّلِنَا»[2].

بهذا نعرف ضرورة الاستفادة من التفسير الصحيح بالفهم الواعي لحدود تطبيق التفسير لعموم الآية.

(١) الرعد: ٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٤٠٣.

التدبر والسياق القرآني

وللسياق دور كبير في بيان الواقع العلمي للقرآن والسبب أن القرآن، يلاحظ ارتباط آية بأخرى ملاحظة دقيقة. ولا تتلاحق الآيات ولا الكلمات داخل آية واحدة إلا بإحدى علاقتين: علاقة علمية أو تربوية.

العلاقة العلمية

القرآن يعكس واقع ارتباط حقيقة بأخرى فيذكرهما معاً فمثلا: يقول الله سبحانه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[1]. إن علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها حقيقة الربانية من جهة والعبودية من جهة ثانية. إذ إن العقيدة بأحدية الله توجب العقيدة بعبودية الفرد. وواضح أن العبد يجب أن يخضع لله.

وتماما مثل هذه العلاقة موجودة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[2].فعلاقة عبادة الله بتوحيده أمر واقعي من جهة أن على العبد مسؤولية العبادة لله الواحد.

وكذلك علاقة آيتين ببعضهما في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[3]. فعلاقة الآية الأولى بالثانية ناشئة من وجود ارتباط بين صفات المنافقين. فهم من جهة ينمقون كلامهم وهم من جهة ثانية يفسدون في الأرض.

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) البقرة: ٢٠٤-٢٠٥.

إن القرآن يتحدث إلينا عن نموذج من الناس. لذلك يذكر كل صفاتهم ولا تنمو صفة فيهم دون وجود أخرى.

إن هذه العلاقة نجدها في أواخر الآيات التي تنتهي في كثير من الأحيان بذكر صفة أو صفتين لله سبحانه، ترتبط بنوع المضمون المذكور في الآية، فمثلا نجد في هذه الآيات الكريمة مدى ارتباط آخر الآية بمضمونها (ارتباطًا واقعيًا)، يقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1] فالولي الذي يحب عباده ينزل عليهم الغيث، والحميد ينشر عليهم رحمته، فهناك علاقة وثيقة بين الولاية ونزول الغيث والحمد ونشر الرحمة. وكانت العرب ترى وجود هذه العلاقة وتستنبط منها أشياء وأشياء.

فمرة سمع أعرابي رجلا يتلو آية هكذا: «﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)﴾ فقال له: أخطأت!. قال: وكيف؟. قال: إن المغفرة والرحمة لا تناسبان قطع يد السارق!. فتذكر الرجل الآية وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]. فقال الأعرابي: نعم، بعزته أخذها وبحكمته قطعها»[3].

إنه عرف كيف يجب أن تكون نهاية الآية متناسبة مع بدايتها، من ناحية العلاقة الواقعية.

العلاقة التربوية

بما أن القرآن كتاب تربية، وبما أن صفات النفس ترتبط ببعضها فإن القرآن المجيد يلاحق النفس البشرية بما يصلحها من التوجيهات إن طغت -إفراطا- صفة عليها عالجها بحكمة، فإن طغت -تفريطا- عالجها بحكمة أخرى ولا يزال يُعَدِّلها حتى تتحول إلى نفس سوية.

ونستفيد من دراسة علاقة الآيات التربوية ببعضها علما بخبيئة النفوس ومعرفة بالقوانين التربوية التي تتحكم فيها، وكمثل لهذه العلاقة نذكر قوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

---

(١) الشورى: ٢٨.
(٢) المائدة: ٣٨.
(٣) راجع تفسير السمعاني: ج٢، ص٣٦.
(٤) البقرة: ١٩٥.

إن جمل هذه الآية ثلاثة:

الأولى: في الإنفاق.

الثانية: في النهي عن إلقاء النفس في التهلكة.

الثالثة: في الإحسان.

فما هي علاقتها ببعضها؟.

أول ما أمر الله بالإنفاق توجهت النفوس إليه وكانت مخافة التقصير في الإنفاق. فجاءت الجملة الثانية تنهى عن التهلكة التي تتم إذا ترك الإنفاق، وحيث إن النفوس مفطورة على البخل كان من الضروري ترجيح كفة الإنفاق، لمقابلة الشح الطبيعي عند البشر فجاءت الجملة الثالثة ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وربما نستنبط من سياق الآية المباركة: أن هناك درجتين في الإنفاق، الإنفاق الذي لولاه يهلك الإنسان ويكون بمثابة الإنفاق على الدواء، وقد أمر به الجزء الأول من الآية، والإنفاق الإضافي الذي يقوم به المحسنون، وقد أمر به الجزء الثاني من الآية.

التدبر وآفاق السنة الشريفة

ليست السنة قصة تاريخية تُروى، بل هي بيان القرآن المجيد، وإنّما تركُ السنّة وفصلُها عن القرآن يهدف تحوير فهم القرآن. إنّ الرب تعالى الذي أنزل القرآن هو الذي بعث الرسول وجعله هادياً ومبيّناً لكتابه.

قد يُقال إنّ القرآن الكريم كتابٌ أبديّ للناس جميعًا، وقد تحدى في كثير من آياته، الإتيان بمثله واحتج بذلك على الناس، ووصف نفسه بأنه النور والضياء والتبيان لكل شيء، ولكن ذلك لايعني ترك السنّة لأنّ من كمال بيانه هو تعليم الرسول ﷺ، فبالسنّة إتّضح القرآن، وهذا ما جاء به الكتاب نفسه، أوَ لا تقرأ قوله سبحانه: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]، كما أن النبي ﷺ يثبت حجية أقوال أهل بيته عليهم السلام وتفسيرهم.

والقرآن ذا بطون مختلفة، ويتفاوت الناس في فهمه، وقد جاء في الحديث عن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي احْتِجَاجِهِ عَلَى زِنْدِيقٍ سَأَلَهُ عَنْ آيَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَجَابَهُ... إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام: «وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِلْعِلْمِ أَهْلًا وَفَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[2]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[3]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[5]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾[6].

(١) النحل: ٤٤.
(٢) النساء: ٥٩.
(٣) النساء: ٨٣.
(٤) التوبة: ١١٩.
(٥) آل عمران: ٧.
(٦) البقرة: ١٨٩.

وَالْبُيُوتُ هِيَ: بُيُوتُ الْعِلْمِ الَّتِي اسْتَوْدَعَهَا الْأَنْبِيَاءُ وَأَبْوَابُهَا أَوْصِيَاؤُهُمْ فَكُلُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ يَجْرِي عَلَى غَيْرِ أَيْدِي الْأَوْصِيَاءِ وَعُهُودِهِمْ وَحُدُودِهِمْ وَشَرَائِعِهِمْ وَسُنَنِهِمْ وَمَعَالِمِ دِينِهِمْ مَرْدُودٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ وَأَهْلُهُ بِمَحَلِّ كُفْرٍ، وَإِنْ شَمِلَهُمْ صِفَةُ الْإِيمَانِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ قَسَمَ كَلَامَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: فَجَعَلَ قِسْماً مِنْهُ يَعْرِفُهُ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَقِسْماً لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ صَفَا ذِهْنُهُ وَلَطُفَ حِسُّهُ وَصَحَّ تَمْيِيزُهُ مِمَّنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ. وَقِسْماً لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ. وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِئَلَّا يَدَّعِيَ أَهْلُ الْبَاطِلِ الْمُسْتَوْلُونَ عَلَى مِيرَاثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ لَهُمْ وَلِيَقُودَهُمُ الِاضْطِرَارُ إِلَى الِائْتِمَامِ بِمَنْ وَلِيَ أَمْرَهُمْ فَاسْتَكْبَرُوا عَنْ طَاعَتِهِ...»[1].

ولذلك فإن الرسول ﷺ جاء هاديًا لما في القرآن من آفاق واسعة، وهكذا كانت آفاق القرآن ومطالعه الممتدة على الزمان يمتنع على البشر بدون التعليم الإلهي أن يلتقطها، إلا أن يؤتى أفقا علميا يحيط بمشارق (ما يُشرق عليه) النور القرآني الممتدة زمنيا، فيكون علمه بحاضره كعلمه بمنتهى ما تصل له البشرية، وأنّى لبشر ذلك بدون التعليم، وقد اصطفى تعالى لعلمه صفوة اجتباهم فجعلهم أنبياء وأئمة و أوكل بيان دينه إليهم.

نعم ورد في الكتاب ما كان في مقام الاحتجاج حيث يكفي فيه ظاهر الكلام لإقامة الحجة فيه وخصوصا ما كان منه في سياق التذكرة، واحتوى القرآن على أصول المعارف والأخلاق والأحكام بلغة واضحة محكمة تحفظ للدين معالمه وصبغته مهما تنوَّعت الأفهام والمذاهب، لكنَّ الكتاب أجمَلَ الحديث في تفصيل أمور كثيرة، فكانت الحاجة إلى بيان الرسول ﷺ.

والسر في تنوع مستويات الدلالة القرآنية متعدد الأبعاد، وأحد تلك الأبعاد إن لشتى حقول المعارف والعلوم مستويات متفاوتة، فمنها ما تكون في متناول عامة الناس أو أغلبهم، وأخرى ينالها من صرف وقتا وجهدا في تحصيلها. لذا نحن نشترك في ثقافة عامة في معارف مختلفة، ولكل حقل ثمة متخصصون يُعوَّل على رأيهم.

وهكذا يكفي في فهم الدين العام المستوى العرفي من المعرفة. لكن المعرفة العميقة بحاجة لأدوات منهجية خاصة بكل علم، ومن ثم ينشأ الاختصاص وبذل المزيد من الجهد والوقت لدراسة أي حقل لامتلاك المعرفة العلمية المتميزة.

وليست المعارف الدينية في هذا السياق بدعا من المعارف، فثمة مستوى عام تكفي فيه الأدوات المعرفية العرفية، ومستوى يتطلب تخصصا.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص ١٩٤.

ومن هنا فالدلالة القرآنية المتاحة في مستوى (الظهور العرفي) لا ريب فيه. إلاّ أنّ بيان الرسول لا يستغني عنه العلماء، وذلك لـ: (سعة الأفق الدلالي الممتد على الزمان) ولمثل (المعارف المستحدَثة وخصوصا المطلّة على الغيب).

نعم؛ إنَّ القرآن الكريم تميَّز بأسلوب فريد في اللغة العربية (مع التزامه باللسان العربي) يأخذ بالألباب ويأسر القلوب فكان مفهوما واضحا متين الحجة بالغ التأثير، لكن لا يخفى إن اللغة وحدها لا تكفي في فهم أبعاد الكلام.

فبدءاً إن القرآن في حديثه عن مواضيع استحدثها (كالآخرة، والأحكام، والمعارف العقائدية، والإشارات العلمية) قد استحدث دلالات لغوية وأبدع في التراكيب اللغوية. وثانيا إن انتماء الإنسان إلى لغةٍ مّا يجعله قادرًا على التفاهم بها دون أن توفر له المعرفة العلمية المكتوبة بها، ولا ريب إن المواضيع المعرفية المبتكرة واسعة في القرآن.

إن هذه الجِدَة في المواضيع ليست بالقياس لعرب الجاهلية أو البشرية آنئذ فحسب، وإنما بالقياس للبشرية بشكل عام، والسر إنَّ هذا الدين لليس وليد الثقافة البشرية، بل هو مختلف عنها، فإذا كان الزمان (التطور المعرفي) سيفتح الأفق لفهم الإشارات العلمية، فإنه لن ينفع في استكناه المعارف المتصلة بالغيب وتفاصيل الأحكام المجملة، ويكفينا إختلاف المسلمين دليلًا على ذلك حين حرموا أنفسهم من الناطقين عليهم السلام عن الكتاب.

وإذا كنا -معشر المسلمين- نقرأ الكتاب ونرى قسماً معتداً به مُيَسَّر الفهم لعامّة الناس ناهيك عن العلماء، فإنَّ ذلك مرده لانتشار التعليم النبوي بصور مختلفة بين المسلمين مما جعلهم يفهمون ظاهر الكتاب.

وبمراجعة السيرة النبوية سنجد أن التاريخ يكشف عن مضمون (الحاجة لبيان الرسول وتعليمه)، أي قيام الرسول الأعظم بتبيان القرآن للمسلمين، فكان صلى الله عليه وآله يشرح النص القرآني، ويكشف عن أهدافه.

إن بيان النبي صلى الله عليه وآله لعامة المسلمين كان لمجمل الدين في المستوى العرفي، والتفاوت في غير العرفي في البيان يكون منه صلى الله عليه وآله بحسب قابلياتهم (كما تميز بعض الصحابة وعُرِفَ عنهم ذلك) أو بحسب حاجاتهم (شؤون تأسيس المجتمع والدولة)، فلم يشمل القرآن كله ناهيك عن أعماقه. وهذا يتفق مع طبيعة الأمور، ويدل عليه ندرة ما صح عن الصحابة من التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله، وأيضا تحيّر الصحابة في معاني بعض الآيات.

نعم قد أنال رسول الله ﷺ من المعارف الكثير لكن إنما تلقفته القلوب الواعية[١].

وقد أرشد النبي ﷺ الأمة إلى ضرورة الرجوع إلى عترته بعد كتاب الله، للدلالة على إستمرار الحاجة إلى البيان لمعاني كتاب الله.

وبحسب رواية الترمذي في سننه بسنده عن زيد بن أرقم قال، قال: «قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِّي فِيهِمَا»[٢].

منهج التعامل مع السنة

هناك نمطان في الاستفادة من الروايات؛ الاستفادة التقليدية التي تقف عند ظاهر الرواية، فقد تذكر الروايات إنّ موسى كان طفلاً صغيراً عندما وضع في البحر، وإن اسم أُمه كان كذا، وإن هذه الأم ذهبت إلى بيت فرعون... إلى آخره من المعلومات المعروفة، وهناك روايات تتحدث عن أسباب النزول فتقول إن الآية الكذائية نزلت في فلان وفلان، ومن ثم نجمد على سبب النزول هذا. وبسبب هذا النمط من التعامل مع السنّة، تحدث مشكلتان في فهم الروايات:

الأولى: تحييد الروايات، فكأنها عامل محايد لا يتفاعل مع آليات الفهم للآيات، فتبقى الرواية والآية كُلاً على حدة بعيدتين عن الاندماج، وتكون الروايات مجرد معلومات إضافية غير ذات تأثير في الفهم للآيات القرآنية.

الثانية: تحكيم الرواية على الآية مما يهدم دلالتها بصورة قد تتضمن إلغاء حجية الدلالة القرآنية.

وقد سبق الحديث عن (إشكالية) جعل القرآن بديلا عن العقل[٣]، والقصة هنا هي ذاتها، إلا إن الرواية تصبح بديلا عن العقل وعن القرآن أيضا.

أما النمط الثاني فالكلام عنه يتضح مع الإشارة لبعض الآتي:

---

(١) جاء في مستدرك الوسائل: ج١، ص١٥٨، ح٢٣: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُسْكَانَ عَنِ الثُّمَالِيِّ قَالَ: «خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ عليه السلام إِنَّ الله اصْطَفَى مُحَمَّداً ﷺ بِالرِّسَالَةِ وَأَنْبَأَهُ بِالْوَحْيِ فَأَنَالَ فِي النَّاسِ وَأَنَالَ، وَفِينَا أَهْلَ الْبَيْتِ مَعَاقِلُ الْعِلْمِ وَأَبْوَابُ الْحِكْمَةِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ ..».

(٢) سنن الترمذي: ج٥، ص٣٢٩.

(٣) في (حقيقة التدبر) و (القرآن والتذكرة).

١ - اعتماد الروايات الموثوقة

إنّ الروايات والأحاديث المتعلقة بقصص القرآن وأسباب النزول وتفسير الآيات على نوعين؛ النوع الأول يمثل الروايات الصحيحة والموثوقة، والنوع الثاني يتمثل في الروايات أو التفاسير غير المؤكدة والتي لنا منها موقف آخر.

فبالنسبة إلى النوع الثاني من الروايات والتفاسير ينبغي الاستناد فيها إلى أهل الخبرة (في الحديث والفقه والمعارف)، للتعرف من خلال مضمونها على مدى صحتها وصدقها[1].

٢ - التجسير والتفكر

إذا كانت السنّة بيانًا للقرآن، فإنّ القرآن مهيمن عليها، لكن هذا لا يكون ذريعة للإعراض عن السنة؛ فينبغيّ ألاّ نتسرَّع في رفضها واعتبارها زخرفًا من القول، أو ضربها عرض الحائط، وإنّما درايتها ودراستها بعمق. ولمعرفة هذه الحقيقة علينا أن نشير إلى الحقيقة التالية:

---

(١) لتوضيح الصورة نشير إلى الآتي:

أولًا: الإسلام بناء شامخ رصين يشيد بعضه بعضاً، وتكامل هذا البناء يجعل كل جزء منه متصلاً بسائر الأجزاء متوافقاً منسجماً معها، وهكذا يشهد الأصل على الفرع كما يشهد الفرع عليه، والقيم السامية تشهد عليها.. وهكذا لا تشذ المفرداتٍ عن بعضها، ولا تختلف وإنما تتوافق وتتكامل، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢). وقد أرشدنا النبي وخلفاؤه المعصومون ﷺ إلى هذا المنهج في تقييم النصوص، فأمرونا بأن نعرض كلماتهم المباركة على كتاب الله فما وافقه أخذناه، كما أخبروا بأن الكتاب والعترة (أي الأحاديث التي نقلت عنهم) لا يفترقان حتى قيام الساعة.

وهذا المنهج لا يقتصر على كتاب الله سبحانه إذ أنه يشمل أيضًا الأحاديث فهي كلها تشع من مشكاة واحدة. فلابد من أخذها جملة واحدة ثم دراستها على ضوء بعضها، فإذا رأينا حديثاً يطرح فكرة شاذة لا تنسجم مع سائر الأحاديث لم نأخذ به.

إن دراسة محتوي الكلام وتقييمه على أساس سائر المنظومة الفكرية، أو على معيار سائر المعلومات التي يملكها الإنسان، إنها شرط أساس من شروط اعتماده عند العقلاء.

ثانيًا: إذا ورد حديث يخالف إجماع الأمة، أو كان إجماع يخالف ضرورة العقل أو نص الكتاب، أو كان ظاهر يخالف ضرورة العقل.. فإن كل هذه الملابسات تدعونا إلى المزيد من التثبت في الدليل، لماذا؟. لأن قوة كل دليل محدودة بقدر معين، ولا يمكن أن تعارض دليلاً أقوى، أما الدليل المشابه فإنه تضعف دلالته إلى درجة التعادل، مما نضطر معه إلى البحث عن دليل آخر.

ثالثًا: إن العقل لا يعطي ثقة مطلقة لأي دليل، وإنما في حدود الثقة العقلائية به، أما الأدلة الشرعية التي قد تقام على صحة بعض هذه الأدلة مثل الشهرة أو الإجماع أو اليد أو البينة. فلأنها إمضاء للسيرة العقلائية، وتأكيد عليها، فهي الأخرى لا تعطي ثقة مطلقة بها، بل فقط في حدود ثقة العقل بها واعتماد العقلاء عليها.

إن للآية مستوى من الدلالة يوازي الفهم العرفي، وهو الدلالة المباشرة للظاهر ولمكونات الآية اللغوية. وهذا المستوى وإن كان ليس نهاية الآية لكنه يؤثر في مسار الآفاق المتوالية لمعاني الآية، فلا يؤخذ بما ينقضه. ومن هذا القبيل التفسير (العلمي) للآيات ذات الإشارات العلمية، فالمعنى وإن تولد بشرارة التطور العلمي إلا أن ظاهر الآية هو المعيار فلا يؤخذ بما لا ينسجم معه. وإنما ذكرنا هذا التنظير بالتفسير العلمي بهدف التقريب لمراتب الحجية وتكامل الدلالة، فالرواية ودلالتها لا ينبغي أن تنقض الظاهر، لكن هي الشرارة المولدة لفهم ما تدل عليه الآية.

ومن جهة ثانية إن الأفق الذي تفتح مساره الرواية (كما تطور المعرفة) يتأتى مع إبقاء العقل متيقظا نشطا في اتجاهين؛ في إتجاه النظر الكلي لكل آليات الفهم (اللغة، السياق، الرواية،..) بحيث تتآزر لفهم الآية، وفي اتجاه النفاذ عبرها (مجتمعة) إلى المعاني المختبئة.

فمثلا؛ قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[1]، فالسياق (عمل، شاكلة، الهداية)، واللغة: (الشواكل والعلامات والملامح)، والرواية: «قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَلَى نِيَّتِهِ»[2]، فالمحصلة النهائية لدرك أبعاد الآية الكريمة الوصول إلى معنىً حاصله أنَّ عمل الإنسان يكون وفق صفاته النفسية.

وفي مثل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، فالحسد لبعض الناس على مراتب ومقامات دينية بقرينة ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[3]، ويبقي السؤال: من هم هؤلاء؟.. تجيبك الرواية أنهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله[4]. ومن هنا نلاحظ إمكانية الاستفادة من الرواية والآية كمعيار اختباري متبادل لصحة الفهم، حيث يصل المتدبر إلى الجسر الرابط بينهما.

٣ - آفاق الاستفادة من الروايات

ألف: الروايات ترفد بمعلومات عن أحداث المشهد القرآني أو أبطاله، مثل تلك التي تحكي موقف موسى عليه السلام من فرعون، أو موقف فرعون من موسى، أو تبين لنا حياة السامري فتقول إنه كان في البدء صائغاً يملك المال، فهذه الرواية توضح لنا جانباً من فلسفة القصص التي جاءت في الآيات الكريمة، أو تكشف عن تفاصيل نافعة في فهم خلفيات الأحداث.. فيتأتى لنا -مثلًا- معرفة إن

---

(١) الإسراء: ٨٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٨٥.

(٣) النساء: ٥٤.

(٤) جاء في أصول الكافي: ج١، ص٢٠٥: عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال في بيان الآية الكريمة: «نَحْنُ النَّاسُ الْمَحْسُودُونَ عَلَى مَا آتَانَا اللهُ مِنَ الْإِمَامَةِ دُونَ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِينَ».

السامري كان مترفا (رأسماليًا)، ويتأتى استنتاج أن تيارًا من المترَفين كان سائدًا في أيام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تمثل في عبادة العجل.

بـاء: الروايات تكشف الواقع الخارجي، سواء الورادة عند بيان أسباب النزول أو تلك الواردة في تأويلها (تطبيقها، وتبيان مصداقها) في حالة كذا أو شخص فلان.

إن أهمية هذا الصنف تتجلى في أمرين:

الأول: في دور (الأمثلة) في توضيح الأفكار المجردة.

الثاني: في اعتبار المثال (المروي) معيارًا اختباريًا لصحة الفهم حيث إن الآية لا تنحصر فيه ولكن لايمكن أن تنحسر عنه، بل لابدّ أن تشمله وأن تصدق عليه. صحيح إنّ الأهم هي (العبرة) التي يتيحها المعنى الكلي. لكن الاعتبار (والتأويل) يقتضي تفاعلاً بين المورد وبين المعنى الكلّي الذي يجري عليه.

لنلاحظ الرواية التي تشرح لنا قضية مسجد ضرار الذي أصبح مكانًا تجمع رؤساء المنافقين الذين زعموا أنّهم يلتزمون بالدين دون أن يلتزموا بإمام الدين وقائده، وهو النبي ﷺ، وقد خسأوا إذْ أنّ النبوة والإمامة جزءان لا يتجزآن من الدين، وأن من يؤمن بالدين لامناص له من أن يؤمن بأئمته وقادته، وإلاّ كانت أعماله مُحبَطَة، وهكذا كان أولئك المنافقون يكفرون بشكل عملي بالدين رأسًا. وهكذا فإنّ معرفتنا بقصّة مسجد الضرار التاريخية من خلال الروايات تعطينا المزيد من الوضوح لحقيقة هذا المسجد وما يشبهه من مراكز تجمّع المنافقين.

وتجدر الإشارة إلى إن الغالب في الروايات الواردة في التفسير كانت من هذا القبيل، وهذه الكثرة تكشف عن أهمية الاهتمام بتطبيق (التأويل) القرآن، والاستفادة منه في فهم آيات الذكر.

جيم: الروايات (التبيانية) التفسيرية، سواء لمفردات الآية القرآنية أو لمجمل الآية أو لرفع بعض مشكلات التفسير.

ومن ذلك -مثلاً- تفسير الظن في الاستعمال القرآني بأنه على نوعين: نوع بمعنى اليقين، والآخر بمعنى الشك. وتجدر الإشارة إلى أن الروايات ينصب اهتمامها بالمعنى السياقي دون اللغوي، بل قد تطرح الروايات المعاني العميقة. من هنا فمن الخطأ محاكمة الروايات بالمعاني اللغوية الإفرادية، أو بظواهر الآيات البدوية، بل ينبغي البحث عن الجسر بينهما، فتكون الرواية مرشداً.

دال: الروايات التي تتحدث عن السورة أو موضوعاتها، والتي لا تصنف في إطار التفسير مثل فضل السورة وما شابه ذلك. ومجال التفسير في مثل هذه الأحاديث

هو الإستفادة من بعض الإضاءات في مقاصد السور. ومن باب المثال في سورة (محمد) سنجد هذه الرواية عن الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعرِفَ حَالَنَا وَحَالَ أَعْدَائِنَا فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَإِنَّهُ يَرَاهَا آيَةً فِينَا وَآيَةً فِيهِم»[1].

فتدور محاور هذه السورة -التي تتميز بالتركيز- على بيان الأمثال للناس.. حيث تتوالى آياتها، لبيان مثالب الكفار والمنافقين، وتقارنها بصفات المؤمنين، ولعل (١٧) مفارقة بين الفريقين تنطوي عليها السورة مما يثير التساؤل لماذا هذا التركيز في سورة محمد على الفرق بين الفريقين!. أليس مِنْ أجل تمييز خط النفاق عن الخط الرسالي؟.

٤- اختلاف الرواية:

بما أن القرآن لا ينحصر في مورد نزوله، ويتسع للمصاديق المتجددة، فيجري في الزمان كالشمس تنطبق آياته كل يومٍ على حقائق جديدة. من هنا كان إختلاف الروايات (في بيان المصاديق) طبيعيًّا جدًا.

نعم ثمة اختلاف من باب التفسير، مما يتطلب المعالجة الفنية من أهل الخبرة. ونسجل هنا ملاحظتين:

الأولى: أن الآية قد تكون قابلة للروايات المختلفة من حيث تنوع مشاهدها. لاحظ مثلًا آية: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2] فقد وردت مجموعتان من الروايات حول الآية، فهناك روايات تدل على أنّ التعليم كان أسماء عن الأشياء: الماء والجبال... وهناك مجموعة تدل على أنّ السؤال كان عن الأنوار المحيطة بالعرش، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ الآية جامعة للصنفين، فلا منافاة بين أن يكون التعليم عامًّا، بينما كان السؤال خاصًّا، ولا ضير في ذلك، ولعلَّ تغيّر الضمائر في الآية يدل على ذلك.

الثانية: أحيانا (وهو الغالب) يكون للآية مطالع متعددة، وكل رواية تشير لأحدها، وإنما تشير الرواية له بخصوصه لمناسبة ما تتعلق بالسائل أو الظرف، وهكذا. وهذا في القرآن منه كثير فضلا عن الروايات.

ويمكن ملاحظة الروايات الواردة في تفسير النعمة في القرآن، فنجد تعدد التفسير (النعم المادية...نعمة الولاية)، وحينها تكون الآية شاملةً لآفاق تكشفها الروايات بحيث يكون المعنى يجمع تلك التفسيرات.

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٥.

(٢) البقرة: ٣١.

التدبر والسياق الموضوعي للسورة

يبدو إنّ أسماء بعض السور مستَلْهَمة من الكلمة الأولى التي فيها مثل سورة طه، محمّد، يس وهكذا، وقد تُستلْهَم أسماء سور أخرى من بعض المشاهد البارزة فيها، فسورة الطارق قد استُلهم إسمها من كلمة بارزة فيها، وسورة البقرة من قصة متميّزة فيها.

والسؤال: هل تعدّد السور وتباين أسمائها يعكس تباين موضوعاتها؟، وهل لموضوعها تأثير على تحديد أفكارها؟.

يحدّد البعض من المفسرين نظراته حول سور القرآن عبر الموضوعات العامة والمشتركة بينها و بين سائر السور، فكل سور القرآن في تصوره تدور حول توحيد الله، والإيمان بحاكميته المطلقة على الأرض والسماء والإنسان وهكذا.

وهذا صحيح، ولكنه لا يكفي، إذ تلك المواضيع الهامة موجودة في كل السور، ولكنّها تنوّعت فلماذا؟ وإذا كانت هناك فوارق فما هي؟.

إنّ العلم هو الإحاطة بدقائق الأمور؛ وحدود الأشياء التي تفصلها عن سواها.

وعلم التفسير -بدوره- يجب أن يحيط خبرة بالموضوعات المتميِّزة في سور القرآن، وما يميِّز هذه الموضوعات عن مثيلاتها في سائر السور، مع العلوم والمعارف الجديدة التي تُستلهم من كل سورة، ومن كل آية، بل حتى الآية الواحدة التي ترد في القرآن مرتين، ينبغي أن نبحث فيها عن معارف جديدة تميّز الآية عن التي سبقتها أو التي تلحقها بسبب إختلاف السياق.

فكل آية جديدة تنزل من السماء مرة جديدة لابدّ أنْ تحمل فكرةً جديدةً أيضًا، ففي تفسيرنا للآيات القرآنية، وفي معرفتنا للسورة القرآنية وموضوعاتها يجب أن نبحث عما يميِّزها عن سائر الآيات والسور، في نفس الوقت الذي نبحث عن الخطوط العامة المشتركة بينها وبين سائر السور.

فآيات القرآن متشابهات (بعض آياته مثل بعضها الآخر) لأن أصولها واحدة وبلاغتها واحدة، وفي نفس المستوى، وكل آيات القرآن تدل على الإعجاز، كما تدل على أنّها من الله، وليست من البشر، ولكن -في نفس الوقت- نجد أنَّ لكلّ آية من آيات القرآن موضوعاً خاصاً بها، وموضوعات أعم بالنسبة إلى سياقها.

وحتى يتضح ما نرمي إليه نشير إلى الأمور الآتية:

الأمر الأول: مسالك المفسرين من حيث نطاق التفسير ثلاثة:

الأول: -وهو والغالب في نهج المفسرين- هو التفسير التجزيئي الذي يجعل محوره الآية القرآنية. نعم يدرس الآية مع الآيات المجاورة لها المرتبطة معها في سياق لغوي متين الذي قد يغير المعنى، فمثلا المفسر لا يفصل بين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وبين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1]، وربما استفاد المفسر من الدلالة والاستعمال القرآنيين معنىً يشرح به غموض في آية ما، مثل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2]، يفسر الظلم بـ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، لكن هذا التوسع إنما هو بغرض تفسير الآية.

الثاني: هو التفسير الموضوعي الذي محوره الموضوع فيتجاوز الآية والسورة، بل تجتمع فيه الآيات المختلفة من السور المتعددة.

الثالث: فهو التفسير (السياقي، الموضعي) ومحوره السورة، فتعتبر فيه السورة الواحدة وحدة موضوعية مترابطة.

ومع تعدد هذه الأنماط، إلا إن عمل المفسرين ليس خالصا منها، وإنما الكلام عن الصبغة العامة للمفسِّر، ونجد عند كل مفسر تداخلًا بنسبةٍ مّا. نعم التفسير التجزيئي هو مبدأ التفسير للمسلكين الآخرين الموضوعي والسياقي.

الأمر الثاني: يعترض البعض على التفسير السياقي ضمن مشربين:

الأول: يستندون إلى نزول القرآن في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه بالبعض الآخر.

---

(١) الماعون:٤-٥.
(٢) الأنعام:٨٢.
(٣) لقمان:١٣.

الثاني: لم يستنكر هذه المنهجية ولكنّه فضّل عدم إتباعها والاهتمام بالجامع الكلي للقرآن وهو الهداية لكل البشر.

ويمكن أن نسجل على الأول (إثبات الترتيب التوقيفي للآيات في السورة)، ونسجل على الثاني (الاعتناء بالحكمة الإلهية).

ألف: التوقيفية في السورة

ولا خلاف في توقيفية الآية (الآية كلام قرآني مكوّن من حروف أو كلمات أو جمل) كما إن المشهور ذلك بالنسبة إلى ترتيب الآيات في السورة، بل هو ما يتعبَّد به المسلمون بأجمعهم على مختلف مذاهبهم في مثل صلواتهم. ويدل عليه:

أولًا: تقسيم القرآن إلى سُوَر؛ والسُّور يحيط ويجمع ويميِّز...

ثانيًا: التحدي بإعجاز القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[1]، فيتحداهم بما هو وحي من الله وليس من صنع البشر الجائز فيه الباطل.

ثالثًا: المنع عن الخلط بين السور في التلاوة وخصوصا الصلاة...

رابعًا: وجود آثار خاصّة للسور وفضائل مما يدل على شخصية متميِّزة للسّور منذ زمن الرسول ﷺ.

باء: الحكمة في بناء السورة

لا ريب إن التنجيم لا ينفي الوحدة الموضوعية للسورة. نعم للتنجيم أغراضه، بل ويشكل سياق (الموقف) للآية، ويكون أحد تطبيقاتها، ولا تُحبس الآية فيه، أوليس العبرة بعموم الوارد لا خصوص المورد، وقد قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[2]، ولا ريب إن العبرة ليست بزمن النزول وإنما لتناسب هذه الآيات ووحدة موضوعها حيث وضعت مع بعضها وشكلت جميعها السورة القرآنية. أوليس ﴿الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3].

---

(١) هود: ١٣.
(٢) الفرقان: ٣٢.
(٣) النمل: ٦.

الأمر الثالث: إن الغرض الأساس للكتاب هو الهداية، ومن خلال تكامل التزكية والتعليم. والغفلة عن هذا الغرض جعل البعض من المستشرقين يعتقد بعبثية الإطار حيث ظنوا إن السورة القرآنية لاحتوائها على مواضيع متفرقة لا يجمعها جامع. ومن هنا نلاحظ الآتي في مناقشة هذا الرأي:

ألف: تحديد الأفكار:

يفترض الهدف العلمي البحت تمحور البحوث حول موضوع واحد، بينما الهدف التربوي -حيث يكون الجامع والمائز- يحدد الموضوعات وإن اختلفت ظاهرا في طبيعتها تبعا للغرض التربوي، بل ويحدد الأساليب في العرض تبعا لذلك الغرض ومن أجل التأثير في النفوس.

باء: تقويم المسالك:

١- الفارق بين مسلكي التجزيئي والسياقي: أن مسلك التجزيئي يعتني بالسياق القريب اللغوي دون السياق البعيد الفكري الذي هو محل إهتمام المسلك السياقي. وبعبارة إن لكل آية معنى يهتم المفسرون بإيضاحه، والسياق اللغوي يؤثر في الدلالة على ذلك المعنى إلا أنَّ للآية أيضا وظيفة محددة في الإطار العام للسورة..

وبهذه المنهجية الجامعة بين المعنى الخاص للآية والمعنى العام في سياق السورة تتوفر لدينا آلية لفهم الحكمة من التكرار، ونفهم أسلوب المعالجة القرآنية للموضوعات.

٢- بين السياقي والموضوعي: إن الصبغة المشتركة بين مسلكي التفسير هو التعرف على رؤى وبصائر الإسلام في مختلف مجالات الحياة بصورة منظمة. لكن بينهما فروق تجعل لكل مسلك فائدته.

فإنك تجد في التفسير الموضوعي إنَّ تبويب أبوابه إنما هو باجتهاد المفسر. بينما في التفسير السياقي يكون تنظيم الموضوعات منبعثاً من السورة ذاتها. ومن هنا يتولد إقتراح منهجي في التفسير الموضوعي وهو المزاوجة مع تنظيم سورة اهتمت بذات الموضوع المبحوث كالنفاق مثلًا.

ونلاحظ فيما يخص المسلك الموضوعي أن هناك نوعين من التفكير؛ التفكير الرياضي، والتفكير الواقعي، فالتفكير الرياضي يدور دائماً بين شقين متناقضين؛ الإنسان كبير أو صغير، متزوج أو عازب، أسود أو غيره وهكذا... أما التفكير الواقعي (التركيبي) فإنه يقسم الأشياء

حسب ما تقتضيه الحقائق الواقعيّة في الخارج وفائدته الحديث عما هو موجود، دون الأمور الفرضية.

إن التفكير السليم يجمع بين الاثنين؛ فبدءاً يقسّم تقسيمات رياضية، ثم يحاول أن يجد لهذه التقسيمات الرياضية أنواعًا وأفرادًا في الواقع الخارجي، فإن لم يجد نوعًا منها في الواقع الخارجي قرّر أن هذا النوع ليس موجودًا، وإن كان ممكن الوجود عقلًا ولكنه غير موجود في الواقع الخارجي.

وكمثال في القرآن الكريم، لنحاول أن نحدد أخطاءنا بلغة الرياضيات؛ فقد تنشأ هذه الأخطاء من الإنسان نفسه، وقد تكون ناشئة من أعدائه، وهذه الأخطاء قد تكون قاتلة وقد تكون غير قاتلة، وهي قد تكون منظمة أو غير منظمة، ومن الممكن أن تكون مفاجئة أو معلومة، إذن لنحاول أن نرسم لها جدولًا في أذهاننا، ثم نبدأ بعد ذلك بقراءة القرآن، وننظر إلى الفراغات الموجودة في ذلك الجدول فنحاول أن نملأها.

إن فائدة هذا النوع من المحاسبة أنه لا يدع واقعة من الواقعات تشرد من فكر الإنسان، كما ويتيح التمييز بين الأنواع المختلفة، فإنّ من ضمن الأساليب العلمية للسيطرة على الشيء تجزئته، فإذا أردتَ أن تسيطر على فكرة معقدة فما عليك إلاّ أن تحلّلها، وتجزّئها إلى أقسام صغيرة لتسلّط الضوء على كل قسم منها.

ومن جهة أخرى إن تنظيم التفسير الموضوعي يصطبغ بالصبغة العلمية المحايدة، بينما في السياقي يرعى العملية التربوية والإصلاحية (معالجة المشكلة).

الأمر الرابع: ما هو السياق؟، وما هو سبيل التعرف عليه؟.

هو موضوع السورة المحوري الذي تدور حوله أفكارها. فهو الخيط الفكري الناظم للأفكار الفرعية، وهو القضية (والإشكالية) الرئيسية التي تعالجها الآيات.

ويمكن إختزال سبيل التعرف على موضوع السورة في خطوتين؛ الأولى تحديد الأفكار الفرعية، الثانية؛ الاستعانة ببعض العوامل المساعدة في فهم منحى تلك الأفكار.

أولًا: تحديد الأفكار:

تحديد الأفكار الرئيسة عبر التصنيف والاستقراء، هو خطوة البداية بل الأساس؛ حيث يتيح وضوح هيكلية السورة للتأمل فيها. والتصنيف هو تقسيم السورة إلى مجموعات بحسب السياقات الصغيرة (الموضوعات) وفي داخل كل صنف يمكن إجراء تقسيم (التصنيف

الصغير). والطريق إلى ذلك تقسيم السورة وفقاً للأبعاد الزمنية أو المواقف الاجتماعية أو الصفات النفسية، وهكذا.. وبالتأمل يكتشف القارئ إن لكل سورة أسلوب يسمح بالتصنيف بسهولة. ومن ذلك إستئناف الخطاب بطريقة مشابهة في كل موضوع مستأنف.

إذن؛ فإنّ ترتيب الأفكار يأتي تبعاً لترتيب الآيات، ويكون من المشروع التساؤل عن حكمة ذلك.. وتكمن مهارة المفسِّر في فصل الأفكار بعضها عن بعض تمهيدا إلى نظمها في السياق العام.

ثانيًا: العوامل المساعدة

التصنيف والاستقراء يحدِّدان الأفكار الرئيسة والفرعية. بينما وظيفة العوامل المساعدة هو توجيه البحث عن وظيفة تلك الأفكار.

إن السورة وهي تعالج موضوعاً مّا تضم أفكاراً متنوعة، فالرابط العلمي البحت لا يختزل العلائق بين الأفكار، ومجال توظيف الأفكار واسع بحسب شبكة تداعياتها الواقعية (الخارج) أو المنطقية، فالوفرة الاقتصادية - كمثال- تخلق الألفة الاجتماعية الظاهرية، ولكنها من جهة أخرى تخلق ظاهرة الترف أو الطغيان، والتقوى تأتي في سياق التحذير من هذه المعاصي وفي سياق الحث على العمل وفي سياق الإتقان أو الإخلاص وهكذا.

ومثل هذا واضح في قصص الأنبياء حيث تتكرر في سور القرآن، بيد إن وظيفة القصة في كل سورة ترتبط بسياق السورة.

ومن هنا وظيفة (العوامل المساعدة) توجيه البحث لتحديد منحى الأفكار ووظيفتها في السورة، وإلا سيكون البحث وصفاً (حسيّاً) للسورة واستقراءاً ساذجاً لا استكشافاً لغرضها تمهيدا للاستفادة منه في واقعنا.

ومن تلك العوامل المساعدة:

١- اسم السورة:

والمعوّل على الأسماء المروية ليس إلاّ. والاسم ليس دليلاً في الغالب على فهم الإطار العام للسورة، إلا أنه كاشف عن أهمية بعض الأفكار في السورة.

٢- روايات عن السورة:

مع ملاحظة أن الروايات التي يمكن الاستفادة منها مباشرة قليل وهي على أنواع:

ألف: أحاديث فضل السورة: فبعض الأحاديث الواردة في فضائل السورة تُعين المتدبر على فهم هوية السورة ومحتواها.

باء: سبب نزول السورة: للكشف عن الموضوعات الأساسية، فهي مؤشر (أحيانا) على أهمية فكرة ما في السورة.

جيم: روايات تتحدث عن السورة، لا خصوص فضلها أو سبب نزولها.

٣- فواتح السور وخواتمها:

وربما هو الأهم؛ إذ فيهما التمهيد والخلاصة. وواضح أن هذا المفتاح لا يشمل السور القصيرة. وربما نجعل ضابطاً للسور القصيرة هو تلك الوحدة السياقية اللغوية بحيث يصعب تفكيكها في موضوعات مستقلة.

٤- معالم التصنيف:

ونعني به الأشخاص، والأحداث والمشاهد، والتصنيفات - إجتماعية كانت أو دينية- ، والمواقف الأساسية التي يجسّدها الأشخاص، وعليها يدور التصنيف.

٥- مساحات الأفكار والاعتناء:

ونعني به محاولة التعرف على الأفكار المهمة من خلال درجة الاهتمام بها، وذلك عبر المساحة التي تشغلها، مثل التأكيد اللفظي التأكيد المعنوي- تكرار الألفاظ- تكرار المضامين.

٦- منحى القصة:

تفصيل أيّ قصة إنما يخدم غرض السورة. لذا فإنّ البحث عنه يكون بالمقارنة بين القصص الواردة. ويمكن الإستعانة بجدول بياني يوضّح المفارقات بين القصص، لتسهل عملية دراسة الفروق، والتي بدورها تحدّد منحى القصة.

خاتمة المطاف: أثناء البحث تختمر الأفكار وتتطور، وفي نهاية المطاف لا بد أن تجتمع الأفكار لنستكشف من خلالها غرض السورة.

فإذن؛ لا بد من تسجيل نقاط البحث يكون غرضه أمران؛ الأول تدوين الخلاصات (عناوين الأفكار والعوامل المساعدة)، الثاني بلورة الأفكار وتسجيل ما توصل إليه المتدبر في استكشاف سياق السورة، ويكون تحديد ذلك عبر الإجابة عن أسئلة تتولد مع التدبر، ومحورها الآتي:

ألف: إن السورة في صورتها الكلية تجيب على الأسئلة الكذائية (موضوع السورة).

بـاء: الإشارة لتطبيقات خارجية ونضائر تُعالج من خلال السورة في العصر الحاضر.

جيم: تحديد مصطلحات (قرآنية) تم التدبر فيها ذات أهمية خاصة لموضوع السورة.

دال: دراسة أسلوب تسلسل الأفكار من الناحيتين العلمية والتربوية.

التدبر والواقع الخارجي

إن من يهدف تفهم القرآن، يجب أن يجعله حيًّا نابضا بالحركة، وذلك عن طريق تطبيق آياته الكريمة على الواقع الخارجي.

إن لآيات القرآن أهلاً تصدق عليهم في كل عصر، فآية المتقين لها تطبيق حي كما لآية الفاسقين، فلابد أن يبحث الفرد عن هؤلاء كلما تدبر في القرآن. وهنا يتحول الكتاب المبين إلى منهاج عمل ليس هذا فحسب بل ويهدي الإنسان إلى حقائق كثيرة لأنه يساعد الفرد على فهم الأحداث المعروفة، ويكون مثله آنئذ مثل المرشد في متحف للآثار. كيف لا تفيد رؤية المتحف من دونه كما لا يغني إرشاده دون رؤية الآثار.

وهذا هو السبب في أن المعاصرين لنزول الوحي كانوا يفقهونه حتى كادوا يكونون أنبياء من سعة العلم ونضوج الفقه، ذلك لأنهم كانوا يتلقون الوحي في حمى الأحداث اليومية، لأن القرآن نزل مع الأحداث الرسالية يوما بيوم، وقد علل القرآن ذاته نزوله التدريجي بتثبيت آياته فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1]. فإذا شئنا تفهم الكتاب فلا بد أن نعرض عليه الأحداث اليومية، ليكشف لنا حقائقها الكامنة. جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله يَقُولُ: أَتَانِي جَبْرَئِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِكَ فِتْنَةٌ. قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ فَقَالَ: كِتَابُ الله فِيهِ بَيَانُ مَا قَبْلَكُمْ مِنْ خَيْرٍ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ...»[2]. في هذا الحديث: أمر الله بعرض الفتنة على القرآن لمعرفة حكم الله فيها، وهو نوع من تطبيق القرآن على الحياة الواقعية. وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ»[3].

---

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٢٤.

(٣) الكافي: ج٢، ص٥٩٨.

التدبر والتطبيق القرآني

أكبر فائدة يغتنمها المتدبر في كتاب الله هي تزكية نفسه وبناء شخصيته. حقًا إننا لا نكون ذوي شخصية مثالية من الولادة، وحقًا إن تربيتنا كانت منطوية على الكثير من السلبيات، فمن يا ترى مسؤول عنا بعد أن كبرنا؟ ومن ذا يخسر إن بقينا هكذا؟ من المؤكد أننا بحاجة إلى تربية، ولكن من الذي يربينا؟ القرآن أفضل وسيلة لتربية نفوسنا؟ لذلك وجب أن يعرض كل شخص نفسه على القرآن، ليعرف انحرافاته.

والعقبة التي تعترض طريق التربية الذاتية، قد تكون عدم اقتناع الفرد بأنه المعني بالتوجيه، بل يزعم كل شخص أن غيره فقط هو المقصود، أما هو فيجعل نفسه مقدسا عن شمول التعاليم له، هنا لابد أن يتجاوز الفرد هذه العقبة بالإيحاء الذاتي بأنه معني مباشرة بهذه التعاليم، وأن كل قصة يجد مثالها في نفسه إذا عمل ما عمله بطل القصة، وأن كل مثل يجد تطبيقه في ذاته إذا جسد مغزاه، وأن كل ثواب سوف يناله هو إن عمل الخير وأن كل عقوبة ستحيط به إن اقترف خطيئته، وهكذا يجعل من نفسه محوراً لآيات الكتاب ليتمكن من تربية ذاته وتزكيتها.

من هنا جاء في الحديث، عن الإمام الصادق عليه السلام: **«وَكَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله يَقْرَأُ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ أَوْ أَقَلَّ. إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يُقْرَأُ هَذْرَمَةً وَلَكِنْ يُرَتَّلُ تَرْتِيلًا، فَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ فَقِفْ عِنْدَهَا وَسَلِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ، وَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ فَقِفْ عِنْدَهَا وَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ النَّارِ»**[1].

هذا عن الثواب والعقاب، أما عن القصص التاريخية فكيف يمكن تزكية النفس في ضوئها. يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ آيَةً نَجَا بِهَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَاعْمَلُوا بِهِ وَمَا وَجَدْتُمُوهُ مِمَّا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَاجْتَنِبُوهُ»**[2]، بهذه الكيفية نستطيع كشف

(١) الكافي: ج٢، ص٦١٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٢، ص٤٣.

الانحرافات التي تنطوي عليها نفوسنا، لكي نستعد لتقويمها بالقرآن. كما نقدر على فهم الآيات بصورة أشمل وأعمق إذ إن ازدواج القانون (الموجود في القرآن) بتطبيقه على النفس (باعتبارها الموضوع الخارجي للقانون) إنه أفضل وسيلة لفهمهما معا.

موجز لمنهج التدبر في القرآن

قبل أن نستعرض المنهج لابد أن نذكر أمرين:

ألف: إن المنهج تلخيص لما سبق في الصفحات الماضية، إنما لخصناها لتبقى عالقة بالأذهان.

بـاء: كما أن للقرآن جانبي التزكية والتعليم، كذلك لمنهج التدبر ونحن ندمجهما ببعضهما لصنع البرنامج المتكامل:

أما المنهج الموجز للتدبر فهو التالي:

١- الهدف من التدبر إنما هو تكوين شخصية القارئ والوصول إلى أهدافها المشروعة، ومعرفة الحق والقوة الكافية لتنفيذه.

٢- ويعني التدبر التفكر المنطقي في المعنى الحقيقي للآية. في حين يعني التفسير بالرأي الاستغناء عن هذا التفكر باختلاف معنى الآية، والتدبر واجب والتفسير بالرأي حرام.

٣- ومحور التدبر البحث عن القوانين العلمية التي انطوت عليها آيات القرآن أو المناهج التربوية التي صيغت بها هذه الآيات، وبكلمة واحدة: معرفة ظاهر التربية وباطن العلم من القرآن.

٤- ويقتصر محور التدبر في الحقائق التي يصل إلى فهمها فكر المتدبر (ويسمى بالمحكم) أما ما لا يفقهه المتدبر فيدعه إلى حين يفقهه (ويسمى بالمتشابه).

٥- لمعرفة ظاهر لفظ القرآن يجب الرجوع إلى اللغة بشرطين:

الأول: تصفيتها من رواسب المناخ الضيقة، والتركيز على معناها العربي الصافي.

الثاني: التفكر في المادة الأساسية التي ينبثق منها سائر المعاني الخاصة، وهكذا يمكن جمع موارد استعمال اللفظ لنبحث عن معنى واحد مشترك بينها فنتمسك به.

٦- اجمع موارد استعمال اللفظ في القرآن وقارن بينها لتعرف ما هو المعنى الجامع المشترك بينها حسب ما يهدي إليها سياق كل واحد منها.

٧- اطرح على نفسك هذا السؤال كلما تدبرت في آية: لماذا استخدم القرآن هذه الكلمة؟ ما هي ميزتها عن كلمات مترادفة معها؟ وابحث عن الجواب في إطار المادة الخامسة والسادسة.

٨- ابحث عن التفسير الصحيح وأحذر من تحديد عموم القرآن بخصوص مورد نزوله أو بتطبيق تاريخي واحد، كلا. اهتدِ بالمورد والتطبيق إلى أمثالهما، وتعرف من خلالهما على الصفات التي أوجبت نزول الآية أو تطبيقها عليهما.

٩- ينقسم ظاهر القرآن إلى سبعة أقسام: إلى أمر وترغيب وزجر وترهيب وقصص تاريخية ومثل بيانية، وجدل مع الأعداء. تدبر في الآية، وفكر كم من هذه الأقسام تنطوي عليه؟

١٠- وتدبر في باطن الآية عن علاقة جملة بأخرى وآية بثانية، ومجموعة آيات بأخرى. فتش عن نوعين من العلاقة بينهما:

ألف: علاقة علمية بحيث يعتبر الواحد سببا للثاني أو مسببين لسبب ثالث.

بـاء: علاقة تربوية بحيث يكون الواحد مستوجبا للثاني، حتى يكون المجموع منهجا متكاملا لتربية الفرد وتزكية نفسه.

١١- عليك أن تتحلى بصفات نفسية وعقلية حتى تتمكن من اكتشاف حقائق القرآن. وهي:

ألف: الإيمان بالوحي، وأنه وثيقة بينك وبين ربك وخطاب مباشر إليك من خالقك.

بـاء: والاستعداد لتطبيق تعاليمه، والتسليم لأفكاره حتى ولو خالفت مصالحك أو تناقضت مع تقاليدك السابقة وأفكار مجتمعك.

جيم: التركيز في بؤرة واحدة بحثا عن الحقيقة، ويدعى بالتروي. وهو -أي التركيز- عمق التدبر البعيد وبغيره تصبح المواد الأخرى في هذا المنهج قشورا بغير لب.

دال: الشجاعة في التمسك بالحق والثقة بعقلك أو بما يهدي إليه من الواقع.

١٢- ابحث عن تطبيق خارجي حي لمواضيع القرآن الحكيم، ابحث عن أشخاص يصفهم القرآن، وأبحث عن أو ضاع يبينها القرآن، وأبحث عن نتائج يقول عنها القرآن.

١٣- طبق آيات القرآن على نفسك، لتجد فيها كل ما شرحه الكتاب، ولتخشَ مما قد يصيبك مما بيّنه.



* مكية: وقيل: «إنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة».

* عدد آياتها: ٧.

* ترتيبها النزولي: ٥.

* ترتيبها في المصحف: ١.

* نزلت بعد سورة المدثر.

فضلُ السّورة

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله يَا جَابِرُ: «أَلَا أُعَلِّمُكَ أَفْضَلَ سُورَةٍ أَنزَلَهَا الله فِي كِتَابِهِ». قَالَ: فَقَالَ جَابِرٌ: بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِيهَا.

قَالَ: فَعَلَّمَهُ الْحَمْدُ أُمَّ الْكِتَابِ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ لَهُ ﷺ: يَا جَابِرُ أَلَا أُخْبِرُكَ عَنْهَا. قَالَ: بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَأَخْبِرْنِي. قَالَ ﷺ: هِيَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ [يَعْنِي الْمَوْتَ]».

(وسائل الشيعة: ج٣٧ ص٢٣٢)

***

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فَأَفْرَدَ الامْتِنَانَ عَلَيَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَجَعَلَهَا بِإِزَاءِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَإِنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ [أَعْظَمُ و] أَشْرَفُ مَا فِي كُنُوزِ الْعَرْشِ. وَإِنَّ الله خَصَّ بِهَا مُحَمَّداً وَشَرَّفَهُ وَلَمْ يُشْرِكْ مَعَهُ فِيهَا أَحَداً مِنْ أَنْبِيَائِهِ مَا خَلَا سُلَيْمَانَ فَإِنَّهُ أَعْطَاهُ مِنْهَا بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَرَاهُ يَحْكِي عَنْ بِلْقِيسَ حِينَ قَالَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أَلَا فَمَنْ قَرَأَهَا مُعْتَقِداً لِمُوَالَاةِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ مُنْقَاداً لِأَمْرِهَا مُؤْمِناً بِظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا أَعْطَاهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا حَسَنَةً كُلُّ حَسَنَةٍ مِنْهَا أَفْضَلُ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ أَمْوَالِهَا وَخَيْرَاتِهَا، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى قَارِئٍ يَقْرَؤُهَا كَانَ لَهُ قَدْرُ ثُلُثِ مَا لِلْقَارِئِ فَلْيَسْتَكْثِرْ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْمُعْرَضِ لَكُمْ فَإِنَّهُ غَنِيمَةٌ لَا يَذْهَبَنَّ أَوَانُهُ فَتَبْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْحَسْرَةُ».

(مجمع البيان، ج١، ص ١٨).

الإطار العام

صفوة القرآن

إنها أفضل سورة قرآنية، وعليها تتمحور معارف كتاب الله عز وجل.

وافتتاحها -الذي هو افتتاح القرآن كله- بالبسملة الشريفة إشارة إلى لزوم البدء باسم الله قبل كل موجة تفكير وومضة إرادة وحركة عمل.. فالله هو الذي خلقنا وهدانا؛ فباسمه نبتدئ كل شيء، لأن ركن كل شيء اسم من أسمائه الحسنى..

ثم تؤكد السورة الشريفة على تخصيص الحمد لله وحده، فنذكره بالصفات الحسنى لأنه رب العالمين، وهو الرحمن الرحيم الذي خلق العالمين برحمته، ولأن مصيرهم إليه، فهو مالك يوم الدين، حيث يحكم بينهم بالعدل، فنعبده ونتوسل إليه ونستعين به، فنهتدي بأوامره فقط، ولا نكون عبيداً لمخلوقاته.

إننا يجب أن نتخذ من الاستقامة على طريق الله هدفاً دون سواه، وهو نفس طريق عباده الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وليس طريق العاكفين على الذنوب، الذين غضب الله عليهم، وليس طريق الذين ضلوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم.

إن سورة الحمد صفوة بصائر الوحي التي نجدها في القرآن كله.

الحمد مجمل معارف القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بماذا نفكر ونصمم ونعمل؟ أليس بقوى وطاقات؟ من يملك تلك القوى ومن يمدنا بتلك الطاقات أو ليس هو الله؟ إذن فكل قوة نفكر أو نصمم أو نعمل بها، هي آية من آيات الله ومظهر لأسم من أسمائه الحسنى، يجب علينا أن نقول: باسم الله قبل كل موجة تفكير وومضة إرادة وحركة عمل.

أولًا: لأنه الله الذي خلقنا وهدانا، فباسمه نبتدئ كل شيء؛ لأن كل شيء هو في الواقع مظهر لاسم من أسمائه وآية من آياته الكبيرة.

والله ينبوع كل خير ومعدن كل عظمة. وتجليه له تعالى لخلقه بأسمائه الحسنى، ومن أسمائه تنبثق السنن الربانية القائمة في الكون.

ثانيًا: وأسماء الله كلها مظاهر رحمته، ورحمته واسعة ومستمرة. ونعبر عن الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء بـ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، فهي صبغة التدبير وسنن الكون العامة، إذ الرحمة غاية الخلق. كما نعبر عن الرحمة الدائمة، التي لم تزل ولا تزال ولن تزول في المستقبل بـ﴿الرَّحِيمِ﴾. وسوف تتجسد رحمة الله الدائمة في اليوم الآخر بجنات واسعة يختص بها المؤمنون. أما في الدنيا

فهو يرحم الجميع، المؤمنين والكافرين. ولا بد أن نخلص له العبادة ونتوجه إليه وحده في كل صغيرة وكبيرة ونستعين به.

ثالثًا: وهذا الابتداء مظهر التسليم (الاسلام الإيمان بكل الحق) هو الصبغة الإلهية التي لابد أن تشيع في كل آفاق الحياة. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

موارد الحمد

[٢] حين نحمد الله ونذكره بالصفات الحسنى التي فيه والتي تتجسد عمليًا في نعمه الكبيرة والكثيرة علينا وأبرزها نعمة العناية الجسدية والروحية، التي جعل الله بها الإنسان أكرم وأفضل من كثير ممن خلق، ولكن هذه التربية لا تخص الإنسان وحده، إذ إن كل الأحياء ينعمون بتربية الله ورعايته لهم، منذ نشوئهم وحتى المهات.. فالنبات يتلقى نعمة العناية من قبل الله متجسدة في أشعة الشمس التي لا تنقطع عنه، وماء السماء الذي يصب عليه صبًا، وأملاح الأرض، والرياح اللواقح.. و.. والبر، والبحر، والجبال، والكواكب، والنجوم، والمجرات، و.. و..، كلها تنعم بعناية الله ورعايته الدائمة. إذن لنقف خاشعين أمام الله، الذي شملنا بعنايته نحن والعالم الذي من حولنا، ونقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

[٣] والصفة الثانية: التي نحمد الله عليها ونذكره بها هي الرحمة الواسعة والدائمة فهو ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

[٤] بيد أن نعم الله ليست عبثا وبلا حكمة. إنها تهدف تربية الإنسان واختباره، ثم جزاءه على الحسنى أو السوء. فهو بالإضافة إلى رحمته الواسعة والدائمة حكيم سريع الحساب شديد العقاب لابد أن نخشاه ونتقي عذابه، ونعمل بجد من أجل الحصول على مرضاته، لأنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء الأكبر. وحين يملك الله يوم الدين يملك الجنة والنار والميزان والحكم بالجنة أو النار. وهذا التعبير يبدو أفضل من التعبير بـ«المَلِك»، ذلك لأن الملك قد لا يملك في دولته إلا شيئا واحدا فقط هو الحكم والسلطة. في حين أن الله يملك السلطة والتصرف ويملك كل الأشياء حتى الأشخاص الذين يحكم عليهم، وأضاف المالكية ليوم الدين لأنه تعالى يمهل الكافرين في الدنيا.

[٥] وإذا كان الله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فلابد أن نخلص له العبادة ونتوجه إليه في كل صغيرة وكبيرة ونستعين به ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي نعبدك وحدك ونستعين بك وحدك. وهذه الفكرة ذات اتجاهين (إيجابا وسلبا).

الأول: إننا نتوسل بالله ونوثّق معه علاقاتنا ومن أبرزها الاهتداء إلى تنفيذ أوامره وتنفيذها، مما يساعدنا على تجاوز كل محنة وتحقيق التطلعات.

الثاني: إننا لا نتوسل بغير الله، حتى لا نصبح اتكاليين وذيولا لآخرين تُفرض علينا وصايتهم، وبالتالي يستعبدوننا. وعندما نتعمق قليلا في معنى هذه الآية نجدها تلخص فلسفة الحرية الإنسانية بصورة متينة. مادام لله الأسماء الحسنى والتي منها ضمان حرية الإنسان دعنا نترك إذن الأصنام التي تعبد من دون الله لأنها لا تتصف بشيء من تلك الصفات، فلا هي رب ولا رحمن ولا تملك جزاء.

التصميم على الهداية

[٦] وحين نترك الأصنام الصامتة (كالحجارة) أو الناطقة (كالذين يعبدون من دون الله) آنئذ نكون على الصراط المستقيم.

ولكن ليس بهذه السهولة نستطيع أن نحقق الاستقامة، لأن التخلص من الأصنام مهمة صعبة للغاية. وعلى الإنسان أن يضع أمامه هدفا صعبا ليحققه في الحياة هو (الاستقامة) ويسعى من أجل تحقيقه بجد ومثابرة، وذلك عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: التصميم على الاستقامة. ولن يكون التصميم على الاستقامة جاداً إلا إذا عرف الإنسان أن في الحياة طرقا شتى لا تؤدي به إلى أهدافه المنشودة. وأن هناك طريقا واحدا فقط هو الذي يوصله إليها. وعرف أن التعرف على هذا الطريق والسير فيه هو من واجباته التي عليه أن يسعى لتأديتها، وليست من نعم الله الطبيعية عليه، ليست مثلا كنعمة البصر، حيث يولد الطفل بصيرا. ولهذا فإننا ندعو الله أن يمنحنا الاستقامة ونقول: ﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهذا الدعاء دليل على أن الله لا يمنح الاستقامة إلا لمن يطلبها منه.

[٧] وقد لا تكون الاستقامة أبدية، إذ إن عواصف الشهوات وأمواج الضغوط الاجتماعية والحواجز النفسية، ووساوس الشيطان، تلعب بقلب الإنسان كما تلعب الأعاصير بريشة طائرة. من هنا على الإنسان أن ينتظر نعمة الله حتى تظل الاستقامة دائمة ومن هنا قال الله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بنعمة الهداية التي تؤدي طبيعيًّا إلى الانتفاع بسائر نعم الله. وما دامت الاستقامة نعمة توهب وقد لا توهب للإنسان، فعليه أن يظل يقظا كلما أبعدته

عوامل الانحراف عن الخط، عاد إليه بفضل وعيه وثقته بالله، وبتصميمه على الاستقامة في الحياة حتى يأتيه اليقين. وعلينا أن نعرف أن الله يجسد الصراط المستقيم في أشخاص، إذ إن الإيمان لا بد أن يكون له رصيد واقعي لئلا يتحول إلى أفكار مجردة، ربما لا تكون قابلة للتطبيق ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

المرحلة الثانية: فهي تحديد دواعي الانحراف التي تضغط على الإنسان باتجاه الانحراف أو تضغط عليه لكي يختار بوعي وعمد طريق الانحراف. مثل حب الشهوات من النساء والبنين والكماليات والتفاخر وحب السلطة.

إن أكثر الناس ينحرفون عن الاستقامة بشهواتهم لأنهم يستسلمون لضغوط الشهوات. هؤلاء يغضب الله عليهم، ويسلب منهم نور الفطرة ووهج العقل فإذا بهم في ظلمات لا يبصرون، لذلك يدعو المؤمنون أن تدوم لهم نعمة الهداية فيكونوا مستقيمين.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ممن تعمدوا الانحراف فسلب الله منهم نعمة الهداية فظلوا منحرفين إلى الأبد.

المرحلة الثالثة: التخلص من عوامل الانحراف الجبرية التي تدفع الإنسان إلى الانحراف من دون وعي ولا تصميم، وذلك مثل الجهل والغفلة والنسيان، حيث إنها من عوامل الضلالة التي يجب التخلص منها هي الأخرى حتى تتم الاستقامة.

وكثير من الناس ينحرفون لجهلهم بالدين وبما فيه من سعادة وخير. مثل أكثر الشبيبة الذين ابتعدوا عن قيم الله، يمينا أو يسارا، وضحوا من أجل مبادئ فاسدة تضحية صادقة، هؤلاء هم الجهلاء لأنهم لو عرفوا الدين الصحيح لما توانوا عن التضحية من أجل المبادئ. كذلك المؤمنون الذين يقعون في الذنوب في ظروف معينة ثم يتوبون من قريب. هؤلاء تقودهم الغفلة والنسيان. لذلك يدعو المؤمنون الصادقون أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم ولا يجعلهم من : ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إن التخلص من الضلالة اللاواعية لا يكون إلا بعد التخلص من الانحراف الواعي، إذ إن نور الله لا يدخل قلبا متكبرا معاندا مصمما على الانحراف، لذلك نجد القرآن يأمر بالتخلص من غضب الله أولاً، ثم يأمر بالتخلص من الضلالة.

وكلمة أخيرة: إن سورة الحمد بآياتها السبع، هي خلاصة لرؤى الإسلام وبصائره في الحياة. وأما التفصيل فنجده في القرآن كله.

سُورَةُ البَقَرَةِ

* مدنية.

* عدد آياتها: ٢٨٦.

* ترتيبها النزولي: ٨٧.

* ترتيبها في المصحف: ٢.

* نزلت بعد سورة المطففين.

فضل السورة

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنَّ عَلَيَّ رَبِّي وَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ فَقَدْ أَرْسَلْتُ كُلَّ رَسُولٍ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِي، وَنَصَرْتُكَ بِالرُّعْبِ الَّذِي لَمْ أَنْصُرْ بِهِ أَحَداً، وَأَحْلَلْتُ لَكَ الْغَنِيمَةَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ وَلِأُمَّتِكَ كَنْزاً مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَخَاتِمَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ...».

(بحار الأنوار ج٨٩، ص٢٣٠)

***

وقال الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُظِلَّانِهِ عَلَى رَأْسِهِ مِثْلَ الْغَمَامَتَيْنِ أَوْ مِثْلَ الْغَيَايَتَيْنِ».

(بحار الأنوار ج ٨٩، ص ٢٦٥).

الإطار العام

الشخصية الإيمانية في القرآن

الاسم أولاً

ألف: ماذا تعني كلمة السور؟ إنها تعني الإطار المحدَّد للشيء، والسورة تعني واحدة من الإطارات التي تحدد مجموعة أفكار معينة، وتعطينا في المجموع شخصية متفاعلة، وربما نستطيع أن نعبر عنها بـ(وحدة فكرية) قياسا على تعبيرنا بوحدة حرارية، وحدة ضوئية، أو أية وحدة كمية أخرى.

وهذا اللفظ أفضل من التعبير بـ(الفصل.. القسم.. البحث الأول و.. و..) لأن لفظ السورة لا يدل على فصل القرآن بعضه عن بعض وتقسيمه أقساما مختلفة مما قد توحي بأفكار بعيدة عن حقيقة القرآن، بل يدل على مدى التفاعل بين أفكار مجموعة آيات قرآنية تشكلها السورة الواحدة، حتى أننا نستطيع أن نحددها بإطار ونعتبرها وحدةً فكرية مستقلة. ومن جهة أخرى القرآن كما هو فريد بمعانيه ومعارفه وفريد بألفاظه وجمله، كذلك بالأسماء التي تسمَّى بها كـ(القرآن، السورة، الآية).

بـاء: البقرة.. ذكرت في هذه السورة ضمن قصة طريفة ذات عبرة أساسية (الآيات: ٦٧-٧٤) من الطاعة والثقة بالقيادة في حل المشاكل. وهي تنسجم مع الخط العام لهذه السورة.

عمّ تحدثنا سورة البقرة؟.

قد تواجهنا صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن يمكن القول: أن مطلع السورة يقسم الناس إلى مؤمن، وكافر، ومنافق.. مما يفهم أن القرآن ذو نظرة واقعية متفاوتة، إذ لا

يعترف بالتقسيمات المتعارفة بين الناس، كالتقسيمات العرقية والطائفية واللغوية وغير ذلك. فالدين الإسلامي يميز الناس حسب مواقفهم وأعمالهم ونوع اعتقادهم (الآيات: ١-٢٠).

ومن هذا المنطلق تسرد السورة قصة بني إسرائيل الغارقين في العنصرية والتهرب من المسؤولية الملقاة عليهم كسائر البشر.

وذكرت هذه السورة المفصلة كلمة تعبر بوضوح عن الخط العام لموضوعاتها، وهي كلمة ﴿ صِبْغَةَ ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] كإشارة عريضة إلى تحديد الصبغة الإيمانية في كافة أنشطة المؤمنين.

وبالرغم من أن سور القرآن الأخرى تتحدث عن صبغة الله أيضاً، ولكن تلك السور تركز في الحديث عن جوانب من هذه الصبغة، بينما تتحدث هذه السورة عنها بوجه عام وبشكل يترابط فيه ظلال هذه الصبغة لتكون صورة كاملة أمامنا.

تفصل (الآيات: ٢١-٢٩) صفات المؤمنين وأركان الإيمان، كما تحلل شخصية الإنسان وما ينبغي أن تكون عليه.

وتنتقل (الآيات: ٣٠- ٣٩) إلى قصة خلق الإنسان وحوار الملائكة المعروف مع الله جل جلاله، وأن الخالق قد حمّل المخلوق الجديد العلم والقدرة والمسؤولية والخلافة.

أما (الآيات: ٤٠- ١٠٣) فقد تحدثت عن الأمة وشخصيتها وصفاتها وكيف يجب أن تكون. وقد جاء القرآن هنا بنموذج من التأريخ، وهو بنو إسرائيل، لتحفيز الأمة الإسلامية على الاعتبار بقصتهم وما آلوا إليه من فساد وعنصرية وتشتت وانهيار، ولاسيما قصة البقرة الشهيرة.

إذ تبين الآيات القرآنية بهذا الشأن أن روح التكاسل حينما تتكرس في الأمة، فإنها تبدأ بالالتفاف على الأحكام الشرعية، لتنفلت منها ما استطاعت، فتراها تتشبث بمجموعة من القشريات، وتجعلها بديلة عن الحقائق الواقعية. وقصة قوم النبي موسى عليه السلام مع البقرة تمثل الحالة المشار إليها فيهم.

فهؤلاء القوم -كما تبين القصة- لم يصبحوا آنئذٍ كفاراً بالرسالة جملة واحدة، بل لعل العكس هو الصحيح، حيث كانت الرغبة تساورهم في تطبيق تعاليم الله سبحانه وتعالى، بيد أن التردد والضعف واضح في تصرفاتهم، مما يجعلهم يؤخرون تنفيذ الواجبات، تحت غطاء التشبث بقشور التعاليم. فهم كانوا يتساءلون عن لون البقرة، وطبيعتها، ومقدار عمرها،

وسائر خصائصها، بينما تركوا الجوهر الذي هو ذبح البقرة والإنفاق في سبيل الله وإطعام الفقراء، وعموم قضية تحقيق التكافل الاجتماعي، والسعي إلى القضاء على ظاهرة الجوع من ناحية، والبخل من ناحية أخرى، والإسراع في استيعاب وتطبيق الأوامر الشرعية وكذلك هي الأمة الإسلامية في بعض مراحلها المتأخرة، حيث كانت تتوغل في التفاصيل وتنسى أو تتناسى روح التعاليم والأهداف المرجوة من ورائها.

فالقرآن الكريم يحذر الناس من أن الضعف الإيماني المتمثل في التواني في تطبيق الأحكام والأوامر قد ينتهي بصاحبه إلى مرحلة أخطر، هي الابتعاد التام عن الإيمان. وطرحت (الآيات: ١٠٤- ١٢٣) الدروس والعبر التي ينبغي للأمة استفادتها من حياة بني إسرائيل وقوم موسى عليه السلام عموماً.

أما (الآيات: ١٢٤-١٤٠) فتحدثت عن النبي إبراهيم عليه السلام كنموذج رائع في التوحيد.

و(الآيات: ١٤١-١٥٠) تناولت الكعبة باعتبارها القبلة والرمز المقدس لوحدة المسلمين، ومظهراً من مظاهر الاستقلال الثقافي، وكياناً متماسكاً يميزهم عن سائر الأمم.

وذكرتنا (الآيات: ١٥١-١٥٧) بقبح التغافل عن النعمة الإلهية الكبرى، وهي نعمة الرسالة والرسول، وضرورة تذكرها وإبداء الشكر تجاهها.

وبعد الحديث الكريم عن هذه القضية يذكرنا الله في (الآيات: ١٥٨- ١٦٧) بالصفا والمروة وما تعكسانه من عبر ودروس في الصبر والعزيمة.

أما (الآيات: ١٦٨- ١٧٧) فهي تربط بين مجتمع الحرية والتقدم والرفاه والتخلص من شياطين الثروة والسلطة واستغلال الدين، وبيّن لزوم الانتفاع التام من الحياة وما فيها من نعم طيبة، لدحض التخلف والتقاليد البالية.

وبعد ذلك؛ جاء الحديث في (الآيات: ١٧٨-١٨٢) عن بعض القوانين الإسلامية، كالقصاص، باعتباره واجباً اجتماعياً يرتبط بحرمة النفس.

أما (الآيات: ١٨٣- ١٨٩) فتتحدث عن فلسفة الصوم ودوره في تنمية الوازع الداخلي (التقوى)، كما تتحدث عن بعض أحكام هذه الفريضة.

ولعل من أهم مميزات الأمة التي تفرضها (الآيات: ١٩٠- ١٩٥) هي أنها تؤمن بالجهاد لتحقيق الأهداف الإنسانيةالسامية.

وتناولت (الآيات: ١٩٦-٢٠٣) قضية الحج باعتبارها مدرسة رسالية لتربية روح الالتزام في الفرد والأمة، ولتكريس التقوى؛ إذ هي الهدف الأكبر.

أما التقوى وأهميتها في مقاومة الخلافات والنزاع فقد فصلتها (الآيات: ٢٠٤-٢١٣) بالإضافة إلى تأكيدها على أن الخلاف المشروع الوحيد هو الخلاف المبدئي بين أهل الحق وأهل الباطل.

إن الشخصية الإسلامية قائمة على أساس التقوى والتمحور حول الحق في رد الخلافات إلى الدين القويم. فالتقوى الاجتماعية والأسرية هي الحصن الإلهي والقانون المتكامل -بما ينطوي تحته من واجبات وحقوق- وهذا ما فصلته (الآيات: ٢١٤- ٢٤٢).

وطرحت (الآيات: ٢٤٣- ٢٤٩) موضوع الإيمان والتسليم بحقيقة أن الله هو الذي يقضي في الحياة بحاكميته المطلقة.

وذكرت (الآيات: ٢٥٠- ٢٥٤) قضية أن للنصر شرطين؛ هما الصبر واليقين اللذين يحملان على الاندفاع والتضحية والثقة بالمستقبل.

وتذكِّر (الآيات: ٢٥٥- ٢٦٠) ببعض أسماء الله الحسنى، وفي طليعتها أنه يهب الحياة والغنى والملك والنصر وأخيراً الهدى، كما يتابع القرآن في هذه الآيات تذكرته بربنا وبيانه لصفاته الحسنى والتي منها علمه المحيط بكل شيء، وقدرته على بعث الناس من جديد.

أما الإنفاق الذي هو ثمرة كبيرة وطيبة للإيمان وعلامة على عمق اليقين، فقد كان موضوع (الآيات: ٢٦١- ٢٧٤).

وتحدث القرآن في (الآيات: ٢٧٥-٢٨١) عن النتائج المرة للخلط بين التجارة والربا، وكذلك الفرق بين المنفق لله والمرابي. وعن أن الصلاة والزكاة وسيلتان للتخلص من ضغوط الشهوات، ومنها شهوة الاستغلال والإثراء السريع بالربا.

أما الآيتان: (٢٨٢-٢٨٣) فقد بينتا روعة العلاقة التكاملية بين التقوى وسلامة تطبيق الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية.

وفي (الآيات: ٢٨٤- ٢٨٦) حدد الله سبحانه وتعالى فيها بعض بنود المسؤولية التي تزرعها التقوى في النفوس. فأكد أن الإنسان مسؤول عن أعماله ونواياه وأن أهم مسؤوليات الإنسان هي الإيمان بالله والرسول، وأن الله يحاسب الإنسان حسب قدراته وإمكاناته.

كيف يقسم القرآن البشر؟

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ[(١)] ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ[(٢)] فِيهِ هُدًى[(٣)] لِّلْمُتَّقِينَ[(٤)] ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ[(٥)] بِٱلْغَيْبِ[(٦)] وَيُقِيمُونَ[(٧)] ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا[(٨)] رَزَقْنَٰهُمْ[(٩)] يُنفِقُونَ[(١٠)] ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[(١١)] ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ[(١٢)] عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[(١٣)] ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟[(١٤)] سَوَآءٌ[(١٥)] عَلَيْهِمْ

---

(١) ذلك: لفظة يشار بها إلى ما بعد.

(٢) ريب: الشك، وقيل هو أسوأ الشك.

(٣) هدى: دلالة.

(٤) المتقين: من الوقاية، وهي مأخوذة من الاتقاء وهو الحجز بين الشيئين.

(٥) يؤمنون: يصدقون والإيمان يعني الثقة والتصديق.

(٦) الغيب: كل ما غاب عنك ولم تشهده.

(٧) يقيمون: يؤدون، وأقام الصلاة أدّاها بحدودها، وأقام السوق لم يعطلها، ويقيمون الصلاة تأتي بمعنى يديمون أداء فرائضها.

(٨) مما: ما حرف موصول بمعنى الذي.

(٩) الرزق: العطاء الجاري.

(١٠) الإنفاق: إخراج المال.

(١١) يوقنون: يعلمون. وسُمي العلم يقيناً لحصول القطع عليه وسكون النفس إليه، فكل يقين علم وليس كل علم يقين، وذلك كأنه علم يحصل بعد الاستدلال والنظر لغموض المعلوم أو لإشكال ذلك على الناظر.

(١٢) أولئك: اسم مبهم يصلح لكل حاضر تعرّفه الإشارة وهو جمع (ذلك) في المعنى.

(١٣) المفلحون: المنجحون الفائزون، والفلاح النجاح ويأتي الفلاح بمعنى البقاء والظفر.

(١٤) الكفر: ستر النعمة وإخفاؤها والشكر نشرها وإظهارها، وكل ما ستر شيئًا فقد كفره.

(١٥) سواء: مصدر أقيم مقام الفاعل بمعنى مستوٍ، والاستواء الاعتدال، والسواء العدل.

ءَأَنذَرْتَهُمْ[١] أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ[٢] ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ[٣] وَلَهُمْ عَذَابٌ[٤] عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ[٥] وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ[٦] إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[٧] فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ[٨] بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟[٩] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟[١٠] إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ[١١] فِى طُغْيَـٰنِهِمْ[١٢] يَعْمَهُونَ[١٣] ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟[١٤] ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت[١٥] تِّجَـٰرَتُهُمْ[١٦] وَمَا كَانُوا۟

(١) الإنذار: إعلام معه تخويف فكل مُنذر معلم وليس كل معلم منذراً.
(٢) ختم: أي طبع، فيقال ختم عليه أو طبع عليه.
(٣) غشاوة: غطاء.
(٤) العذاب: استمرار الألم.
(٥) اليوم الآخر: يوم القيامة، وإنما سمي آخراً لأنه يوم لا يوم بعده.
(٦) يخدعون: أصل الخدع الإخفاء والإبهام.
(٧) المرض: لعلة في البدن ونقيضه الصحة.
(٨) أليم: موجع.
(٩) اللقاء: الاجتماع مع الشيء على طريق المقارنة.
(١٠) الخلاء: نقيض الملأ، ويقال خلوت إليه وخلوت به ويقال خلوت معه على ضربين: أحدهما بمعنى خلوت معه، والآخر بمعنى سخرت منه.
(١١) المد: أصله الزيادة في الشيء كما تأتي بمعنى الجذب لأنه سبب الزيادة في الطول.
(١٢) الطغيان: تجاوز الحد.
(١٣) عَمِهَ: يعمه أي تحيّر. والعَمَهُ التحيرُ.
(١٤) اشترى: الاشتراء الاستبدال، والعرب تقول لمن تمسك بشيء وترك غيره قد اشتراه وليس ثم شراه ولا بيع.
(١٥) ربح: الربح الزيادة على رأس المال.
(١٦) التجارة: التعرض للربح في البيع، وأضاف العرب الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها.

مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ[1] كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ[2] نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ[3] فِي ظُلُمَاتٍ[4] لَا يُبْصِرُونَ[5] ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

تتحدث هذه الآيات عن ثلاثة نماذج بشرية، وتعطي رؤية واضحة عنها: ليختار القارئ واحدا من النماذج عن بصيرة نافذة وعلم.

وهذا التقسيم طبيعي للإسلام باعتباره فكرة جديدة لا تعترف بالتقسيمات الموجودة بين الناس (الإقليم واللون واللغة والعشيرة والعنصر) التي أتت بها المبادئ الوضعية.

إن الدين الجديد يطرح تقسيمات جديدة ليتخذ الناس مواقفهم حسب هذه التقسيمات.

ولا تزال الأمة بحاجة إلى الإيمان بهذه التقسيمات وتجاوز سائر التقسيمات الخاطئة، حتى تستطيع أن تكون أكثر قدرة على تطبيق مبادئ الدين الحنيف.

بينات من الآيات:

[١] ﴿الٓمٓ﴾ ما هي هذه الأحرف التي نراها في أوائل كثير من السور القرآنية؟ وهل هي مفهومة لدينا، أم أنها كالمتشابه في القرآن، لا يعلمه إلا الراسخون في العلم. أم أن سرها مكنون عند الله ومن يطلعه على غيبه من رسول؟ لقد اختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا. ففي الوقت الذي زعم المتحكمون أنه قبيح عند العقل أن ينزل الله سبحانه وتعالى آية لا نعرف

---

(١) المثل: كالشبه وهو ما جعل كالعلم على معنىً سائرٍ يشبَّه فيه الثاني بالأول.

(٢) استوقد: أوقد، أي طلب الوقود والوقود الحطب.

(٣) ترك: الترك للشيء مثل الإمساك عنه.

(٤) ظلمات: جمع ظلمة وأصلها انتقاص الحق.

(٥) أبصر: من الإبصار وهو إدراك الشيء بحاسة البصر يقال أبصر بعينه والإبصار بالقلب مثله.

معناها. واحتجوا على ذلك بأن القرآن هدى، ولسانه عربي مبين وقد أمر بالتدبر في آياته. في الوقت ذاته نراهم يختلفون في معاني هذه الأحرف على واحد وعشرين رأياً.

فهل الاختلاف دليل العلم؟.

ويبدو لي أن حال هذه الأحرف حال المتشابه، وأرى أن المتشابه من آيات الله مفهوم للراسخين في العلم، وأن درجات الناس في العلم مختلفة ودرجات فهمهم كذلك للآيات متباينة، وكل من حوى علماً بدرجة، كان فيها راسخا وفي الأعلى منها غير راسخ وعليه أن يراجع الراسخين. وعليه فإن الإحاطة علماً بكل معاني الكتاب وبكل أبعاد علم آية قرآنية، غير ممكن. وعلينا أن نسلم لما نعلم وفيما لا نعلم نسلم لمن يعلم. وفي هذه الأحرف لا يمكننا أن ندعي أننا سنعلم كل أسرارها، كما لا يسعنا أن ننكر معرفة بعض الحقائق منها.

ونتساءل: إذا ما هي تلك الحقائق؟.

قبل الإجابة نذكِّر بأن للقرآن ظهرا وبطنا، وأن لتفسير آياته أوجها لا يرى الواحد منا إلا بعضها فيزعم أن الآخرين على خطأ، وقد يكون الجميع على صواب نسبي. وهكذا قد تكون الكثير من الأقوال هنا صحيحة، دون أن يعني أن غيرها باطل.

قالوا: الأحرف هذه أسماء للسورة التي هي فيها.

قالوا: إنها أداة تنبيه تشجع المستمعين لمتابعة الانتباه، والتفكير فيها وفيما بعدها.

وقالوا: إنها تدل على انقطاع معنى ما واستئناف كلام جديد.

وقالوا: إن الله أثنى على نفسه بها، وإنها إشارة إلى أسمائه الحسنى، حتى روي في الأدعية مناجاة الرب بها حيث جاء: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

وقالوا: إنها احتجاج على العرب حيث إن القرآن تحداهم بكتاب أُلِّفَ من هذه الأحرف فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله.

وقالوا: إنها قسم لأنها مباني كتبه، ووسائل النطق بين العباد، أو لم يقل ربنا: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١].

وقالوا: إنها معجزة البلاغة حيث لم يقصد العرب الاستفادة من هذه الأحرف هكذا من قبل. وقالوا غير ذلك مما يرجع جزئيًا إلى بعض ما ذكرت.

ونقول: بلى ولكن لا يعني إثبات رأي نفي ما عداه.

كذلك لا بأس أن تكون الأحرف أسماء للسور، وفي الوقت ذاته تشعر بانتهاء فصل قرآني وبداية فصل آخر، وتكون أيضا تذكرة وتنبيهاً تحرّض الفكر وتثير دفينة العقل وسبات الضمير وتكون إشارات لأسماء الله، إذ أن أظهر شيء في السماوات والأرض هي أسماء الله، والأحرف تشير إليها قبل غيرها. فإشارة الألف إلى لفظ الجلالة (الله) أوضح من إشارته إلى الأسد مثلا. وإذا كانت إشارة إلى أسماء الله الحسنى فإن القسم بها مناسب جداً. ومع ذلك فإنها إعجاز قرآني، بدأ العرب بشيء جديد لم يعهدوا مثله. وفوق ذلك إن فيها أسرارا سوف يكتشف الإنسان بعضها مع تقدم المعرفة. وهكذا تكون هذه الأحرف إشارات بين الرب وبين من ارتضاه لغيبه.

وجاء في الأثر:

١- في تفسير الإمام عليه السلام أن معنى ﴿الٓمٓ﴾: «يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ هُوَ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي مِنْهَا أَلِفٌ، لَامٌ، مِيمٌ، وَهُوَ بِلُغَتِكُمْ، وَحُرُوفِ هِجَائِكُمْ فَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»[1].

٢- القمي عن الباقر عليه السلام: «﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ هُوَ: حُرُوفٌ مِنِ اسْمِ الله الْأَعْظَمِ الْمَقْطُوعِ يُؤَلِّفُهُ الرَّسُولُ أَوِ الْإِمَامُ صَلَّى الله عَلَيْهِمَا فَيَكُونُ الاسْمُ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ اللهُ بِهِ أَجَابَ»[2].

٣- روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إِنَّ لِكُلِّ كِتَابٍ صَفْوَةً، وَصَفْوَةُ الْقُرْآنِ حُرُوفُ التَّهَجِّي»[3].

٤- وفي حديث شريف عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «يَا أَبَا لَبِيدٍ إِنَّ فِي حُرُوفِ الْقُرْآنِ الْمُقَطَّعَةِ لَعِلْماً جَمّاً»[4].

القرآن هدى

[٢] يلخص القرآن تعريفه لذاته في ثلاث كلمات هي:

ألف: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ثابت ومتفاعل وليس مجرد توجيهات غير مترابطة أو غير متكاملة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص١٧٣.
(٢) تفسير القمي ج ٢، ص ٢٦٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٨٨ ص٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٥٢ ص١٠٦.

بـاء: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ولا يرقى إليه شك. حقيقي لأنه غير متناقض في ذاته ولا مع الإنسان ولا بالنسبة إلى هدى العقل.

جيم: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ يهدي من يحب الهداية ويعمل من أجلها، فالتقوى حذر بالقلب وعمل في الواقع، ومن دون الحذر (العامل النفسي الذي يبعث نحو إرادة الهداية) ومن دون العمل من أجل الهداية، لن تكون هداية. فجملة القول أن الهدى هو هدي الكتاب، وإنما ينتفع به المتقون ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم يتحدث القرآن عن ثلاثة مواقف للناس اتجاه الكتاب الجديد: (التقوى، الكفر، النفاق).

[٣] من هم المتقون؟ وما هي صفاتهم البارزة؟.

أهم تلك الصفات هي الإيمان بالغيب، والذي يعني تجاوز الحقائق التي يشهدها الإنسان مباشرة للوصول إلى تلك التي لا يشهدها مباشرة. هذه المقدرة التي تجعلنا -نحن البشر- نحصل على ميزة العلم بالمستقبل (الغيب) عن طريق معرفة الحاضر (الشهود) والعلم بالماضي (الغيب) عن طريق مشاهدة آثاره على الحقائق الحاضرة (الشهود). هذه الصفة تتعمق في المتقين إلى درجة الإيمان فهم يؤمنون بالمستقبل ولا يقفون عند معرفته فقط، ويؤمنون بالماضي ولا يتوقفون عند العلم به فحسب، وفرق كبير بين الإيمان والعلم. الإيمان هو التسليم النفسي والعقلي للعلم، وتطبيقه على الحياة فعلا. وأعظم الغيب وأظهره هو الإيمان بالله الذي انتشرت آياته الظاهرة على كل أفق وفي كل شيء، والإيمان به أصل الإيمان.

والإيمان بالغيب يتعمق بالصلاة التي تفتح خطاً روحيًّا مباشرا بين الإنسان وبين الله، وتصبح جسرا بين الحضور وبين الغيب. وتتجسد هذه الصلة في العطاء الشامل. فلا إيمان ولا صلة من دون تصديق ذلك بالعطاء والإنفاق. ولكن من أي شيء يتم العطاء. هل من أنفسنا نعطي شيئا لله؟ كلا إنما نقتطع جزءاً صغيرا مما أنعم الله علينا فننفق منه. ولكل شيء عطاء مناسب له فالمال بصرفه، والجاه ببذله، والعلم بنشره وهكذا. من هنا كانت صفة المتقين أنهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

[٤] والإيمان الذي يتحلى به المتقون هو إيمان كامل لا يقتصر على بعض الحقائق فقط، وينحسر عما يخالف الأهواء، إنما هؤلاء يؤمنون بما انزل إلى الرسول من كتاب وبما انزل على الرسل من قبل رسول الله محمد ﷺ لا يفرقون بينهم. وإيمانهم بالآخرة إيمان راسخ يصل إلى مستوى اليقين، فإذا بهم مطهرون من أي شك في يوم الجزاء. بذلك تتكامل عقائد المتقين، الإيمان بالله (الغيب) وما يدعم هذا الإيمان من الصلاة والزكاة ثم الإيمان بالرسالات ثم الإيمان

بيوم القيامة.

وبالطبع الإيمان بالرسالات يدعونا إلى الإيمان بخلفاء الرسل وبامتداداتهم كما أن الإيمان بيوم الميعاد يأتي نتيجة للإيمان بعدالة الله. وهذه هي أصول الدين الأساسية التي تشكل جوهر شخصية المؤمن: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

[٥] والنتيجة التي يحصل عليها المتقون هي الهداية والفلاح. الهداية بما فيها من استقامة في العقل والروح. والفلاح بما يشمل من سعادة في الدنيا والآخرة: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

[٦] من هم الكفار؟.

الفئة الثانية من تقسيمات القرآن هم الذين يستحيل أن يعودوا إلى الحق، لأنهم عاندوا الحق وسدوا آذانهم وأعينهم عن سماع الدعوة إليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

[٧] الكفر -كالإيمان- يبدأ من الاختيار الحر للإنسان ولكنه ينتهي بالله فهو الذي يمد لهذا أو ذاك. فالمؤمن يزيده إيمانا والكافر يزيده ضلالة ويسلب منه نور الإيمان، فإذا به يصبح وقد ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ لماذا؟ لأنهم لم يستثمروا قلوبهم وعقولهم ولا سمعهم المؤدي إلى القلب، فلا فكروا هم بأنفسهم ولا هم سمعوا كلام المفكرين. فتبلدت عقولهم ولم تعد تعمل وتركهم الدعاة فلم يعودوا ينصحونهم.

﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ يستحيل بسببها رؤية الآيات والتوصل عن طريقها إلى الحقائق. لان القلب لا يعمل، فتتحول العيون إلى آلة تصور الأشياء دون أن تفهم منها شيئا.

ماذا ينتظر هؤلاء من الله؟ ماذا ينتظر من أغمض عينيه وأخذ يمشي في الظلمات؟ هل ينتظر منه الوصول إلى بيته سالما؟ كذلك من سد منافذ عقله وعاند الله والحق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

[٨] من هم المنافقون؟.

إن لهم صفات شتى أبرزها أنهم يقولون: آمنا وما هم بمؤمنين، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

[٩] ولأن المنافقين يضمرون الكفر تحت غطاء الإيمان، يحاولون جهدهم أن يبالغوا

في العبادات (ككثرة الصلاة رياء) هم يريدون خداع الله والمؤمنين بينما الحقيقة أنهم يخادعون أنفسهم؛ لأنهم يبدؤون بتصور أنهم استطاعوا أن يضمنوا الدين الحقيقي مع عدم خسرانهم للدنيا ولشهواتها؛ وذلك لأنهم يبدأون بزعم أن أعمالهم (القشرية) هي الدين، فيفرغون الدين من معانيه ويكوّنون له معنى جديدا فيمنعون عن أنفسهم الفوائد الكبيرة التي يعطيها الدين الحقيقي لو أنهم التزموا به. لهذا يقول الله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾، ثم يفصل الله القول في الخداع الذاتي الذي يمارسه المنافقون بلاوعي منهم ويقول:

[١٠] أولاً: إنهم يكرسون -بعملية النفاق- مرض الجبن والهزيمة، واللاإرادة في أنفسهم. كل ابن آدم مبتلى في قلبه بهذه الأمراض، ولكن المنافق يكرسها حتى يبني حياته كلها على هذه الشاكلة. فهو يعيش شخصيتين داخله وظاهره، وبينهما تضيع إرادته وقدرته على التحقق والمبادرة فكيف إذا صبغت حياته كلها بالكذب ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من الجبن والاستسلام و.. ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ بتكريس تلك الأمراض، ثم إن هؤلاء لا يمكنهم أن يعيشوا مطمئنين لأنهم يعيشون الخوف والقلق وخشية الافتضاح، وهذا يسبب لهم عذابا أليما، يأتيهم بسبب الكذب الذي صبغت به حياتهم كلها.

إن الواحد قد يكذب كذبة واحدة فيعيش في القلق الدائم خوف اكتشاف كذبته، ويفكر أبدا في طرق إخفاء الكذب ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾.

[١١] ثانياً: تختلط عندهم مقاييسهم العقلية (بسبب مضايقتهم لهدى الله وبسبب توتر شخصيتهم) ولذلك يتوغلون في الفساد ويزعمون أنه الصلاح بذاته. ولأنهم يعيشون العزلة نفسيًّا عن المجتمع من حولهم فهم لا يستطيعون أن يستفيدوا من نصائح الآخرين، أو تتكامل أفكارهم عن طريق التفاعل مع أفكار الآخرين. لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾.

[١٢] بينما الحقيقة غير ذلك. إن هؤلاء أصبحوا أعضاء فاسدين في المجتمع، ولكنهم فقدوا المقياس الذي عن طريقه يستطيع المرء اكتشاف الفساد من غيره فهم لا يشعرون ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾. وعبَّر القرآن بـ(الشعور) ولم يعبِّر بـ(العقل) فلم يقل (ولكن لا يعقلون) لكي يكشف لنا بأن القضايا البسيطة التي لا تحتاج إلى التفكير والتعقل (كالتمييز بين الفساد والصلاح) لم يعد يفهمها المنافق، فكيف بالقضايا المعقدة.

إن الشرط الأول للعلم بأية حقيقة هو الثقة بالذات وبالمقاييس العقلية التي يملكها

الإنسان. والنفاق يفقد صاحبه هذه الثقة فلا يعرف شيئا.

[١٣] ثالثاً: إنهم يتمحورون حول أعمالهم فيحسبونها هي الحق وغيرها الضلال والباطل. وبذلك يتهمون الناس بالسفه، ويضيعون على أنفسهم فرصة الانتفاع بآراء الناس وتجاربهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ ولكن من هو السفيه الحقيقي؟ أليس هو ذلك الذي يضيّع على نفسه فرصة الإيمان وفرصة الانتفاع بتجارب الآخرين؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

[١٤] وبسبب الانعزال النفسي عن المجتمع وعن خبراته وعقله، يستهزئون بأعمال المجتمع ويتصورونها تصورا معكوسا، وبذلك يعزلون أنفسهم عمليًّا عن المجتمع، إذ لا يساهمون في نشاطاته التي لا تعود بالنفع على المجتمع فقط بل عليهم أيضا لو عملوا بها ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾.

[١٥] وهذه النفسية المعقدة تسبب لهم ضياع فرص الهداية لهم إلى الأبد، إذ كلما سمعوا كلاما فسروه تفسيرا سلبيًّا واستهزؤوا به فبأي شيء يهتدون؟ من هنا قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يعمون عن الحقيقة فلا يرونها، حيث يضلون في حالة تردد وحيرة دائمة. ويسمي القرآن النفاق هنا طغيانا لأنه لا ينشأ إلا بسبب فقدان العبودية لله والاستسلام لشهوات الذات، وضغوط المجتمع. إذن هناك أربع أزمات يواجهها المنافق بسبب خداعه الذاتي:

أولاً: ازدياد مرضه النفسي والمؤدي به نحو العذاب الأليم.

ثانياً: توغله في الفساد.

ثالثاً: انفصاله عن خبرات المجتمع وانعزاله في قوقعة ذاته.

رابعاً: ضياع فرصة الهداية إلى الأبد، والعمى النفسي.

[١٦] ويضرب الله لنا الأمثال حتى نفهم حقيقة النفاق، ولنحذر منه فيقول: مثل النفاق مثل من يشتري شيئا ويدفع الثمن، فلا يعطيه البائع البضاعة، فيخسر ماله ولا يحصل على بضاعة. هكذا يشتري المنافق الدنيا بالآخرة يعطي الحق والهداية ليأخذ السعادة في الدنيا فلا يحصل على هذه ويخسر تلك ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾.

[١٧-١٨] ومثال آخر يضربه القرآن ليكشف لنا جانباً آخر من النفاق: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ

ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ انطفأت ولم يبق أمامه إلا الدخان والرماد ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ إن الهداية نور أضاءه الله للإنسان، والمنافق كان قريباً من النور، وظاهريًا آمن به، وربما آمن به إيماناً صادقاً في لحظة طيبة من لحظات عمره، ولكنه كفر به بعدئذ استجابة لضغط الشهوات واستسلاماً لإرادة طواغيت المجتمع الفاسد فذهب الله بنور الهداية فماذا بقي غير الظلمات والعمى ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ انهم يفقدون كل مشاعرهم وقدراتهم. فهم يفقدون القدرة على السماع، والقدرة على الكلام، والقدرة على النظر، وبالتالي القدرة على العيش في الحياة. لأنهم فقدوا مشاعرهم وقدراتهم. فكيف يعيشون؟ إنهم يتيهون في صحراء الفراغ إلى الأبد.

[١٩] ومثل ثالث يضربه الله عن واقع المنافق فلنتصور الآن أننا في العراء حيث الليل والسحاب المتراكم. الظلام يلفنا، والرعد يهزنا خوفا وهلعا.. إننا نلتمس نورا نمشي به. ماذا نفعل ننتظر بارقة في السماء تضيء لنا الأرض فنمشي في ضوئها، ولكنها تبقى لحظات وتنتهي. بعضنا يتمسك بهدى البرق حين يضيء؛ فيحاول اكتشاف الطريق، فإذا انطفأ استمر في المشي، ولكن البعض ليس هكذا، إنه يمشي كلما أضاء البرق ويقف بعدئذ. ذلك مثل المؤمن والمنافق. المؤمن ينتفع بهدى الوحي الذي يشبه برق السماء فيتمسك به، ولكن المنافق لا يتفاعل معه فيتيه في الظلمات: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[٢٠] ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الحياة صحراء وشهواتها هي تلك السحابة الكثيفة التي فيها ظلمات ورعد وبرق، ونحن فيها بحاجة إلى نور السماء يهبط علينا كما يهبط الماء من السماء، ولكن علينا أن نتمسك بهذا النور حتى لا تضيع في زحمة الحياة فنترك في الظلمات. وقد يغضب علينا ربنا فيسترد منا السمع والأبصار، ولا نستطيع أن نتحرك في أمور حياتنا قيد أنملة لأنه محيط بنا، وقادر علينا. ولا يجوز أن نغتر بما في الحياة من مظاهر القوة، فنحسب أنفسنا أقوياء من دون الله سبحانه لأنه محيط بنا، وقادر على أخذنا بقوته أخذا شديدا.

أركان الإيمان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ[1] وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً[2] وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا[3] وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن[4] كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا[5] فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ[6] مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ[7] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) خلقكم: الخَلْق هو الفعل على تقدير، وخلق السماوات فعلها على تقدير ما تدعو إليه الحكمة من غير زيادة ونقصان، والخُلُق الطبع والخليقة الطبيعة والخلاق النصيب.

(٢) السماء بناءً: سُميت السماء سماءً لعلوها على الأرض وكل شيء كان فوق شيء فهو لما تحته سماء، وكل ما علا الأرض فهو بناء.

(٣) أنداداً: الند المثل والعِدْل وقيل الند الضد.

(٤) إن: جاءت هنا لغير شك، لأن الله تعالى علم أنهم مرتابون، ولكن هذا على عادة العرب في خطابهم كقولهم ان كنت إنساناً فافعل كذا.

(٥) عبدنا: العبد المملوك من جنس ما يعقل، من التعبيد وهو التذليل لأن العبد يذل لمولاه، ونقيضه الحر.

(٦) سورة: مأخوذة من سور البناء، وكل منزلة رفيعة فهي سورة؛ فكل سورة من القرآن هي بمنزلة درجة رفيعة ومنزل عال رفيع يرتفع القارئ منها إلى منزلة أخرى إلى أن يستكمل القرآن، وقيل السورة هي القطعة من القرآن انفصلت عما سواها وأبقيت.

(٧) بشر: البشارة هي الإخبار بما يسر المخبر به إذا كان سابقاً لكل خبر سواه.

هدى من الآيات:

بعد أن قسم القرآن الناس إلى ثلاث فئات، عاد ليتحدث لنا بالتفصيل عن صفات المؤمنين، ويميزها تفصيلياً عن صفات المنافقين، ولكن قبل ذلك فإنه لابد من التذكير بأركان الإيمان وهي الإيمان بالله وبالرسالات وباليوم الآخر، وهو ما نجده في هذه المجموعة من الآيات.

بينات من الآيات:

[٢١] الإيمان بالله يتجسد في عبادته، وعبادة الله تنتهي بالإنسان إلى درجة المتقين (الذين استهل القرآن هذه السورة بذكرهم) ولكن لماذا نعبد الله، ولا نعبد آباءنا؟.

الجواب: لأنه خلقنا وخلقهم فهو ربنا جميعا. فلماذا نجعل الآباء واسطة بيننا وبين ربنا مادامت علاقتنا نحن به هي ذاتها علاقة آبائنا به سبحانه؟! إذن لا خضوع للآباء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

[٢٢] وسؤال آخر لماذا نعبد الله ونخضع لأوامره، ولا نعبد الحياة وهي التي تتصل بنا مباشرة. فهي تعطينا الرزق والروعة والقوة؟

الجواب: لأنه هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ هو أولا خلق الحياة بشكل استطعنا أن نستفيد منها. فلو كانت الأرض كلها من الحديد كيف كنا نعيش عليها، وكيف نبني ونزرع ونفتح الطرق.. و.. و.. ولو كانت السماء متهاوية تسقط علينا من هذه النيازك الكثيرة التي تجول في أرجائها. هل كنا نعيش؟!.

ثم جعل السماء تنزل علينا الماء، وجعل الأرض تنبت ألوانا من الزرع رزقا لنا، ثم بعد كل ذلك نذهب ونعبد غير الله؟! حاشا! ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

[٢٣] كيف نعبد الله؟.

باتباع رسله، وهذا الرسول بالذات لأنه جاء بمعجزة القرآن. ويسألنا: هل تستطيعون أن تأتوا بمثله!. والاعجاز دليل الصدق. إذن يجب اتباعه لأن اتباعه تجسيد لعبادة الله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[٢٤] وبالطبع سوف يشهد الجميع حتى أولئك الشهداء البعيدون عن الله، سوف يشهدون على أن القرآن أفضل مما أُوتي به مَنْ قبله. وآنئذ دعوا الشك جانبا واخضعوا للرسول. وهذه هي الرسالة ثانية العقائد الإسلامية والحلقة المتصلة بالتوحيد العقيدة الإسلامية الأولى.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هناك الجزاء العادل حيث يعاقب الكافرون بهذه النار العظيمة التي تلهب الناس والحجارة.

[٢٥] أما المؤمنون بالله وبرسالاته فإنهم في جنات فيها كل نعم الحياة وزيادة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ فهي منطقة مزروعة فيها روعة الأشجار وجمال الأنهار وفيها نعم الحياة ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ فهي من جهةٍ رزقٌ رُزقوا به في الدنيا، وهي من جهة ثانية تشبه إلى حد بعيد ما رزقوا به هناك في الآخرة لأنها كلها عظيمة اللذة، لا عيب فيها، ملائمة لحاجاتهم وتوافق تطلعاتهم فهم لا يكادون يكتشفوا الفرق بين رزق ورزق، أوليست الدنيا مزرعة الآخرة، والآخرة تجليات للأعمال الصالحة في الدنيا. وهم هناك متنعمون نفسيًا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فلا يخشون الفناء ويتمتعون بلذة حب البقاء، وهذه هي العقيدة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله.

الشخصية الإنسانية كيف يجب أن تكون؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ[1] أَن يَضْرِبَ[2] مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً[3] فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ[4] (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ[5] عَهْدَ[6] اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ[7] وَيَقْطَعُونَ[8] مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ[9] وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ[10] (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾

---

(١) يستحي: الاستحياء من الحياء ونقيضه القِحَة.

(٢) يضرب: الضرب يقع على جميع الأعمال إلا قليلًا، يقال: وضرب في الأرض وضرب في سبيل الله، وضرب فلان على يد فلان إذا أفسد عليه أمراً أخذ فيه، وضرب الأمثال إنما جعلها لتسير في البلاد. يقال: ضربت القول مثلاً وأرسلته مثلاً.

(٣) البعوض: القرقس وهو صغار البق، الواحدة بعوضة.

(٤) الفاسقين: الفسق والفسوق الترك لأمر الله، وقيل الخروج عن الطاعة، تقول العرب: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت.

(٥) ينقضون: النقض عكس الإبرام.

(٦) عهد: العهد العقد، وعهد الله وصيته وأمره.

(٧) ميثاقه: الميثاق ما وقع التوثيق به.

(٨) يقطعون: القطع الفصل بين الشيئين، وأصل ذلك من الأجسام ويستعمل ذلك أيضاً في الأغراض تشبهاً به، يقال: قطع الحبل وقطع الكلام.

(٩) يوصل: الوصل نقيض الفصل وهو الجمع بين الشيئين من غير حاجز.

(١٠) الخاسرون: الخسران النقصان، والخسار الهلاك، والخاسرون الهالكون، وأصل الخسران ذهاب رأس المال.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ[1] لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا[2] ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ[3] إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

حدثنا القرآن الحكيم عن فئات الناس. ثم ذكرنا بالإيمان وأركانه الثلاثة. والآن دخل في صلب الموضوع وهو تحليل شخصية الإنسان وما ينبغي أن تكون عليه شخصية الإنسان الفرد والإنسان الجماعة (الأمة).

قصة الخلق الأول

يبدأ القرآن بالحديث عن الإنسان الفرد في هذه المجموعة من الآيات ولكنه لا يتحدث عنه بصورة مرتبطة بالمفاهيم العامة، بل بصورة رمزية مستوحاة من قصة حقيقية مرتبطة بالواقع الحي. إنها قصة الخلق الأول التي يفصلها الله في ثلاث مراحل:

أولاً: يتحدث عن منهج التفكير الإيماني وعن الأسباب الواقعية التي تدعو إلى الكفر بالله (الآيات: ٢٦-٢٧).

ثانياً: عن خلق الله للحياة وللعالم. وخلق الله للإنسان وتزويده بالعلم وتحميله مسؤولية الاختيار بعد أن زوده بالإرادة أيضا. ثم قصة الخطيئة الأولى (الدرس القادم) حيث يوجزها القرآن هنا والعوامل المؤدية إليها.

ثالثاً: عن أن الإنسان اليوم مزود أيضا بالعلم والإرادة وعليه أن يتحمل مسؤولية أعماله.

وهذه بالطبع عبرة القصة في الدرس القادم. وخلال عرض القرآن هذه المراحل يكشف لنا عن حقائق كبيرة أخرى.

بينات من الآيات:

[٢٦] أخطر شيء يهدد قدرة الإنسان على التفكير السليم هو الاستياء وهو حالة نفسية.

---

(١) خلق: أصل الخلق التقدير.

(٢) جميعاً: الجمع الضم ونقيضه الفرق، وسميت الجهة جهة لاجتماع الناس.

(٣) استوى: الاستواء الاعتدال والاستقامة ونقيضه الاعوجاج.

تسجن العقل في زنزانة الذات وتصور له أن الفكر الصحيح والرأي السليم هو ما يصنعه خيال الإنسان نفسه، وأن الحياة لا عبرة فيها ولا معرفة. وهناك يستكبر الإنسان على تعلم التجارب الجديدة وعلى الاستفادة من تجارب الآخرين أو الانفتاح على معارفهم وعلومهم. ولكي يصور لنا هذه الحالة وأثرها السلبي في قدرة الإنسان على التفكر السليم، يحدثنا عن قصة البعوضة، إنها صغيرة ومتواضعة ولكنها قد تعلمنا أشياء كثيرة.

فإذا استكبرنا وقلنا: ما قيمة البعوضة حتى نتعلم منها، فإننا سوف لا نفهم شيئا إلى الأبد. وإذا طرحنا المسألة بشكل آخر وقلنا: نحن جهلاء والعلم ينفعنا وما يضرنا لو أخذنا العلم من هذه البعوضة فسوف نتعلم الكثير. ولكن كيف ولماذا يستكبر البعض فيضلون وينحرفون؟

الجواب: إن سبب الضلال، هو الفسق، فالفاسق الذي لا يراعي حقوق الآخرين بل يحاول عبادة ذاته، والتطواف حول مصالحه يدور معها أينما دارت، هذا الفاسق هو الوحيد الذي يستكبر، لأنه لا يستطيع أن يرى الآخرين. لا يرى إلا نفسه فقط وكأنها الوحيدة في العالم. فكيف يقدر على الانتفاع بتجارب الآخرين وهو لا يؤمن أساسا بوجودهم.

من هنا يربط منهج القرآن في العلم بين طائفة من الأخلاق وبين العلم حسبما نشرحها في الآية التالية.

أما هذه الآية فتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ فمادام الله يحترم البعوضة ولا يستحي أن يضرب مثلا بها، لأنها تمثل جانبا من الحق، والله لا يستحي من الحق. فمادام الله ربنا لا يستحي من ذلك، فلماذا نستكبر -نحن البشر- على الاستفادة من البعوضة فما فوقها؟ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لأنهم آمنوا، ولأنهم يقدسون الحق أنى وجدوه حتى لو وجدوه في البعوضة الصغيرة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ وكأنهم يستهزئون بالبعوضة ويستصغرون شأنها، يقول الله: كلا إن هذه البعوضة يمكن أن تكون موضع ابتلاء فتشكل خطاً فاصلا بين طائفتين كبيرتين من الناس ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ الذين يؤمنون يستفيدون من البعوضة لأنهم يقدرون الحق ويقدسونه. وأما الكافرون يستكبرون فيتوغلون في الكفر. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

من هم الفاسقون؟ في الآية التالية شرح لذلك.

[٢٧] للفاسقين صفة نفسية واحدة. هي عبادة الذات. ولها مظاهر عملية كثيرة أبرزها ثلاثة:

ألف: نقض العهد: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ فهم لا يحترمون عهد الله ويضعون أنفسهم فوق العهد المقدس.

باء: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فلا يؤدون حقوق الناس من القربى واليتامى والمساكين وغيرهم، ولا يحترمون حرمات الناس التي يجب أن تراعى، بل يدوسون عليها سعيا وراء مصالح ذواتهم وشهوات أنفسهم.

جيم: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يحترمون الحياة أبدا. فقد يحرق الواحد منهم حقلا كاملا لكي يتمتع لحظة واحدة بمنظر النار تلتهم رزق الملايين. إن هذه الفئة لا تحترم الله ولا الإنسان ولا الطبيعة. لأنها لا ترى قدرا لغير ذاتها. وهؤلاء هم الذين يضلهم الله، لأنهم وضعوا أنفسهم في معتقل أنفسهم فلم يبصروا إلا مصالحها. فكيف يمكن أن يفهموا الحياة، هل يستطيعون أن يخدموا أنفسهم بهذه الطريقة؟ كلا بل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ سرعان ما يلعنهم الله والناس وتلفظهم الطبيعة لفظا.

[٢٨] عبادة الذات خطأ. لأنها تؤدي ببساطة إلى الجهل والخسران، في حين كان يجب أن ينطلق الإنسان في تقييمه للحياة، وفي عمله فيها من نقطة أخرى هي الإيمان بالله. لأن الله في الواقع هو الذي خلق الذات، وخلق الحياة، وهو ربهما الأعلى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ متى وكيف وبماذا أحيانا الله؟ لا يهمنا ذلك، إنما الذي يهمنا الآن أننا كنا في التراب الميت، في الماء وفي الهواء فأصبحنا الآن أحياء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث الأكبر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب.

[٢٩] ولم يتركنا بعد الحياة عبثا إنما شملت رحمته كافة جوانب حياتنا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ خلقها وخلقنا بشكل نستطيع أن نسخرها في خدمتنا. أوجد المعادن في الجبال، وأعطانا القدرة على تحويلها إلى أدوات في سبيل راحتنا. وخلق ينابيع الماء، ومنابع النفط، ومناجم الفحم، ومعادن الذهب والنحاس في باطن الأرض، وأعطانا القدرة على استخدامها.. فكيف نعبد أنفسنا ولا نعبد الله. دعنا نخرج من ذواتنا، ونعيش مع ما خلق لنا الله في الأرض.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وتوجه إليها بقدراته الواسعة، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ سماوات عديدة لا نعرف عنها إلا قليلا ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه قدير وعليم ونحن ضعفاء وجهلاء، دعنا إذن نعبده لنكتسب القدرة والعلم. هذه القدرة والعلم هما الميزتان الرئيسيتان للإنسان.

كيف كان ذلك؟ في الآيات التالية قصة ذلك.

كيف خضعت الطبيعة للإنسان؟

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ (١) إِنِّي جَاعِلٌ (٢) فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً (٣) قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ (٤) ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ (٥) بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ (٦) لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) الملائكة: جمع المَلَك، واختلف في اشتقاقه فذهب أكثر العلماء إلى أنه من الألوكة وهي الرسالة، وقال الخليل: الألوك الرسالة وهي المألكة، والمألكة على مَفْعَلَة، وقال غيره إنما سميت الرسالة ألوكا لأنها تمضغ في الفم.

(٢) جاعل: الجعل والخلق والفعل والإحداث نظائر، وحقيقة الجعل تغيير الشيء عما كان عليه، وحقيقة الفعل والإحداث الإيجاد.

(٣) الخليفة: الخليفة والإمام واحد في الاستعمال إلا أن بينهما فرقاً، فالخليفة من استخلف في الأمر مكان من كان قبله، والإمام مأخوذ من التقدم فهو المتقدم فيما يقتضي وجوب الاقتداء به وفرض طاعته.

(٤) السفك: صب الدم.

(٥) نسبح: التسبيح التنزيه لله تعالى عما لا يليق به.

(٦) نقدس: التقديس التطهير ونقيضه التنجيس.

﴿فَأَزَلَّهُمَا (١) ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ (٢) بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَمَتَٰعٌ (٤) إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩)﴾.

هدى من الآيات:

في حوار جرى بين الله وبين ملائكته، نجد أن الملائكة اعترضوا على الله وتساءلوا: لماذا يخلق الإنسان؟ وقالوا: إنه سوف يقوم بالخطيئة، فعرفهم الله الحقيقة وكيف يحمل الإنسان العلم والقدرة، وهما ميزتان كافيتان حكمة وهدفا لخلق الإنسان.

بينات من الآيات:

[٣٠] لنستمع إلى ذلك الحوار الملهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

ماذا تعني كلمة الخليفة؟ يبدو أن الأرض كانت مسكونة فأبيد سكانها فأراد الله أن يجعل فيها من يسكنها من خلفهم، أي من بعدهم. وكذلك فإن الكلمة لا تعني أن الإنسان خليفة الله أي نائب الله ووكيله في الأرض، إذ إن الله لم يمت حتى يخلفه أحد.

ولكن كيف عرف الملائكة: أن الإنسان سيفسد في الأرض؟ هل عرفوا ذلك بالقياس إلى

---

(١) أزلهما: الزلة والخطيئة والمعصية والسيئة بمعنى واحد وضد الخطيئة الاصابة، يقال: زلّت قدمه زلاً وزلّ في مقالته زلة، والمزلة مكان الزلل، والأصل في ذلك الزوال، والزلة زوال عن الحق، وأزلَّهُ الشيطان أزاله عن الحق.

(٢) اهبطوا: الهبوط والنزول والوقوع نظائر وهو التحرك من علو إلى أسفل، وقد يستعمل الهبوط بمعنى الحلول في المكان والنزول به، قال تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾.

(٣) مستقر: القرار الثبات، والمستقر يحتمل أن يكون بمعنى الاستقرار ويحتمل أن يكون بمعنى المكان الذي يستقر فيه.

(٤) متاع: المتاع والتمتع والمتعة والتلذذ متقاربة المعنى، وكل شيء تمتعت به فهو متاع.

سكان الأرض من قبل الإنسان؟ أم لأنهم اكتشفوا ذلك بعد أن عرفوا طبيعة الإنسان المزودة بالعقل والشهوات؟ لا ندري، المهم أنهم اعترضوا على الله، لأنهم زعموا أن الله لا يخلق الخلق إلا لكي يقدسوه ويسبحوا بحمده. فقال لهم الله: كلا ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

[٣١-٣٢-٣٣] ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ خلق الله آدم وحمّله علماً، فعرف الملائكة أن حكمة الخلق ليست هنا الطاعة وحدها، بل الطاعة بعلم ووعي فتراجعوا عن اعتراضهم.

ولكن ما هي الأسماء التي علمها الله لآدم؟ هل هي أسماء مجموعة من الناس، أم مجموعة من الأشياء؟ ربما تكون الأسماء في التعبير القرآني هي العلوم، لأن العلم لا يصل إلى حقيقة الأشياء بل يكشف خصائصها وعلائمها (أسمائها) فقط لذلك عبر القرآن عن العلوم بالأسماء. ولكن لماذا قال الله أسماء هؤلاء ولم يقل أسماءها أو أسماء هذه، إشارة إلى أشياء الطبيعة؟.

في بعض النصوص: إن كلمة هؤلاء إشارة إلى النبي محمد ﷺ، وآله عليهم السلام، كما تشير إلى ذلك جملة من الأحاديث الشريفة التي رواها العديد من علماء المسلمين عموماً، باعتبار أن الرسول وخلفاءه هم الصفوة المختارة من أبناء آدم عليه السلام وبالتالي موضع تجلي حكمة الله من الخلق. أو ليس رسولنا الأكرم آية عظمة الله وهكذا خلفاؤه المعصومون. ويبدو أن التعليم الإلهي لآدم عليه السلام كان عامّاً، في حين أن السؤال كان خاصّاً بما أشارت له تلك الأحاديث الشريفة.

وهناك رأي آخر هو أن الآية تشير إلى الملائكة أنفسهم -والملائكة بدورهم مهيمنون على قوى الطبيعة- ومعرفة أسماء الملائكة تعني العلم بخصائص الأشياء وعلامات قوى الطبيعة. وحين قال الملائكة: سبحانك، عبروا عن مدى تقديسهم لله وأنه وحده الكامل أما هم فضعفاء ولا علم لهم.

ولعل في الآية الأخيرة دلالة على أن الملائكة كانوا قد أضمروا أشياء أخر وراء اعتراضهم. ربما أضمروا نوعا من الحسد تجسد بعدئذ في إبليس حين استكبر عن السجود، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

وفي القصة كلها رمز آخر لابد أن نفصل القول فيه:

إن الملائكة هي المخلوقات الموكلة بالحياة فهناك ملائكة الرحمة وهناك ملائكة الغضب وملائكة المطر والبحر والسحاب. وسجودهم لآدم عليه السلام هو رمز تسخير الطبيعة له.

وهناك أحاديث تدل على وجود ملائكة موكلين بالطبيعة نذكر فيما يلي طائفة منها:

١- في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يَقُولُ: بِأَمْرِ اللهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي رَكِيٍّ[1] أَوْ يَقَعَ عَلَيْهِ حَائِطٌ أَوْ يُصِيبُهُ شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ يَدْفَعُونَهُ إِلَى الْمَقَادِيرِ وَهُمَا مَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ بِاللَّيْلِ وَمَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ بِالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِ»[2].

٢- في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل عن الرعد، فقال صلى الله عليه وآله: مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ»[3].

٣- القمي عن الصادق عليه السلام: في قوله ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾: إن ابْنَ الْكَوَّاءِ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عن: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ فَقَالَ عليه السلام: الرِّيَاحُ. فَقَالَ: وَمَا: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾، قَالَ عليه السلام: السَّحَابُ. قَالَ: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ قَالَ عليه السلام: الْفُلْكُ. قَالَ: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾، قَالَ عليه السلام: الْمَلَائِكَةُ»[4].

٤- عن الرضا عليه السلام: «فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ تُقَسِّمُ أَرْزَاقَ بَنِي آدَمَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ فَمَنْ يَنَامُ فِيمَا بَيْنَهُمَا يَنَامُ عَنْ رِزْقِهِ»[5].

٥- عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يصف الملائكة ويعدد الحجب قال: «كُلُّ حِجَابٍ مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، قُوَّةُ كُلِّ مَلَكٍ، مِنْهُمْ قُوَّةُ الثَّقَلَيْنِ، مِنْهَا ظُلْمَةٌ، وَمِنْهَا نُورٌ، وَمِنْهَا نَارٌ، وَمِنْهَا دُخَانٌ، وَمِنْهَا سَحَابٌ، وَمِنْهَا بَرْقٌ، وَمِنْهَا رَعْدٌ، وَمِنْهَا ضَوْءٌ، وَمِنْهَا رَمْلٌ، وَمِنْهَا جَبَلٌ، وَمِنْهَا عَجَاجٌ، وَمِنْهَا مَاءٌ، وَمِنْهَا أَنْهَارٌ...»[6].

وهناك أحاديث كثيرة تتحدث عن الحفظة، ملائكة الليل والنهار، ملك الموت، الرسل الذين يرسلون لنصرة المؤمنين، وإنزال السكينة عليهم. وهي تدل على أن الطبيعة وكّل بها الملائكة.

---

(١) ركي: البئر وجمعه ركايا.
(٢) تفسير القمي: ج١ ص٣٦٠.
(٣) تفسير الصافي: ج٣ ص٦١.
(٤) تفسير القمي: ج٢ ص٣٢٧.
(٥) وسائل الشيعة: ج٦ ص٤٩٧.
(٦) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٣٩.

وهكذا سخر الله الطبيعة للبشر بعد أن زوده بالعلم وأسجد الملائكة لآدم عليه السلام بسببه.

[٣٤] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ السجود هنا رمز الخضوع كما كانت الملائكة موكلة بالقوى الطبيعية في الحياة. وأمر الطبيعة أن تسخر للإنسان فاستجابت كلها، ولكن بعضها لم يستجب فما هو ذلك البعض يقول الله سبحانه: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

من هو إبليس، ولماذا لم يسجد، ولماذا استكبر؟ في الآيات التالية إجابة عن هذه الأسئلة ولكننا نستبق السياق لنقول: إن لكل جانب من قوى الطبيعة ملكا موكلا به، والملائكة كلهم سجدوا لآدم، ومن خلالهم سخرت قوى الطبيعة كلها للإنسان (بالعلم)، ولكن هنالك ما وكل بقوة طبيعية لم يسجد للإنسان، وعلى الإنسان أن يخضعه وليضمن سجوده فمن هو؟ وماذا يمثل من الطبيعة؟

إنه إبليس، الموكل بطبيعة الإنسان ذاته (النفس الأمارة بالسوء). فإذا أخضع الإنسان طبيعته التي وُكِّلَ بها إبليس، وجعلها تسجد له آنئذ استطاع أن يسخر الحياة كلها. بيد أن أكثر الناس يغفلون عن هذه الحقيقة فتصرعهم طبيعتهم.

[٣٥-٣٦] ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إن إبليس أزل أبانا آدم وزوجه، ولكن بماذا؟.

بتلك الطبيعة الموجودة عندهما، فأُخرِجا من الجنة وأُبعِدا عن الطبيعة المسخرة لهما. وهكذا سوف يُزِلُّ إبليس أبناء آدم، ويبعدهم عن الجنة في الآخرة، وعما سخر الله للإنسان في الحياة من النعم. إذا أطاعوه.

ما هي هذه الشجرة التي نهى الله آدم عن الاقتراب إليها، هل كانت شجرة التفاح، أم العنب، أم كانت الحنطة، أم ماذا؟ ليس المهم أن نفهم ذلك بل المهم أن نعرف العبرة من وراء القصة، وهي: أن في الطبيعة أشياء تضر الإنسان وقد نهى الله عنها، وعلى الإنسان أن يبتعد عنها حتى يتمكن من الاستمرار في تسخير الحياة. ولكن إبليس يثير النفس الأمارة بالسوء، ولا يدع الإنسان حتى يدفعه إلى تلك الأشياء المنهي عنها الضارة. وهنا يطرح هذا السؤال:

كيف يخرج الإنسان من جنة النعيم حين يرتكب الخطيئة ويتبع الشيطان والنفس الأمارة بالسوء؟

الجواب: هناك طرق شتى، ولكن أبرزها: هبوط الإنسان إلى مستنقع الخلافات البشرية حيث يبدأ الناس بظلم بعضهم بعضاً ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

[٣٧] وفي مواجهة الصراع بين البشر بعضه مع بعض، وفي مواجهة الطبيعة الشريرة المدعومة بإبليس في داخل النفس البشرية، يصاب الإنسان بالضعف والجهل. وهنا تسعفه رسالات الله بالهدى، فمن تمسك بهذا الهدى نجا، ومن لم يتمسك ضل ضلالا مبينا.

أما أبونا آدم عليه السلام فقد تمسك به جيدا مما يبشر بأن المطاف سينتهي بانتصار الإنسان على طبيعته الشريرة بفضل هدى الرب سبحانه ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ماذا كانت تلك الكلمات لعلها كانت رسالة الله إلى آدم حسب حاجاته وحاجات مجتمعه الناشئ، وفي النصوص المأثورة: إنها كانت أسماء النبي محمد صلى الله عليه وآله وآله حيث دعا بهم آدم عليه السلام ربه فاستجاب له دعاءه.

[٣٨] وأصبحت تلك سنة الله تعالى أنه يبعث رسالته إلى الناس لينقذهم من طبيعتهم الشريرة ومن صراعهم مع بعضهم ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ فعلى الجميع اتباع ذلك الهدى ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ للماضي.

[٣٩] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذه هي عبرة القصة كلها.. إن الله سخر للإنسان ما في الأرض بالعلم، ثم سلط عليه إبليس، والمنقذ من إبليس هو هدى الله فمن تبعه نجا، ومن كفر وكذب به فإن مصيره إلى النار خالدا فيها. إلا أن يتوب إلى الله قبل فوات الأوان.

هل نكون من الشاكرين؟

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٤٠) وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣) ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ[1] وَتَنسَوۡنَ[2] أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ[3] (٤٤) وَٱسۡتَعِينُواْ[4] بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ[5] (٤٥) ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (٤٦) يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾.

---

(١) البر: البر في اللغة والإحسان والصلة نظائر، يقال: فلان بار وصول محسن وضد البر العقوق.

(٢) تنسون: النسيان والسهو والغفلة نظائر، وضد النسيان الذكر، وحقيقته غروب الشيء عن النفس بعد حضوره. وقد يكون النسيان بمعنى الترك نحو قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ أي تركوا ذكر الله فخذلهم.

(٣) تعقلون: العقل والفهم واللب والمعرفة نظائر، وضد العقل الحمق، والعقال الرباط، يقال: عقلت البعير أعقله عقلاً إذا شددت يده بالعقال. والعقل مجموع علوم لأجلها يمتنع الحر من كثير من المقبحات ويفعل كثيراً من الواجبات.

(٤) الصبر: منع النفس عن محابها وكفها عن هواها، ومنه الصبر على المصيبة لكف الصابر نفسه عن الجزع، ومنه جاء الحديث: «وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ» لشهر رمضان لأن الصائم يُصبِّرُ نفسه ويكفها عما يفسد الصيام.

(٥) الخاشعين: الخشوع والخضوع والإخبات والتذلل نظائر، وضد الخشوع الاستكبار، إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخدام، والخشوع في الصوت والبصر.

هدى من الآيات:

كان بنو إسرائيل أمة مؤمنة تشبه إلى حد بعيد الأمة الإسلامية وكان من الطبيعي أن يطرح القرآن الحكيم قضيتهم أمام المسلمين، ليعتبروا بكل صغيرة وكبيرة منها. وعلى لغة: إياك أعني وأسمعي يا جارة ضمَّن القرآن نصائح قيِّمة للمسلمين من خلال حديثه عن بني إسرائيل، وقد يصرح بتلك النصائح تصريحا.

وتبدأ هذه القصة، التي تروي حياة بني إسرائيل، بالتذكير بأهمية نعمة الهداية، ذلك لأن الله سخر ما في الأرض للبشر، وأعطى الإنسان الأدوات الكافية لاستغلالها، ولكن المشكلة التي تكمن في الإنسان هي (الضلالة) الفكرية التي لا تدعه يستثمر طاقاته ليسخر الحياة بها، ولذلك يعتبر إنقاذ الإنسان من ضلالته مفتاحا لاستخدام الحياة وتسخير طاقاتها في خدمته. لقد عاش الإنسان على الأرض دهرا طويلا ولكنه لم يتقدم عمليًّا نحو تسخير الحياة كما تقدم اليوم. لماذا؟ لأنه لم يستثمر من قبل عقله وإرادته وقدرته.

ولكن يبقى السؤال لماذا لم يفعل ذلك؟ والجواب: لأنه (ضل) وانشغل بالتوافه والجدليات الفارغة.

بينات من الآيات:

[٤٠] إذن كان لابد من إنقاذ الإنسان من ضلاله قبل توجيه طاقاته إلى الحياة، وهذا الإنقاذ هو أكبر نعمة لله عليه. من هنا قال الله لبني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إنها نعمة الهدى التي تؤدي بالطبع إلى سائر نعم الحياة، ولكن نعمة الهدى ومن ثم سائر النعم لا تبقى إلا بعد التمسك بها، والوفاء بالتزاماتها. من هنا قال ربنا لبني إسرائيل: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي تمسكوا بالهدى، أعطيكم سائر النعم.

ولكن الإنسان قد يتنازل عن نعمة الهدى تحت طائلة الخوف من الطبيعة، الخوف من الطواغيت، الخشية من ضياع الشهوات وهكذا..

ولكنه لا يعلم أن ابتعاده عن الهدى سوف يجره إلى مصاعب أكبر مما يخشى منه، ولذلك يذكرهم القرآن بالقول: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ لا تخشوا الطبيعة أو الناس أو الشهوات بل اخشوني وحدي، وإذا زالت الخشية من الناس وتحرر الإنسان من الخوف، زالت العقبة الأساسية التي تعترض طريق الإيمان، ولكن تبقى عقبة العادة التي لابد من تجاوزها.

[٤١] أصعب ما يتعرض له المؤمنون من امتحان هو مقاومة العادة. المؤمن متعود على طريقة معينة من السلوك، استنادا إلى نصوص دينية جاءت في مرحلة معينة من مراحل الحياة، ولكن تتبدل تلك المرحلة وتتبدل النصوص وفقا لذلك، ولكن الفرد قد يظل أسير عاداته السابقة، فعليه أن يبذل المزيد من الجهد حتى يقاوم عاداته السابقة ويلتزم بطاعة الله.

من هنا أخذ الله عهدا قاطعا من جميع الأنبياء، أن يصدقوا النبي الذي يأتيهم لاحقا ويتبعوه، ولا تأخذهم في اتباعه أنفة أو عادة أو عزة بالآثم. حاشاهم. وفي هذه الآية يذكر الله بني إسرائيل بذلك ويقول: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إذ مادامت الرسالة واحدة والهدف ليس تحقيق مصالح ذاتية، بل طموحات إنسانية عامة، فلابد أن يسارع المؤمنون بالرسالات السابقة، إلى الإيمان بالرسالة الجديدة، وإلا فسوف يدفعهم التنافس إلى أن يكونوا أول كافر بهذه الرسالة، سعيا وراء كسب شارع المتدينين، وخوفا من فقدان قاعدتهم الإيمانية. كذا حذر الله بني إسرائيل قائلا: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ وبيّن أن سبب الكفر المبكر بالرسالة قد يكون المصالح الذاتية فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وقد يكون السبب الخوف من بعض أصحابهم من ذوي العقول المتحجرة لذلك قال الله لهم: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي اجعلوا تقواكم وخوفكم فقط مني ومن عذابي وبطشي.

[٤٢] وبعد الكفر تبدأ سلسلة من عمليات التزوير والتحريف، أولها خلط الحق بالباطل، وكتمان جانب من الحق وإظهار جانب آخر، بحيث يثبت حجة أهل الباطل.

إن صاحب الرسالة يجب ألاّ يخدع الناس فيظهر لهم الجوانب التي تبرر سلوكياته. ويخفي عنهم الجوانب التي تدين تصرفاته. وهذا ما سوف يقع فيه من لا يسارع إلى اتباع الحق، حيث حذر القرآن قائلا: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

[٤٣] ولكيلا لا يفعل صاحب الرسالة هذه الجرائم، عليه أن يتوكل على الله، ويستعين به عن طريق الصلاة والإنفاق. ذلك لأن التنازل عن المصالح الشخصية والاستسلام المطلق للحق المتمثل في الرسالة الجديدة ليس سهلا أبدا، بل هي بحاجة إلى ما يدعمها من الصلاة والزكاة. من هنا قال الله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ وإذا كانت الصلاة لله فلماذا تختلف صلاة عن صلاة، ومعبد عن معبد ليجتمع الكل في صف واحد. ليركعوا لله الواحد الأحد، وليمنعوا عن رسالة الله كل مظاهر المادية المقيتة.

[٤٤] إذا لم يسارع المؤمن بالرسالات السابقة إلى الإيمان برسالة الله الجديدة، فإنه يضطر إلى ممارسة الرياء والنفاق، والتظاهر بالتدين والتنسك والعمل بالأهواء، ذلك لأن

الكفر بالرسالة الجديدة، يجعله بلا دين حقيقي فيتظاهر بالتمسك ببعض القشور وترك حقائق الدين، من هنا حذر الله بني إسرائيل وقال: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ في حين كان المفروض على هؤلاء -أصحاب الرسالة- أن يكونوا اكثر التزاما بالرسالة من غيرهم لأنهم يعرفون الرسالة ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ وهل يكفي قراءة الكتاب.. بالطبع لا، إنما يجب التفكر فيه للاستفادة من جوهره، وذلك هو العقل الذي ينبغي الوصول إليه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

[٤٥] كيف نحارب النفاق والتلون؟ وكيف نقول بما نعمل ونعمل بما نقول ونتجاوز بالتالي المسافة بين الادعاء والواقع؟

الجواب: بالإرادة القوية، ولكن كيف نقوي الإرادة؟ إن الإرادة بحاجة إلى تدريب حتى تقوى، فهي كأي شيء في الإنسان تنمو كلما استثمرها الإنسان أكثر فأكثر. العضلات تشتد بالرياضة والأعصاب تقوى بمواجهة المشاكل، والفكر ينمو باستخدامه، وهكذا الإرادة تنمو كلما استفاد الإنسان منها، جرب ذلك وصمم على القيام بعمل صعب، إنك سوف تجد صعوبة في ممارسته أول مرة، ولكن كلما قمت به أو قمت بأمثاله قلَّت صعوبته.

والصلاة أفضل استثمار للإرادة وبالتالي أفضل وسيلة لتنميتها إنك حين تصلي لله تقاوم الذاتية في نفسك وتحارب طبيعة التقوقع داخل زنزانة المصالح، وبتعبير أوجز: تحارب الشيطان بكل جنوده.

وحين الصلاة تهجم عليك وساوس الشيطان لتبعدك عن الاتصال بالله فتراك تركز نظرك في الله والشيطان يصرفك إلى أي شيء آخر غير الله. إلى الدراسة، إلى التجارة، إلى مشاكل البيت و..و.. ولا تزال في حالة حرب حتى تنتهي الصلاة، ولهذا سُمِّي محل إقامة الصلاة (محرابا) لأنه فعلا موقع حرب.

وهكذا تكون الصلاة تجربة للإرادة وممارسة لها، بالإضافة إلى أنها تقربك إلى الله رب كل شيء مما يُشيع في نفسك الثقة لمقاومة أسباب الضعف في الخوف والرغبة.

والصبر ومن مظاهره العملية الصيام، وهو الآخر تجربة للإرادة؛ فهو يدع الإنسان يتطلع للمستقبل ولا يفكر في حاضره فقط، والصبر بما يمثل من تطلع إلى المستقبل بما فيه من ثقة بالله.

قوتان هائلتان يجب الاستعانة بهما ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ لمقاومة ضعفنا

الداخلي، ولكن الاستعانة بالصبر والصلاة، صعبة هي الأخرى فكيف نصبر وكيف نصلي؟

الجواب: علينا أن نخشع ونذلل غرور أنفسنا وكبرياءها الكاذب، بالتفكر الدائم في الآخرة حيث نتصور أنفسنا وقوفا أمام الله في المحكمة الكبرى، حيث ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. إن الخشوع يدفعنا إلى الصبر والصلاة، لذلك قال الله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

[٤٦] والخشوع بدوره يأتي من (تصور) المعاد: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

[٤٧] لذلك يذكر الله بني إسرائيل بذلك اليوم الرهيب وبما أنعم عليهم من الهدى، والذي تسبب في أن يصبحوا أفضل الناس أجمعين فيقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[٤٨] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فإذا كانت الحياة الدنيا هي هدف الإنسان، فعليه أن يتذكر أنه لن ينالها إلا بالتمسك بهدى الرسالة. وإذا كانت الحياة الآخرة هي الهدف الأسمى، فلابد أن نتقي يوما توضع فيه الموازين العادلة، ليأخذ كل إنسان جزاءه، ولا يغني عنه أحد شيئاً، ولا يشفع له ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ولا يقبل عنه بديل، ولا يمكن أن ينصر الكافرون.

دور رسالات الله في بناء الحضارات

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ(١) يَسُومُونَكُمْ(٢) سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ(٣) نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ(٤) مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا(٥) بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ(٦) حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً(٧) فَأَخَذَتْكُمُ

---

(١) فرعون: اسم لملك العمالقة، كما يقال: لملك الروم قيصر، ولملك الفرس كسرى، ولملك الترك خاقان، ولملك اليمن تبع، فهو على هذا بمعنى الصفة.

(٢) يسومونكم: السوم أصله الذهاب في ابتغاء الشيء، وهو إرسال الإبل في المرعى وبمناسبته للمعنى المحدد، وللعلم هنا أن فرعون كان يرسلهم إلى حيث العذاب السيئ كما لو أرسل الإبل للمرعى.. وسوء العذاب هو أليمه وشديده.

(٣) يستحيون: أي يَسْتَبْقُون.

(٤) البلاء: الامتحان والاختبار.

(٥) فرقنا: الفرق هو الفصل بين شيئين إذا كانت بينهما فرجة والفِرقة الطائفة.

(٦) لن نؤمن لك: أي لن نصدقك.

(٧) جهرة: الجهر والعلانية والمعاينة نظائر، يقال: جهر بكلامه وبقراءته جهراً إذا أعلن. وحقيقة الجهر ظهور الشيء معاينة.

ٱلصَّٰعِقَةُ (١) وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم (٢) مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا (٣) عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ (٤) وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ (٥) لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ (٦) ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا (٧) وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا (٨) وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ (٩) بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ (١٠)

---

(١) الصاعقة: على ثلاثة أوجه:
- الأول: نار تسقط عن السماء كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.
- الثاني: الموت في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.
- الثالث: العذاب من قوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

(٢) بعثناكم: البعث إثارة الشيء من محله، ومنه يقال: بعث فلان راحلته إذا أثارها من مبركها للسير، ومنه يقال ليوم القيامة يوم البعث لأنه يُثار الناس فيه من قبورهم لموقف الحساب. وأصل البعث الإرسال.

(٣) ظللنا: الظلة والسترة والغمامة نظائر، يقال: ظللت تظليلاً، والظل ضد الضيح ونقيضه. وظل الشجرة سترها ويقال لسواد الليل ظل لأنه يستر الأشياء.

(٤) الغمام: السحاب، والقطعة منها غمامة وإنما سُمّي غماماً لأنه يغم السماء أي يسترها، وكل ما يستر شيئاً يسمى غمه.

(٥) ادعوا: الدعاء أصله النداء. وكل من يدعو ربه فهو يناديه.

(٦) تنبت: الإنبات إخراج النبات، وأصله من الظهور فكأنه ظهر إذا أنبت.

(٧) بقلها: البقل كل نبات ليس له ساق. وهو ما ينبته الربيع.

(٨) فومها: الفوم الحنطة وقيل هو الثوم بإبدال الثاء مكان الفاء.

(٩) أدنى: أي أقرب وأدون كما تقول: هذا شيء مقارب أو دون. ويجوز أن يكون أدنى من الدناءة وهي الخسة.

(١٠) ضربت: أي فرضت ووضعت عليهم وألزموها، من قولهم: ضَربَ الإمام الجزية على أهل الذمة.

عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ(١) وَٱلْمَسْكَنَةُ(٢) وَبَآءُو(٣) بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

هدى من الآيات:

لا تزال الآيات تتحدث عن الفكرة ذاتها التي بدأها القرآن، حين ذكّر بأن الذين يتمسكون بالرسالة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويقص علينا من حياة بني إسرائيل قصصا، تدل على أن رسالات الله كيف تقوم بدور المنقذ للإنسان المعذب والمحروم، كبني إسرائيل في عهد فرعون، ثم كيف يقود الأنبياء هذا الإنسان إلى بر الأمان.

ومن ثم كيف تربي الرسالة الإنسان، ثقافيًّا، واجتماعيًّا، وعلميًّا، وعمرانيًّا، ليتخلص من رواسب جاهليته، ثم تنير أمامه صراط المدنية، وتزوده بوسائل الكلأ والماء.. ثم كيف تهدد المدنية والرخاء المجتمع الرسالي، فتحوله إلى مجتمع ضعيف متهاوٍ.

أبرز القرآن هنا دور الرسالة الإلهية في تكوين الحضارة البشرية ومن خلالها، وقد ذكرنا ببعض العوامل الأخرى التي نشير إليها إن شاء الله فيما يلي.

بينات من الآيات:

[٤٩] أين كان بنو إسرائيل؟

أبوهم الكبير إبراهيم عليه السلام كان في العراق ثم هاجر إلى فلسطين. ولكن حفيد إبراهيم يعقوب انتقل هو وأبناؤه الاثنا عشر إلى مصر في قصة يوسف. ودارت الأيام وتحولوا من شعب جاء مصر ملكا، إلى طوائف محرومة، مستضعفة، ومستثمرة من قبل فراعنة مصر. وكانوا بحاجة إلى قائد ورسالة، فأرسل الله موسى نبيًّا، وأنزل معه التوراة رسالة، فجرت فيهم

(١) الذلة: المشقة والهوان.
(٢) المسكنة: مصدر المسكين، والمسكنة هنا مسكنة الفاقة والحاجة وهي خشوعها وذلها.
(٣) باؤوا: أي انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باء إلا موصولًا! إما بخير وإما بشر وأكثر ما يستعمل في الشر، ويقال باء بذنبه يبوء به.

طاقاتهم، وقادهم عبر البحر إلى جزيرة سيناء، ثم قصدوا فلسطين من بعده. هكذا استطاع الإنسان أن ينتصر على المستغلين والطواغيت بفضل الرسالة الإلهية.

ويذكّر القرآن بني إسرائيل بهذه القصة، ليقول لهم: إنهم لو تركوا رسالة الله، لعادوا مرة أخرى، أمة مستضعفة محرومة. وهكذا يذكر الأمة الإسلامية بهذه الحقيقة أيضا، وهي: أن التمسك بالهدى الذي أنزله الله، والتمحور حوله، هو الكفيل بضمان استقلالهم وحريتهم.. يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم عذابا أليما يتمثل فيما يلي: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ إنهم كانوا يقتلون أبناء النساء الخادمات لكيلا تنشغل النساء عن خدمتهم، أو هو إشارة لذبح المولودين حديثا حين تنبأ الكهان بمولد الكليم عليه السلام، حيث أنجى الله موسى عليه السلام. أو كانوا يفعلون ما هو أعظم وأشد ضررا على كرامة الإنسان.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ إنه شر عظيم، ولكنه -بالرغم من ذلك- اختبار (بلاء) يمكن أن يتمخض عن إرادة قوية في التحدي والصمود، وبالتالي في التحرر الحقيقي.

[٥٠] ولكن لم يستطع بنو إسرائيل الخلاص من كل تلك المأساة إلا بفضل الرسالة الإلهية، إذ جاءت، ووحدتهم، وأنقذتهم من ويلات الطغاة ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وكم هي رائعة أن ينظر المحروم إلى جلاده: تتقاذفه أمواج البحر، جزاء على جرائمه.

[٥١] الطاغوت انتهى ولكن آثار سيطرته لم تزل كامنة في النفوس، وبارزة في التصرفات، متمثلة في حالة الاستسلام والهزيمة النفسية والتعوُّد على الخضوع. من هنا تركهم قائدهم ومنقذهم عدة أيام، فلما عاد إليهم فإذا بهم يسجدون للعجل، لأنهم لا يزالون عبيدا في نفوسهم بالرغم من تحررهم الظاهر. هؤلاء كانوا بحاجة إلى ثورة ثقافية قوية تحرر نفوسهم من الذل والخنوع. كما كانوا بحاجة إلى ثورة اجتماعية تخلصهم من عبودية الرأسمالية العفنة التي كانت مرتبطة بنظام فرعون الطاغوتي. وكانوا أيضا بحاجة إلى ثورة علمية ترفعهم عن حضيض الماديات إلى عالم التوحيد الخالص. ثم إنهم يحتاجون إلى ثورة عمرانية تهديهم إلى بناء المدن وزراعة الأرض.

وفيما يلي نجد كيف أن رسالة الله فجّرت هذه الثورات في واقع بني إسرائيل حتى استطاعوا بناء أمة مجيدة.

ألف: ذهب موسى إلى طور سيناء، ليتلقى الوحي فلما عاد وجد قومه في نكسة جاهلية

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هذه كانت مشكلة عقائدية (إيديولوجية) حلها موسى عليه السلام بإذن الله وقال الله تعالى:

[٥٢-٥٣] ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ماذا فعل موسى عليه السلام عفا عنهم بأمر الله ثم تلا عليهم الكتاب (وفيه الرؤى العقائدية العامة) والفرقان (وفيه التعاليم التفصيلية للحياة) فصحح بذلك رؤاهم، وعلمهم كيف يقتلعون من أنفسهم جذور الاستعباد حتى لا يعودوا إلى عبادة المال (العجل) مرة أخرى، هذه كانت ثورة ثقافية.

[٥٤] بـاء: ولكن انتهاء عبادة المال، من قِبَل أكثر الأمة، لم تدل على انتهاء دور الثروة في تهديد تحرر الأمة اجتماعيًّا. إذ كانت هناك طبقة قد أشربت قلوبهم بحب العجل. وكانت الأمة بحاجة إلى عملية تطهير، لتصفية العناصر الخبيثة منها ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

[٥٥] جيم: وبقيت المشكلة الثالثة هي التي نسميها بالمشكلة الإيديولوجية حيث كان لابد من ثورة علمية توحيدية، تخلص الأمة من رواسب الجاهلية المادية، المتمثلة في تصور الله في شيء مادي، وبالتالي تقديس الأشياء، انطلاقا من إلباسها ثوب الألوهية. والأمة لا تصبح متحررة بالكامل، إلا إذا تحررت من تقديس أي شيء أو شخص من دون الله سبحانه. إذ لولا ذلك لكانت الأمة معرضة للاستعباد.

فالأمة التي تقدس الأصنام لابد أن تستعبدها الأصنام أو كهنة الأصنام. والأمة التي تؤلّه عيسى عليه السلام لابد أن يستعبدها كهنة الكنيسة. والأمة التي تقدس الأولياء على أنهم قد دخلتهم روح من الله، لابد أن يستعبدها المتنسبون إلى أولئك الأولياء.

من هنا حرصت الرسالة الإلهية على إنقاذ البشرية من جاهلية الشرك، لتصبح حرة كريمة لا تقدس إلا الله سبحانه. ولا تطيع إلا من أمر الله بطاعته ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ اختار موسى من قومه سبعين رجلا ليرافقوه إلى الطور، ولكنهم سرعان ما استبدت بهم جاهليتهم الأولى وقالوا: أرنا الله وإلا سوف نعود كفارا. فإذا بصاعقة من السماء تحرقهم جزاء كفرهم الصريح.

[٥٦] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكانت هذه الهزة كافية لتصفية نفوس هؤلاء من رواسب الشرك وتسبيح الله وحده.

[٥٧] دال: وبعد أن أنقذ الله بني إسرائيل برسالته الكريمة عن مشاكلهم (استعباد فرعون، عبودية العجل، طبقة أصحاب العجل، رواسب الشرك) اسبغ عليهم مختلف النعم المادية وقال سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فهناك نعمة السكن ونعمة الغذاء. والمن هو الحلوى. والسلوى هو طير معروف. ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولكنهم كفروا بأنعم الله.. مثلما يحدثنا القرآن بعدئذ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إنهم أرادوا الدخول في المدينة، وكانت تلك نكسة لهم. إذ الاستقرار كان سيفقدهم الكثير من مزاياهم، ومنها بالطبع حريتهم وقدرتهم على مواجهة أعدائهم. ولكنهم تعبوا من حياة البدو، وأسلموا أنفسهم للخفض والدعة. فقال لهم الله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾.

[٥٨] ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ ولكي يضمن لكم الاستقرار في المدينة فعليكم التزام الطاعة لله، والتضرع وحسن السلوك ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ لله ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي توبة إلى الله ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[٥٩] ولكن، يبدو أنهم لم يطبقوا تعاليم الله، فأخذوا يتكبرون ويسرفون ويقولون (حنطة خير لنا من حطة..) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ متمثلا في نقص في الثمرات، وخلاف عريض بينهم على مغانم المدينة. حسبما يذكره القرآن في آية آتية. والسبب في ذلك الرجز هو فسقهم، وابتعادهم عن تعاليم الله.

[٦٠] تلك كانت نعمة الاستقرار التي أسبغها الله عليهم، ولكنهم كفروا بها. وهذه نعمة الماء الأشد ضرورة للعمران يسبغها عليهم ربنا ويقول: ﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ لأنهم كانوا اثنتي عشرة قبيلة مختلفين. وكان من المفروض ألاّ تتداخل حياتهم مع بعضهم لوجود الحساسيات القديمة بينهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ ولكن مع توافر النعم تنمو عند الإنسان حالة الطغيان ويقوم بالاعتداء على الآخرين، أو الإسراف في استهلاك المواد. من هنا حذرهم الله فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

[٦١] كان بنو إسرائيل أمة بدوية ثم تحضرت. ولكنها لم تستطع أن تقاوم سلبيات التحضر فأستعبدها فرعون في مصر، وتجذرت بذلك حالة العبودية في نفوسهم. فأصبحوا ضعفاء جبناء مختلفين لا يثق بعضهم ببعض. ثم قادهم النبي موسى عليه السلام إلى سيناء. وتربى في الصحراء جيل منهم استعادوا بعضا من خصائصهم الأولى التي تميزوا بها حين كانوا بدوا. ولكن كثيرا من آثار مرحلة العبودية لم تزل في نفوسهم وحين طلبوا من نبيهم أن يأذن لهم

بالعودة إلى فلسطين والاستقرار في المدن، لم يكن في صالحهم ذلك إذ إن آثار العبودية والتي منها الاختلافات المتجذرة في نفوسهم، كانت تهددهم بالانحراف مرة أخرى وتحطيم حضارتهم.

بيد أنهم أصروا على ذلك فلما (هبطوا مصرا) عادت إليهم سلبيات الحضارة كما يحدثنا عنها القرآن: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ فهبطوا مصرا من الأمصار وشاعت في أنفسهم صفات الجبن واللاأبالية والفردية، وفقدوا الروح العسكرية التي اكتسبوها في الصحراء وكانت النتيجة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، ومع العبودية السياسية تأتي العبودية الاقتصادية. إذ لا يستعبد الطغاة الناس إلا لكي يستثمروا طاقاتهم، ويستفيدوا من خيراتهم. فضربت عليهم المسكنة أيضا ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ حتى كادوا يفقدوا قوتهم اليومي. ولكن لماذا؟ لأنهم كفروا بمنهج الله في الحياة وتركوا الالتفاف حول رسالتهم، والانتماء إليها، دون الانتماء إلى العنصريات المقيتة، وتركوا الاهتمام بتعاليم الدين في العمل الصالح والتعاون عليه، والجهاد من أجل الدين.

وزادوا ضعفا واستسلاما حين حوّلوا عنفهم إلى الداخل، فأخذوا يصفّون العناصر الخيرة فيهم، ويقتلون الأنبياء لأنهم يأمرونهم بالعودة إلى رسالتهم.

ولم يكونوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين لو لم يعصوا الله سبحانه منذ البدء، في تنفيذ تعاليمه. إذ إن العصيان لابد أن ينتهي بالكفر، كما أن الاعتداءات البسيطة ضد بعضهم تعاظمت حتى اعتدوا على المصلحين الكبار في مجتمعهم وهم الأنبياء عليهم السلام. يقول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ إن كل أمة تنتهي بانتشار روح العصيان والاعتداء فيها، إذ تنمو هذه الروح الخبيثة حتى تقضي على قيم الأمة وعلى الصفوة الصالحة فيها. وماذا تبقى من الأمة لو انتهت قيمها ورجالها الصالحون؟

وكلمة أخيرة: إن تعبير القرآن في هذه الآيات يوحي إلينا بأن الله هو مصدر كل نعمة ظاهرة وباطنة، وهو كذلك مصدر الوحي. وعلينا أن نقبل بهما معا (النعم والوحي) ولا يمكن أن نقبل بواحدة دون أخرى.

[٦٢] كيف اعتدى هؤلاء على بعضهم؟ وعصوا ربهم في ظلم بعضهم، وبالتالي في الكفر بالله وقتل أنبياء الله؟ إنهم حتى الأمس القريب كانوا أمة صالحة؟

الجواب: إن الاعتداء يبدأ فرديًا وينشأ من نوازع ذاتية شيطانية (كاعتداء قابيل على هابيل) ولكن مع تطور الظروف، يتحول الاعتداء إلى حالة اجتماعية، وذلك عن طريق تقولب الاعتداء في ايديولوجية عنصرية مقيتة، توحي إلى كل طائفة أنها هي شعب الله المختار، وأن الله أعطاها صلاحية استعباد الآخرين.

وقد انتشرت هذه الأيديولوجية الفاسدة، في بني إسرائيل (كما يحدثنا القرآن الكريم في أكثر من مناسبة) واتخذت دعما لها من القشرية الدينية، بالاعتماد على بعض النصوص المجملة وتفسيرها بما يتناسب مع العنصرية.

وجاء القرآن لينسف أسس العنصرية، وبالتالي: أسس الاعتداء المنظم على الآخرين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إن الله يريد الإيمان والعمل الصالح ولا شيء وراءه، إذن دعنا نتنافس على هاتين القيمتين دون غيرهما. ويوم القيامة سيحكم الله بحكمه العادل.

الميوعة في تطبيق الأحكام

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ[1] وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ[2] خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ[3] وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم[4] مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ[5] الَّذِينَ اعْتَدَوْا[6] مِنكُمْ فِي السَّبْتِ[7] فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا[8] لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً[9] لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾.

هدى من الآيات:

يحدثنا القرآن الكريم عن حالة الضعف التي تنتشر في الأمة، وأساليب معالجتها. وتتمثل هذه الحالة في عدة مظاهر:

---

(١) ميثاقكم: الميثاق هو مفعال من الوثيقة أما بيمين وأما بعهد أو غير ذلك من الوثائق.

(٢) الطور: الجبل، وقيل هو اسم جبل بعينه ناجى الله عليه موسى بن عمران عليه السلام.

(٣) بقوة: القوة القدرة وهي عرض يصير به الحي قادراً.

(٤) توليتم: أعرضتم، وولاه فلان دبره إذا استدبر عنه وجعله خلف ظهره، ثم يستعمل ذلك في كل تارك طاعة أمر ومعرض بوجهه عنه ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا﴾.

(٥) علمتم: أي عرفتم ومنه قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعرفونهم والله يعرفهم.

(٦) اعتدوا: أي ظلموا وجاوزوا ما حدّ لهم.

(٧) السبت: يوم من أيام الأسبوع، وقيل سمي سبتاً لأنه يوم السبت خلق فيه كل شيء أي قطع وفرغ، وقيل سمي بذلك لأن اليهود يسبتون فيه أي يقطعون فيه أعمالهم، وقيل هو مأخوذ من الراحة ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾. ويقال للنائم مسبوت.

(٨) نكالًا: النكال الإرهاب للغير، وأصله المنع لأنه مأخوذ من النكل وهو القيد، وسميت العقوبة نكالًا لأنها تمنع عن ارتكاب مثل ما ارتكبه من نزلت به.

(٩) موعظة: الوعظ وأصله التخويف.

أولاً: العنصرية التي تحدثت عنها الآيتان السابقتان.

ثانياً: اللامبالاة وعدم الجدية في التمسك بهدى الله.

ثالثاً: قسوة القلب وعدم التأثر بنصيحة الصالحين.

وسوف يحدثنا القرآن الحكيم طويلا عن مرض الميوعة وقلة الالتزام بالقيم ويضرب عدة أمثلة من قصص بني إسرائيل:

ألف: قصة الطور.

بـــاء: قصة انتهاك حرمة السبت.

جيم: قصة البقرة التي توانوا في ذبحها.

ثم يربط بين الميوعة وبين قسوة القلب في آخر هذه المجموعة من الآيات.

بينات من الآيات:

والأمة الإسلامية اليوم تشبه إلى حد بعيد بني إسرائيل في مرحلتهم تلك حين انتشرت فيهم المظاهر السلبية من الميوعة واللامبالاة وانتهاك حرمات الدين وعلينا أن نعتبر بقصص بني إسرائيل حتى لا ندفع الثمن مضاعفا.

[٦٣] في ضحى نهار، وجد بنو إسرائيل قطعة هائلة من الجبل فوق رؤوسهم، تكاد تسقط عليهم، فهرعوا إلى نبيهم، فقال لهم نبيهم: إنه العذاب نازل عليكم هل تؤمنون بالله وتتمسكون بتعاليمه بجد؟ قالوا: بلى، فرفع عنهم العذاب، ولكنهم عادوا إلى إهمالهم الأول في تنفيذ التعاليم ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾ ولا تكونوا مائعين في تلقي التعاليم أو في تطبيقها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

[٦٤] ولكن بني إسرائيل كانوا كأكثر الأمم حين يهبط عليهم العذاب من ربهم، يجأرون إلى الله ويعودون إلى قيمهم وتعاليم دينهم. وما أن يرفع عنهم العذاب حتى يعودوا إلى سابق عاداتهم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ ولكن الله لا يهمل الإنسان إلى الأبد فقد يأخذه بشدة وهو غافل.

[٦٥] ومن قصص بني إسرائيل في اللامبالاة والميوعة في تنفيذ القرارات.. قصة انتهاكهم حرمة السبت، حيث حرم عليهم الصيد فيه ولكنهم اعتدوا فيه بغيا على أنفسهم،

فأخذهم الله أخذا شديدا وقال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أذلاء.

[٦٦] إنها سنة الله في الحياة أنه يمهل البشر مرة بعد أخرى، فإن لم يتب يأخذه ليصبح عبرة لغيره ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ حيث إنها أصبحت عذابا لمن سبق وعذابا لمن لحق بهم.

إن أي عذاب إلهي سيكون قويًا بالنسبة إلى من ينزل عليهم مباشرة وستبقى آثاره في المستقبل. والعذاب الإلهي تعبير صادق عن عمل الإنسان نفسه وترجمة لواقعه الفاسد لا أكثر.

وكل عمل يقوم به الإنسان سيخلف آثاره السلبية على مجتمعه الحاضر وعلى مستقبل الأجيال؛ ولذلك على الإنسان أن يفكر مرتين قبل أن يُقدم على أي عمل حتى لا يؤثر عمله في الآخرين سلبيا. كما أن على الناس أن يعرفوا أن أي عمل يقوم به فريق منهم سوف تنعكس آثاره عليهم جميعا.. فيأخذوا على أيديهم بشدة وجدية.

أما المتقون فإنهم المستفيدون الوحيدون من عذاب هذا الفريق لأنهم يعتبرون به ويحوّلونه إلى جزء صالح في سلوكهم وتفكيرهم لا أن يكرروه مرة أخرى ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

قصة البقرة دروس وعبر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ(١) قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ(٢) أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ(٣) لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ(٤) تُثِيرُ(٥) ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى(٦) ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ(٧) لَّا شِيَةَ(٨) فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ(٩) فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

(١) هزواً: الهزء اللعب والسخرية.
(٢) أعوذ بالله: ألجأ إلى الله، وحقيقته استدفاع ما يخاف من شره.
(٣) فاقع: أي شديدة الصفرة. يقال أصفر فاقع وأحمر ناصع.
(٤) ذلول: يقال للدابة قد ذللها الركوب والعمل دابة ذلول.
(٥) تثير: الإثارة إظهار الشيء، وأثار الأرض حرثها.
(٦) الحرث: كل أرض ذللته للزرع، والحرث قذف البذر في الأرض للازدراع.
(٧) مسلمة: مبرأة من العيوب.
(٨) لا شية: الشية اللون في الشيء يخالف عادة لونه، ولا شيه فيها أي لا وضح منها يخالف لونها.
(٩) فادارأتم: اختلفتم، وأصله تدارأتم، وأصل الدرأ الدفع ومنه الحديث: «ادْرَءُوا الحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ»، ومنه قوله: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾.

هدى من الآيات:

عندما تنتشر في الأمة روح التكاسل تبدأ بالالتفاف على الأحكام الشرعية، لتنفلت منها أنى استطاعت. فتراها تتشبث بطائفة من القشريات وتجعلها بديلة عن الحقائق الواقعية. وقصة بني إسرائيل مع البقرة تمثل هذه الحالة فيهم.

وقصة البقرة تدل على أن بني إسرائيل لم يصبحوا آنئذ كفارا بالرسالة جملة واحدة، بل بالعكس كانوا يريدون تطبيق تعاليم الله. بيد أن التردد والضعف واضح في تصرفاتهم مما يجعلهم يؤخرون تنفيذ الواجبات، تحت غطاء التشبث بقشور التعاليم. فهم كانوا يتساءلون عن لون البقرة، وطبيعتها، ومقدار عمرها، وسائر خصائصها.. في حين أنهم تركوا الجوهر وهو ذبح البقرة، كذلك الأمة الإسلامية في بعض مراحلها المتأخرة من تاريخها، كانت تتوغل في التفاصيل وتترك روح التعاليم والأهداف المتوخاة من ورائها.

بينات من الآيات:

[٦٧] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ في البداية استغربوا من الطلب وزعموا أنها هزوا لمجرد أنهم لم يعرفوا فلسفة الحكم ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ بالرغم من أن موسى عليه السلام كان جديًا مع قومه وصارما، ولكن بني إسرائيل كانوا قد أصيبوا بضعف في الإيمان. الإيمان الذي يريد من صاحبه التنفيذ من دون سؤال ودون البحث عن العلل والأهداف، لذلك قال لهم موسى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

[٦٨] وهنا بدأت سلسلة التساؤلات التي استهدفت معرفة خلفيات الحكم وأهدافه البعيدة المختلفة ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ هل هي بقرة كسائر الأبقار؟ أم هي بقرة معينة؟ وهنا شدد الله عليهم وقال لهم موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ قد أكلتها السنون وأنهكتها الحياة. ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صغيرة السن. إنما هي بين البكر والفارض مما عبر عنه القرآن بـ: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ثم شدد عليهم بتطبيق الأمر بحزم وقال: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

[٦٩] ولكنهم عادوا يتساءلون انطلاقا من تشبثهم بالقشور ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ شديدة الصفار، ثم زاد عليهم شرطاً آخر وقال: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ بسبب اكتمالها وسلامة بنيتها.

[٧٠] عادوا مرة ثانية يسألون عن ذات البقرة ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وهنا انتبهوا إلى أن أسئلتهم قد تعني عند موسى عليه السلام أنهم لا يريدون تنفيذ الأمر وكان هذا هو الواقع بالرغم من ادعائهم غير ذلك فقالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

[٧١] ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ﴾ في لون واحد ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا يكون فيها لون غير لونها الأصلي ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

لأنهم تحولوا من مجتمع الإيمان الذي ينطلق من واقع الثقة بالقيادة وتنفيذ أوامرها فورا، إلى مجتمع الجدل ومحاولة فهم علل الأحكام وأسبابها وطريقة تنفيذها.

[٧٢] وبعد أن ذبحوها بيّن لهم الله سر الأمر، وأن تساؤلاتهم لم تكن صحيحة أبدا، وأن القضية كانت ترتبط بقصة القتيل الذي لم يعرف قاتله والذي يقول عنه ربنا: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ لقد أصبح مجتمعهم فاسدا، وقد برعوا في تنفيذ الجرائم حتى أنهم لا يخلّفون أثرا يدل على فاعلها، وقد ابتعدوا عن مسؤولية المحافظة على الأمن، فأخذوا يكتمون عن السلطات الشرعية أخبار البلد بيد أن الله يقول لهم وبصراحة: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

[٧٣] ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلما ضربوا عضوا من أعضاء القتيل ببعض لحم البقرة الذبيحة، أحيا الله القتيل، وبيّن مَنْ قتله وانتهت المشكلة.

الخلاصة: أن قصة البقرة تبين لنا جانبا من جوانب الضعف الإيماني الذي أصاب بني إسرائيل، ولكن هذا الضعف لا يزال هيّنا بالنسبة إلى ما ينتظرهم في المستقبل حيث يكادون يفقدون الإيمان رأسا.

والقرآن يحذرنا -بذلك- من أن الضعف الإيماني المتمثل في التواني عن تطبيق الأوامر قد ينتهي بصاحبه إلى مرحلة أخطر هي الابتعاد كليًّا عن الإيمان، وذلك في المجموعة التالية من الآيات.

اليهود بين تضليل الأحبار وأماني الجهلة

﴿ثُمَّ قَسَتْ[١] قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ[٢] عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ[٣] أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ[٤] مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم[٥] بِمَا فَتَحَ[٦] ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم[٧] بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ[٨] لَا يَعْلَمُونَ

---

(١) قست: القسوة ذهاب اللين والرحمة من القلب، والقسوة الصلابة في كل شيء ونقيضه الرقة.

(٢) غافل: الغفلة السهو عن الشيء وهو ذهاب المعنى عن النفس بعد حضوره.

(٣) أفتطمعون: الطمع تعليق النفس بما تظنه من النفع، ونظيره الأمل والرجاء، ونقيضه اليأس.

(٤) فريق: جمع كالطائفة.

(٥) أتحدثونهم: الحديث والخبر والنبأ نظائر مشتق من الحدوث وكأنه إخبار عن حوادث الزمان.

(٦) فتح: الفتح في الأصل فتح المغلق وقد يستعمل في مواضع كثيرة فمنها الحكم يقال: اللهم افتح بيننا وبين فلان أي احكم. ومنها القضاء يقولون متى هذا الفتح؟ ومنها النصرة يقال: استفتحه أي اطلب منه النصر ويستعمل في فتح البلدان.

(٧) يحاجوكم: المحاجة والمجادلة والمناظرَ نظائر، فالمحاجة أن يحتج كل واحد من الخصمين على صاحبه.

(٨) أميون: الأمي الذي لا يحسن الكتابة. وإنما سمي أميًا لأحد وجوه:

الأول: أن الأمة الخلقة، فسمي أميًا لأنه باق على خلقته.

الثاني: أنه مأخوذ من الأمة التي هي الجماعة أي هو على أصل ما عليه الأمة في عدم الكتابة.

الثالث: أنه مأخوذ من الأم أي هو على ما ولدته أمه من أنه لا يكتب.

ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ[١] وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[٢] ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ[٣] لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ[٤] ﴿٧٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

تجاوزت بنو إسرائيل مرحلتين حتى الآن، مرحلة الثورات الأربع التصحيحية[٥]، ثم مرحلة الضعف الإيماني[٦]. وهاهم يدخلون في المرحلة الثالثة، وهي مرحلة قسوة القلب التي تأتي نتيجة لضعف الإيمان وهي متصلة بالعنصرية[٧] التي سوف يتحدث عنها القرآن في المجموعة التالية من الآيات.

إن قسوة القلب تنشأ من عبادة الذات، وقد يكون قساة القلب علماء بالدين، إذ أن العلم وحده لا يكفي، بل من الضروري أن يدعم العلم إيمان صادق وإحساس عميق بالمسؤولية. بل من الممكن أن يكون العلم واحدا من الأسباب التي تساعد على قسوة القلب، إذا توجه بصاحبه إلى الاستكبار والترفع عن سماع النصيحة. العلم جيد إذا كان له بعدان، بعد في الداخل هدفه إصلاح الذات. وبعد في الخارج هدفه إصلاح المجتمع. والعلم ذو البعد الواحد يذهب بصاحبه بعيدا عن الله، بعيدا عن الالتزام بمسؤوليته.

من هنا يركز القرآن الحكيم في هذه المجموعة من الآيات على أن مشكلة بني إسرائيل في هذه المرحلة لم تكن متمثلة في قلة علمهم بالدين، بل في استثمار هذا العلم في سبيل مصالحهم

(١) أماني: التمني تقدير سيماً في النفس، وتصويره قبل ذلك يكون عن تخمين وظن، وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له، والأمنية الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء.. فهم يتمنون على الله ما ليس لهم مثل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

(٢) يظنون: الظن هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر لأمارة صحيحة. وفي الناس من قال هو اعتقاد أو تصور.

(٣) فويل: الويل في اللغة كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وأصله العذاب والهلاك، وقيل هو التقبيح، ومنه ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. وقيل معناه الحزن، وقيل الهوان والخزي.

(٤) يكسبون: الكسب العمل الذي يجلب به نفعٌ أو يُدفع به ضررٌ.

(٥) ص١٨٤، الآيات: ٥١ - ٥٦.

(٦) راجع ص١٨٦، الآيتان: (٦١-٦٢)، والدرس الذي يليهما ص١٨٩.

(٧) راجع ص ٢٠٣ (تقديس الذات)، وتليها مرحلة الخرافة وثقافة السحر: ص٢١٦.

الذاتية وتوجيهه حسب أهوائهم.

صحيح أن بعضهم أيضا أميون، ولكن البعض الآخر كان يتعمد تحريف الكتاب بكل صلافة. والقرآن يركز الضوء على هؤلاء لأنهم هم السبب المباشر لتضليل الأميين.

بينات من الآيات:

قسوة القلب

[٧٤] إن قسوة القلب جاءت بعد مرحلة الاستخفاف بتعاليم الدين، والالتفاف حولها، والتشبث بقشورها. ولذلك قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ كيف أصبحت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة؟.

لأن الحجارة قد تفيض بالعطاء كثيرا أم قليلا وتؤدي بذلك دورا في الحياة، أما الإنسان الذي يقسو قلبه فإنه (والعياذ بالله) لا يعترف لنفسه بأي دور إيجابي في الحياة ولا يلتزم بأية مسؤولية فيها ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ كما أن الحجارة قد تخشع لله ولسننه في الحياة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، بيد أن القلب القاسي لا يخشع لله أبدا. ثم يهدد الله أصحاب هذه القلوب القاسية ويقول: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

[٧٥] ثم يحدثنا القرآن عن أن مشكلة هؤلاء ليست في أنهم لا يعلمون، بل في أنهم لا يؤمنون ويقول: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إن كل شروط العلم متوفرة في هؤلاء. السماع للعلم المتمثل في الوحي، ثم التعقل ثم العلم ولكنهم مع كل ذلك يحرفون كلام الله بغية الحصول على بعض المكاسب المادية.

[٧٦] وأخطر من ذلك نفاقهم الذي يبدو من تصرفهم الماكر مع المؤمنين الصادقين، حيث إنهم يرفضون الإيمان في الواقع، أما في الظاهر فيدعون أنهم مؤمنون ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ وذلك كسبا لبعض المغانم من هؤلاء المؤمنين الذين غالبا ما يكونون من البسطاء من أتباع موسى عليه السلام، الذين يفرض عليهم الأحبار والرهبان أتاوات باسم الدين.

والغريب في تصرف هؤلاء أنهم عندما يختلون إلى بعضهم ينفتحون على بعضهم ويعترفون على أنفسهم بأنهم يحرّفون كلام الله عمدا، مع العلم المسبق بأنه كلام الله.

وإن تحريفه يضرُّ بهم، ولكنهم يحاولون منع أية حقيقة عن الناس حتى لا تصبح مادة احتجاج عليهم في الواقع، ولكيلا تُكتشف فضائحهم. ولكن القرآن يفضحهم ويقول: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العلم ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[٧٧] ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وأنه سوف يفضحهم عاجلا أم آجلا.

إن هذه هي حالة الطائفة الذين من المفروض أن يكونوا الموجِّه الديني لبني إسرائيل، إنها تتردى إلى الحضيض السافل، حيث تتفق كلمتهم على تجهيل الناس للسيطرة عليهم وابتزازهم واستغلال سذاجتهم. وهذه أخطر ما يمكن أن يهبط إليه مستوى أمة رسالية كبني إسرائيل، حيث تتحول مراكز توجيههم وهدايتهم إلى بؤر لنشر الجهل والضلالة.

ويبدو من الآية الكريمة؛ وآيات قرآنية أخرى: أن تحريف الكتاب قد تم عند اليهود بصورة منظمة وواعية، وبتخطيط شامل. وهكذا يحدثنا التأريخ أن علماءهم حين لم يجدوا -من جهة- إقبال الناس على دينهم. وازداد -من جهة ثانية- ضغط السلطات عليهم، حرفوا الدين بما يتناسب والخرافات المنتشرة بين الناس. وحذفوا منه البنود التي تعارض السلطات، وأضافوا إليه أفكارا استسلامية مثل «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر». وإنما أرادوا -بذلك- تكثير عدد الأنصار حولهم، ورفع غائلة الظلم عن أنفسهم.

ونرى علماء اليهود والنصارى يحرفون حتى اليوم دينهم، ليكيفوه مع ثقافات العصر واتجاهات السياسة، كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا حين دعت بعثاتها التبشيرية إلى خلط الدين المسيحي بثقافات الوثنية الأفريقية، لضمان إقبال الشعوب الأفريقية على الدخول في كنائسهم.

[٧٨] أما بقية الناس فهم أميون، تحول الكتاب في واقعهم إلى أمانٍ وتقليد الأحبار والرهبان. تُرى ما هي الأماني، وما هو الظن؟

الكتاب بين الحلم والتقليد

بناء على ما سبق فإن الكتاب عند هؤلاء مجرد أمانٍ وأحلام، وربما ظنون وتقاليد. إنه حسب تعبير القرآن الدقيق، مجرد أمانٍ يتسلى بها الضعفاء، ويتغنى بحروفه المكروبون والمحرومون. بدل أن يكون صاعقا يفجر طاقاتهم، وحافزا يثير عقولهم ونظاما لتوجيه حياتهم

وعلاقاتهم.

انظر إلى السياق كيف يعبر عن حالة هذه الطبقة السحيقة ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ يعني أن الكتاب في نظرهم أصبح مجرد أحلام يمنون أنفسهم بها دون القيام بأي نشاط حقيقي من أجل تحقيق أهداف الكتاب ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وهؤلاء لا يستثيرون عقولهم ليفكروا أو ليبدعوا، إنما يستثيرون بالكتاب خيالهم ليتصوروا وليحلموا به. ويحتمل أن يكون المعنى من الظن هذا التقليد.

[٧٩] إن هؤلاء الأميين مقصرون لا ريب في ذلك. إلا أن وزرهم الأكبر يقع على عاتق أولئك الذين ضللوهم وحرفوا معاني الكتاب حتى حولوه إلى مادة تخدير، من بعد أن كان مادة تفجير. وحولوه إلى مثير أحلام، من بعد أن كان مستثيرا للعقل ومنهجا للفكر. لذلك يحدثنا القرآن عن هؤلاء فور ما ينهي حديثه عن الأميين ويقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهؤلاء هم أولئك المحرفون الذين سبق الحديث عنهم، إنما يكرره القرآن ليلقي عليهم مسؤولية ضلالة الأميين وليقول إن الهدف من التحريف إنما هو الحصول على المكاسب المادية التافهة. تلك المكاسب التي لا تهنأ لهم وتلك الحرفة التي سرعان ما تتحول إلى نقمة ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أيّ كسب مبارك تلك الحرفة التي تؤدي إلى انحراف الملايين من الناس، وتجعلهم عرضة للاستغلال والاستعباد؟!

إن الطغاة يريدون أبدا أن يتحكموا في مصير الضعفاء. والطريق الوحيد لحماية الضعفاء من الطغاة، هو تسليحهم بما يعلمهم كيف يجب أن يحافظوا على كرامتهم، ويستردوا حريتهم. والدين هو ذلك الوعي وتلكم الوسيلة. والعلماء هم أمناء الله عليه. فإذا خان هؤلاء مسؤوليتهم، فأية جريمة كبرى يقترفون، حيث يجردون ملايين الضعفاء من سُبل النجاة، ويتركون الطغاة يستغلونهم. بل إنهم يساهمون في هذا الاستغلال مباشرة عبر تفسيرهم التحريفي للدين.

بين الأماني والظنون

قالوا عن الأماني: إنها ما يتخيله الإنسان فيقرر في نفسه وقوعه ويحدثها بكونه، ومن هذا قولهم: «فلان يعد فلانا ويمنيه». ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] وحُكي عن الإعرابي أنه قال لمن حدثه: «أهذا شيء رويته أم تمنيته أم اختلقته»[1]. وفي الكشاف في تفسير الآية: «ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم -أي

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، ج١، شرح ص٢٩٢.

قوله ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾- والاستيقان ثم العوام الذين قلدوهم ونبّه على أنهم في الضلال سواء»(1).

وفي تفسير غريب القرآن: «أي لا يعلمون الكتاب إلا أن يحدثهم كبراؤهم بشيء فيقبلونه ويظنون أنه الحق وهو كذب، ومنه قول عثمان: «ما تغنيت ولا تمنيت» أي ما اختلقت الباطل»(2).

ولكن يبدو أن الآية تتحدث أساسا عن الأميين وكيف أنهم يعيشون على الأماني والظن. وعلى هذا يحتمل أن تكون الأمنية من أنفسهم والظن بسبب التقليد، أو أن تكون الأماني بمعنى التلاوة عليهم، كما نقل أنه أحد معاني هذه الكلمة، وانشدوا:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادير

ولأن القرآن يفسر بعضه بعضا، فإن السياق القرآني القادم أوضح بيان لهذه الكلمة. حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]، إن تفسير الكتاب وفق ما يتمنونه، أو بتعبير آخر: حمل آيات الكتاب على آرائهم الموافقة لأهوائهم، وبالذات فيما يرتبط بتبرير فسادهم وخداع أنفسهم بأن العذاب لا يشملهم لأنهم أبناء الله وأحباؤه، أو لأنهم من أولاد الأنبياء الكرام أو ما أشبه؟ والواقع يعتبر هذا أوضح معاني الأمنية.

ومن هنا نعرف بلاغة التعبير القرآني، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وكأنهم يعلمون فقط أماني الكتاب، أو هكذا يفسرونه حسب أمانيهم. وفي معنى هذا، آيات أخرى: قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] والأماني التي يخدع بها هؤلاء أنفسهم هي التي يفضحها السياق القرآني في الآيات الآتية.

(1) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، ج١، شرح ص٢٩٢.

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٥٣.

الظن

أما الظن الذي يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فلعله درجة أعلى من الأماني. حيث إن الفرد يحلم بشيء ويحلم، حتى يُخيَّل إليه صدق هذا الشيء بل يكاد يقنع نفسه به، ويبدو أن نسبة الثقة بالفكرة ليست بذات أهمية، فقد تكون أكثر أو أقل من خمسين بالمائة. إنما المهم جذر الفكرة وكيفية بروزها في النفس.

فإذا كان منشؤها المصلحة وحب الذات وهوى النفس الذي يتحول إلى أماني ويفسر الكتاب عليها ثم يتحول إلى خيال وتصور وظن، فإن درجة الثقة بها حتى ولو بلغت حد القطع فلا قيمة لها، لأنها ليست ناشئة من العلم، والمنهج الصائب للمعرفة، إنما هي ناشئة من التمنيات والأحلام والتخيلات.

يبقى أن نتساءل عن العلاقة بين الظن والتقليد حيث جاء في حديث شريف أن المراد من الظن هو التقليد[1].

والجواب: إن الحديث إنما هو عن الأميين الذين هم العوام الذين يقلدون كبراءهم، ولعله لهذه المناسبة فسر الظن هنا بالتقليد، كما أن السياق القرآني يحدثنا في آيات أخرى عن أولئك الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله.

وقد قوبل الظن بالعلم في القرآن قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

كما أكد القرآن: أن الظن لا يغني من الحق شيئا - فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦]- فإنه يمتدحه في سياق الحديث عن الآخرة؛ فيقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج١ ص٩٢ حيث روى عن الإمام العسكري عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ قوله: «كَالأُمِّيِّ مَنْسُوبٌ إِلَى أُمِّهِ أَيْ هُوَ كَمَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ الْمُنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا الْمُتَكَذَّبَ بِهِ وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَهُمَا ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أَيْ إِلَّا أَنْ يُقْرَأَ عَلَيْهِمْ وَيُقَالَ هَذَا كِتَابُ اللهِ وَكَلَامُهُ لَا يَعْرِفُونَ إِنْ قُرِئَ مِنَ الْكِتَابِ خِلَافُ مَا فِيهِ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أَيْ مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ رُؤَسَاؤُهُمْ مِنْ تَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فِي نُبُوَّتِهِ وَإِمَامَةِ عَلِيٍّ عليه السلام سَيِّدِ عِتْرَتِهِ عليهم السلام وَهُمْ يُقَلِّدُونَهُمْ مَعَ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ تَقْلِيدُهُمْ».

فكيف يمدح الظن حينا ويذمه أحيانا؟.

جاء في حديث شريف: عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: «وَالظَّنُّ ظَنَّانِ ظَنٌّ شَكٌّ وَظَنٌّ يَقِينٍ فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ مِنَ الظَّنِّ فَهُوَ ظَنٌّ يَقِينٍ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَهُوَ ظَنٌّ شَك»[1].

ولعل تفسير هذه الرواية.. أن الظن بمعنى التصور فإذا كان التصور والتخيل قائما على أساس التمنيات والأهواء، فهو ظن شك. حتى ولو بلغت نسبة الثقة معه إلى درجة كبيرة وإذا كان التصور على أساس التفكير المنهجي كمن أيقن بالجنة، ثم أخذ يتصور نعيمها، وأيقن بالنار وطفق يتخيل عذابها، فإنه تصور يقين لأنه قائم على أساس.

و أهل اللغة يقولون: الظن هو: الاحتمال الراجح وإذا كان قريب الوهم فإنه يستخدم مع أن المخففة، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وإذا كان قريب العلم فانه يذكر مع أنَّ المشددة، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ [الحشر: ٢].

(١) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٢٦٧.

تقديس الذات

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا[1] ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ[2] ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ[3] وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ[4] دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم[5] مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ[6] وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ[7] ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ

(١) تمسنا: المس نظير اللمس، والفرق بينهما أن مع اللمس إحساساً، وأصله اللصوق، وحدُّه الجمع بين الشيئين على نهاية القرب.

(٢) يخلف: الاخلاف نقض ما تقدم من العهد بالفعل.

(٣) المسكين: هو المتخشع المتذلل من الحاجة، مأخوذة من السكون كأنه قد أسكنه الفقر.

(٤) تسفكون: السفك الصب، سفكت الدم أسفكه سفكاً.

(٥) أنفسكم: النفس مأخوذة من النفاسة وهي الجلالة، فنفس الإنسان أنفس ما فيه.

(٦) أقررتم: الإقرار الاعتراف.

(٧) تشهدون: الشهادة أخذ من المشاهدة وهي الإخبار عن الشيء مما يقوم مقام المشاهدة في المعرفة.

فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ(١) عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ(٢) وَٱلْعُدْوَٰنِ(٣) وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ(٤) تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ(٥) عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تابعنا في الدروس السابقة مراحل هبوط نجم بني إسرائيل، وتركناهم في آخر مرحلة في مستنقع الجهل والضلالة، حيث تحول قادتهم الروحيون إلى سراق الفكرة الرسالية، ومجرمي حرب يساعدون الطغاة على استغلال الضعفاء، في حين تحول الكتاب في نظر جماهيرهم العريضة إلى أحلام حلوة يمنون أنفسهم بها ليبرروا واقعهم الفاسد.

أما الآن فنحن أمام مرحلة تالية أخطر من تلك وهي تحولهم إلى أمة عنصرية، تقدس كيانها المادي، وتحارب الناس والقيم على أساس ذلك الكيان.

إن تحول الأمة إلى تجمع عنصري، يعتبر تغييرا شاملا في قيمها حيث تموت فيها كل جذور الصلاح ولا يرجى لها الخير أبدا. وقد تصبح - بمرور الزمان - تجمّع يسعى نحو الفساد في المجتمعات والاعتداء على الناس ولا ينتهي ذلك إلا بالقضاء الجسدي عليها جميعا.

ويشرح لنا القرآن كيف تتحول الأمة الرسالية إلى تجمع عنصري، وذلك بأبعاد فكرة المسؤولية عن واقعهم، حيث يتصورون أنهم بعيدون عن الجزاء، لأنهم أفضل من غيرهم، ثم يبدؤون بتقييم الحياة وفق هذا التصور الخاطئ. ويكذب القرآن هذه الفكرة ويضرب أمثلة حية على ذلك. ثم يبين زيف الفكرة العنصرية، وذلك حين يحيلهم إلى فطرتهم. إنهم يحمّلون بعضهم مسؤولية جرائمهم فيما يخصهم ويتصل بحياتهم مباشرة، فكيف لا يحتملون مسؤولية

(١) تظاهرون: تعاونون، والظهير المعين.

(٢) الإثم: الفعل القبيح. وقيل هو ما تنفر منه النفس ولم يطمئن إليه القلب.

(٣) العدوان: الإفراط في الظلم.

(٤) أسارى: الأسر الأخذ بالقهر، وأصله الشد والحبس إذا أسره وشده. وقيل إن الأسارى الذين هم في الوثاق والأسرى الذين هم في اليد.

(٥) يخفف: الخفة نقيض الثقل، والتخفيف التسهيل والتهوين.

الجريمة ذاتها حين تقع منهم على غيرهم وهل هناك جريمة دون جريمة أو بشر دون بشر.

بينات من الآيات:

[٨٠] قبل كل شيء يجعل العنصري ذاته فوق المسؤولية ليبرر بعدئذ كل تصرفاته الشاذة، وهذه العملية خطيرة لسببين:

الأول: إنها تميت ضمير العنصري، وتطفئ شعلة إحساسه كإنسان، فلا يعود يشعر بالإثم تجاه ما يرتكبه من موبقات وجرائم.

الثاني: إنها تبرر تصرفاته أمام الآخرين، وهنا نرى القرآن الحكيم يعالج هذه المشكلة في بني إسرائيل ومن ثم في كل الأمم التي قد تبتلي بها، فيقول: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وبالطبع لم يكن هناك ميثاق من الله يتعهد لهم بألاّ يأخذهم على تصرفاتهم، إنما هم تصوروا ذلك انطلاقا من حبهم لذاتهم، وتقديسهم لها.

[٨١] ثم يؤكد القرآن الحكيم، أن كل إنسان مسؤول أمام الله عن تصرفاته السيئة، شاء أم أبى. وهذا وحده عهد الله وميثاقه، وسنته التي لا تتبدل. حيث يقول: ﴿بَلَىٰ﴾ أي إن هناك عهدا ولكن من نوع آخر هو ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ربما التعبير بـ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ يوحي بأن الإنسان قد يذنب ذنبا، ثم يستغفر الله، فيتوب عليه ربه. ولكن إذا أكثر من الذنوب ولم يغسلها بالتوبة، فإن خطاياه تحيط به من كل جانب، وآنئذ لا تدع له مجالا للعودة إلى الله. وهذه الآية تصدق على الكفار ومن بحكمهم، حيث تحيط بهم خطاياهم. وهذا الكلام يدل على أن العنصريين سوف يتوغلون في الذنوب انطلاقا من تصورهم أنهم بعيدون عن مسؤولياتهم، وهناك تأخذهم الذنوب، وترمي بهم إلى النار خالدين فيها.

[٨٢] وكما أن المسؤولية لا تعرف الفرق بين عنصر وعنصر، كذلك الجزاء الصالح لا يختلف فيه قوم عن قوم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ميثاق الله لبني إسرائيل

[٨٣] هذا ميثاق الله مع الناس جميعا، وهناك ميثاق من قبل الله مع بني إسرائيل

بالذات، ولكن نصوصه تختلف كلية عن ميثاق العنصرية المزعوم الذي يدعون أنه أعطاهم صك الأمان.

إنما هو ميثاق مسؤولية كاملة لو طبقوها لأصبحوا خير الناس، وإلا فهم شر الناس جميعا. أما نصوص الميثاق فهي:

أولاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تعتبرون قيمة العنصر أو القرابة أو اللغة أو ما أشبه، مقدسة عندكم إلا بمقدار ما تتفق مع سنن الله وتعاليمه.

ثانياً: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ هؤلاء هم بشر وليسوا بآلهة لذلك لا يجوز عبادتهم.. بل يجب الإحسان إليهم فقط. وفرق كبير بين الإحسان والعبادة إذ إن الإحسان هو العطاء من يد عالية، والعبادة هي الخضوع لمن هو أعلى.

ثالثاً: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وحرام أن تعتدوا على الناس كلامياً فكيف بالاعتداء العملي.

رابعاً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ولا يجوز ترك الفرائض اعتمادا على أنهم من عنصر بني إسرائيل، أو أن آباءهم كانوا أنبياء أو كانوا مقربين إلى الله.

هذه هي نصوص الميثاق، ولو كان بنو إسرائيل طبقوها، إذن لكانوا مفضلين على الناس، ولكنهم لم يطبقوها لذلك لم يستحقوا من الله جزاء مثوبة ولا كرامة. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

[٨٤] خامساً: المحافظة الكاملة على حرمة الدم، وحرية الإنسان ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ هذه بعض نصوص الميثاق الذي شدَّد عليها ربنا وأخذ منهم إقرارا بها ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي أقررتم إقرارا واعيا، بعد علم وتصميم.

[٨٥] بيد أنكم لم تطبقوا نصوص الميثاق، بل عكستم الحال تماما، فليس لكم أي حق على الله أن يوفي من جانبه بعهده تجاهكم، ويفضلكم على الناس تفضيلا ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ وليس غيركم ولا أحد سواكم أنتم بالذات تخالفون نصوص الميثاق ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ يتعاون بعضهم مع بعض آخر ضدهم ﴿بِالْإِثْمِ﴾ وهو العمل السيئ الخاص بالشخص نفسه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو العمل الذي يضر الآخرين. أي أن أعمالكم تضركم أنفسكم وتضر الآخرين.

ولكن هذه الاعتداءات لا تقع على هؤلاء عن جدارة، بل عن تعصب قبلي، أو خلافات داخلية باطلة، وذلك بدليل أنهم يهبّون لنجدة هؤلاء بالذات، لو تعرضوا لعدوان خارجي. فلو كانوا مجرمين فعلا فلماذا يدافعون عنهم؟

إن القرآن يُدين الفكر العنصري الذي يقول: أنا وأخي ضد ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي ضد عدوي الغريب. ويقول: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ ثم يبيّن أن هذا النوع من التفكير لا يعتمد على قيم، بل على أهواء ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ثم يحدثنا بالنتائج الطبيعية لهذا النوع من التفكير العنصري الانتقائي الذي يأخذ من الدين ما يوافق الهوى فقط ويقول: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

[٨٦] أما عذاب الدنيا فيتمثل في ابتعادهم عن هدى الله، وما يوفره هذا الهدى من التقدم والفلاح، حسب ما يذكره القرآن في الآيات التالية.

أما عذاب الآخرة فيذكره القرآن هنا لأنه الأشد والأبقى، ويبين لنا قبلئذ أن سبب هذا التبعيض والانتقاء في اتخاذ أحكام الدين، إنما هو نتيجة استبدال الآخرة بالدنيا ويقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا يرحمهم من في السماء ولا ينفعهم أهل الأرض.

العنصرية والانغلاق الفكري

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا(١) مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ(٢) أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ(٣) بَل لَّعَنَهُمُ(٤) ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا(٥) أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ(٦) ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ(٧) وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

---

(١) قفينا: أردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض. وأصله من القفا.

(٢) القدس: الطهر، والتقديس التطهير. ونقول في صفة الله: القدوس أي الطاهر.

(٣) غلف: جمع غلاف أي أن قلوبنا أوعية وغلف أي ممنوعة من القبول.

(٤) لعنهم: اللعن هو الإقصاء والإبعاد.

(٥) بغياً: البغي أصله الفساد مأخوذ من قولهم بغى الجرح إذا فسد، وقيل أصله الطلب لأن الباغي يطلب التطاول.

(٦) مهين: الإهانة والإذلال.

(٧) ما وراءه: أي ما بعده. وقيل تأتي وراء بمعنى سوى.

وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا[1] قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا[2] فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لقد أدت العنصرية ببني إسرائيل إلى نتائج سلبية شتى، أولها العنف الداخلي الذي تمثل في قتل أو إخراج جماعة منهم بالإثم والعدوان. وثانيها -وهي الأخطر والتي يتناولها القرآن من جميع جوانبها- فهي الانغلاق. حيث وضعت العنصرية بني إسرائيل في زنزانة ضيقة، منعت أن يتسرب إليهم أي نور وهدى. وتمثل ذلك في رفضهم الدائم اتباع أي نبي أو أي أفكار رسالية جديدة.

في هذه المجموعة من الآيات يذكرنا القرآن بموقف بني إسرائيل من عيسى بن مريم، الذي لم يكن ناشئا من تفكير منطقي بل من أهواء ضالة ومصالح خاصة.

ثم موقفهم من رسالة النبي التي كانوا يستعدون سلفا لتقبلها، ولكنهم سرعان ما انقلبوا ضدها حين اكتشفوا أنها نزلت في غيرهم. ويبين لنا القرآن أن عدم إيمانهم بهذه الرسالة نابع من عنصريتهم الضيقة. ثم يكشف القرآن عن جذر العنصرية ويقول: إن جذرها هو عبادة العجل (رمز المال والجاه).

بينات من الآيات:

[٨٧] كما أنزل الله الكتاب على موسى أنزله على سائر النبيين من بعده، وعلى عيسى بن مريم، فلماذا تجمد بنو إسرائيل على موسى عليه السلام، هل لأنه كان من بني إسرائيل؛ فعيسى عليه السلام كان أيضا منهم. أم أنه وحده أنزل عليه الكتاب.. أوَلَم ينزل أيضا على عيسى؟

العلة ليست هذه أو تلك إنما هي: أن العنصرية تؤدي بصاحبها إلى الانغلاق الفكري، ومن ثم إلى الرجعية والجمود. إن بني إسرائيل أخذوا يقدسون آباءهم، ويقدسون أفكار أولئك وعاداتهم، انطلاقا من عنصريتهم الضيقة. فلم يستطيعوا أن يطوروا أنفسهم وفق رسالة عيسى

(١) واسمعوا: أي أقبلوا ومنه قوله: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أي قبل الله حمد من حمده.
(٢) اشربوا: أصله من الشرب يقال شَرب وأشرب غيره إذا حمله على الشرب وأشرب قلبه حب كذا.

الجديدة، لذلك أنكروها.. يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ التي دلت على رسالته بالقطع واليقين، وقطعت الطرق على كل مرتاب في رسالته: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ الذي أُيِّد به سابقا النبي موسى عليه السلام. ولكنكم، يا بني إسرائيل، لم تؤمنوا بعيسى لما جاءكم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وتعاليتم عليه، لأنكم في رأيكم الشعب المختار لله، والله قد منّ عليكم بقيم وأفكار وعادات لا يوجد مثيل لها في العالم، وبالتالي ليس في الرسالة الجديدة أي شيء جديد يمكن أن يضاف إلى رسالتكم!!.

إنكم تعديتم الحد في تعاملكم مع رسل الله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وسواء كذبتم أو قتلتم فإن الخاسر الوحيد هو أنتم.

سبب التكذيب

[٨٨] لماذا كذبتم بالرسل؟

لأنكم انغلقتم على عنصريتكم الضيقة، ولكن أليس بإمكانكم فَكَّ حصار العنصرية والتحرر من رجعيتها وجمودها؟. بلى، فأنتم إذن المسؤولون عن كفركم مباشرة، ولا يجديكم أبدا: التبرير بأنكم منغلقون نفسيًّا في التملص من مسؤولية كفركم بالرسالة الجديدة.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ لا تدخلها نصائح جديدة أو تعاليم. كلا، إن الله لم يخلق بعض القلوب منغلقة وبعضها منفتحة، إنما الناس بكفرهم أو إيمانهم ينفتحون أو ينغلقون أمام التوجيهات الجديدة ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فكفرهم هو الذي سبّب انغلاق قلوبهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ أصبح الإيمان بالنسبة إليهم مهمة صعبة، قلما يقوم بها الناس العنصريون الذين اختاروا الكفر على الإيمان.

[٨٩] ثم يضرب الله مثلا آخر من واقعهم العنصري، أنهم انغلقوا عن نور الرسالة الجديدة التي هبطت مع النبي محمد صلى الله عليه وآله بالرغم من أنهم كانوا ينتظرونها، وذلك لأنهم وجدوا أنها نزلت في غيرهم ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بهذا الكتاب الجديد، وينتظرون مقدمة حتى يحاربوا به كفار الجزيرة العربية ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ أنه من الله، وأنه رسالة جديدة يحتاج إليها العالم وبالذات محيطهم الجاهلي المتخلف ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ وماذا ينتظر مَنْ يكفر بهذه الرسالة التي يحتاج إليها الناس جميعا، ويعترف هو بحاجة الناس إليها، أوَلَيس الابتعاد عن السعادة

والفلاح؟ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

[٩٠] لماذا وكيف تنشأ العنصرية؟

تنشأ العنصرية أساسا من حب الدنيا والعمل من أجل المصالح المشتركة لمجموعة بشرية، وتتضخم هذه المصالح في نفوسهم حتى تتحول إلى عنصرية، والسؤال الآن: ماذا لو أصبحت العنصرية شرًّا على أصحابها، هل عليهم التشبث بها إلى الأبد؟

القرآن الحكيم يذكر هؤلاء العنصريين بمدى الخسارة التي تلحقهم في الدنيا بسبب هذا التفكير الأرعن ويقول لهم بلغة فطرية مبسطة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بئست الذاتية والعنصرية التي تعني أن يبيع الإنسان كل شيء في الحياة، ويشتري في مقابلها نفسه، وبتعبير آخر: بئست العملية هذه التي يضحي فيها الإنسان بكل شيء في سبيل مصالحه الذاتية، إذ إن ذلك سوف يسبب لهم الدمار لأنه سوف يؤدي إلى ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾ بما أنزل من الكتاب والحكمة والنور والهدى وكل خير، لماذا؟ بسبب التفكير العنصري وذلك بالاحتجاج بـ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

فبما أن الله اختار لرسالته مهبطا آخر غير بني إسرائيل كفروا بالرسالة، فمن هو الخاسر غيرهم. هل صحيح مثلا أن يمتنع أحد المواطنين من أخذ أرض تقسّمها الدولة لمجرد أن الموظف ليس ابن عمه، وماذا يضره مادام أنه يأخذ الأرض ويحقق هدفه بها، لذلك فإن هؤلاء خسروا أنفسهم ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ إذ كانوا في تخلّف، فاصبحوا أشد تخلفا بسبب تقدم غيرهم عليهم، حين آمن الناس بالرسالة وكفروا هم بها. وكانوا كفارا فازدادوا كفرا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وأنهم سوف لا يحققون هدفهم من الاستكبار عن الإيمان بالرسالة. إذ إن هدفهم العزة والتعالي، وإن كفرهم بالرسالة سوف يسبب لهم التخلف والجمود وألوان المشاكل وبالتالي يسبب لهم الذل والعذاب المهين.

[٩١] ثم يكشف القرآن جانبا آخر من العنصرية، وهو أن العنصرية ذاتها نتيجة وليست سببا، وسبب العنصرية هو حب المال، ورمزه المتمثل في عبادة العجل.

وهؤلاء يحبون المال حبًّا أعمى، ويزعمون أنه سوف يحقق كل طموحاتهم، ويعطيهم العزة والسعادة. لذلك تجدهم لا يؤمنون بالرسالات الجديدة خشية أن يفقدهم الإيمان بها بعضا من امتيازاتهم ومكاسبهم الخاصة، ولكنهم لا يصرحون بذلك، بل يقولون إننا نكتفي بما عندنا من كتاب وحكمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ولكنهم يكذبون في ذلك، ويدل على كذبهم أن هذا الكتاب لا

يختلف عن كتاب الله الذي أنزل عليهم.

﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ إنها يكفرون بهذه الرسالة حتى لا يفقدوا زعامتهم ومكاسبهم، والدليل على ذلك أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين أرسلوا إليهم للسبب ذاته ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

[٩٢] حتى موسى الذي تدَّعون أنكم تتبعونه كفرتم به مع أنه جاءكم بالبينات الواضحة ﴿۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ثم كفرتم به، إذن فالتبرير بأن رسالة محمد ﷺ نزلت على غيرنا ولذلك لا نؤمن بها تبرير خاطئ، وأن السبب الحقيقي هو المحافظة على المصالح الذاتية التي تعيش في لا وعيكم أو حتى في وعيكم.

أما قصة عبادة العجل في اللاوعي، حيث لم تزل جذور عبادة المال متأصلة في نفوسكم، فكانت مع موسى أول مرة حيث إنكم آمنتم به ظاهرا ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ حيث خدعكم السامري بعد أن ذهب موسى لميقات ربه، ودفعكم شعوركم السابق بقداسة العجل إلى اتباعه.

[٩٣] أما قصة عبادتكم العجل بشكل ظاهر فكانت بعد أن أخذ الله ميثاقكم ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ لماذا العصيان بعد السماع؟ لأنهم في الواقع لا يزالون يعبدون المال ورمزه العجل ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ حتى أصبح حب العجل في قلوبهم كالماء حين تشربه الأرض اليابسة، يمتزج مع كل ذرة من تراب الأرض، فكيف يمكن فصل الماء عن الأرض. إنه يشبه المستحيل ولكنه ليس مستحيلا لأن الإيمان يمكنه أن يطهر القلب من مزيج الكفر لو وجد هناك إيمان صادق.

وهؤلاء لم يشربوا في قلوبهم حب العجل إلا ﴿بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ الحقيقي، وإيمانهم الكاذب، إذ ليس هنالك إيمان يتعايش مع الكفر، ويأمر به كلا ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ الإيمان الصادق يأمر صاحبه بالتضحية وتصديق الحق أنى كان وبالتسليم لأمر الله. وما عندكم ليس إيمانا بالمرة.. إنما هو كفر ملبس بظاهر من الإيمان.

العنصرية والكفر بالملائكة

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً(١) مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ(٢) النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ(٣) يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ(٤) أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ(٥) مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ(٦) بَيِّنَاتٍ ۖ(٧) وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ(٨) فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) خالصة: الخالصة الصافية، يقال: خلص لي هذا الأمر أي صار لي وحدي وصفا لي.

(٢) أحرص: الحرص شدة الطلب.

(٣) يود: المودة المحبة.

(٤) يعمّر: التعمير طول العمر، وأصله من العمارة التي هي ضد الخراب.

(٥) بمزحزحه: الزحزحة التنحية.

(٦) آيات: الآية العلامة التي فيها عبرة، وقيل العلامة التي فيها الحجة.

(٧) بينات: البينة الدلالة الفاصلة الواضحة بين القضية الصادقة والكاذبة مأخوذة من إبانة أحد الشيئين من الآخر ليزول التباسه به.

(٨) نبذه: النبذ طرحك الشيء عن يدك أمامك أو خلفك، وقيل معنى نبذه تركه، وقيل إلقاه.

هدى من الآيات:

في هذه المجموعة من الآيات، لا يزال القرآن يحدثنا عن العنصرية، ومدى ارتباطها بحب الذات والأنانية، وأنها ليست في الواقع إلا إطارا لممارسة الكفر، بالرغم من ظاهر الإيمان فيها. والدليل على ذلك، تشبث العنصريين بالحياة وعداؤهم لجبرائيل وميكائيل ومن ثم عداؤهم لله والرسل، هذا العداء الذي يسبب الدمار عليهم.

بينات من الآيات:

[٩٤] العنصريون في التاريخ وفي عالمنا اليوم يغلّفون أنانيتهم المقيتة بغطاء من القيم الزائفة، ليخدعوا الناس والبسطاء من أصحابهم. فالإسرائيليون قديما كانوا يدّعون أنهم حملة الرسالة، وللمحافظة على هذه الرسالة لابد أن يدافعوا عن ذاتهم ويعملوا في سبيل دعم الذات بأية وسيلة ممكنة. وهم اليوم يدّعون أنهم حملة الحضارة، (الحرية، التقدم) وعليهم أن يؤدبوا (الوحشيين) بأية وسيلة ممكنة حتى ولو كانت هذه الوسيلة أكثر وحشية من شرائع الغاب. والاستعمار الحديث قبلئذ كان يدّعي أنه يحمل العمارة والحضارة إلى العالم.

ولكن هذا الخداع الذاتي سوف يذوب في وهج الحقيقة التي يذكّرنا بها القرآن هنا، حين يأمر هؤلاء بالموت في سبيل أهدافهم هذه.. فهل هم مستعدون لذلك؟

كلا ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ وأنكم تدافعون عن قيم الله في الأرض إذن ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[٩٥] ولكن هل يفعلون ذلك؟ كلا ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ لأنهم يعرفون مدى الجرائم التي اقترفوها في حياتهم وأنه ينتظرهم هنالك جزاؤهم العادل ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

[٩٦] وهؤلاء ليسوا فقط لا يتمنون الموت بل بالعكس يتشبثون بالحياة بعنف ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ إنهم أحرص على حياة، أية حياة كانت، بُذلٍّ أم بعز، بفقر أم بغنى، بقيم من دون قيم، بل إنهم أحرص من الكفار الذين لا يملكون أية قيم ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ولكن لو افترضنا أنه عمر ألف سنة فهل يتخلص من العذاب.. كلا ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الجرائم وسوف يعاقبهم عليها عاجلا أم آجلا.

[٩٧] إن عداء هؤلاء مع الرسالة الجديدة ناشئ في الواقع من عدائهم للحق، فهم يعيشون حالة التناقض بين الحق وبين مصالحهم الذاتية، والحق يمثله جبريل ملك الوحي، ملك القضاء ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ فليعرف أن جبريل هو ملك الوحي وأنه يهبط بالكتاب من السماء ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولكن جبريل بدوره ليس إلا مأمورا من قبل الله، فهو لم ينزل الكتاب على النبي محمد ﷺ من قبل نفسه، بل ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، والدليل على أنه من قبل الله كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة ثم انه هدى وبشرى لمن آمن به ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[٩٨] إذن فالعداء للحق يصعد إلى العداء لجبريل، ومن ثم لله، وهل يستطيع أن يعادي البشر ربه؟ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وسوف يعاقبهم الله إذ لا يمكن التفريق بين الله وبين ملائكته أو رسله، ولا بين رسله بعضهم عن بعض.

[٩٩] والقضاء والقدر (السنن الثابتة والمتطورة في الحياة) متمثلة الآن في رسالة محمد ﷺ، والتقدير والحكمة الإلهيين وسنن الله في الخليقة تتجلى في الرسالة المحمدية، فرسالات الله ليست بأهواء البشر. وقد أيد نبيه بالعلامات الواضحة والحجج البالغة ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، والذين يخالفونها ويكفرون بالرسالة لا يستطيعون أن يؤمنوا بشيء ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الذين يخالفون عهد الله.

[١٠٠] ولكن إلى متى يخالف الإنسان عهده مع الله ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ هو ذلك الفريق الذي يخالف العهد مصالحه، مما يدل على أنهم لا يتبعون الدين ولا يلتزمون بالعهود، بل يتبعون -في الواقع- أهواءهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالحق إنما بما تمليه مصالحهم الذاتية وشهواتهم وأهواؤهم.

السحر والشعوذة.. نهاية المطاف

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَٱتَّبَعُوا۟[1] مَا تَتْلُوا۟[2] ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ[3] وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ[4] فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ[5] وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ[6] مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾

هدى من الآيات:

بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضعف في أمة بني إسرائيل، وبعدها كانت العنصرية،

---

(١) اتبعوا: اتبع اقتدى به.

(٢) تتلوا: تتبع والتالي تابع، وقيل معناه تقرأ من تلوت الكتاب أي قرأته.

(٣) السحر: عمل خفي لخفاء سببه يصور الشيء بخلاف صورته ويقلبه عن جنسه في الظاهر ولا يقلبه عن جنسه في الحقيقة.

(٤) فتنة: الفتنة الامتحان والاختبار، يقال: فتنته فتنة.

(٥) خلاق: نصيب من الخير.

(٦) مثوبة: الثواب الأجر، والأصل في الثواب ما رجع إليك من شيء.

ومن ثم تأتي مرحلة الخرافة المتمثلة في السحر والشعوذة.

حيث أن الأمة العنصرية تنغلق على ذاتها.. (وقالوا قلوبنا غلف) وتبتعد عن توجيهات الله، وعن سنن التأريخ، وتجارب الناس، وتستكبر على الحق وليس أمامها بعدئذ إلا الهبوط إلى حضيض السحر والشعوذة.

فيتناول القرآن الحكيم هذه المرحلة بإيجاز فيبدأ بالحديث عن ترك بني إسرائيل للكتاب ليبين الله أنه السبب في تشبثهم بالسحر. لأن من لا يمتلك تفسيرا صحيحا للحياة ورؤية علمية إلى أهدافها، يضطر إلى البحث عن تفسيرات غيبية ورؤى باطلة.

وحيث يتحدث عن السحر ينفي القرآن قصة مختلقة من بني إسرائيل تزعم أن السحر من الله، وينهي الحديث ببيان أن التمسك بالكتاب أفضل لهم من التشبث بالسحر.

بينات من الآيات:

[١٠١] ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

حينما يكذب الإنسان بحق يعرف صدقه، فإنه بمثابة تكذيب الحق كله. لأن الإيمان يعني التسليم بالحق أنى كان. أما تصديق حق دون آخر والإيمان ببعض الكتاب والكفر بالآخر فإنه بمثابة الكفر به جميعاً. إذ أن معيار الاقتناء آنئذٍ يكون الهوى، وحتى القسم الذي يؤمن به هؤلاء من الحق فإنما يتبعونه لموافقة ذلك القسم لأهوائهم، وهذا ليس من الإيمان في شيء.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وكان ينبغي أن يؤمنوا به إذا كان إيمانهم بالله سبحانه هو معيار إيمانهم بالرسول. ذلك أن روح تلك الرسالة التي زعموا أنهم قد آمنوا بها هي ذات الروح التي يجدونها في هذه الرسالة، لأن الرسول ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتاب، ولكنهم لم يفعلوا وإنما ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فكفروا بهذا الكتاب وبما عندهم، لأنهم كفروا بما جاء من عند الله فكأنهم كفروا بالله سبحانه وتعالى. ثم إنهم جعلوا علمهم جهلا حين لم يعملوا به ولم يتخذوه معياراً لإيمانهم ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[١٠٢] نستلهم من هذه الآية الكريمة بصائر شتى:

أولاً: بما أن الابتلاء سنة إلهية عليا، وهدف أساس لخلق الإنسان في هذه الدنيا، فإن الحق والباطل يتقابلان على صعيد واحد أبداً ليختار من يريد الحق بوعي ورشد وليهلك من

يختار الهوى بحجة بالغة عليه.

وهكذا كلما أرسل الله رسلاً نشط شياطين الجن والإنس في إثارة الفتن وحاولت إما مواجهتها بالشعر والسحر وإما تحريفها.

ومن هنا نقرأ في سورة الحج الآية التالية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٣].

وهكذا كان مع كل نبي شياطين ينحتون من وساوسهم لكل حقٍ باطلاً، ولكل هدى ضلالةً و لكل آيةٍ كريمة سحراً. وهكذا كان مع النبي سليمان عليه السلام أولئك الشياطين الذين ألقوا في ملكه المزيد من الوساوس ونشروا المزيد من الضلالات، ثم نسبوها إلى نبيهم تزييفاً للدين وتبديلاً للكلم عن مواضعها. وحاشى لله أن يأمر نبي عظيم كسليمان قومه الأخذ بالسحر.

وهذه الفئة من شياطين الجن والإنس هم الذين حرّفوا ما نزل على موسى وعيسى عليهما السلام وادخلوا في الدين خرافات الفلسفة وأساطيرها.

وهم الذين أدخلوا في تفاسير القرآن الروايات الإسرائيلية ونسبوا إلى نبينا العظيم صلى الله عليه وآله الأحاديث المخالفة للعقل والوحي.

ثانياً: إن السحر (كما وساوس الفلسفة والتصوف وتخيلات الشعراء) يختلف عن الوحي وما يثيره الوحي من دفائن العقل، ومحور الاختلاف إن مصدر السحر الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم، بينما مشكاة الوحي هم الملائكة الذين ينزلون على الأنبياء بالبصائر الواضحة. وهكذا كانت نسبة السحر إلى الملكين هاروت وماروت دجلاً وكفراً لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بالسحر ولا ينزل الملائكة به.

بلى؛ كانت حسب نصوص مأثورة قد اجتاحت موجة من السحر بلاد بابل بعد الطوفان فأنزل الله على الأنبياء الملائكة يعلمونهم ما يبطل السحر ويفضح السحرة. فإذا بالدجالين ينشرون شائعة بأن الملكين قد نزلا بالسحر وإنما هما نزلا بإبطاله.

لنقرأ معاً جزءاً من حديث مأثور في هذا الأمر:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «وَكَانَ بَعْدَ نُوحٍ عليه السلام قَدْ كَثُرَ السَّحَرَةُ وَالْمُمَوِّهُونَ فَبَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلَى نَبِيِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ بِذِكْرِ مَا يَسْحَرُ بِهِ السَّحَرَةُ وَذِكْرِ مَا يُبْطِلُ بِهِ سِحْرَهُمْ وَيَرُدُّ

بِهِ كَيْدَهُمْ فَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ عَنِ الْمَلَكَيْنِ وَأَدَّاهُ إِلَى عِبَادِ اللهِ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقِفُوا بِهِ عَلَى السِّحْرِ وَأَنْ يُبْطِلُوهُ وَنَهَاهُمْ أَنْ يَسْحَرُوا بِهِ النَّاسَ» .

ثالثاً: إن السحرة (والشعراء و أساطين الفلسفة) يختلفون عن الوحي في الأهداف فغاية السحر إثارة الهوى وإشعال نار الفتنة بين الناس وهدم أسس الأسرة الفاضلة، بينما غاية الوحي بناء الحضارة الإنسانية بتنمية العقل والإرادة و نشر قيم النشاط و التعاون واعمار الأرض و نشر راية العدل في ربوعها.

ولذلك فان الساحر لا يفلح حيث أتى، لأنه يقوم بالهدم لا البناء وإثارة الهوى لا نشر الهدى.

وكذلك نجد إن سحرة فرعون هم كانوا أول من آمن به حينما سمعوا الهدى ورأوا المعجزة الكبرى.

والشعراء والأدباء كانوا أول من عرف إن القران وحيٌ يُوحى و ليس بشعر أو سحر. هذه هي البصائر التي استلهمها هنا من هذه الآية الكريمة و فيها المزيد - فتعالوا نتلوها بتدبر لعلنا نفقه بعضاً من أسرارها.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ من السحر. فبسبب النبذ وجد فراغ ثقافي في حياتهم فالتفتوا إلى السحر والشعوذة والأفكار الغيبية الباطلة فلم يجدوها إلا عند الشياطين.

ذلك إن سليمان كان نبيا من بني إسرائيل وملكا، وكانت الشياطين تخدمه، وقد خلفت وراءها مجموعة من الأفكار الباطلة.

هؤلاء تركوا الكتاب المنزل من الله الذي كان هو الحق مصدقا لما بين أيديهم و ما خلفهم ثم ذهبوا و اتبعوا أفكار الشياطين. هذه نهاية العنصريّة أنها لا تفرق بين أفكار شياطين الملك -إن كانت من نفس العنصر أو لأنهم يُحيطون به- وبين الأفكار الصحيحة التي يأتي بها نبي مرسل من الله.

والمشكلة إنهم قالوا: ما دامت هذه الأفكار من (بنات فكر) الشياطين الذين كانوا حول سليمان، و ما دام سليمان نبي الله، فإذاً هذه الأفكار هي من الله سبحانه، و لكن الله نفى بشدة هذه المعادلة الباطلة.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ والسحر هو الكفر لأنه يربط الحياة بقوى غيبية غير الله سبحانه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ السحر أبدا كما تدعي هذه الطائفة العنصرية ﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ وإنما إبطاله.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ إذ أن نسبة السحر إلى الله هو كفر بذاته. والسحر لا يمكن أن يكون من قبل الله، لأنه يخالف مسيرة رسالاته ويتناقض معها تناقضا كليا، فرسالات الله دعوة إلى الترابط والانتفاع في الحياة، بينما هؤلاء يتعلمون من السحر التدابر والضرر.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ لا على نحو الحتم، فالسحر لا يؤثر تأثيرا أكيدا في الحياة بل الله وسننه وإرادة الإنسان هي التي تؤثر في الحياة.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي أنهم لا يضرون أي أحدٍ بالسحر إلا عبر قوانين الله، فالله و رسالاته أجدر بالإتباع. وعموما: السحر يضر ولا ينفع، بينما رسالات الله تنفع ولا تضر.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ورسالات السماء تنفع الإنسان في الآخرة بينما السحر لا ينفع هنالك شيئا.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ فأي نصيب لا يملكه الساحر في الآخرة لطبيعة أعماله المنافية للدين في الدنيا.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنه تفرقة وضرر في الدنيا، وخسارة في الآخرة.

[١٠٣] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ برسالات الله ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ بتطبيقها على أنفسهم تطبيقا سليما كان أفضل لهم. إذ ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ وجزاء حسن ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ بيد أن العنصريين لا يفقدون هدى الرسالة وحدها بل يفقدون العلم أيضا، والعلم بعيد عن السحر بعد الأرض عن السماء.

هذه نهاية المطاف لبني إسرائيل، وفي مراحل حياتهم عبر كثيرة لنا، وللأمم.

وخلاصة الدرس: أن مخالفة رسالة السماء وضعف تطبيق أوامر الله سيؤدي إلى العنصرية، ثم إلى فقدان كل شيء، وآخر ما يفقده الإنسان بسبب العنصرية هو العلم.

نحن والثقافات الدخيلة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا (١) وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا (٢) وَٱسْمَعُواْ (٣) وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ (٤) مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا (٥) مِّنْ عِندِ

---

(١) راعنا: المراعاة التفقد للشيء في نفسه أو أحواله، ونقيض المراعاة الإغفال، ورعى الله فلاناً أي حفظه. وكان اليهود يقصدون بكلمة راعنا معنىً آخر وهو الرعونة.

(٢) انظرنا: النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد تأتي بمعنى انتظرنا نفهم ونتبين ما علمنا.

(٣) اسمعوا: يحتمل أحد أمرين: أحدهما: أن معناه اقبلوا ما يأمركم به، والثاني: أن معناه استمعوا ما يأتيكم به الرسول.

(٤) ننسخ: النسخ في اللغة إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، يقال: نسخت الشمس الظل أي أذهبته وحلت محله، وأصل الباب الإبدال من الشيء غيره.

(٥) حسداً: الحسد إرادة زوال نعمة المحسود إليه أو كراهة النعمة التي هو فيها وإرادة أن تصير تلك النعمة كلها له. وأشد الحسد التعرض للاغتمام بكون الخير لأحد.

أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟(١) حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

لا زلنا في إطار الحديث عن بني إسرائيل، فبعد أن رافقناهم في مراحل تطورهم. نقف الآن برهة نعتبر دروسا من حياتهم، وأهم ما يبين لنا القرآن في هذه الآيات أن يحذرنا من التأثر بالأفكار الغريبة والدخيلة.

ويعطينا القرآن أول درس من حياتهم من خلال النهي عن تكرار مقالتهم ﴿رَٰعِنَا﴾ بتبديلها بأخرى أفضل منها وهي ﴿أَنظُرْنَا﴾.

ثم يؤكد للأمة الإسلامية شخصيتها المتميزة عن الأمم الأخرى يقول لهم: (إن أولئك يحسدونكم على فضل الله لكم) ويقول: (إنكم تملكون أفضل مما يملكون أو لا أقل مثل ما يملكون من الهدى).

كما ينهي الأمة الإسلامية عن أن تتورط في مشكلة تجسيم الله كما فعل بنو إسرائيل، ويؤكد لنا ضرورة الحذر من التأثر بثقافتهم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة كقوة أساسية للأمة، ويحذرنا من استيراد أنظمة الآخرين، والاعتماد على ثقافتهم.

بينات من الآيات:

راعنا وانظرنا

أولاً: دعنا نستمع إلى المفسرين يذكرون لنا معنى ﴿رَٰعِنَا﴾، و﴿أَنظُرْنَا﴾ يقول الشيخ الطبرسي رحمه الله: «المراعاة، والمحافظة، والمراقبة، نظائر. وعكس المراعاة: الإغفال، ورعى الله فلانا أي حفظه ورعيت له حقه وعهده فيمن خلف، وأرعيته سمعي إذا أصغيت إليه، وراعيته يعني إذا لاحظته، وجمع الراعي رعاء، ورعاة، ورعيان. وكل من ولي قوما فهو راعيهم وهم رعيته، والمرعي من الناس المسوس، والراعي السائس واسترعاه الله استخلفه، أي

(١) اصحفوا: الصفح بمعنى العفو والتجاوز عن الذنب.

ولاه أمرهم يرعاهم، والإرعاء الإبقاء على أخيك والاسم الرعوي والرعيا، وراعني سمعك أي استمع»[(١)].

أقول: ويبدو من استخدامات الكلمة أنها أشد من الحفظ اهتماما، وألين من الرقابة جانبا، فالراعي للغنم، ليس يحفظه فقط بل ويهتم بشؤونه، وهكذا السائس لبلده يهتم بشؤون رعيته أيما اهتمام. وبينما (الحفظ) هو منع الخطر عن الشيء أو الشخص المحفوظ، فإن الرعاية تنطوي على معنى جلب المنفعة أيضا، بل توحي لفظة المراعاة والرعاية إذا استخدمت في العلاقة بين الأمير والمأمور، والحاكم والمحكوم، تخفيف القانون وتيسيره.

أما كلمة ﴿ٱنظُرۡنَا﴾: فقال الشيخ الطبرسي عنها: ونظرت الرجل أنظره نظرة بمعنى انتظرته وارتقبته[(٢)].

وقال الفخر الرازي: «وأما قول ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ ففيه وجوه:

١- انه من نظره أي انتظره. قال تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ فأمرهم تعالى بأن يسألوه الإمهال لينقلوا عنه فلا يحتاجون إلى الاستعاذة، وأضاف:

٢- ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ معناه انظر إلينا، إلا أنه حذف حرف إلى، ثم قال:

٣- قرأ أبي بن كعب (أنظِرْنا) -أي بهمزة القطع- من النظرة أي أمهلنا»[(٣)].

ثانياً: آراء المفسرين في معنى هذه الآية اختلفت اختلافا كبيرا، وأذكر فيما يلي:

١- إن هذه الكلمة كانت تستخدم عند اليهود، فنهي المسلمون عن استخدامها. وسواء كانت تعتبر سبًّا عندهم إذ إنهم كانوا يقصدون بها الرعونة أو راعي الأغنام أو لمجرد شياعها لديهم. إذ إن هذه الكلمة هي الشائعة، سواء هذا أو ذاك فإن نهي القرآن عن استخدامها كان بسبب اليهود وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الكلمة سب بالعبرانية[(٤)].

وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لاضربن عنقه. فقالوا: أوَلَستم تقولونها؟

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ١٧٨.
(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ١٧٨.
(٣) الفخر الرازي: ج٣، ص ٢٢٤.
(٤) مجمع البيان: ج ١ ، ص ١٧٨.

فنزلت هذه الآية»[1].

وجاء في حديث مأثور عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وأنزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فَإِنَّهَا لَفْظَةٌ يَتَوَصَّلُ بِهَا أَعْدَاؤُكُمْ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى سَبِّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَسَبِّكُمْ وَشَتْمِكُمْ ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ أَيْ قُولُوا بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ لَا بِلَفْظَةِ رَاعِنَا فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَا فِي قَوْلِكُمْ رَاعِنَا وَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَتَوَصَّلُوا بِهَا إِلَى الشَّتْمِ كَمَا يُمْكِنُهُمْ بِقَوْلِكُمْ: ﴿رَٰعِنَا﴾، و﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ إِذَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله قَوْلًا وَأَطِيعُوا، ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ الشَّاتِمِينَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وَجِيعٌ فِي الدُّنْيَا إِنْ عَادُوا لِشَتْمِهِمْ وَفِي الْآخِرَةِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ»[2].

وانطلاقا من هذا التفسير فإن النهي عن استخدام كلمات متشابهة، ربما يهدف الاستقلال الثقافي عنهم، وكما يهدف عدم إعطاء ذريعة لهم للنيل من شخصية الرسول صلى الله عليه وآله.

٢- إن هذه الكلمة كانت تستخدم عند قريش في الاستهزاء أو لا أقل عند تساوي المتخاطبين، فجاء النهي عند استخدام مثل هذه الكلمات في حضرة الرسول كما يقول القرآن ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [النور:٦٣].

٣- بالرغم من أن هذه التفاسير تبدو قريبة وربما كانت بعض أبعاد الآية إلا أن هناك احتمالا آخر هو أن يكون معنى المراعاة تخفيف الأحكام، بينما يكون معنى ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ الإمهال.

وبناء على ذلك فإن المنهي عنه هو البحث عن تخفيف الأحكام الشرعية المأثورة وبدلا من ذلك طلب المهلة، والفرق كبير بينهما، وذلك:

[١٠٤] لاختلاف المجتمعات القوية عن الضعيفة في أن الأولى طموحة، يتطلع أبناؤها لتحقيق المزيد من الإنجازات، ولأن طاقاتها محدودة فهي تبرمج أهدافها لتحقيقها شيئا فشيئا، في حين أن المجتمعات الضعيفة تحاول تحقيق واجباتها قدر الإمكان ودون برمجة لأنها تفقد تطلعاتها البعيدة.

ويبدو أن بني إسرائيل كانوا في أخريات حياتهم بوصفهم أمة، يطالبون بتخفيف واجباتهم، ويكررون هذه الكلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ فهم يقولون: «راعنا في الصلاة.. في الزكاة.. في الجهاد..». وفي كل شيء يأمرهم به أنبياؤهم وقادتهم، وهذه الكلمة تشبه كلمة اعفني من هذا.

(١) بحار الأنوار، ج٩، ص٣٣١.
(٢) بحار الأنوار: ج٩، ص٣٣١.

ولعل الله أرادنا ألاّ نكون ضعيفي الإرادة، فأمرنا بأن نتطلب التدرج في تحقيق الواجبات لا إلغاءها رأسا، واختار لنا كلمة ﴿ٱنظُرْنَا﴾ أي: أمهلنا، بدل كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ حتى نطبق الواجب. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ ثم أمرنا بأن نسمع ونؤمن لأن الله أعد للكافرين عذابا أليما ﴿وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[١٠٥] الأمة الإسلامية متصلة بالله مباشرة، وعليها أن تستقي قيمها وثقافتها من رسالة الله التي أوحيت إلى محمد ﷺ، والمشركون أهل الكتاب ليسوا بأفضل من الأمة الإسلامية ثقافة، وليس هذا سبب ابتعادهم عن الثقافة الإسلامية.. بل السبب الوحيد هو أنهم عنصريون وجهلاء ابتعدوا عن الإسلام لأنه نزل على غيرهم، ولو نزل في بيوتهم - فرضا - إذن لاحتضنوه ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهم يعتبرون الرسالة خيرا. فُضِّل غيرهم به، لذلك يتميزون غضبا وقال الله لهم ببساطة: الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ والرسالة كآية رحمة أخرى ينزلها الله حسب ما يشاء لا حسبما يشاء الناس ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يمكنه أن يعم الناس كلهم بفضله لو لم يتحاسدوا، وإذا أخلصوا لله عملهم، فبإمكان المشرك أو اليهودي أن يصبح مسلما صادقا يتقدم على كثير من المؤمنين السابقين ذلك أن المجال مفتوح أمام الجميع، ورحمة الله واسعة تشمل الجميع.

رسالات الله وتطور الزمن

[١٠٦] ليست الثقافة الإسلامية أردأ (حاشا لله) من ثقافة الآخرين، وإذا كان للآخرين كتاب فللمسلمين كتاب كريم أيضا. لأن ينبوع فضل الله الذي أنزل ذلك الكتاب أنزل كتابا افضل من ذلك الكتاب لأنه كتاب جديد فيه ما ينفع الحياة الحاضرة والمستقبل ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ النسخ هو: تطوير أسلوب الحكم بما يتناسب مع تطور الحياة بالرغم من وجود الحكم ذاته، مثل حكم الصلاة كانت إلى المسجد الأقصى في الشرائع السابقة، فتحولت القبلة إلى الكعبة. فالصلاة هي الصلاة ولكن تغيرت قبلتها. وقد يكون النسخ: هو بإلغاء الحكم رأسا مثل المحرمات التي كانت على بني إسرائيل في الأكل فألغيت في الشريعة الإسلامية.

والله حين ينسخ شريعة ينسخ قيادة تلك الشريعة، أو ذلك الشخص الذي يجسد تلك الشريعة أيضا. فموسى وعيسى عليهما السلام نسخت شرائعهما وانتهت فترة قيادتهما للناس، والآية

بهذا المعنى تشمل الإنسان القائد الذي يجسد آيات الله عمليًّا.

إذن كلام الله يدل على أن لكل عصر قادته الذين يستمدون من الدين الأحكام المتصلة بظروفهم، والله قادر على إبداع آيات جديدة، ويبعث قادة جدد. وقد جاء في النصوص تفسير هذه الآية بوفاة إمام عادل وقيام إمام آخر مقامه[١].

[١٠٧] ويجب ألاَّ يخشى الإنسان من سلطة من يمثلون الأفكار السابقة المنسوخة بفعل تطور الحياة، بل يخشى الله سبحانه لأنه هو المالك للسماوات والأرض، وهو الولي النصير، وولي العالمين وحده ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وهذه الآيات والتي سبقت، تأمر الأمة بالتفكير جديًّا في التقدم المستمر، وعدم الخوف من الجديد لمجرد أن الفكر الجديد قد لا يكون أفضل من السابق، وعدم الخشية من الناس المرتبطين بالأشياء القديمة، بل الخشية من الله وحده.

ولقد وقعت هاتان الآيتان في محيط الجزيرة العربية المحافظة والراكدة وقع الصواعق. حيث استطاع الرسول أن يزلزل الأوضاع القديمة من الأساس، ويبني مكانها كيانا جديدا بل صنع مجتمعا تقدميًّا يبحث عن الإبداع والتطوير، حتى احتاج هذا المجتمع إلى ضوابط كابحة كالتي قالها الرسول «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[٢].

[١٠٨] ويأتي القرآن بمثل على طبيعة الثقافة القديمة، كيف كانت ثقافة مشوبة بالشرك، ويقول: إن اتباعكم أو حتى استماعكم إلى هذه الثقافات سوف يبعدكم عن الحق ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ إذ قالوا له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣]، هل تريدون أن تصبحوا كفارا بعد الإيمان، ومشركين بعد أن أصبحتم حنفاء ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

[١٠٩] واهتمام الكفار بكم ليس بهدف توجيهكم إلى ما هو أفضل لكم، بل لاستلاب ما تملكون من هدى وخير، وبالتالي من أجل تضعيفكم، وخلخلة كيانكم ذلك لأنهم أعداء لكم يحسدونكم على إيمانكم، ويعرفون أن قوتكم كامنة في دينكم الجديد، فيريدون القضاء على هذا الدين بكل وسيلة ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ تلك الأنفس التي لا تحب الخير للآخرين أبدا ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ وعرفوا أنه بجانبكم، وهنا أمامكم موقف واحد هو تجاوز

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٥٥، وتفسير العياشي: ج١، ص٥٦.
(٢) الكافي: ج١، ص٥٦.

حسد هؤلاء، وعدم الاعتناء به، وعدم التفكير فيه لأنه جدل ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ لأن الجدل الفكري مع هذا الطراز من الناس لا يجديكم نفعا، فابتعدوا عن الجدل معهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ويظهركم عليهم وينصركم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[١١٠] وخلال الفترة من الآن وحتى يوم الانتصار يجب عليكم الاستعانة بنظامكم الصائب لأنه خير ضمانة للمستقبل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واعملوا الخير الكثير ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وهذا الدرس: يجب أن نضعه أمام أعيننا في تعاملنا مع الثقافات الدخيلة علينا في العصر الراهن، ومحاولات المروجين لها من أجل إضلالنا عن ديننا بدافع حسدهم من قوتنا لو تمسكنا بديننا.

التسليم لله هو الميزان

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا[١] أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ[٢] إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ[٣] وَجْهَهُ[٤] لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٥] فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ[٦] مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا[٧] أُوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ[٨] وَالْمَغْرِبُ[٩]

---

(١) هوداً: هو جمع هائد كعائد، والهائد التائب الراجع إلى الحق.

(٢) برهانكم: البرهان والبيان والحجة بمعنى واحد، وهو ما أمكن الاستدلال به على ما هو دلالة عليه مع قصد فاعله إلى ذلك.

(٣) أسلم: يستعمل في شيئين:

الأول: أسلمه كذا أي صرفه إليه، تقول: أسلمت الثوب إليه.

الثاني: أسلم له بمعنى أخلص له، ومنه قوله، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي خالصاً.

(٤) وجهه: الوجه مستقبل كل شيء، ووجه الإنسان محياه.

(٥) القيامة: مصدر إلا أنه صار كالعلم على وقت بعينه وهو الوقت الذي يبعث الله عز وجل فيه الخلق فيقومون من قبورهم إلى محشرهم.

(٦) منع: صدَّ.

(٧) خرابها: الخراب الهدم والنقض.

(٨) المشرق: المشرق والشرق اسمان لمطلع الشمس والقمر.

(٩) المغرب: والمغيب بمعنى وهو موضع الغروب، يقال: غربت الشمس تغرب إذا غابت.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ[1] عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ[2] (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[3] (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ[4] (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ[5] قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾.

هدى من الآيات:

ما هو موقف الأمة الإسلامية من ثقافة اليهود والنصارى؟

بيّن القرآن جانبا من هذا الموقف وفي هذه الآيات يبين البقية:

لكي يدعم أيمان الأمة بشخصيتها المتميزة يكرر القرآن القول بأن المقياس عند الله ليس اسم اليهود أو النصارى بل المقياس هو التسليم المطلق لله وتنفيذ أوامره.

وتوضيحا لهذه الفكرة يبين القرآن مدى التناقض الموجود والقائم بين اليهود والنصارى،

(١) واسع: الواسع الغني، سُمّي به لسعة مقدوراته، وقيل هو الكثير الرحمة.
(٢) قانتون: الأصل في القنوت الدوام، وتأتي بمعنى الطاعة كما تأتي بمعنى الدعاء، ومنه القنوت في الصلاة.
(٣) يوقنون: يعلمون.
(٤) الجحيم: النار بعينها إذا شب وقودها، وصار كالعَلَم على جهنم.
(٥) ملتهم: الملة والنحلة والديانة نظائر وملة رسول الله ﷺ الأمر الذي أوضحه.

وكيف أنهم اتخذوا دينهم وسيلة لتكريس تناقضاتهم، حتى أنهم أخذوا يوجهون عداءهم للدين ذاته ويحاربون مساجد الله. فهل هم مسلمون؟

ثم إنهم يتخذون لله ولدا فهل هم مؤمنون بالله أم مشركون؟

وهم يجادلون الله في رسالاته فهل لهم الحق في ذلك؟

اليهود والنصارى يريدون وبصراحة تصفية الرسالة الجديدة، وعلى الأمة أن تعرف أنها تملك العلم والهدى وعليها أن تدافع عنها بقوة.

لأن المؤمن الحقيقي هو الذي لا يحرِّف كتابه بل يتلوه حق تلاوته، أما أولئك الذين يقرؤون كتبهم ليحرفوها فهم الخاسرون.

وآخر الدرس يعيد القرآن الآيتين ذاتهما اللتين بدأ بهما الحديث عن بني إسرائيل، وفيهما ترغيب وترهيب وخلاصة لحكمة تفضيل بني إسرائيل على العالمين في العصور السابقة.

بينات من الآيات:

[١١١] هل ينخدع ربنا بالألفاظ؟ وهل كل من قال أنا مسلم، أو أنا يهودي، أو نصراني يتقبله فورا ويدخله الجنة؟ كلا إنه يريد العمل الصالح.

ولكن لماذا يتصور بعض الناس أن الإسلام وحده كافٍ لربط أحد الناس بالله؟

الجواب: لأن هؤلاء يتخذون الدين مجموعة أماني وأحلام، ويفسرون كلماته وأحكامه بحيث تتمشى مع أحلامهم وأمانيهم الجميلة، إنهم اتخذوا الدين مادة تخديرية تنسيهم لوقت ما مشاكلهم المعقدة، وتأملهم في حياة أفضل، تأتيهم بلا عمل، بلا تضحية وبلا عطاء.. أما الواقع فإن هذا الدين موجود فقط في أذهانهم. أما عند الله فإن الدين يتمثل في غير ذلك.. بل فيما يتناقض معه كليًّا لنستمع إلى الله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي يخدعون أنفسهم بها، وليس هذا دينا من عند الله إذ فور ما تتعرض هذه الأماني الطفولية لوهج العقل تذوب ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[١١٢] هل تريدون أن تعرفوا الدين الصادق؟

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ فلم يعبد في قلبه ولا في عمله غير الله، هذا الشرط الأول، والشرط الثاني أن يعمل عملا صالحا ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا الإنسان قد تمسك بالدين

الصحيح ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أما من تمسك بالأماني فعليه أن يخاف من المستقبل وسوف يحزن على أيامه التي قضاها في الدنيا عاطلا عن العمل معتمدا على هذه الأماني الباطلة.

[١١٣] ومثل هؤلاء مثل اليهود والنصارى الذين اتخذوا الدين أماني، وطبقوه على أحلامهم، وكرسوا به تناقضاتهم التي ركبوها على دينهم الباطل ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في حين تجد أن كلا منهما يقرأ الكتاب نفسه ويطبق التعاليم ذاتها ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فلابد أن يوحدهم هذا الكتاب، وهل من كتاب الله يفرق بين الناس أم انهم حرَّفوا معاني الكتاب وفسروه حسب أهوائهم؟ وهذا يعني أنهم لم يستفيدوا من كتابهم شيئا حيث إن الذين لا كتاب لهم أيضا يختلفون بعضهم على بعض ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

[١١٤] لأن هؤلاء يختلفون مع بعضهم في الدين فإنهم يمنعون رفاقهم من دخول معابد أعدائهم، ويشنون حربا دعائية ضدها، ولكن السؤال الموجه لهم: انتم تخالفون بعضكم في قضايا مادية، فلماذا تمدون هذا الخلاف إلى الدين وإلى عبادة الله؟!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ﴾ وبهذه الطريقة يشيعون حول المساجد جوًّا من الخوف والريبة إذ يتهم كل فريق معبد الفريق الآخر مما يجعل المساجد موضعاً للتهم والخلافات ولذلك: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الخزي في الدنيا لطغيانهم على بعضهم، والعذاب في الآخرة لتغييرهم الدين، وتحريفهم مبادئ الوحدة والتضحية فيه.

تضخيم الاختلافات

[١١٥] الخلافات القائمة بين الأديان ليست كبيرة، وإنما ضخَّمها أصحاب المصالح المادية من اجل الاكتساب منها. كاختلاف القبلة مثلا، فالله هو الإله في السماء والأرض وفي المشرق والمغرب ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، واسع تشمل قدرته كل الجهات، وعليم بمن يعبده أنى اتجه شرقا أو غربا. المهم عند الله هو التسليم، ومخالفة الشهوات العاجلة من أجله، وليست الجهة التي يعبد الناس ربهم إليها. كل هذه من القضايا غير الأساسية التي يضخمها أصحاب الاختلافات ابتغاء الوصول إلى مكاسب مادية من وراء الاختلاف.

[١١٦] ومن السلبيات التي وقع فيها بنو إسرائيل، وعلينا تجنبها: هو الشرك بالله ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ انطلاقا من تفكيرهم الضيق حيث لم يستطيعوا أن يفرقوا بين النبوة والبنوة، وزعموا أن سمو درجة النبي وقيامه ببعض المعاجز يجعله ابنا لله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وليس هناك شيء أقرب إلى الله من شيء في الخلق ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ فليس هناك شيء أو شخص يمكن أن يتعالى على الله باعتباره ولدا له بل كل شيء خاضع له لأنه خلقه ويرزقه وإليه مصير كل شيء.

[١١٧] والله حين خلق الأشياء لم يخلقها بشكل تنفصل منه الأشياء كما ينفصل المولود عن والدته بل وهب لها الخلق وأبدعها إبداعا، فهو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فهو إذن لم يتخذ ولدا لا بعد أن خلق الأشياء ولا حين خلقها.

[١١٨] وقال الكفار إذا لم يكن عيسى ابنا لله، وإذا لم يكن موسى وعزير وهارون أبناء الله، فلماذا خصهم الله سبحانه بالنبوة دوننا؟

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ أي أن كل الكفار على امتداد التاريخ اعتمدوا على هذه الحجة في تصورهم شركاء لله، حيث شاهدوا بعض الأشياء أقوى من بعضها أو بعض الأشخاص أهم من غيرهم فقالوا: لو لم تكن هذه الأشياء أنصاف آلهة، ولو لم يكن هؤلاء آلهة فلماذا فُضّلوا على غيرهم؟

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ ومنطلقات تفكيرهم.

والواقع أن المسيحية أو اليهودية لم تتأثر فقط بالثقافة الإغريقية التي كانت تتصور أن للكون أربابا من دون الله، بل وتأثرت أيضا بالمنطلقات الفكرية ذاتها التي كانت موجودة عند هؤلاء. أولئك لم يفهموا حكمة التفاضل في المخلوقات فزعموا أن الحجر الكريم لم يفضل على الحجر العادي إلا لأنه يجسد جانبا من الألوهية، وكذلك السلاطين لم يؤتوا الملك والقوة إلا لأن فيهم عرقا من الله (سبحانه).

وهؤلاء أيضا لم يفهموا حكمة التفاضل وقالوا لو لم يكن عيسى إلها فلماذا فضل علينا، وَكلّمه الله أو آتاه البينات ولم يكلمنا أو يؤتينا البينات، يقول الله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي أن هنالك أدلة واسعة تنفي هذا التفكير، ولكنها تحتاج إلى عقول متفتحة ومثقفة ورفيعة المستوى.

[١١٩] وكما أرسل الله الأنبياء من قبل دون أن يكونوا أولاد الله أرسلك الله يا محمد ﷺ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ولكنك لست مسؤولا عنهم بعد أداء البلاغ ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فدورك إذن دور محدود ليس فيه ذرة من الألوهية أبدا.

مصدر الإلهام

[١٢٠] وعليك يا محمد -وإياك أعني واسمعي يا جارة -أن تستوحي أفكارك وتفاصيلها من مصدر واحد هو الله، ولا تخلطها بثقافات الديانات الأولى التي فسدت ودخلها الشرك والضلال، ولا تفكر في أن أولئك سيرضون عنك لو اتبعتهم في شيء من أفكارهم، كلا ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ بالكامل وهذا يؤدي إلى إلغاء دورك ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، إنهم لا يملكون إلا أهواء، وأنت تملك العلم ومن يترك العلم إلى الهوى فسوف يخسر المستقبل، ولا ينصره الله.

[١٢١] اليهود والنصارى حرَّفوا دينهم وفسروا نصوص كتابهم المقدس تفسيرا باطلا ولكن ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أيمانا صادقا لأنهم يتلون الكتاب ليفهموا ما فيه ثم يطبقوه، ولا يتلونه لكي يركّبوا عليه أفكارهم الباطلة. أما الذين يتلون الكتاب ليجدوا فيه آية تؤيدهم فيأخذونها ويجعلونها شعارا يبررون بها تصرفاتهم الباطلة، ويتركون سائر الآيات، فهم في الواقع يكفرون بالكتاب كفرا تاما ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم سوف لا يستفيدون من هدى الكتاب، ولا من تعاليمه الحياتية الصائبة.

[١٢٢] بنو إسرائيل كانوا يتلون الكتاب حق تلاوته، ففضلهم الله على العالمين، ثم تركوا ذلك، فانتهى بهم المطاف إلى الذل والمسكنة.

الآن عليهم أن يتذكروا واقعهم السابق، ويعودوا إلى أسباب تقدمهم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ من الكتاب والرسول اللذين بهما تقدمتم ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بهذين العاملين الأساسيين للتقدم، الكتاب والرسول.

[١٢٣] ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولو أن بني إسرائيل تذكروا نعمة الله -وهي الرسالة- واتقوا يوم الجزاء، لأخذوا بجذور الدين وأصوله الثلاث (التوحيد، الرسالة، الميعاد).

هذه رؤية عامة يذكرها القرآن الحكيم في آخر حديثه عن بني إسرائيل ليبين أن جوهر الدين وجوهر تقدم الأمم يتلخص في الإيمان بالله وبرسالاته وبيوم القيامة.

إبراهيم عليه السلام رمز الوحدة

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ[1] إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ[2] عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً[3] لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ[4] وَٱلْعَـٰكِفِينَ[5] وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ[6] إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ[7] إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ[8] مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً[9] لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا[10] وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا

---

(١) الابتلاء: الاختبار.

(٢) ينال: يلحق، يدرك.

(٣) المثابة: الموضع الذي، يثاب إليه من ثاب يثوب، ومنه ثاب إليه عقله أي رجع بعد غروبه.

(٤) للطائفين: الطائف والجائل والدائر نظائر، ويقال: طاف يطوف إذا دار حول الشيء.

(٥) العاكفين: العاكف المقيم على الشيء اللازم له، والعاكف المعتكف في المسجد.

(٦) اضطره: الاضطرار هو الفعل في الغير على وجه لا يمكنه الانفكاك منه.

(٧) يرفع: الرفع والإعلاء والإصعاد نظائر ونقيض الرفع الوضع.

(٨) القواعد: جمع قاعدة وأصله في اللغة الثبوت والاستقرار فمن ذلك القاعدة من الجبل وهي أصله وقاعدة البناء أساسه الذي بني عليه.

(٩) مسلمة: الإسلام هو الانقياد لأمر الله تعالى بالخضوع والإقرار بجميع ما أوجب الله وهو الإيمان.

(١٠) مناسكنا: المناسك المُتَعَبَّدات، وكل مُتَعَبَّد منسك، والنُسُك في اللغة العبادة، والنسك الذبيحة، والمنسك الموضع الذي تذبح فيه النسائك.

وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ(١) ٱلْحَكِيمُ(٢) ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ
عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ(٣) فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ
فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ
لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ(٤) بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ
شُهَدَآءَ(٥) إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ
مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ(٦) قَدْ خَلَتْ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ
كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ(٧) وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ
مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ

---

(١) العزيز: القدير الذي لا يغالب، وقيل هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء أراد فعله.

(٢) الحكيم: المدبر الذي يحكم الصنع ويحسن التدبير فعلى هذا يكون من صفات الفعل، ويكون بمعنى العليم فيكون من صفات الذات.

(٣) اصطفيناه: الاصطفاء والاجتباء والاختيار نظائر، والصفو نقيض الكدر وصفوة كل شيء خالصة، وصَفِيُّ الإنسان أخوه الذي يصافيه المودة.

(٤) وصى: وصى وأوصى وأمر وعهد بمعنى واحد.

(٥) شهداء: جمع شهيد والشاهد والحاضر من النظائر، وتقول: حضرت القوم أحضرهم إذا شهدتهم.

(٦) أمة: الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أمم، فالأمة هم أهل الملة الواحدة ويجمعهم إمام.

(٧) الأسباط: واحدهم سبط وهم أولاد إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً، وقالوا: الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ أي ولداه، والأسباط في بني إسرائيل بمنزلة القبائل من ولد إسماعيل. وقيل السبط الجماعة يرجعون إلى أب واحد.

فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ[(١)] فَسَيَكْفِيكَهُمُ[(٢)] اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

انتهت الدروس التي استفدناها من تاريخ بني إسرائيل، وأعطى القرآن من خلال سرده لقصصهم رؤية متكاملة لطراز من الأمة التي انحرفت، لكي تعرف المسار الصحيح الذي يجب أن تسير عبره الأمة الإسلامية مستقبلا، وتتجنب تلك الانحرافات الإسرائيلية.

وها هو القرآن يتحدث إلينا عن إبراهيم عليه السلام لعدة أسباب:

أولاً: ليعطي من خلال قصصه رؤية عن كفار قريش الذين يزعمون أنهم ينتمون إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: ليركز على العامل المشترك بين بني إسرائيل والعرب وبالتالي بين الأديان السماوية الثلاثة الرئيسية، رسالة موسى فعيسى عليه السلام ثم محمد صلى الله عليه وآله.

فقبل كل شيء من هو إبراهيم عليه السلام وكيف أصبح نبيًّا، رسولا وإماما للأمم..؟ ثم من هو الذي يستحق أن يكون إماما من بعده.. هل كل من انتمى نسبيًّا إلى إبراهيم عليه السلام؟

الكعبة التي يتوجه إليها المسلمون ليست من صنع العرب حتى يخالفها الإسرائيليون بل هي بيت الله الذي بناه إبراهيم عليه السلام جد العرب وجد بني إسرائيل.

ولكن الكعبة هذه ليست محلا لتعليق الأصنام بل مقاما لعبادة الله وحده لأن إبراهيم عليه السلام

(١) شقاق: الشقاق المخالفة وكونك في غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي مخالفة.

(٢) فسيكفيكم: الكفاية بلوغ الغاية ويقال يكفي ويجزي ويغني بمعنى واحد. وكفى يكفي كفاية إذا قام بالأمر وكفاك هذا الأمر أي حسبك.

بناها وهو يردد كلمة التوحيد.. ويدعو الله أن يثبته عليها، وإبراهيم عليه السلام دعا الله أن يبعث في أبنائه رسلا، ولم يأت النبي محمد صلى الله عليه وآله إلا استجابة لذلك الدعاء.

بينات من الآيات:

كيف يختار الله رسله

والسؤال الذي يجيب عنه القرآن في بداية هذه المجموعة من الآيات هو:

[١٢٤] هل يختار الله رسله عبثا.. ودون سابق اختيار؟ كلا..

إنه يعرِّضهم لأشد الاختبارات فإن نجحوا فيها حمَّلهم رسالته.. وإبراهيم عليه السلام، مر باختبارات صعبة فألقي في النار وصبر وأُخرج من بلده وصبر، وابتلي بأمر الله له أن يذبح ابنه فلبى الأمر و..و.. وبعدئذ اختير إماما.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ فيها أوامر صارمة وصعبة ﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فإبراهيم عليه السلام لم يحصل على الرسالة مجانا وبلا ثمن أو لأنه يملك عنصرا أجود من غيره أو دما أزكى حتى يسري ذلك الدم في أبنائه، بل أعطاه الله الرسالة بعد امتحان عسير.. ثم إن إبراهيم عليه السلام طلب النبوة لأبنائه فَرُفِضَ طلبه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي ذريتك من هو ظالم يفشل في الاختبار والإمامة عهد الله وعهد الله لا يعطى للظالمين. وفي ذلك دلالة واضحة على عصمة الأنبياء عليهم السلام جميعاً وكذلك الأئمة المختارين من قبل الله سبحانه.

[١٢٥] هنالك حجتان تمسَّك بهما أهل مكة للدلالة على أنهم أقرب إلى الله من غيرهم وبالتالي فلهم الحق في السيادة على العرب.

الحجة الأولى: أنهم أبناء إبراهيم عليه السلام وورثته على البيت، وقد دحضها القرآن في الآية الأولى.

الحجة الثانية: أن الله مَنَّ على بلدهم باليسار والخير وكمثل كل الأغنياء في الأرض يزعمون أن الله لم ينعم عليهم بالغنى إلا لأنهم أقرب الناس إليه سبحانه، وفي الآيتين التاليتين دحض لهذه الحجة السخيفة يقول الله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مركزا للناس في الجزيرة يعودون إليه لما خرجوا منه ﴿وَأَمْنًا﴾ حيث وفر الله فيه السلام حيث ينعدم السلام في سائر أنحاء الجزيرة.. ولكن كيف وفر الله السلام في مكة.. لأنه جعل فيها مقام إبراهيم عليه السلام..

وإبراهيم عليه السلام الجد الأعلى لقسم كبير من العرب ومن ثم رمز الوحدة بين الناس.. من هنا جاء الأمر الإلهي بتقديس مقام إبراهيم عليه السلام وهو الحجر الوحيد الذي أعطي له قيمة بعد الحجر الأسود، وقال الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أي اجعلوا صلاتكم عند مقام إبراهيم عليه السلام. بشرط أن تكون الصلاة لله.. ولكن مع تذكر فضل إبراهيم عليه السلام عليكم حيث أصبح وسيلة لهداية الله لكم.

الإسلام لا يقدس شيئا من دون الله ولكنه يعطي لكثير من الأشياء أو الأشخاص قيمة التوسط بين العباد وبين فضل الله، فالغني المنفق في سبيل الله واسطة لبلوغ نعمة الله (وهو المال إلى الفقير) ويجب أن يشكر الفقير ربه قبل كل شيء والأمر بالخير والداعي إلى الله واسطة في هداية الناس، والأنبياء عليهم السلام هم وسائل يهدي بهم الله عباده صراطا مستقيما. وحين نشكرهم أو نقدرهم، فذلك الشكر ليس شكرا ذاتيًا ولا تقديرا ألوهيًا، بل شكرا وتقديرا يسبقه شكرنا لله وتقديسنا له.

ومقام إبراهيم عليه السلام من ذلك النوع حيث إننا لا نقدسه بل نقف نصلي لله عنده تقديرا لمقام إبراهيم عليه السلام ولإبراهيم عليه السلام نفسه.

وما لبث أن ذكرنا القرآن الحكيم بهذه الحقيقة حيث نبهنا إلى أن إبراهيم عليه السلام أمر بأن يطهر بيت الله من الأصنام فكيف يمكن أن يتخذ مقامه صنما يعبد من دون الله ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من كل دنس ظاهر أو باطن، وأعدّوه.. ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ إذن ما نجده في البيت من وسائل الراحة والأمن فإنما هي لتحقيق هدف البيت من الطواف والاعتكاف والركوع والسجود وليست إكراما لعين ذرية إبراهيم الشرفاء.

[١٢٦] ويدل على ذلك أن إبراهيم عليه السلام دعا الله سبحانه أن يجدد نعمه في الصالحين فقط، لأنه تصور أن نعم الله في الدنيا دليل على حب الله وتقديره لصاحبها ولكن الله أبى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إذن النار تنتظر الكفار من ولد إبراهيم عليه السلام بالرغم من الثراء والأمن والسيادة التي يتمتعون بها الآن.. لأن كل هذه النعم اختبارات يتعرضون لها لتجربة مدى صمودهم أمام ضغط الانحرافات التحريفية.

[١٢٧] كان البيت موجوداً وجاء إبراهيم عليه السلام ليرفع عليه البناء ولكنه أمتزج بروح التوحيد والامتثال إلى الله، ولم يكن بناء من أجل التفاخر أو الرئاسة أو بلوغ الشهوات « كما تصوره ذرية إبراهيم عليه السلام وسدنة البيت الحرام من قريش».

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ وهم يرددون هذا الابتهال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ

مِنَّآ﴾ عملنا، إذ العمل قد لا يتقبله الله إذا امتزج بالنية السيئة أو تعدد هدفه فكان يهدف مرضاة الله ومرضاة الناس معا، وقد جاء في أية كريمة ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وحين كان يدعو إبراهيم وابنه عليهما السلام بأن يتقبل الله منهما فإنما كانا يخلصان عملهما لله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعوات العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لأهداف الناس التي ينوون تحقيقها من أعمالهم، هل هي أهداف نقية لله خالصة لوجهه أم لا.

الآثار الإيجابية للعمل الصالح

[١٢٨] وكان هدف إبراهيم وابنه عليهما السلام هو أن يساهم عملهما في تعميق روح التوحيد في نفسيهما، حتى يصبحا خاضعين كليه لله، ذلك أن العمل الصالح الخالص يزيد الإيمان وينمي الإرادة، من هنا كان إبراهيم وابنه عليهما السلام يسعيان من خلال بناء البيت إلى هذه الغاية ويقولان: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، والعمل الصالح يساهم أيضا في صلاح ذرية الفرد وقد استهدف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من بناء البيت أن يصبح دليلا عينيًّا لإسلامهما ومركزا دينيًّا توحيديًّا لذريتهم وقالا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. والعمل الصالح يزيد صاحبه هدى وعلما بأسلوب العمل في المستقبل وقد جاء في آية قرآنية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وكذلك استهدف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من بناء البيت بلوغ المزيد من الهدى ومعرفة المناسك، ومن ثم استهدفا من وراء بناء البيت أن يتوب الله عليهم وهو الهدف الآخر الذي يمكن تحقيقه بأي عمل صالح أن يغفر الله لصاحبه ما تقدم من تقصيره وذنوبه.

[١٢٩] المؤمن الصادق يعرف قيمة الإيمان ومدى أهميته في حياة الإنسان ولذلك فهو يستهدف تعميم الإيمان على الناس جميعا ليسعدوا به، وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يدعوان الله بذلك ويقولان: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم، وليس غريبا عنهم كي يكونوا (أولاد إبراهيم عليه السلام) أول الناس أيمانا برسالته والهدف من هذه الرسالة هو:

أولا: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ حتى يهتدي بها الناس إليك يا رب إذ إن أول الدين معرفة الله معرفة يزيدها النظر في آيات الله هدى.

ثانيا: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نظاما لحياتهم ودستورا. والكتاب البصائر والأحكام الثابتة التي تعكس سنن الله.

ثالثا: يعلمهم ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وما يرتبط بالحياة العملية. فالحكمة هي القيم العامة

والأصول الكلية التي تمكّن معرفتها من استنباط أحكام الحوادث الواقعة المتجددة، فهي الشريعة ومنهج الحكم بالكتاب.

رابعا: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ينمي فيهم روح الإيمان والإرادة ويربيهم على مكارم الأخلاق ويحولهم إلى طاقة هائلة لتعمير الحياة وبسط السلام والرفاه في أرجاء الأرض.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بعزتك قادر على استجابة دعائنا وبحكمتك تحقق لنا ذلك لأنه يتناسب مع الهدف العام لخلقه الكون.

السبيل إلى فض الخلاف

إبراهيم عليه السلام كان مسلما وقد بنى هو وابنه عليه السلام البيت -وكان عليه السلام جد العرب الأعلى- لكي يكون مركزا للتوحيد، وعلينا أن نتبع ملة إبراهيم عليه السلام وكل من يخالف هذه الملة سيكون سفيها لأنه يبتعد عن الخير في الدنيا والآخرة.

وأبناء إبراهيم عليه السلام كانوا موحدين ولم يكونوا يهودا أو نصارى والمطلوب منا العودة إلى توحيد إبراهيم عليه السلام حتى تنتهي خلافاتنا ونؤمن في الوقت نفسه بكل رسالات السماء، وكل المرسلين من قبل الله، هذا هو خط التوحيد والذي ينحرف عنه فهو المتمرد.

إن الله هو المقياس في تصرفاتنا ونحن لا ندعي أننا مسؤولون عنكم بل نحن وأنتم سواء أمام الله، ولكل منا عمله الذي يجازى عليه عند الله.

إن خط الله وهو خط إبراهيم عليه السلام لم يكن الشرك كما لم يكن اليهودية والنصرانية إذن دعنا نتبع هذا الخط..

هذه خلاصة هذه الآيات ولقد تكررت آية واحدة فيها مرتين، وهما الآية (١٣٤) والآية (١٤١) للدلالة على أن لكل عهد شريعة ومنهاجا قد يكونان صحيحين لذلك العهد ولكنهما خاطئين لعهد آخر ولرجال آخرين، وهذه إشارة إلى أن بعض تفاصيل اليهودية والنصرانية لا تصلحان للمرحلة الجديدة التي ابتدأت مع رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله.

ملة إبراهيم

[١٣٠] إبراهيم عليه السلام كان رمز التوحيد وطريقه هو طريق التوحيد في التأريخ، وكانت ثمرات توحيده ظاهرة للناس، فكره الحسن يلهج به كل لسان ويحاول كثير من الناس أن

ينتموا إليه، ويشرفهم هذا الانتماء أمام الناس إنه مصطفى في الأرض، أما عند الله فهو من الصالحين، إذن ما يضر الإنسان أن يسير على خط إبراهيم عليه السلام التوحيدي ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ وطريقته المتمثلة في التوحيد ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ وأراد لنفسه الخسارة ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

[١٣١] كيف اصطفى الله إبراهيم عليه السلام ولماذا؟ ببساطة لأنه أسلم كليًا لله.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ ﴾ فلم يتردد لحظة بل استجاب بقناعة تامة ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

[١٣٢] قد تحوّل إسلام إبراهيم عليه السلام إلى مسيرة توحيدية في التاريخ كما تحوّل شخص إبراهيم عليه السلام إلى أمة مسلمة، وهذا هو فضل الله على إبراهيم عليه السلام وعلى كل من يسلم مخلصا وجهه لله.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ ﴾ بهذه الطريقة (الملة) ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ وكما في ذرية إبراهيم عليه السلام الجد الأعلى لليهود وهو يعقوب عليه السلام الذي وصى هو الآخر أولاده وقال: ﴿وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ وجعل هذا الدين هو الإسلام لله وإخلاص العبودية ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ إذ قد يسلم الإنسان فترة من الوقت ولكنه ينهار أمام مطارق الشرك والكفر فيأتيه الموت وهو كافر، إسلامه ضعيف لا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة إنما على الإنسان أن يبقى مسلما في كل مراحل حياته حتى لو أدركه الموت غفلة يكون قد استعد للقاء ربه ولا يُفاجأ بالعذاب الأليم.

[١٣٣] وقد جسدت في يعقوب عليه السلام ذاته هذه الوصية إذ بقي مسلما رغم الصعاب حتى إذا حضره الموت وصى بالتوحيد أبناءه ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ كم كانت فرحة يعقوب عليه السلام وهو يودع الحياة ويرى ثمرات تربيته لأولاده على التوحيد أمام عينيه إذ يجدهم يعاهدونه على الاستمرار في خط التوحيد.

[١٣٤] ولكن هل يغني إسلام إبراهيم عليه السلام وذريته الصالحين عنا شيئا حتى نكتفي بانتمائنا الجسدي إليهم (نحن العرب واليهود) كلا.. إذ أولئك قد ذهبوا بأعمالهم الصالحة لأنفسهم وعلينا أن نعمل لأنفسنا.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ إذ لا تجازون بجرائم الطالح فيهم ولا تكافؤون بحسنات الصالحين.

[١٣٥] وبقي السؤال: ما هي ملة إبراهيم عليه السلام؟ هل هي اليهودية أم النصرانية أم

الشرك الذي يتجسد في العرب؟ إن هذه الفِرَق الثلاث تدعي انتماءها إلى إبراهيم عليه السلام فأيهن الصادقة؟ يقول القرآن كل هذه كاذبة.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾ رافضا للكفر والشرك اللذين كانا في عصره ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما تدعي العرب. إنه كان مستقيما يرفض كل أنواع الشرك سواء الذي كان موجودا عند اليهود أو النصارى أو عند العرب.

[١٣٦] وحين نقول بالعودة إلى ملة إبراهيم عليه السلام لا يعني حذف دور الأنبياء العظام الذين جاؤوا من بعده بل نريد تكريس هذا الدور وتجاوز العقبات القشرية التي وضعت في طريقه وحصرت كل مجموعة من الناس نفسها على نبي ولم تنتفع من رسالة الآخرين بفعل العنصرية أو التعصب الأعمى.

إذن عودوا إلى جوهر رسالة الله المتمثلة في توحيد إبراهيم عليه السلام الرافض لكل أنواع الشرك وفي الإيمان بكل الأنبياء عليهم السلام ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الأنبياء من ولد يعقوب عليه السلام، لقد أنزل على هؤلاء رسالة التوحيد ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ من تفاصيل الشرائع الاجتماعية والتعاليم الخلقية وغيرها من مبادئ الرسالات، وقولوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مسلمون لله الواحد وخاضعون لكل من يرسله ربنا سواء كان عبريًّا أم عربيًّا من عائلتنا أم من الأبعدين.

[١٣٧] هذه هي رسالة الله الحقيقية، وغير هذه هراء وتمرد وانحراف.. إذ لم يرسل الله رسالة عنصرية إلى الناس، ولم يأمر بالعصبية الجاهلية، ولم يفرق بين أنبيائه ورسالاتهم ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ وسيكون حالهم حال المؤمنين السابقين بلا تمييز بينهم ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ فهم المنحرفون عن الخط العام المستقيم، وليس أنتم.. والانحراف لا يقاس بالكثرة والقلة بل بمقياس آخر هو مدى الالتزام بخط الفطرة، والحق وصراط الله المستقيم، لذلك علينا ألاَّ تشككنا قِلَّتنا، ولا توحشنا عن الحق كثرة الناس حول الباطل.. ونبقى نعتهم هم بالمتمردين الانفصاليين أهل الشقاق، ونبقى نتحداهم وأنتذ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ضمير الصامتين.

التوحيد جوهر الوحدة

[١٣٨] إنهم يدعون إلى العنصرية أو العصبية الجاهلية، ويوحدون أنفسهم تحت هذا

اللواء أو ذاك.. ويصبغون تحركاتهم وأفكارهم ومجتمعهم بلون اليهودية أو النصرانية وقد يتخذون لأنفسهم أصناما رموزا لوحدتهم ولنوع من الثقافة أو المصلحة أو الأرض التي ينتمون إليها.

ولكننا نؤمن بصيغة واحدة ونرفض كل الألوان الأخرى، نرفض كل الرموز كل الأصنام كل شيء يميزنا عن بعضنا ويهدد وحدتنا.. نحن نؤمن بصبغة الله صبغة التوحيد وكفى.. لا ندع لحواجز اللغة أو المصلحة أو الإقليم أو اللون أو العنصر أن تفرقنا عن بعضنا وتطلي كل جماعة منا بلون مختلف، بل نحن نطلي أنفسنا بصبغة واحدة وهي ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ لا نعبد هذه الألوان المختلفة التي فرقت الناس وجعلت منهم مجموعات متحاربة - يهود - نصارى - عرب - وإلى آخره..

[١٣٩] وحين نقول صبغة الله لا يستطيع أحد أن ينكر علينا ذلك إذ ننتمي آنئذ إلى الله فاطر السماوات والأرض ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ لا نقول لكم تعالوا اتبعونا، بل ندعوكم وأنفسنا إلى الله الواحد، دون تمييز بين عنصرنا وعنصركم ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ كما ندعوكم أنتم أن تكونوا مخلصين له، إذ الدعوة هذه ليست كالدعوات السابقة مشوبة بالشرك أو الضلالة أو العنصرية أو الإقليمية أو غيرها.. إنها دعوة خالصة لله رب كل الناس.

[١٤٠] وهذه الدعوة هي بالذات دعوة الأنبياء عليهم السلام، إذ من المستحيل أن تكون رسالة السماء موجهة لناس دون ناس، لأن الله رب كل الناس وقد خلقهم جميعا من ذكر وأنثى، ولم يتخذ بعضهم أبناء له فكيف يفرق بينهم بل إن ما نجده في رسالات السماء من العنصرية والمصلحية وغيرها.. إنما هي من إضافة الناس أنفسهم أضافوها إلى الدين كذبا وظلما، وقالوا: إن الأنبياء عليهم السلام هم الذين جاؤوا به من قبل الله ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ الله يقول: انهم لم يكونوا سوى أنبياء لله، وانتم تزعمون أن ما أضفتموه من تحريفات هو من قول الأنبياء!!.

إن هؤلاء يعرفون أن العنصرية والإقليمية وغيرها هي إضافات ذاتية افتروا على الله بها بعد علمهم بكذبها، وحرفوا تعاليم الدين التي تنافيها، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ إنهم حملوا رسالة الله.. واستؤمنوا عليها ولكنهم خانوا الأمانة.. وغدا سوف يمثلون للمحاكمة أمام الله العزيز الحكيم..

القبلة رمز وحدة الأمة

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ(١) مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ(٢) عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا(٣) لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ(٤) وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ(٥) تَقَلُّبَ(٦) وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ(٧) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

---

(١) السفهاء: السفيه والجاهل والغبي نظائر.

(٢) ولاهم: ولاه صرفه وقتله، واشتقاقه من الولي وهو القرب وهو حصول الثاني بعد الأول من غير فصل.

(٣) وسطاً: الوسط العدل وقيل الخيار، ومعناهما واحد؛ لأن العدل خير والخير عدل. وقيل أخذ من التوسط بين المقصر والغالي، وقيل الوسط من كل شيء أعدله وأفضله. وقيل في صفة النبي ﷺ: كان أوسط قومه أي من خيارهم.

(٤) عقبيه: العقب مؤخر القدم، وعقب الإنسان نسله، والتعقيب الرجوع إلى أمر تريده ومنه: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

(٥) الرؤية: إدراك الشيء بالبصر ونظيره الإبصار ثم تستعمل بمعنى العلم.

(٦) التقلب: التحول والتصرف نظائر وهو التحرك في الجهات، ويقال: وليتك القبلة أي صيرتك تستقبلها بوجهك.

(٧) شطره: أي نحوه.

يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[1] ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

سورة البقرة بيَّنت شخصية الأمة الإسلامية فبدأت تقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: (المتقين ثم الكافرين والمنافقين) ثم وضَّحت كثيرا من صفاتهم، وبعدئذ تناولت بني إسرائيل بوصفها مثلا لأمة مؤمنة، وشرحت قصصهم والعبر التي يجب أن نستفيدها من حياتهم. وآخر درس أعطانا القرآن في هذا المجال هو: ضرورة التمسك بهدى القرآن وعدم التأثر ببني إسرائيل؛ ذلك لأنها أمة قد انحرفت ولأنها أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

وبذلك ضمن القرآن الحكيم للأمة الإسلامية (شخصيتها) الثقافية واستقلالها عن الأمم السابقة. وها هو يبين لنا رمز هذا الاستقلال الظاهر، والمتمثل في القبلة التي توحد بين أبناء الأمة الإسلامية، وتعطي لهم كيانا متماسكا، ومن جهة ثانية تميزهم عن سائر الأمم.

يبدأ القرآن هذا الدرس بتكرار الآية التي سبقت وأوضحت: بأن تطور الزمان قد يؤثر في اختلاف التشريع، وأن على الأمة أن تفكر تفكيرا مستقلا ودون التأثر بسلبيات الأمم السابقة

---

(١) الممترين: الامتراء الاستخراج وقيل الاستدرار، والمرية الشك ومنه الامتراء والتماري والمماراة، والمراء الجدال، وأصل الباب الاستدرار يقال: بالشكر تُمترى النعم أي تستدر.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾.

ثم يحدثنا عن أن القبلة ليست مقدسة بذاتها بل لأن الله أمر بتكريمها. وإذا غيَّر الله القبلة زالت قداسة القبلة الأولى، وليس لله سبحانه حلول في القبلة حتى تقدس تقديسا دائما.

وبيَّن مدى العلاقة بين القبلة وشخصية الأمة التي جعلتها مهيمنة على سائر الأمم وشاهدة عليها تراقب مدى تطبيقها لقيم الحق.

وأما القبلة السابقة فكان تشريعها بهدف محدد ومحدود، هو: اختبار مشركي قريش لمعرفة مدى صدقهم في قبول رسالة الله التي تدعوهم إلى اتباع قبلة أعدائهم اليهود.

إذ القبلة التي شرعت للأمة هو المسجد الحرام، الذي له كرامة يعرفها أهل الكتاب ولكنهم يكتمون الحق، انطلاقا من أهوائهم وتفكيرهم العنصري الضيق.

ولقد كان الأحرى بهم أن يطبقوا كتابهم على أنفسهم، لا أن يحرفوا الكتاب حسب أهوائهم. وبالرغم من أن قبلتك حق لا ريب فيه، فلا يعني ذلك أن تتورط الأمة في العنصرية، وتزعم أنها بمجرد التوجه إلى القبلة الحق تكون هي أكرم عند الله من غيرها.

كلا، إن هذه شعائر ظاهرية لا أكثر، ومقياس الكرامة هو التسارع إلى الخيرات، فمن كان أسبق الناس إلى الخير كان أكرم عند الله، وبعد أن يؤكد القرآن التوجه إلى المسجد الحرام يحذر الأمة من الضعف أمام الأعداء أو الخشية منهم، لأن من كان مع الحق يجب ألاَّ يخشى أحدا.

بينات من الآيات:

الانفصال نقطة الانطلاق

[١٤١] وضمن هذا الإطار الفكري، بيَّن القرآن الحكيم حقيقة هامة هي أننا ومن أجل أن نبني حياة جديدة علينا أن ننفصل نفسيًّا من التأثر بالواقع المعاش، بالرغم من أن للواقع القائم ثقلا هائلا، وضغطا نفسيًّا واجتماعيًّا كبيرا، ولكي يبين لنا القرآن أنكم أمة جديدة ذات قبلة جديدة، ذكر لنا سلفا أن كل أمة لها دورها التاريخي، وواقعها الخاص بها، وعلى الأمم الأخرى أن تستقل عنها، وأن تبني حياتها وفق احتياجاتها وظروفها، ذلك أن الله لا يسألنا عما فعل الآخرون بقدر ما يسألنا عما فعلنا نحن، فإن فعلوا خيرا فلأنفسهم، وعلينا أن نعمل الخير

لأنفسنا ووفق حاجات عصرنا، وإن فعلوا شرا فلأنفسهم، وعلينا إلا نعمله ونبرر ذلك بأنهم فعلوه، إذ قد يكون الذي عملوه في عصرهم خيرا لأنفسهم وهو شر بالنسبة إلى واقعنا، من هنا قال الله لنا بصراحة: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ من خير أو شر ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بل إنما تسألون عما تعملون أنتم، ولذلك يجب أن تستقلوا في تفكيركم، وفي أعمالكم، مادمتم أنتم مجزيين بذلك دون غيركم.

[١٤٢] والسفهاء وحدهم يزعمون أن الواقع يجب أن يبقى بحجة أنه الحق. كلا، إذ قد يكون الواقع حقًّا بالنسبة إلى عصر دون عصر، وقداسة القبلة ليست بسبب أن الله موجود في مكان القبلة. بل لأن الله أمر بذلك، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ زاعمين أن الواقع السابق للأمة حيث كانوا على قبلة معينة، يجب أن يظل قائما، كلا.

﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إذ الصراط المستقيم في العمل هو: وجه الله سبحانه، وليس التوجه إلى المشرق والمغرب.

[١٤٣] والتوجه إلى الكعبة لم يشرع في الإسلام، إلا لكي يجعل الله من المسلمين أمة متميزة عن الأمم الأخرى، ورقيبة على مدى تطبيق سائر الأمم لتعاليم الله، في الحق والحرية، والعدالة الاجتماعية، ولو كانت الأمة متجهة إلى قبلة أهل الكتاب لم تكن قادرة على توجيه مشركي العرب المعتقدين بالكعبة، كما أنها لم تكن تستطيع توجيه اليهود والنصارى الذين كانوا يزعمون أنفسهم -آنئذ- أصحاب القبلة، ويعتقدون أن المسلمين مجرد أتباع لهم، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ هداكم الله إلى صراط مستقيم هو: الصراط الوسط بين تطرف الناس ذات اليمين وذات الشمال، بين تطرف اليهود إلى المادية وتطرف النصارى إلى الرهبانية، بين الحرية الفوضوية وبين الاستبداد الغاشم، بين ظلم الفرد للجماعة، وظلم الجماعة للفرد، والهدف من الأمة الإسلامية أن تكون شاهدة على مسيرة الأمم الأخرى.

﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ماذا يعني الشهداء على الناس؟

لعله يعني أن تكونوا موجِّهين لهم نحو مبادئ الرسالة، بمثل ما يكون الرسول شهيدا عليكم ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ المسؤولية ذاتها التي يتحملها الرسول تجاهكم، يجب عليكم أن تتحملوها تجاه الأمم الأخرى، وفي مناسبات أخرى تحدث القرآن عن مسؤوليات الرسول تجاه أمته وعلينا مراجعتها لنعرف مسؤولياتنا تجاه الأمم الأخرى.

إذن من أبعاد الوسطية التوسط بمعنى الشهادة والقيام بالرسالة بين الناس والرسول،

فالمصداق الأتم والجلي للأمة التي هي خير، وهي الشاهدة كما أن الرسول شاهد هو (الأئمة)[1].

أما القبلة السابقة فلم تكن إلا قبلة مرحلية، ولهدف محدد هو اختبار الذين آمنوا من مشركي العرب، ليعلم الله هل تركوا حساسياتهم الساذجة تجاه الرسالات الإلهية السابقة، وتجاه قبلتهم بيت المقدس أم لا.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ التوجه إلى بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ويعود إلى حساسياته العصبية التي كانت تنكر على الرسول الاشتراك مع اليهود وأعداء العرب السابقين، في أي مظهر من المظاهر الاجتماعية، أو شعيرة من الشعائر الدينية.

والتخلص من الحساسية العصبية ليس سهلا ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وتركوا التقاليد البالية امتثالا لأمر الله، أما صلواتكم التي توجهتم بها إلى بيت المقدس فهي محفوظة عند الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

[١٤٤] كان الرسول يعلم: أن الكعبة هي قبلة المسلمين، وإنما كان بيت المقدس قبلة مؤقتة، فكان ينتظر من الله أمرا بالتوجه إلى الكعبة، ولكنه لم يكن يطلب ذلك صراحة، لأنه رسول، عليه أن يبلغ رسالة الله، دون أن يدخل فيها من ذاته شيئا، فحقق الله للرسول ما احب وقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي باتجاه المسجد الحرام وبالتالي الكعبة، أما أهل الكتاب فلا تفكروا فيهم، إذ إنهم يعلمون الحق ويخالفونه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ولكنهم يخالفون علمهم، بيد أن الله سوف يجازيهم على ذلك ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

لماذا لا تتوحد القبلة؟

[١٤٥] ويبقى السؤال: لماذا لا توجد قبلة واحدة لكل المنتمين إلى رسالات الله، أليس

---

(١) جاء في تفسير نور الثقلين: ج ١، ص١٣٤: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «في قول الله تبارك وتعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: نَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ وَمَا ضَيَّعُوا مِنْهُ».

وفي الكافي: ج١، ص١٩١: عَنْ بُرَيْدٍ الْعِجْلِيِّ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَوْلَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ قَالَ عليه السلام: نَحْنُ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ وَنَحْنُ شُهَدَاءُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ وَحُجَجُهُ فِي أَرْضِهِ».

من الأفضل ذلك؟

بلى ولكن المشلكة أن كثيرا من هؤلاء ادخلوا أهواءهم في الدين، فلذلك يُغيِّرون الدين حسب هذه الأهواء: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ لأنهم يحرفون رسالات السماء بأهوائهم ومصالحهم، وعليك -يا رسول الله- أن تتصلب في اتباع الحق، ولا تستسلم لضغوط أهل الكتاب لأنك صاحب الحق والعلم ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ومن أشد ظلما للناس ولنفسه من قائد يخالف علمه إلى اتباع الهوى.

[١٤٦] وهؤلاء الذين يحرِّفون الكتاب ويفسرونه تفسيرا مخالفا للحقيقة لا ينقصهم العلم بالكتاب، ولكن ينقصهم الإيمان الكافي به، وشجاعة مقاومة أهوائهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

[١٤٧] لذلك يجب ألاَّ نجعل هؤلاء المنحرفين، قدوات لنا، أو نرتاب في الحق، انطلاقا من عدم إيمان هؤلاء، لأنهم يخالفون علمهم، وإنما نتبع عقولنا، ونتعرف الحق الصادق الذي أوحى به الله ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكين في الحق.

إن من يدَّعي أنه رجل دين، بشر قد تستهويه الشهوات فيُحرِّف الدين، بعد العلم به، ولذلك يجب إلاَّ يكون اتباعنا لرجل الدين مطلقا، بل في حدود هدى عقولنا ومعرفتنا بقيم الرسالة الإلهية.

إن الرجل العادي لا يسعه أن يغلق منافذ العلم على نفسه، ويتكل اتكالا كاملا على أصحاب العلم. لأن هذا قد يورطه في المهالك، وإنما عليه أن يكشف بعقله وفطرته أي نوع من الرجال يتبعه، أولئك الذين زهدوا في الدنيا، وحددوا شهواتهم، وخالفوا أهواءهم، وأطاعوا الله طاعة تامة، أولئك وحدهم جديرون بالاتباع.

كيف نضمن الفلاح؟

[١٤٨] هل نستطيع أن نضمن الفلاح لأنفسنا بمجرد أن نتوجه شطر المسجد الحرام؟وهل نستطيع أن نؤكد أن كل من يتوجه شطر بيت المقدس في النار؟

كلا.. إن هذه مظاهر خارجية للعبادة، أما العبادة الحقيقية فهي: التسليم لله، والعمل الصالح، وكلما كانت الأمة أكثر عملا بالصالحات كانت أقرب عند الله، أما القبلة فهي مظهر

خارجي لا اكثر ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ بعضهم شطر المسجد الحرام وبعضٌ إلى القدس. ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ هذا هدف رسالات الله ولا يكونن جدلكم في القبلة بديلا عن منافستكم لبعضكم في الخيرات ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهناك في محكمة الله لا ينظر الله إلى جدلياتكم بل إلى مقدار الصالحات في ميزان أعمالكم.

[١٤٩] ولكن هذه الفكرة لا تدعونا إلى تمييع الحدود، والقول بأن المؤمن يمكنه أن يصلي إلى أية جهة شاء، كلا، إنما عليه أن يلتزم بحدود الشريعة، ولكن دون أن يكتفي بها، لذلك تجد القرآن يعود ويأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام ويقول: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ إنه الحق، بالرغم من مقاومة أئمة الضلال لك على ذلك، وما دام الفرد على الحق، فلابد ألاَّ يأبه بمعارضة الناس، مهما كانوا كبارا عند أنفسهم، وعريقين في الدين.

[١٥٠] ثم يؤكد القرآن ضرورة الاستقلال الفكري وعدم الخوف من الناس في الحق ويقول: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ هؤلاء الظالمون سوف يحتجون عليكم، سواء اتبعتم الحق، أم الضلال، وعليه فلابد من إسقاط هؤلاء عن الحساب وعدم التفكير فيهم، يبقى الناس فهم يعرفون مدى أهمية المسجد الحرام، وكانوا يتساءلون لماذا أنتم باقون على التوجه إلى بيت المقدس بالرغم من أهميته الثانوية، الآن عودوا إلى المسجد الحرام، حتى لا تكون لهؤلاء الناس حجة عليكم، خصوصا وهم على الأغلب ممن يكرم المسجد الحرام.

ومادام الإنسان على حق وقد استطاع أن يجلب أكثر الناس إلى صفة عن طريق النهج السليم والعمل الصالح، فعليه ألا يخشى طائفة من الناس، هم طبقة المحرفين للدين ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ التخلص من الظالمين نعمة، والاستقلال الفكري والاجتماعي (بتميز القبلة) نعمة، وهداية في الوقت ذاته إلى القبلة الأفضل، المسجد الحرام.

وبشر الصابرين

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا[1] فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا[2] عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ[3] وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ (١٥١) فَٱذْكُرُونِىٓ[4] أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟[5] لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ[6] ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾.

هدى من الآيات:

للأمة الإسلامية شخصية مميزة عن سائر الأمم حتى تلك التي تحمل رسالة الله وأهم ما يميز هذه الأمة، الرسالة التي هي نعمة من الله، كما أن ابتعاث الرسول فيها نعمة أكبر سبقت نعمة القبلة وأعطت للعرب شخصية رسالية مستقلة.

---

(١) أرسلنا: الإرسال التوجيه بالرسالة والتحميل لها ليؤدي إلى من قصد.

(٢) يتلوا: التلاوة ذكر الكلمة على نظام متسق، وأصله من الاتباع، ومنه تلاه أي تبعه.

(٣) يزكيكم: والتزكية النسبة إلى الازدياد من الأفعال الحسنة.

(٤) فاذكروني: الذكر حصول المعنى للنفس وقد يكون بالقلب وقد يكون بالقول وفي أكثر الاستعمال يقال الذكر بعد النسيان وأصله التنبيه على الشيء فمن ذكّرته شيئاً فقد نبهته عليه.

(٥) اشكروا: الشكر الاعتراف بالنعمة.

(٦) سبيل: السبيل الطريق وسبيل الله طريق مرضاته.

والنعمة كلما ذكرت دامت، والسبب أن ذكر النعمة يؤدي إلى الاعتزاز بها والاهتمام بكل العوامل المساعدة لبقائها، وأما كفران النعمة فهو أقرب وسيلة لزوالها. ولذلك فعلينا أن نتذكر أبدا تلك الرسالة التي أنعم الله بها على الإنسان فأخرجه من الظلمات إلى النور.

ولكن التذكر وحده لا يكفي، إذ علينا أن نسعى من أجل الاحتفاظ بها، وذلك عن طريق الصبر والصلاة والجهاد في سبيل الله والاستهانة بالموت من أجل الرسالة، وتحمل بعض التضحيات البشرية والأمنية والاقتصادية، والرضا بها نفسيًّا. كل ذلك سوف يستنزل علينا صلوات الله ورحمته.

إن هذا الدرس أهم ما يجب على الأمة أن تتعلمه من القرآن، لكي تقاوم التخلف والكبت.

واجبنا الاستقلال عن سائر الأمم، ولنجعل رمز الاستقلال القبلة ونستعين بالصبر والصلاة، لا باستجداء الأمم ونرخص في الله أنفسنا، ونستعد لحياة التقشف. آنئذ فقط يلهمنا الله الصلوات وينزل علينا رحمته وننتصر على الضعف والهزيمة.

إن القبلة الجديدة إتمام لنعمة الرسالة، ذلك أن الرسالة وضعت الأمة في مصاف الأمم ذات الرسالة الإلهية، ولكن اشتراكها مع تلك في القبلة كان ينقص استقلالها الثقافي والاجتماعي والسياسي، والآن تم ذلك، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني أن يتذكر المسلمون هذا الاستقلال وأن يلتفوا حول رسالة الله أكثر فأكثر، إذ كلما التفوا حولها أكثر أثبتوا استقلالهم وجمعوا صفوفهم.

بينات من الآيات:

لذلك يذكرهم الله برسالته ويقول:

[١٥١] ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ وليس من بني إسرائيل حيث كانوا يترقبون أن تنزل الرسالة فيهم، ويقوم هذا الرسول بعدة أمور هي أهداف كل رسالة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الرسالة هي التي فجرت طاقاتكم، ووحدت كلمتكم، وكانت نواة حضارتكم.

إن كل أمة بحاجة إلى رسالة، وكلما كانت هذه الرسالة اقرب إلى الحقيقة كانت الأمة أقوى وأجدر بالنهوض، ورسالة الأمة الإسلامية فيها تلاوة آيات الله التي تعني تنبيه الإنسان

إلى الله، وتعميق روح الإيمان فيه بوصفها قاعدة ثابتة لبناء كيان الأمة التوحيدي.

وبعد التوحيد عن طريق توجيه الإنسان إلى آيات الله، تأتي مرحلة التربية الرسالية (ويزكيكم) لتصفية النفس من سلبياتها، من الفردية، من الجهل، من العجلة، من الجبن، من ضعف الإرادة وضعف الهمة..

إن الأمة التي لا تستطيع أن تتغلب على سلبياتها الخُلقية، لا تستطيع أن تنتفع بالشرائع والنظم، وإن تفوُّق الأمة في الإرادة، والتزامها الواعي شرط أساسي لتطبيق أي نظام أو قانون.

إنّ بداية الإصلاح في المجتمع الإنساني تبدأ من حيث مركز القرار، وهو النفس، التي لابد أن يكون صاحبها متصلاً بها لكي يكون الإصلاح؛ فإذا ما صلحت نوايا الناس ونفوسهم ظهرت بوادر الإصلاح. ولذلك كان التركيز القرآني على هذه النقطة أكثر من التركيز على أنواع الإصلاح الأخرى التي تتفرّع من مركز قرار الإصلاح في ذات الإنسان وضميره، كالإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى الإصلاح التربوي. ذلك لأن الحديث القرآني عن تلك الأنواع من الإصلاح لم يكن بمستوى الحديث عن إصلاح النفس الإنسانية، وتزكيتها، وتنمية مواهب الخير وبواعث الصلاح فيها.

وفي المرحلة الثالثة تحتاج الأمة إلى نوعين من الأنظمة. نوع ثابت يسميه القرآن بكتاب، ونوع يتطور وفق الزمان يسميه بالحكمة حسب ما يبدو لي.

هذه هي الشروط الثابتة لبناء أية أمة، وقد استوفت الرسالة الإلهية كل هذه الشروط وزيادة، حيث فتحت أمام الأمة آفاقا جديدة من العلم، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ وعلينا أن نتذكر هذه الرسالة باستمرار، ونتذكر حاجتنا إليها وفائدتها لنا.

[١٥٢] ولذلك علينا أن نشكر الله على نعمة الرسالة حتى ينفعنا الله بها، ونشكر الله عليها ليزيدنا نورا فيها، ولا نكفر بهذه النعمة التي مَنَّ الله بها علينا، فالنعمة التي تُكفَر تزول.

والشكر نفسيّة إيجابية مبادرة تتمتّع بصفة الاستباق إلى الخيرات، والمسارعة نحو العمل الصالح.

أقول: لولا الظلام الذي يهيمن على الوجود في الليل، ما أحسّ أحد بأهمية النور وبسنا ضياء النهار. فمشكلة ابن آدم أنّ النعم التي تواترت عليه قد أذهلته عن حقيقته وعن وجودها هي أيضاً، علماً أن حقيقة الإنسان حقيقة عدمية، من منطلق أنّ كل نعمة من نعم الله عليه

المحيطة به لا تمت له بصلة، بل هي فضل من الله تبارك وتعالى يؤتيها من يشاء ويسلبها ممن يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء.

فالشكر عنوان الوعي، والشكر لله إذا ما قسمناه وحللناه نجده مبنياً على أساس معرفة الإنسان لنفسه معرفة حقيقية. فمن يدرك منّا أنّه لم يكن ثم كان، سيتّضح لديه أكثر بأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليه بنعمة الوجود. وفي المقابل الشيطان من طبيعته أن يوسوس ويثير ويشعل نار الحقد والعصبية والأنانية في قلب من لم يتوصل إلى معرفة حقيقته العدمية تجاه من يتمتع ببعض النعم، وإن كان مطمئناً ومتأكداً من عدم ديمومتها. ولذلك فهو يعيش واقع الجهل المركّب، حيث يورط نفسه في العذاب النفسي دون شعوره بذلك، أو أنّه يشعر به ولكنه لا يتصوز تأثيراته عليه. في حين أنّ الإنسان المطمئن السوي العالم بحكمة ربّه في تقدير أرزاق الخلائق، الحكيم في نظرته الى الوجود، تراه متطلعاً إلى ما عند الله لا إلى ما يتمتع به الآخرون، لأنه حينها يشكر إنما بنى شكره هذا على تذكر نعم الله عليه ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي لا تكفروا بي وبنعمتي.

بماذا نستعين؟

[١٥٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الفكرة الحضارية أو الرسالة هي نواة تكوين الأمة، ومسؤولية الأمة تجاه هذه الفكرة هو التذكر والشكر، ولكن الأمة بحاجة إلى طائفة من الصفات الضرورية وأبرزها الاستعانة بالصبر والصلاة، تلك الاستعانة التي أمر الله بني إسرائيل بها حين أمرهم بالواجبات الصعبة.

والصلاة هي الانقطاع عن الحياة، والتوجه إلى الله، بحيث لا يتكل الإنسان على أي شيء في الدنيا، بل على الله والعمل الصالح، وأية أمة أرادت أن تتقدم فعليها أن تستمد القوة من الله، من الإيمان به، والعمل بتعاليمه، والاستفادة من نعمه على الإنسان. ومن دون هذا الانقطاع تفقد الأمة تعاليم رسالتها، وقواها الذاتية، وتتكل على القوى الخارجية، وتكتب بذلك نهايتها المحتومة.

والصبر هو التطلع إلى المستقبل والتضحية ببعض النعم في الحاضر من أجل تحقيق أفضل منها في المستقبل، ومن هنا فمن دون رؤية المستقبل والتطلع إلى تحقيقه لا تتقدم الأمة، إذ التقدم بحاجة إلى (استثمار) بعض الطاقات في (سوق الزمان) حتى يحصل الربح في المستقبل.

الفلاح يدفن تحت الأرض رزقه من الحبوب، ويبذل عليه جهده، ويتطلع إلى المستقبل

حيث تتحول الأرض إلى حقل خصيب، فلولا جهده وانتظاره هل كان يستطيع أن يحصل على الإنتاج؟ كلا.. كذلك الأمة عليها أن تصبر وتعمل للمستقبل البعيد. وفيما يلي يضرب لنا القرآن بعض الأمثلة على الصبر.

إذا أردت ألاَّ تموت

[١٥٤] أول الصبر الرضا النفسي بالتضحيات، وجعل القرآن المضحين في سبيل الله في قمة المجد الاجتماعي، ليشجع الباقين على المسير في دربهم ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ أحياء لأن القتل قد نقلهم من حياة إلى حياة، من حياة الجسد إلى حياة الروح، من الحياة الظاهرية إلى الحياة الحقيقية. وهم أحياء واقعا في العالم الآخر حيث تكون لهم أبدان مشابهة لأبدانهم الدنيوية التي يعرفون بها، وربما افرادهم بالذكر لهذا ومن جهة أخرى لم تكن الشهادة إلا بابا دخلوا منه إلى رضوان الله، وأحياء لأنهم وفروا فرصة الحياة للألوف من الناس.

إن الكرامة حياة، والحرية حياة، والعيش السعيد حياة، ومن يمُتْ في سبيل هذه المبادئ الدينية فهو حي في تلك المبادئ. إن الشجرة التي اقتلعت لكي يتحول كل فرع منها إلى شتيلة لشجرة جديدة لم تمت ولن تموت، والحبة التي دفنت تحت الأرض لكي تتحول إلى سنبلة فيها مائة حبة لم تمت ولن تموت.

والشهيد الذي وقف حياته لمبادئه الرسالية، حيث كان حيًّا ثم قتل لتحيا تلك المبادئ، إنه لم يمت، وإن أمة تُكرِّم شهداءها وتحيي ذكراهم وتجعلهم أحياء بينها هي أمة حية لا ولن تموت.

[١٥٥] الذي مضى شهيدا حي يرزق عند الله، والباقون من أبناء الأمة سوف يقضون ظروفا صعبة تتمخض عن حياة مجيدة، وعلى الأمة أن تكون مستعدة أبدا للتضحية، حتى تستطيع التقدم وتفجّر طاقاتها، وتزيدها تلاحما وصلابة وعمقا.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ ﴾ إنها حياة البناء التي لابد أن تقضيها الأمة قبل البدء بالمسيرة الصاعدة، إنها فترة تجميع الرأسمال عند من يريد ممارسة التجارة، أو فترة الدراسة لمن يريد أن يصبح خبيرا أو عالما، إنها بالتالي فترة العطاء وفي هذه الفترة يجب أن تتحلى الأمة بالصبر ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

[١٥٦] ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إذ أن هؤلاء لاينظرون

إلى المصيبة ذاتها، إنما ينظرون إليها ضمن إطار عام يجعلونها فيه، فهم يتصورون -خلال المصيبة- أنهم مجندون في سبيل الله، قد شروا أنفسهم ابتغاء مرضاته، ولا يجوز لمن باع بضاعة أن يطالب بها. والمسلم الحقيقي لا يفكر في جسده أو في ماله، لأنه قد باعهما سلفا، ثم إنهم يتصورون النهاية السعيدة التي تنتظرهم لو صبروا على المتاعب في سبيل الله.

إن أية خسارة في سبيل الله يجب أن توضع في إطار النظرة التاريخية العامة التي تجعل من الخسارة شيئا تافها أمام المكاسب الكبيرة التي تنتظر الأمة في المستقبل. ثم أليس البشر أساسا لله، خلقه الله لا من شيء، ثم جعله شيئا مذكورا؟ أو ليس يعود إليه بالتالي -عاجلا أو آجلا- فلماذا الجزع من المصيبات وهي لابد منها بصورة أو بأخرى؟!

[١٥٧] ما جزاء الصابرين؟ وما ثوابهم؟

إنه صلوات من ربهم، إن الله قريب منهم ويحبهم، ويبعث إليهم ببركاته ويرحمهم، فيخفف عنهم الصعوبات في المستقبل.

إن أول جزاء يتلقاه الصابر من ربه تأييده عند صبره، وتخفيف مصيبته عليه، ودعم معنوياته، ثم تعويضه على خسارته وزيادته من فضله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أما الذين لا يصبرون على المصيبة فهم لا يهتدون إلى الحق، لأن حبهم لذاتهم يحجب عنهم الحقائق، ويجعلهم لا ينظرون إلا إلى جوانب اللين والدعة من الرسالة، وبالتالي يحرمون من بركاتها.

أن هذه هي أهم نواقص الأمة الإسلامية اليوم، حيث كفرت برسالة الله، وهجرت حقيقة الصيام والصلاة، وأعرضت عن الجهاد، ولم تتحل بالصبر، لذلك تخلفت وتجرعت الذل، وتوالت عليها النكبات، ومتى ما أردنا الفلاح فعلينا العودة إلى هذه التعاليم بحزم وقوة.

كيف أخفى علماء السوء شعائر الله؟

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا(١) وَٱلْمَرْوَةَ(٢) مِن شَعَآئِرِ(٣) ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ(٤) ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ(٥) فَلَا جُنَاحَ(٦) عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ(٧) بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ(٨) خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟(٩) وَأَصْلَحُوا۟(١٠) وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟

---

(١) الصفا: الصفا في الأصل الحجر الأملس مأخوذ من الصفو واحده صفاة. وقيل الصفا كل حجر لا يخلطه غيره من طين أو تراب وإنما اشتقاقه من صفا يصفو إذا خلص.

(٢) المروة: في الأصل الحجارة الصلبة اللينة وقيل الحصاة الصغيرة والمرو نبت وأصله الصلابة، وقد صار الصفاء والمروة اسمين لجبلين معروفين في مكة.

(٣) شعائر: الشعائر المعالم للأعمال، وشعائر الله معالمه التي جعلها مواطن للعبادة، وكل معلم لعبادة أو دعاء أو صلاة أو غيرهما فهو مشعر لتلك العبادة، وواحد الشعائر شعيرة، فشعائر الله أعلام متعبداته من موقف أو مسعى أو منحر.

(٤) حج: الحج في اللغة هو القصد على وجه التكرار. وفي الشريعة عبارة عن قصد البيت بالعمل المشروع من الإحرام والطواف والسعي والوقوف بالموقفين وغير ذلك.

(٥) اعتمر: العمرة هي الزيادة من العمارة لأن الزائر يعمر المكان بزيارته، وهي في الشرع زيارة البيت بالعمل المشروع.

(٦) جناح: الجناح الميل عن الحق، يقال جنح إليه جنوحاً إذا مال وأجنحته فاجتنح أملته فمال.

(٧) يطوّف: الطواف الدوران حول الشيء ومنه الطائف، وفي عرف الشرع الدور حول البيت ويطوّف أصله يتطوف.

(٨) تطوّع: تبرع.

(٩) تابوا: التوبة هي الندم الذي يقع موقع التنصل من الشيء وذلك بالتحسر على مواقعته والعزم على ترك معاودته إن أمكنت المعاودة.

(١٠) أصلحوا: صلاح العمل هو إخلاصه من قبيح ما يشوبه.

وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ[١] ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ[٢] ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ[٣] ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ[٤] فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ[٥] وَتَصْرِيفِ[٦] ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا[٧] يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ[٨] ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ[٩] ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟[١٠] مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ[١١] بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ[١٢] ﴿١٦٦﴾

---

(١) ينُظَرون: الإنظار الإمهال قدر ما يقع النظر في الخلاص، وأصل النظر الطلب، فالنظر بالعين هو الطلب بالعين وكذلك النظر بالقلب أو باليد أو غيرها من الحواس.

(٢) اختلاف: نقيض الاتفاق، واختلاف الليل والنهار أخذ من الخلف لأن كل واحد منهما يخلف الآخر على وجه المعاقبة، وقيل هو من اختلاف الجنس كاختلاف السواد والبياض.

(٣) الفلك: السفن تقع على الواحد والجمع، والفلك فلك السماء وكل مستدير فلك، وقيل هو اسم للدوران خاصة.

(٤) بث: البث التفريق وكل شيء بثثته فقد فرقته.

(٥) دابة: من الدبيب وكل شيء خلقه الله يدب فهو دابة.

(٦) تصريف: تقليب، وصرف الدهر تقلبه، وجمعه صروف.

(٧) أنداداً: أشباه وأمثال، وقيل هي الأضداد.

(٨) حب: الحب خلاف البغض، والمحبة هي الارادة فإذا قلت: أحب زيداً فالمعنى أني أريد منافعه أو أمدحه، وإذا قلت: أحب الله زيداً فالمعنى أنه يريد ثوابه وتعظيمه، وإذا قلت: أحبُ الله فالمعنى أريد طاعته واتباع أوامره.

(٩) تبرأ: التبرؤ في اللغة أصله التولي والتباعد للعداوة، وإذا قيل تبرأ الله من المشركين فكأنه باعدهم من رحمته للعداوة التي استحقوها بالمعصية، وأصله من الانفصال ومنه برأ من مرضه.

(١٠) اتبعوا: الاتباع طلب الاتفاق، فإذا قيل اتبعه ليلحقه فالمراد ليتفق معه في المكان.

(١١) تقطعت: التقطع التباعد بعد اتصال.

(١٢) الأسباب: السبب الوصلة إلى المتعذر بما يصلح من الطلب، والأسباب الوصلات وواحدها سبب، ومنه يسمى الحبل سبباً لأنك تتوصل به إلى ما انقطع عنك من ماء بئر وغيره.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً(١) فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ(٢) عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾.

هدى من الآيات:

تذكُّر نعم الله، والتي في طليعتها القبلة رمز الاستقلال، وكذلك الرسالة، كبرى نعم الله على الأمة، هذا التذكر كان محور حديث الدرس السابق ثم الاستعانة بالصبر والصلاة.

وهنا يذكرنا الله بالصفا والمروة حين يسعى الحاج بينهما، ليتذكر هاجر عليها السلام التي صبرت في الله، وكانت عاقبتها النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

بيد أن الأمة قد تتوانى وتخور عزيمتها، وهناك قد تتشبث ببعض الأفكار السلبية التي تبعدها عن الجدية في العمل، والتضحية في سبيل الله، وهذه الأفكار يبلورها طائفة من أنصاف رجال الدين الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يكتمون عن الناس هدى الله.

وبعد أن يحذرهم الله عاقبة هذا الأمر، يبين ضرورة التوحيد وعدم الشرك. وكل اتِّباع لغير الله شرك، بل وكل سماع عن غير الله شرك. ويصور لنا الله يوم القيامة حيث يتبرأ التابعون ممن اتبعوهم بعد أن تخلى أولئك عنهم. كذلك في الدنيا علينا إلا نضيع رؤيتنا ونتبع كل من تحدث عن الله، بل نفكر فيمن نتبعه وكيف نتبعه.

إن هذا الدرس يكمل الدرس السابق الذي كان يتناول شروط نهوض الأمة، إذ أن من أبرز هذه الشروط، وحدة التوجيه الثقافي للأمة.

بينات من الآيات:

[١٥٨] كما جاء في آيات أخرى، أمر الله إبراهيم عليه السلام بأن يسكن زوجته هاجر وابنها عليه السلام في مكة بواد غير ذي زرع، وأن يرحل عنهما. فاستجاب واستجابت زوجته لأمر الله ولما استقرت هاجر عليها السلام في مكة، عطش ابنها الرضيع. فطلبت له الماء فلم تجد قطرة ماء. وكان هناك جبلان، أخذت هاجر تطوف بينهما، وتحاول أن تجد أحدا تستنجد به وعندما أكملت

(١) كرة: رجعة.
(٢) حسرات: الحسرة أشد الندامة.

هاجر سبعة أشواط من طوافها بين الجبلين، وجدت آثار الماء تحت قدمي ابنها إسماعيل. فشرع الله السعي بين هذين الجبلين، تخليدا لذكرى هاجر ورمزا لسعي الإنسان في سبيل الله. بيد أن المشركين وضعوا حجرين على الصفا والمروة واختلقوا لهما قصة خرافية وأخذوا يعبدونهما ويسعون من أجلهما، وظن بنو إسرائيل -وتأثر بهذه الشبهة بعض المسلمين- أن الطواف بين الجبلين أصبح وهماً لمجرد أن الجاهليين وضعوا عليهما صنمين، فجاءت الآية تنفي هذا الاعتقاد، وترفع تحرج المسلمين من أنه شيء صنعه المشركون، يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الشعيرة هي الرمز، حيث إنها دليل على الإيمان، ويطلق على محل العبادة، كالصلاة والحج وما أشبه، قال الطبرسي ﵀ في مجمع البيان: «وكل معلم لعبادة من دعاء أو صلاة أو غيرهما فهو مشعر لتلك العبادة»[1].

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ ويسعى بينهما ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بالتأسي بهاجر، وسعى بين الصفا والمروة كما سعت.

والتطوع الانقياد وقبول المشقة في الطاعة أو الزيادة في الطاعة، لذا يلائمه المستحب كما هو الغالب، فالمعنى فمن تطوع بعد أداء الواجب منه ومن الطواف، وسائر الأفعال الخيّرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

رسالة العلم

[١٥٩] العلم رسالة يجب أن تخدم هدف الإنسان في الحياة، أما إذا استغل العلم في سبيل مصالح خاصة فسوف، يصبح وبالا على المجتمع ووبالا على صاحبه، وسوف يفتضح هذا العالم أمام الناس والتأريخ، فيعتزله الناس ويصبح منبوذا.

كانت قصة الصفا والمروة مثلا لما يستطيع أن يفعله العلم إذا استخدم في سبيل إضلال الناس، حيث حولوه من شعيرة دينية إلى عمل محرم.

وبعد هذه القصة وحتى اليوم نجد علماء سوء، يكتمون الحقائق عن الناس، ولا يؤدون أمانة العلم العظيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ﴾ الكتاب لم يأت لطائفة معينة، إنما جاء هدى للناس جميعا، والذين يكتمون تشريعاته المفصلة ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أو قيمه الموجزة ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ عن الناس الذين نزل الكتاب لهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

(١) مجمع البيان: ج١، ص٤٣٨.

[١٦٠] وأمام علماء السوء فرصة للعودة إلى رحمة الله ورحمة الناس، وهي متمثلة في قيامهم بثلاثة أعمال:

الأول: التوبة بالاعتراف بأخطائهم السابقة، والاستعداد لتصحيحها.

الثاني: القيام فعلا بتصحيح الأخطاء وإصلاحها.

الثالث: بيان كل الحقائق حتى التي تخالف مصالحهم، أو مصالح قومهم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إن ضرر عالم السوء في المجتمع كبير، إذ إنه قد يسبب انحراف خلق كثير من الناس، ولذلك فإن توبة الله عليه دليل على أن الله تواب رحيم. وإلا فليس هيّناً التوبة على مثل هذا الرجل الذي استغل سلاح العلم ضد الناس.

جزاء علماء السوء

[١٦١] عودة رجل العلم الفاسد صعبة جدًّا، لأنه سوف يُشهَّر أمام الناس بالسوء، وهو قد جاهد في سبيل أن يضفي على نفسه قداسة علمية، ولكنه لو مات هكذا غير تائب فانه سيموت كافرا، وجزاؤه عند الله أسوأ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

[١٦٢] ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ هؤلاء لا يُعتنى بهم أبدا، بل يهانون أشد الإهانة بعدم النظر إليهم أبدا. ذلك لأن هؤلاء حرفوا الدين في الدنيا طلبا للجاه والرئاسة والعزة أمام الناس، والله يجازيهم بالذل والصغار.

الثقافة التوحيدية

[١٦٣] إن على المسلم أن يستوحي ثقافته من الله أو ممن أمر الله، ذلك التوحيد الخالص. والقرآن هنا يبين لنا سبب هذا التوحيد (الثقافي) ويقول: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فمادام الله واحدا، فإن علينا طاعته واتباع رسوله، دون أن نختار لأنفسنا موجهين ونتبعهم.

[١٦٤] ولكي يكرّس القرآن الكريم هذه الفكرة، يوجهنا إلى فطرتنا، ويأمرنا بالنظر إلى آيات الله في السماء والأرض، خصوصا تلك التي تعكس رحمة الله الواسعة والمستمرة.

إن هذه الآيات تدعونا إلى التوجه إلى الله وحده، ونبذ الأنداد من دونه، وهذه الدعوة تتصل بفطرة الإنسان الراسخة في حب من أحسن إليه، ومن أوسع إحسانا من الله علينا؟!

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بهذه العظمة والروعة والدقة ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بما فيه من آية الرحمة، والحكمة، والقدرة ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من نقلهم ونقل أمتعتهم إلى أقاصي الأرض.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف أنه نَظَّم الحياة بشكل يتبخر الماء، فيتحول إلى سحب تحمله الرياح وتسوقه إلى حيث الحاجة إليه، فتمطر ماءً عذبا نافعا للزرع والضرع، حاملا معه كل ما ينفع الأرض ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ذات حياة، فإذا بالنملة وأصغر منها، وإذا بالفيلة وأكبر منها، وإذا بالطيور والسباع والأسماك، كل قد هداه الله إلى رزقه ونفعه، وكل قد خلقه لهدف محدد، ثم وفّر له وسائل الحياة لأجلٍ مسمى.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الذين يستثمرون طاقة العقل التي وضعها الله فيهم، وحدهم ينظرون من خلال هذه الآيات إلى رحمة الله الواسعة والدائمة، ويعرفون أن الله هو وحده الجدير بالحب والطاعة والعبادة، وأنه دون غيره من الشركاء يجب أن يُتَّخذ وليًّا.

[١٦٥] الذين لايعقلون لا ينتفعون بعقولهم بالرغم من وجودها عندهم، هؤلاء لا يعرفون ربهم،لأنهم ينظرون إلى الكون نظرة جامدة متحجرة لا تتجاوز ظواهر الكون، دون تعمق في دلالات هذه الظواهر. ولذلك فهم لا يؤمنون أو يؤمنون، إيمانا سطحيًّا بالله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ لنظرتهم الجامدة، فهم يقدسون الشمس -مثلا- بدلا من أن يعبدوا الذي خلق الشمس ونظّم سيرها، وهو الله. لماذا؟.

لأنهم ينظرون إلى ظاهر الشمس دون أن يستدلوا بها على ربها، كذلك فهم يرتبطون بأصحاب المال والجاه والعلم، دون أن يفكروا أن هؤلاء جميعا عباد لله، وأن الله هو الذي أعطاهم هذه النعم، فأولى بهم وأجدر أن يتصلوا بالله مباشرة، ولا يسمحوا لأنفسهم بأن يستعبدها هؤلاء الوسطاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فبالرغم من إنشاء علاقة بينهم وبين أصحاب المال والجاه والعلم، فهم لا يسمحون لأنفسهم بالعبودية لهؤلاء، بل يبقون أبدا مرتبطين بالله ارتباطا أشد.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم، باتباعهم الأنداد، وتفضيل الأنداد على الله حين خالفوا أوامر الله إبتغاء مرضاة الأنداد، من أصحاب الثروة والسلطة والمعرفة؛ لو يرى هؤلاء الحقيقة فانهم يكفون عن غيهم وذلك ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ فإن كان حب الأنداد طلبا للقوة فإن القوة لله جميعا، وإن كان خشية العذاب فإن الله شديد العذاب.

[١٦٦] هؤلاء الذين يتبعون من دون الله ويتخذون أندادا مع الله، هؤلاء ضعفاء وخونة، إذ انهم سوف يتبرؤون من التابعين دون أي وازع من ضمير.. ولو يرى تابعوهم تلك الحالة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ﴾ جميعا التابعون والمتبوعون ﴿ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ إذ لم يجدوا حبلا يعتصمون به ولا ملجأ يأوون إليه.

[١٦٧] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ إلى الحياة الدنيا أو إلى الوراء ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ هذه عاقبة الذي يتخذ من دون الله أندادا يحبهم كحبه لله، ويتبعهم من دون أمر الله، العاقبة هي الندم. حيث يقول: يا ليت الزمان يعود بي إلى الوراء فارفض اتباعهم ولكن هيهات ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ إذ إنهم عملوا أعمالا كثيرة ولكنها كانت أعمالا باطلة بسبب اتباعهم فيها للأنداد، فيتحسرون عليها ولكن الحسرة لا تنفعهم ولا تخفف عنهم عذاب ربهم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إن الأمة الإسلامية لابد أن تنعدم فيها مراكز القوى (الأنداد)، وتتجه في خط واحد إلى الله، في صراط مستقيم، ولا يتبع أحد فيها أحدا إلا بإذن الله، ويكون حبه لله أشد من حبه لمن حوله من الناس الأقوياء والضعفاء على حد سواء. إنه مجتمع حر بكل ما في الحرية من معنى. وفي الدروس التالية تفصيل لهذه الحقيقة.

كيف نحطم أصنام الكفر؟

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[1] الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ[2] وَالْفَحْشَاءِ[3] وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا[4] عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ[5] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ[6] بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ[7] غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ

(١) خطوات: الخطوة بُعْدُ ما بين القدمين للماشي، وخطوات الشيطان آثاره.

(٢) السوء: كل فعل قبيح يزجر عنه العقل أو الشرع، وإنما سُمي القبيح سوءاً لسوء عاقبته.

(٣) الفحشاء: والفاحشة والقبيحة والسيئة نظائر، وكل من تجاوز قدره فهو فاحش، وكل ما لا يوافق الحق فهو فاحشة.

(٤) ألفينا: أي صادفنا ووجدنا.

(٥) ينعق: نعق صاح زاجراً، ونعق الغراب إذا صوت.

(٦) أُهلّ: الإهلال في الذبيحة رفع الصوت بالتسمية، وكان المشركون يسمون الأوثان، والمسلمون يسمون الله.

(٧) اضطر: الاضطرار كل فعل لا يمكن المفعول به الامتناع منه وذلك كالجوع الذي يحدث للإنسان فلا يمكنه الامتناع منه.

ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ[1] أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ[2] وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ[3] وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ[4] وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ[5] وَٱلضَّرَّآءِ[6] وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

مجتمع الحرية هو مجتمع التقدم والرفاه، ويربط القرآن الحكيم بين التحرر من اتباع شياطين الثروة والسلطة والدين، وبين الانتفاع التام بها في الحياة من نعم طيبة.

هؤلاء الشياطين، يحرّمون على الناس الطيبات من الرزق، لجهلهم أو لأنهم يريدون أن يستأثروا بها، أو لأنهم يحاولون إبقاء الناس ضعفاء مقهورين، ولكن الله خلق الأشياء لنا، وعلينا أن نعمل من أجل الحصول عليها ونتجاوز العقبات من أجلها.

إن الآية الأولى تدعو الناس صراحة إلى الاستفادة مما في الأرض وهي دعوة ضمنية لكسر حواجز العبودية التي ترتبط في القرآن بأمر الشيطان الذي يأمر بالسوء والفحشاء، ويضرب في الآيات التالية مثلين لاتباع الشيطان:

---

(١) البر: العطف والإحسان، والبر الصدق، والبر الإيمان والتقوى وأصله الاتساع ومنه البر.

(٢) المسكين: من لا شيء له من المال.

(٣) ابن السبيل: هو المنقطع به إذا كان في سفره محتاجاً وإن كان في بلده ذا يسار، وهو من أهل الزكاة، وقيل إنه الضيف.

(٤) الرقاب: جمع رقبة وهي أصل العنق ويعبر به عن جميع البدن، يقال: أعتق الله رقبته، ومنه قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

(٥) البأساء: البؤس الفقر.

(٦) الضراء: السقم والوجع.

الأول: اتباع الآباء.

الثاني: اتباع رجال الدين المحرِّفين لكتاب الله.

وفي الآية الأخيرة يتحدث القرآن عن النظرة القشرية التي أوصى بها هؤلاء العلماء المزيفون، فجردوا الدين من روحه ونوره وهداه.

إن الأمة الإسلامية اليوم تعاني من التخلف، الذي ليس في واقعه، سوى صورة مبسطة لعدم الاستفادة من نعم الله، بسبب التقاليد البالية، والنظريات السخيفة في تفسير الدين. فينبغي أن تتقدم حتى تتمتع بنعم الله، وتكسر حواجز التقليد، وما يسمى بالدين وهو أبعد ما يكون عنه.

بينات من الآيات:

[١٦٨] أولا وقبل كل شيء، لابد أن نضع للحرية هدفا ساميا. والحرية في المجتمع الإسلامي والتي دعت إليها آيات الدرس السابق (رفض الأنداد) ذات هدف هو: الانتفاع بنعم الله، وبكل صراحة يوجه الله خطابه إلى الناس كل الناس المؤمنين والكافرين قائلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وبذلك يقرر الأصل في الأشياء الحلية حتى يثبت أنها حرام والتعبير بـ ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تعبير يدل على الإطلاق، مما يعكس لنا نظرة القرآن الإيجابية إلى الحياة.

إن الله يريد أن نتمتع بالحياة، ولكن الشيطان يمنعنا، إنه يُوجد الحواجز بين الإنسان وبين نعم الله، وعلى الإنسان ألاَّ يتبع الشيطان، وان يقاومه. كما أن الشيطان يُزَيِّن للناس الغايات الخبيثة والإسراف والطمع وكلها تمنع من الانتفاع السليم والتام من خيرات الأرض.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إنه لا يريدكم أن تنعموا بالحياة فلماذا تتبعوه؟

الذين يمنعون زراعة الأرض هم أعداء الإنسان، والذين يمنعون التجارة ويضعون الحواجز في طريقها هم أعداء الإنسان، والذين يمنعون عمارة الأرض هم أعداء الإنسان وعلى الإنسان ألاَّ يتبع أعداءه.

القوانين الشيطانية

[١٦٩] وعند تبسيط القوانين والتقاليد التي يضعها الشيطان، نجد أنها تنقسم إلى ثلاث

فئات:

فبعضها (سوء) يمنع من الانتفاع بالحياة مثل: أكثر القوانين الزراعية والتجارية الحديثة التي وضعت للحد من نشاط الناس، وللإبقاء على سيطرة مراكز القوى (شياطين الأرض) على مقدرات الناس.

وكمثل بسيط كان رؤساء العشائر الذين كانوا يتمتعون بقوة البطش يقتطعون لأنفسهم أرضا يسمونها بالحمى، ويحرمون على الناس رعي أغنامهم فيها، ثم تطورت وأصبحت تلك الأراضي ملكا لأقرب الناس إلى السلاطين (الإقطاعات السلطانية)، ثم تطورت وأصبحت أراضٍ أميرية مرتبطة بالبلاط الملكي، ثم تطورت وأصبحت ملكا لأصحاب رؤوس الأموال الضخمة أو ما أشبه.

ترى أن كل هذه القوانين منعت من زراعة الأرض، وبالتالي من انتفاع الإنسان بها، والسؤال كيف استطاع هؤلاء الشياطين منع الناس من الانتفاع بما جعل الله لهم حلالا؟

الجواب: إنما فعلوا ذلك في ظل القوانين والأعراف والتقاليد الباطلة، فإذا إيمان الناس واتباعهم لتلك القوانين والأعراف والتقاليد هو السبب غير المباشر لعدم انتفاعهم، إذن فلنكفر بالشيطان وبأنظمته الجائرة.

و(السوء) يتطور إلى (الفحشاء) إذ إنه يكرس السلطة والثروة بيد طائفة من الناس يستغلونها في الظلم. والفحشاء تتلبس بثياب الدين، بفعل تعاون الانتفاعيين (المستثمرين) مع بعض من يسمى بـ(رجال الدين) الذين يحرّفون كلام الله، ويكتمون الكتاب ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إذن أحد مظاهر (السوء) الأنظمة الباطلة، وكما أن أبرز مظاهر (الفحشاء) الظلم الاجتماعي الذي يقع -عادة- بسبب تلك الأنظمة والتبرير الديني لتلك الأنظمة وذلك الظلم.

عبدة الآباء

[١٧٠] وكمثل لذلك اتباع الآباء المنحرفين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وفيه رفاه للجميع، وتحرر للطاقات، واستفادة من نعم الحياة ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي ما تعودنا عليه من حياة آبائنا ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

[١٧١] ومثل هؤلاء مثل الببغاء حيث يرددون ما يقوله الآخرون دون أن يفهموا منه

شيئا، إنهم فقدوا قدرتهم على التفكير والاستقلال الثقافي، ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ أي يصيح مقلدا لصياح الآخرين ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي بصياح لا يفهمه هو ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ مبهما وغير معروف لديه، وهؤلاء في الواقع ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ لأن الفائدة من الأذن، واللسان، والعين هي المعرفة والعقل، وحيث لا عقل فلا إحساس ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إن هذا مثل واحد لهؤلاء الناس الذين لا يتمتعون بالاستقلال، ولا يتحررون من عبادة الأنداد من دون الله، وبالتالي لا يستغلون موهبة العقل عندهم.

[١٧٢] ومثل آخر يضربه القرآن من واقع اتباع رجال الدين المحرّفين لكلام الله، وهم صورة أخرى للتخلف الاجتماعي حيث يبررون الأنظمة الفاسدة، وقبل أن يضرب القرآن هذا المثل يعود ليأمرنا بالانتفاع من نعم الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ وربما توجه الخطاب للمؤمنين هذه المرة، بينما كان الخطاب عاما في الآية السابقة، ربما ليدحض القرآن فكرة أن الدين تخلّف ورجعية ومنع للطيبات، كما كان يوهم تصرف رجال الدين المحرّفين، وليثبت العكس وأن الدين يأمر بالتقدم، والتطور، والطيبات، ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على هذه النعم، وذلك بأن تكرموا هذه النعم، وتقدروها، وتحترموها. ولأن الخطاب للمؤمنين لم يكتف بالسلب (لا تتبعوا خطوات الشيطان)، وإنما وصى الرب تعالى بالشكر ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

[١٧٣] ولا تقولوا لكل نعمة من أنعم الله هذا حرام بدون علم ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ ما ذبح على الأصنام تقرُّبا لها. ومع أن هذه أمور محرمة إلا أنها سوف تحلل في ظروف معينة.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إن من يصيبه ضرر كبير بامتناعه عن كل هذه المحرمات لا إثم عليه، بشرط: أن يبقى ملتزما نفسيًّا بحرمتها، فلا يحب أكلها (ولا يبغيها)، وبشرط: ألاَّ يتجاوز أكله لها حدود الاضطرار، فيأكل بقدر ما يدفع عن نفسه الضرر الكبير فقط.

جزاء كتمان الحق

[١٧٤] هذه هي محرمات الدين في الأكل.. انظر كيف وسَّعها اليهود حتى كادوا أن يحرموا كل شيء، ثم كتموا حكم الله في الأكل بغيا واتباعا لمصالحهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ إذ سوف يكتشفون غدا (بعد الموت أو حتى قبله) أن اللقيمات القليلة التي أكلوها تحولت إلى

نار ملتهبة، ذلك أن الأعمال السيئة تتجسد بعد الموت.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ استهانة بهم، وتصغيرا لقدرهم، وهم الذين حرموا على الناس الطيبات تأييدا للسلطات، وطلبا للجاه عندها، والحال أنه لاجاه لهم عند الله أبدا ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بالرغم من أنهم يحسبون أنفسهم من رجال الله، ويزكّون أنفسهم حتى يجعلوها أقرب الناس إلى الله، في حين أن الله لا يعتبرهم أزكياء، ولا يقبل منهم دعواهم بأنهم عباده الصالحون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

لماذا هذا العذاب؟

[١٧٥] كل تلك العقوبات كانت جزاء أعمالهم لماذا؟

السبب واضح ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ باعوا الهدى في مقابل بعض المكاسب المادية التي سببت ضلالتهم عن الحق، وتورطهم في المهالك ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ حيث اشتروها لأنفسهم بعد علم بالدين.

صفات علماء السوء

[١٧٦] إن هؤلاء علامتين:

العلامة الأولى: أنهم حرَّفوا الكتاب حتى جعلوه متوافقا مع مصالحهم، ولأن مصالحهم مختلفة، ولأن كل طائفة فسروا الكتاب حسب مصالحهم، فقد اختلفوا في الكتاب ذاته، وتحوَّل الكتاب عندهم إلى أداة تفريق، وكان سبيلا للتوحيد، كان كتاب حق فأصبح عندهم كتاب هوى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وأوجب على الناس أن يقيسوا الأشياء والأشخاص به وأن يحددوا أهواءهم وفق مبادئه، أما هؤلاء العلماء المنحرفون فقد أضلوا الناس عن الكتاب واختلفوا فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ إنهم متمردون على الحق.

إن الله سبحانه وعد هؤلاء الضالين المضلين من أهل الكتاب بأشد العذاب لماذا؟

لأنهم سلبوا من الناس أفضل ما كانوا يملكون، سلبوهم إيمانهم، وهداهم، وعقولهم، ودفعوا بالناس إلى هاوية بعيدة، كل ذلك لقاء بعض المكاسب المادية، وعلى الأمة أن تستيقظ

حتى تكتشف هؤلاء السراق، وتقطع أيديهم، وتعود إلى وعيها وهداها.

[١٧٧] **العلامة الثانية**: النظرة القشرية إلى الدين، وتعميق هذه القشرية في النفوس، وتضخيم الأمور القشرية إلى حد تغطية القضايا الجوهرية.

والسبب في ذلك هو خلافاتهم الذاتية من جهة، ومن جهة ثانية تعويض تقاعسهم عن الواجبات الأساسية، والاهتمام البالغ بالقضايا الثانوية أو القشرية، يقول الله: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ حتى تختلفوا في القبلة مع بعضكم، وتضخموا هذا الخلاف ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهؤلاء المحرومون هم الذين يجب أن تتوجه إليهم رسالة السماء وحملة الرسالة، لا السلاطين والوجهاء، وحدهم. ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ حيث تقوم الحرب مع العدو ويُفقد الأمن، أو ينتشر الفقر والأزمات الاقتصادية ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ حيث تصاب الأمة أو الأفراد بضرر الأمراض أو الكوارث الطبيعية وما أشبه ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ حين الحرب واستحرار القتل ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ مع الله ومع الناس، واستوفوا حقيقة الإيمان ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فلسفة القصاص

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ[١] عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ[٢] فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ[٣] بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ[٤] لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ[٥] إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ[٦] لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ[٧] أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ[٨] حَقًّا[٩] عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا[١٠] أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

(١) كتب: فرض، وأصل الكتابة الخط الدال على معنى فسُمي به ما دلّ على الفرض.

(٢) القصاص: والمقاصة والمعاوضة والمبادلة نظائر، يقال: قصّ الأثر أي تلاه شيئاً بعد شيء، ومنه القصاص لأنه يتلو أصل الجنايه ويتبعه، وقيل هو أن يفعل بالثاني ما فعله هو بالأول مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئاً بعد شيء.

(٣) الحُرّ: نقيض العبد، والحُرّ من كل شيء أكرمه.

(٤) عُفي: العفو الترك، وعفت الدار أي تركت حتى درست، والعفو عن المعصية ترك العقاب عليها، وقيل معنى العفو هنا ترك القود بقبول الدية من أخيه.

(٥) أداء: الأداء تبليغ الغاية، يقال: أدّى فلان ما عليه وفلان أدى للأمانة وغيره.

(٦) الألباب: العقول وأحدها لب مأخوذ من لبّ النخلة واللب البال.

(٧) حضر: الحضور وجود الشيء بحيث يمكن أن يدرك.

(٨) بالمعروف: المعروف هو العدل الذي لا يجوز أن ينكر ولا حيف فيه.

(٩) حقاً: الحق هو الفعل الذي لا يجوز إنكاره، وقيل ما علم صحته سواء كان قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً.

(١٠) جنفاً: الجنف الجور وهو الميل عن الحق، وقيل هو الميل في الكلام وفي الأمور كلها، يقال جنف علينا فلان وأجنف في حكمه، وهو مثل الحيف إلا أن الحيف في الحكم خاصة والجنف عام.

هدى من الآيات:

بعد الحديث عن جوانب من شخصية الأمة الإسلامية، تُحدِّثنا هذه الآيات وتلك التي تليها، عن مجموعة من واجبات الأمة وفرائضها وشعائرها الدينية. ويبدأ الحديث بالقصاص باعتباره واجبا اجتماعيًّا، يتصل بالمحافظة على حرمة النفس. وبعدئذ يتحدث عن الوصية كواجب اجتماعي يتصل بحرمة المال. وسواء الدم أو المال، فإن احترامهما يعني احترام الإنسان كإنسان. إذ ليس المال سوى جهد مكثف للإنسان، والذي يعتدي على المال، حتى ولو كان ذلك بعد حياة الشخص، فهو يلغي حياة صاحبه وجهوده.

وبعدئذ يتحدث القرآن عن الصوم والجهاد والحج كواجبات اجتماعية دينية ولكن يبقى السؤال: ما هو سبب وضع القصاص والوصية في سياق الصوم والجهاد والحج؟

الجواب: أن القصاص والوصية هما الآخران واجبان اجتماعيان يكلف بهما جميع أبناء الأمة، كالصوم والجهاد والحج. ومن جهة أخرى، إن من أهداف المجتمع الإسلامي في الشعائر والواجبات هو المحافظة على حياة الناس وأموالهم، فكان من الطبيعي أن يتحدث القرآن سلفا عنهما.

بينات من الآيات:

[١٧٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ إنه مكتوب على الأمة، مفروض على كل واحد من أبنائها تطبيقه، ولكن هذا حق يطالب به صاحب الدم وتُكلَّف الأمة بانتزاعه له، أما إذا عفا صاحب الدم فهو حر في ذلك.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ إن الله يضع حول شرائعه لمسة إحساس وعاطفة، من أجل ألاّ تكون الأنظمة كلها صارمة وجامدة لا تتوافق مع بعض الظروف. انه يُعطي هنا لصاحب الدم الحق في العفو ليصبح صاحب الدم والجاني أخوين. وعلى الجاني أن يراعي هذه الأُخوة الجديدة بالمعروف والإحسان، أي يجب أن تتحول الجناية إلى عامل إصلاح في حياة الجاني. فإذا به يصبح صاحب المعروف بأن يدفع الدية حسب المتعارف، وصاحب الإحسان الذي يسعى من أجل إسعاد أولياء القتيل بأية وسيلة ممكنة ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾.

والإسلام دين القانون ودين الرحمة في الوقت ذاته. فهو ذو قانون محدد ولكنه مؤطر بالرحمة، لتخفيف صرامة القانون في ظروف معينة. ولكن هذه الرحمة وُضِعت لكي يتحول الجاني بسببها إلى رجل صالح في المجتمع، وإذا كانت الرحمة بالنسبة إليه تشجيعا له على متابعة أعماله الجنائية فهنا يجب أن يكون المجتمع صارما معه أيضا ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[١٧٩] لماذا القصاص؟ لماذا نقضي على حياة إنسان قضى على حياة غيره؟ أوَليست هذه الحياة الثانية محترمة كالتي قُضِي عليها؟

بلى، ولكننا لا ننظر إلى هذه الحياة أو تلك بقدر ما ننظر إلى حياة المجتمع كله، وضرورة المحافظة عليها كلها، وعبر هذه النظرة نرى ان القصاص ضرورة حياتية ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ إذ إنه يبني سورا منيعا حول حياة المجتمع كله، فيقتل نطفة الجريمة في مهدها، ولا يدعها تنمو حتى تتحقق، لان العقاب شديد وصارم. وإذا ألغي مبدأ القصاص فيمكن أن تتسع عمليات القتل الدفاعية في الأمة، إذ قد يحس كل فرد انه يتعرض للقتل من قبل خصومه فيبادر بقتلهم، وهكذا تنتشر الجريمة، وربما دون أي مبرر سوى الخوف الباطل. لذلك يقول القرآن في فلسفة القصاص والهدف من تشريعه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي الهدف منه هو إيجاد رادع عن الجريمة في المجتمع، يتقي الناس به من ارتكابها.

الوصية وحق الأموال

[١٨٠] وبمناسبة الحديث عن حرمة النفس والقصاص الذي ينتهي بالموت، يتحدث القرآن عن الوصية باعتبارها تثبت حق الفرد في أمواله حتى بعد المهات، وبذلك يتكرس هذا الحق في حالة الحياة بالطبع، والوصية مكتوبة على ذوي اليسار الذين ينبغي أن يُوصوا لأقاربهم.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ إن هذه الوصية حق ثابت على المتقين لكيلا يضيعوا حق والديهم وأقاربهم. ولم يتحدث القرآن عن الوصية للأولاد، لأنهم الجيل الصاعد والوارث الطبيعي للآباء، ولكن ينبغي أن يوصي الوالد لابنه المحتاج إلى عطف إضافي وتمضي الوصية في ثلث أموال الميت، وهكذا جاء في الحديث الشريف -كما في مجمع البيان-: «قد روى أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام أنه سئل هل تجوز الوصية للوارث فقال: نَعَمْ، وتلا هذه الآية»[1].

(١) مجمع البيان: ج١، ص٢٦٧.

[١٨١] الوصية حق على المتقين، ولكن تنفيذ الوصية حق على الناس، وعلى الإنسان أن ألاَّ يمتنع عن الوصية بحجة الخوف من عدم تنفيذها، إذ التنفيذ مسؤولية الوصي أولا والمجتمع ثانيا، وليس مسؤولية الذي يوصي ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ صاحب التبديل وشركائه من الذين يرضون بالتبديل ولا ينهون عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ شاهد على الوصية، عالم بمن يبدلها.

[١٨٢] ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ ظلما متعمدا أو غير متعمد ذلك أن الجنف -كما جاء في مجمع البيان-: الجور؛ وهو الميل عن الحق، ثم قال: «الإثم: أن يكون الميل عن الحق على وجه العمد، والجنف أن يكون على جهة الخطأ من حيث لا يدري أنه يجوز، وهو معنى قول ابن عباس والحسن وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

وقال: الجنف: «هو أن يوصي به في غير قرابة» (ثم أضاف): وعليه أكثر المفسرين وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام»[١].

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ذلك لأن الله سبحانه يغفر لمن كان على الخطأ كالموصي إذا تراجع عن خطئه.

هذه هي مسؤولية المجتمع في مسألة الوصية أن يراقبوا الموصي، فلا يدعوه يجفو بحق أولاده أو يُضرَّ بهم، كأن يكون الموصي لا يملك ألا بيتا واحدا وله ذرية ضعفاء، فيوصي بتلك الدار لرجل غريب، مما يسبب في بيع الدار وإبقاء أهله بلا دار سكنى، آنئذ يتدخل المجتمع لتصحيح الوصية.

جاء في حديث شريف مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ عَدَلَ فِي وَصِيَّتِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تَصَدَّقَ بِهَا فِي حَيَاتِهِ، وَمَنْ جَارَ فِي وَصِيَّتِهِ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ**»[٢].

---

(١) مجمع البيان: ج١، ص٤٨٤.
(٢) الكافي: ج٧، ص٥٨.

الصوم فلسفته وأحكامه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ [١] كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ [٢] فَعِدَّةٌ [٣] مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ [٤] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ [٥] إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ [٦] لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ

---

(١) الصيام: في اللغة الإمساك، ومنه يقال للصمت: صوم؛ لأنه إمساك عن الكلام، وفي الشرع إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص مبين، هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص.

(٢) سفر: أصله من السفر الذي هو الكشف، تقول: سفر يسفر سفراً وانسفرت الإبل إذا انكشفت ذاهبة.

(٣) عدة: من العد وهي بمعنى المعدود.

(٤) يطيقونه: الطوق الطاقة وهي القوة، وأطاق الشيء إذا قوي عليه.

(٥) الرفث: الجماع.

(٦) لباس: الثياب التي تستر البدن، والعرب تسمي المرأة لباساً وإزاراً.

كُنتُمْ تَخْتَانُونَ(١) أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ(٢) وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ(٣) الْأَسْوَدِ(٤) مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي الْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

هدى من الآيات:

المجتمع الإسلامي مجتمع ملتزم مسؤول، تجري الأنظمة فيه بحافز داخلي يسميه القرآن بـ(التقوى)، وهذا الحافز يخلقه الإيمان بالله، وتنميه طائفة من الواجبات في طليعتها الصيام.

وبمناسبة الحديث عن شخصية الأمة تتحدث هذه الآيات عن الصيام بوصفه أفضل وازع نفسي للأمة يحافظ على حدود المجتمع ويراعي أنظمته.

وفي البدء يبين القرآن فلسفة الصيام، وبعدئذ يبين طائفة من أحكامه، ثم يتحدث عن أهمية شهر رمضان، وبهذه المناسبة يتحدث عن الدعاء، وأخيرا يعود إلى أحكام الصيام والمحرمات الأساسية فيه.

والملاحظ في القرآن: أنه يتحدث عن الصيام قبل وبعد الحديث عن حرمة المال (الآيات ١٨٣/ ١٨٨) وكأنه يوصينا بأن من أهداف الصيام تحقيق وازع داخلي يحافظ على حرمات المجتمع أبرزها حرمة المال.

---

(١) تختانون: الاختيان الخيانة، يقال: خانه يخونه خوناً ﴿خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مسارقة النظر إلى ما لا يحل، وأصل الباب منع الحق.

(٢) تباشروهن: المباشرة إلصاق البشرة بالبشرة وهي ظاهر الجلد.

(٣) الخيط الأبيض: بياض الفجر.

(٤) الخيط الأسود: ظلام الليل.

إنه يُعَّدل سلوك الفرد تجاه المجتمع، حتى لا يعتدي الفرد عليه.

وبهذه المناسبة يتحدث القرآن عن حرمة المسكن، ويحرم على المسلم أن يتسلق البيوت من ظهورها.

بينات من الآيات:

[١٨٣] الصيام واجب ديني في رسالات الله السابقة. وحين يكتبه الله علينا فإنه لهدف عظيم يعود بالنفع علينا. هو تقويم سلوكنا، وتربية نفوسنا على التقوى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ الهدف من الصيام التقوى، والهدف من كثير من الشعائر الدينية هو التقوى أيضا (كما صرَّح القرآن به في آيات كثيرة) ولكن ما هي التقوى؟

لعل الكلمة التي نستخدمها في أدبنا الحاضر بديلا عن كلمة التقوى وقريبة من معناها هي (الالتزام). ولكن إيحاءات كلمة التقوى أفضل وأرقى. إنها تدل على الالتزام خشية العقاب، والعمل بشيء (اتِّقاء) شر معين وبالتالي جعل العمل وسيلة لتجنب الوقوع في المهلكة.

فالتقوى هي التزام واع ومفروض على الإنسان بسبب الأضرار التي تصيبه إن ترك الالتزام.

وخلق هذه الحالة في النفس لا يتم إلا عبر سلسلة من الالتزامات والشعائر، و(الصيام) واحد منها. حيث إنه يدرب الإنسان على تجنب شهواته برقابة ذاتية، وبذلك ينمي عنده موهبة الإرادة. ذلك لان إرادة الإنسان كأية نعمة أخرى عنده تنمو وتتكامل، كلما انتفع بها الإنسان ومارسها عمليا. والصائم يمارس إرادته ضد شهواته كلما دعته الحاجة إلى الطعام أو الجنس، فيرفض تلبية هذه الدعوة بقوة إرادته.

إن كثيرا من الناس يحبون أن يصبحوا صالحين، مؤمنين، ملتزمين بالرغم من أنهم قد لا يصرِّحون بذلك، ولكن بعضا منهم يوفق لذلك لأنه -وحده- يملك إرادة قوية، وعلى الإنسان ان يربي إرادته ويدربها حتى يستطيع أن يقاوم بها ضغوط الشهوات، والصيام واحد من وسائل تربية وتدريب الإرادة.

[١٨٤] الصيام فُرِضَ خلال شهر واحد قد يتصوره الإنسان طويلا، ولكنه يجده بعد الممارسة وبعد التصميم على الالتزام به قصيرا: وكذلك كل عمل يتصوره الإنسان في

البدء عظيما، ولكنه بعد أن يعزم عليه، يصبح سهلا وخفيفا، ولذلك كان من أفضل وسائل التغلب على الحياة تهوينها، والاستهانة بصعوباتها. وهكذا يصور لنا القرآن الصيام ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ وهناك يُسرٌ في أداء واجب الصيام، مثل تغيير موعد الصيام للمسافر والمريض ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يصومها عن كل الأيام التي لم يصمها لمرض أو سفر. ومن التيسير إلغاء الصيام اختيارا عن كل من لا يطيق الصيام. أي يجهده، ويستنفذ كل طاقته، كضعيف البنية والشيخ الكبير آنئذ يستطيع ان يصوم أو أن يبدِّل الصوم بالفدية بإطعام مسكين واحد عن كل يوم يفطر فيه ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ وصام بالرغم من المشقة عليه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ بشرط ألاَّ يسبب له ضررا كبيرا بل مجرد مشقة وحرج ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأنه يزكِّي نفوسكم، ويربي إرادتكم، ويهيئ لكم عند الله جزاء حسنا.

لماذا رمضان؟

[١٨٥] ولابد أن يقع الصيام في شهر رمضان بالذات، لماذا؟ أوَلَيس هناك شهر آخر أفضل منه؟

كلا.. فهو شهر يحمل معه ذكرى من أهم ذكريات الأمة، إنها ذكرى ليلة القدر حيث نزل فيها القرآن، كتاب الله الكريم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بصائر ورؤى لأنفسهم في الحياة ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ﴾ تفاصيل التشريع الإسلامي ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾؛ ففي القرآن قيم ومقاييس يميز بها الحق عن الباطل. فرمضان إذن اجدر الشهور بالصيام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي من كان في هذا الشهر حاضرا في بلده أو محل إقامته فعليه أن يصوم، ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ولا يجوز له ان يصوم في حالة المرض أو السفر، ذلك لأن الله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وعلى الإنسان أن يستجيب لإرادة الله، ولا يوقع نفسه في الأعمال العسيرة ومنها الصيام في المرض أو السفر، فالله تعالى هو مصدر التشريع، وهو العالم بصالح الإنسان ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ كل يوم يفوتكم من الصيام تصومون مثله من أيام أخر ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ وتجعلوا تعظيمكم لله وانتماءكم إليه أقوى من تعظيمكم لأي شيء آخر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم من خلال الصيام.

إن ترويض النفس يساعد على تنمية الإيمان بالله، لأن شهوات الدنيا هي أكبر حاجب بين عقل الإنسان ومعرفة الله، وعن طريق الصيام يتم خرق هذا الحجاب (ولو بصورة مؤقتة)

وآنئذ يشرق نور الإيمان في القلب، ويُكبّر العبدُ رَبه، ويعرف أن كل تلك النعم العظيمة منه فيشكره.

كما أن المنع الموقت لبعض لذّات الجسد، سيعطي لها طعما جديدا يشكر المرء عليه ربه، فللصائم فرحتان: فرحة عند الإفطار، وفرحة عند لقاء الملك الجبار.

رمضان والدعاء

[١٨٦] شهر رمضان مناسبة للدعاء، وبهذه المناسبة يستطرد القرآن ليحدثنا عن ضرورة ارتباط الإنسان بخالقه عن طريق الدعاء فيقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ إذا كانت الدعوة حقيقية ومتجهة إلى الله وحده، خالصة من الشرك والرياء، فإن الله يجيبه لا ريب فيه عاجلا أم آجلا ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾ هم بدورهم، ويعملوا بأوامر الله، ليبادلهم الله جزاء الحسنة بعشر أمثالها ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ استجابة دعوة الله تبدأ من الإيمان بالله، فإذا أخلص العبد إيمانه بربه يدعوه إيمانه إلى تنفيذ واجبات الله، ومن ثم يجيب ربه دعاءه.

إن للرشد معنى عامًّا يتسع لكثير من المفردات، فالقرآن يهدي إلى معرفة الحقائق العلمية، والسنن الطبيعية إلا أن أعظم الرشد الذي يهدي إليه هو التوحيد باعتباره سنام الهدى وقمة الرشد. وترويض النفس بالخضوع لله والاستجابة والتذلل بالدعاء يطلق العقل من آصار الجهل.

من هنا كانت الدعوات المأثورة متوجة بالاستغفار لله، لأن الاستغفار يعيد الإنسان إلى حضيرة الإيمان، ومن ثم يجيب الله دعاءه.

من أحكام الصوم

[١٨٧] أحكام الصيام كثيرة ولكن أبرزها الامتناع عن الطعام والجنس خلال النهار، أما في الليل فقد كان الإسلام يحرّم مطلقا الجنس والطعام إلا خلال فترات معينة، ولكن خُفّف الحكم بعدئذ، ككثير من الأحكام المشددة في بداية الرسالة والتي خُففت بعدئذ وربما لسبب هو أن الأمم تكون في بداية تكونها أشد التزاما.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ممارسة الجنس مع الزوجات اللاتي يشكلن حصنا لكم من الوقوع في مزالق الجنس، كما تشكلون أنتم الحصن نفسه لهن. إن كثيرا

من الجرائم ترتكب بسبب الجنس، سواء بصورة مباشرة أو عن طريق تكوين الجنس للعقد النفسية التي تدعو إلى الجرائم، من هنا قال الله عن النساء: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ واللباس وقاية وستر.

وقد كانت ممارسة الجنس في ليالي الصيام حراما، ولكن الناس لم ينفذوه بالضبط فخُفف الحكم ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتظلمونها بسبب شهوة الجنس ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ إنما بهدف حكيم هو أن يرزقكم الله الأولاد، فليس الجنس هدفا بذاته، إنما هو وسيلة لهدف أسمى هو الأولاد ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من بنين وبنات، تسلمون لقضاء الله فيهم. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ حيث يتبين الصبح عن طريق وجود خيط أبيض في الأفق يدل على انبلاج الفجر. هناك يبدأ وقت الصيام ويحرم الجنس والأكل والشرب وبقية المفطرات ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ حيث تغيب الشمس وتسحب من السماء ذيول الضياء.

وكما يُحرَّم الجنس خلال نهار الصيام، كذلك عندما يعتزل المؤمن الناس ويأوي إلى المساجد متبتلا إلى الله ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. والإسلام لم يشرع العزلة التامة عن الناس، لأنها تلغي مسؤولية الإنسان في الحياة ودوره في إصلاحها، ولكنه شرع وحبَّب الاعتزال المؤقت ليكتسب المسلم العزيمة والأمل، ويعود إلى الحياة أقوى من قبل.

والاعتكاف واحد من أساليب الاعتزال المؤقت، حيث يمكث المؤمن في المسجد ثلاثة أيام ويصوم ولا يخرج من المسجد إلا للضرورات: هنالك يحرم عليه ممارسة الجنس ليلا أو نهارا ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

[١٨٨] الصيام يستهدف تزكية النفوس حتى تتقي حرمات الله، وتتجنب مظالم العباد. وليس الصيام نافعا لو لم يؤد إلى التقوى، كما أن الصلاة لا تنفع لو لم تنه عن الفحشاء والمنكر. ولذلك تحدث القرآن بعد الصيام عن حرمة المال وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ إذا اغتصبت مال أخيك، أو خدعته، أو مارست الغش معه فهو باطل. وإذا أكلت ماله بالقمار أو التجارة الضارة فهو باطل. والذين يأكلون أموال الناس بالباطل يستندون في ذلك إلى الحكام الأقوياء، ويتشاركون معهم فيها للاستعانة بهم، لذلك قال الله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

[١٨٩] وكما حرمة المال كذلك حرمة البيت، حيث لا يجوز للإنسان أن يتسلق بيوت

الناس. وبمناسبة الحديث عن شهر رمضان وارتباطه برؤية الهلال تحدث القرآن عنه في البدء، ثم حذر من الاعتقاد بإن ذلك يكفي الإنسان في التدين، وقال كلا.. إن الالتزام بالواجبات الاجتماعية أهم من الالتزام بظواهر الدين.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ يعرفون بها كيف يضبطون أوقاتهم، ذلك أن الهلال بما فيه من تغييرات يومية يمكن أن يعرفنا بأيام الشهر. وهذا الجواب إشارة لما ينفعهم منه، ويناسب وعيهم، ويصرفهم عما لا ينتفعون منه.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ كما كانت تفعل جماعة من الجاهليين، يزعمون أن في ذلك دلالة على الشجاعة والبر. وكانوا يزعمون أن المحرم للحج لا يجوز له، إذ كانوا يتوهمون أن على المحرم أن يترك ما تعوده ومنه الدخول من الأبواب، الأن يدخل المسجد الحرام من الباب، بل من ثقب كانوا يصنعونه في الجدار.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ المحرمات، وضبط في نفسه الحدود الشرعية، فأشجع الناس من غلب هواه، وهو حقيقة البر.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فينبغي أن تؤتى الأمور كلها من أبوابها، ولهذا الدين أبوابه الدالة عليه، وهي سبل الفلاح.

القتال في الإسلام أهدافه وأحكامه

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ[1] إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (١٩٠) وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ[2] وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ[3] أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩١) فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٩٢) وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٩٥) ﴾.

هدى من الآيات:

من ميزات الأمة الإسلامية أنها تؤمن بالجهاد من أجل أهداف إنسانية عالية، وفي إطار هذه الأهداف تمارس القتال. وفي هذه الآيات يتحدث القرآن عن حدود القتال (كما تحدث سابقا عن حدود القصاص والصيام) ويؤكد على التقوى باعتبارها وسيلة لمراعاة حدود الله في الجهاد.

فالقتال إنما هو في سبيل الله، وموجه ضد من يقاتل الأمة، وهناك هدف آخر للقتال هو

---

(١) تعتدوا: الاعتداء مجاوزة الحد. يقال: عدا طوره إذا جاوز حده.

(٢) ثقفتموهم: ثقفته أثقفه ثقفاً وثقافة أي وجدته، ومنه قولهم: رجل ثَقِف؛ ثَقِف أي يجد ما يطلبه، وثقف سريع التعلم، والتثقيف التقويم.

(٣) الفتنة: أصلها الاختبار. ومنها الابتلاء، ومنها العذاب، ومنها الصد عن سبيل الله.

منع الفتنة، إذ هي أخطر من القتل، وهناك حد آخر للقتال هو حرمة القتال في المسجد الحرام، ولكن حرمة المسجد والشهر قائمة ما دام العدو ملتزما بها. والقتال بحاجة إلى الإنفاق، وعلى الأمة أن تبادر بالإنفاق قبل أن تحدق بها الأخطار.

بينات من الآيات:

القتال لماذا وكيف؟

[١٩٠] إن القتال مفروض على الأمة، بشرط أن يكون بهدف تحقيق قيم الله في الأرض، والتي هي في الوقت ذاته أهداف تتطلع إلى تحقيقها كل الشعوب من إقامة الحق والحرية والعدالة والمساواة.

ولكن حتى هذا القتال يكون بعد أن تتعرض الأمة للاعتداء. ومع كل ذلك يجب أن يظل القتال محدودا في إطار إنهاء الوجود العسكري للعدو، وليس الاعتداء على الأنفس والأموال ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ وليس من الصحيح أن يفكر أبناء الأمة أن الاعتداء يجوز لهم ماداموا ينتمون إلى رسالة الله. كلا، إن الله لا يحب المعتدين أنى كانوا.

[١٩١] ولا يتحدد القتال بساحة المعركة بالذات، بل يجوز أن تقتل الأمة المفسدين أنى وجدتهم، ماداموا قد استعدوا للقتال. ومن الحكمة أن تُعطى للأمة، فرصة المبادرة بالحرب إذا وجدت ضرورة دفاعية إليها ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ حيث وجدتموهم ﴿وَأَخۡرِجُوهُم﴾ من معاقلهم، ودياركم التي أخرجوكم منها ﴿مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ إنهم هم الذين بدؤوا الحرب ضدكم وأخذوا يفسدون عليكم ويكيدونكم، فهم بذلك أباحوا قتالكم لهم. وإخراج المسلمين من ديارهم ومحاولة ردهم عن دينهم فتنة ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حيث إنهم سوف يسلبون نعمة الأمن عند المسجد الحرام، متى ما استغلوا ذلك في صالحهم.

[١٩٢] إلا أن اندفاع الأمة إلى القتال يجب ألاَّ يخرج أفرادها عن إطار انضباطهم بتعاليم الله، فالقتال متى ما اشتعل، يستعد له المسلمون ولكن إذا توقف لا يعتدي المسلمون على الناس لمجرد حب القتال، خصوصا إذا كان عند المسجد الحرام حيث جعله الله من قديم الزمان منطقة سلام ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

الهدف الحضاري للقتال

[١٩٣] والقتال في حالة اشتعاله ذو هدف حضاري هو القضاء على الفساد بكل ألوانه (التفرقة، حكم الجبابرة، الأنداد الباطلة، أسباب الظلم) وإقامة حكم الله في الأرض، لا حكم طائفة على طائفة، أو أشخاص على أشخاص حكم الله الذي يطبق على القادة كما يطبق على الناس.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ الدين بمعنى الالتزام بالسيادة، أي حتى يلتزم الناس جميعا بحكم الله في الأرض.

مرة أخرى يذكر القرآن بأن الهدف من القتال، ليس القتال ذاته، بل هو وسيلة مرحلية فقط، فهو لدرأ الفتنة التي تحول بين الناس والدعوة ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يعتدون على الناس، فيسترد النظام الإسلامي حقوق الناس منهم بالقوة.

متى تحفظ الحرمات؟

[١٩٤] ويبقى سؤال: لماذا سمح الله للمسلمين بالقتال عند المسجد الحرام، أو في الشهر الحرام، حيث كان العرب يعتبرون القتال حراما فيهما؟ أفليس الإسلام دين سلام؟

ويجيب الله على هذا السؤال بالقول: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إن حرمة الشهر الحرام كانت تعطي فترة من الهدوء للعرب، لعلهم يحلون اختلافاتهم سلميًّا، ولكن بعضهم كان يستغل هذا الهدوء، لشن حروب عدوانية ضد المسلمين، فأمر الله الأمة بالرد عليهم. إذ إن الحرمات قصاص، فما دام الفرد يحترم حقوق الآخرين، تحترم حقوقه. أما إذا اعتدى عليها، فإن الواجب استرداد الحقوق منه بالقوة وهذه الآية تفتح آفاقا واسعة في التشريع الجنائي.

وبالطبع حتى هنا لا يجوز الاعتداء عليه أكثر من اعتدائه، ويؤكد القرآن هذا الواجب وفي الوقت ذاته يحدد أهم قضية أرادها من الحديث عن القتال هنا ويقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الأمة الإسلامية والفرد المسلم يجب أن يكونوا ملتزمين بحدود الله ولا يتجاوزونها، وهذه من أهم مسؤوليات الأمة.

الإنفاق ضرورة قتالية

[١٩٥] وبمناسبة الحديث عن القتال، تحدث القرآن عن الإنفاق، باعتباره ضرورة

قتالية، ذلك أن الإعداد للقتال قد يكون أصعب من القتال ذاته لذلك شدد القرآن على الإنفاق، وربطه بمصير الأمة وقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ لان عدم الإنفاق سوف يوقع الأمة في أخطار عظيمة، ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على كل فرد ألاَّ يقتصر على حدود الواجب في الإنفاق، بل ينفق أكثر من ذلك حسب طاقته، وذلك هو الإحسان الذي يحبه الله ويحب من يصنعه.

إن امتنا اليوم بحاجة ماسة للاستعداد لخوض معاركها المصيرية على أكثر من جبهة، ولن يتم الاستعداد من دون العطاء، العطاء بكل ألوانه، بالجهد، بالجاه، بالمال، ولكن قلة الوعي المستقبلي والأنانية الذاتية وانعدام الثقة بالمجتمع ومؤسساته، كل تلك أدت إلى كف الأمة عن الإنفاق، وجعلها تخسر المعركة بعد الأخرى.

إن عودتنا إلى تعاليم الدين في الإنفاق، هي الضمانة الأكيدة لاسترداد عزنا المفقود، وحفظ ما تبقى من مصالحنا وكرامتنا.

الحج مدرسة التقوى

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ[1] فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[2] أَنْ تَبْتَغُوا[3] فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ[4] مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا

(١) أحصرتم: الإحصار المنع، يقال للرجل الذي قد منعه الخوف أو المرض عن التصرف: قد أُحصر، ويقال للرجل الذي حبس: قد أحصر، وأصل الباب الحبس.

(٢) جناح: الجناح الحرج في الدين وهو الميل عن الطريق المستقيم.

(٣) تبتغوا: الابتغاء الطلب.

(٤) أفضتم: الإفاضة مأخوذة من فيض الإناء عند امتلائه، فمعنى أفضتم دفعتم من عرفات إلى المزدلفة عن اجتماع وكثرة. ويقال: أفاض الناس في الحديث إذا اندفعوا فيه وأكثروا التصرف. فالإفاضة في اللغة لا تكون إلا عن تفوق أو كثرة.

ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

هدى من الآيات:

بعد الصيام والجهاد يأتي دور الحج، بوصفه مدرسة رسالية لتربية روح الالتزام في الأمة. والهدف من الحج التقوى. لان واجبات الحج تشبه إلى حد بعيد الصيام، في أنها تفرض اجتناب طائفة من الشهوات العاجلة بوعي واختيار مما يقوّي الإرادة، ويزيد في الإيمان. والحج يشبه الجهاد أيضا لأن فيه أخطار السفر واحتمالات الموت وصعوبات الأعمال ومن هنا جاء في الحديث عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: **«الحَجُّ جِهَادُ الضُّعَفَاءِ»**[1].

والحديث هنا عن الحج لا يتناول الجوانب الاجتماعية منه كما نجد ذلك في سورة الحج، بل يقتصر على الجوانب التربوية من الحج، لطبيعة السياق الذي يتحدث عن التقوى بوصفها ميزة أساسية في الشخصية الإيمانية.

وفي الآيات الأخيرة نجد الحديث المباشر عن التقوى وبعض مظاهر من فرض الرقابة الذاتية على الإنسان وإبعاده عن الجريمة والنفاق. وقد تكررت كلمة التقوى في هذا الدرس خمس مرات.

بينات من الآيات:

[١٩٦] قبل كل شيء، يجب أن يكون الحج أو العمرة خالصا لوجه الله، لا يدخل فيه هدف آخر، تجارة أو سياحة أو رياء. وعلى الحاج أن يمتنع عن الزينة بكل مظاهرها. حتى أنه لا يستطيع أن يحلق رأسه،وإذا منعه المرض عن متابعة رحلة الحج فعليه ألاّ يحلق رأسه إلا بعد أن يبعث بهديه (ذبيحته - أضحيته) إلى مكة. فإذا ذُبحت استطاع أن يتحلل من إحرامه ويحلق

(١) وسائل الشيعة: ج١١، ص١٠٤.

رأسه. وعندما يضطر المريض إلى حلق رأسه فعليه ان يفتدي حلقه بصيام أو صدقة أو ذبيحة.

الواجب الآخر في الحج: تقديم الهدي (الذبيحة سواء كانت شاة أو بقرة أو إبلا) ومن لم يجد واحدة منها فعليه أن يصوم عشرة أيام، ثلاثة في الحج وسبعة إذا عاد إلى بيته. وأهل مكة وما حولها لا يجب عليهم الهدي.

كل هذه الفرائض واجبة من أجل تنمية روح التقوى في القلب والخوف من الله.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

أولاً: لا يجوز ترك الحج أو العمرة بلا سبب بل يجب الاستمرار فيهما وإتمامهما، وهذا واجب أساسي في الحج.

ثانياً: يجب أن يكون الحج والعمرة خالصين لله.

والحالة التي يجوز فيها ترك الحج هي حالة الحصر (بمرض أو عدو أو ما أشبه) ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ابتداء من الشاة وانتهاء بالإبل. ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ عند بيت الله الحرام أو في منى. نعم من كان مصدودا فحيث صُد.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ يستوجب حلق رأسه، سواء كان يضره استمرار الشعر كما إذا أصيب بصداع دائم لا يبرئه سوى حلق الرأس، أو كان حرجا بالغا عليه استمرار الشعر.

﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فإذ انتهى الخوف من العدو أو من المرض، فعلى الإنسان الذي يأتي بحج التمتع -وهو الذي يفصل بين عمرته وحجه فترة استراحة يبقى فيها دون إحرام- عليه أن يقدم الهدي ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي عن طريق الإحرام لعمرة التمتع، فبعد التحلل من إحرام العمرة فإنه يستطيع أن يتمتع فترة من الزمان حتى يأتي موعد الحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أما أهل مكة الحاضرون عند المسجد ففرضهم أن يأتوا بغير حجة التمتع أي الإفراد، ولا يقدموا الهدي أو القارن؛ أي من يقرن هديه معه و(المفرد والقارن) وظيفة أهل مكة ومن حولها، وفيها يقدّم الحج على العمرة المفردة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والهدف البعيد من الحج هو: ألاَّ يتهاون المسلم في واجبات دينه، وأن يلتزم بحدوده لا يتقدم فيها قيد شعرة، لأن الله شديد العقاب.

وفي هذه الآية نجد واحدا من أهم واجبات الحج وهو الإحرام، يتحدث عنه القرآن في

ثلاثة مظاهر: وهي مظهر النية، ومظهر عدم حلق الرأس، وينتهي بالذبح، والإحرام هو أبرز أعمال الحج لذلك بدأ به القرآن الحكيم.

الإحرام

[١٩٧] وفي هذه الآية نجد بعض مظاهر الإحرام وهي: حرمة الرفث (مباشرة النساء) بكل ألوانه، وحرمة الفسوق (الحلف كاذبا بالله)، وحرمة الجدال.

وخلال فترة الحج يجب أن يتقيد الإنسان بهذه الأمور، والهدف منها: تنمية روح التقوى في النفوس ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ لا يمكن أن يبدأ الإنسان حجه قبل شوال، ولا أن يؤخره عن موسم الحج في ذي الحجة، كما كانت عادة الجاهلية (النسيء). وربما يوحي هذا بأن محرمات الإحرام لا تستمر بعد أيام ذي الحجة. ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فرض على نفسه الحج في هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

لماذا الجدال والفسوق؟

هل لكي يتظاهر الإنسان بأنه أهم من غيره، ويزكّي نفسه دون الآخرين؟.

مادام الله يعلم بما يفعله العباد أن كانوا صادقين في عملهم، فإن الكذب والادعاء لا يغني أحدا شيئا ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾.

أفلا يتزود الإنسان لسفره؟.

فلماذا لا يتزود لسفر الآخرة وهو أطول وأوحش من أسفار الدنيا، ولكن كيف نتزود؟

أفضل ما نتزود به: التقوى والالتزام بما أوجبه الله علينا، إنه الزاد الوحيد الذي ينفعنا في ذلك الطريق الطويل. ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أنتم يا من تملكون حقيقة الإنسانية وهي العقل اتقوا الله، لأنكم تعرفون الله وتعرفون أن من يتقيه ينجو من نار جهنم، وينجو من عذاب الدنيا.

إن التزود بالتقوى لا يختص بالآخرة بل يشمل أسفار الدنيا، إن رحلتنا الشاقة في الدنيا بحاجة إلى زاد، بحاجة إلى إرادة وعقل ومثابرة، والتقوى هي التي تعطينا هذه الصفات المثلى والضرورية للحياة في الدنيا.

إن الذين لا يتسلحون بالتقوى فإن أية مشكلة في الحياة يمكنها أن تصرعهم وتحوّل حياتهم إلى جحيم.

ماذا بعد عمرة التمتع؟

[١٩٨] بعد فترة العمرة يتحلل الحاج من إحرامه، ويبتغي من فضل الله، ويتمتع بلذات الدنيا، ويفكر في التجارة، ويتزود بالعلم والأدب، وبعدئذ يحرم مرة أخرى للحج ويقف في عرفات، ويفيض منه إلى المشعر، ثم إلى منى، وبعدئذ يذهب للطواف ويقضي سائر مناسكه.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في الفترة بين الحج والعمرة في حالة التمتع بأن يبتغي المرأ فضل ربه بالاتجار وغيره، فقد قيل: إن العرب كانوا يتأثمون في الاتجار، فهذه الآية ترفع الحرج في ابتغاء فضل الله.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ ﴾ حيث يقف فيها كل الحجاج، ويبدو أن الإفاضة من عرفات من أبرز واجبات الحج، لأنها مسيرة إيمانية تذكرنا بطبيعة الدين، إنها حركة موجهة لهدف مقدس، وسنجد في الآية التالية تركيزا على الإفاضة.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو موقف يقع داخل حدود حرم المسجد الحرام، وملتصق بمنى جغرافيًا، ويبعد عن عرفات بضع كيلومترات.

وكان المشعر الحرام في الجاهلية موقعا للمباراة الفكرية بين القبائل التي كانت تهتم بعنصريتها وعصبيتها أكثر من اهتمامها بالشعائر الدينية، فكانت كل قبيلة تحيي ليلة المشعر بالإشادة بأمجادها الغابرة وتعرّض بالقبائل الأخرى، فأمرهم الله بأن يتمحوروا حول الإيمان بالله، وينسوا خلافاتهم العصبية والعنصرية ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إن مقارنة حالة التخلف القديم للأمة والفساد الجاهلي بحالة تقدمها الحالي في ظل الرسالة الجديدة، تكرّس فيها إيمانها برسالتها، وتدفعها إلى المحافظة عليها بكل قوة.

والقرآن يأمرنا أن نتذكر رسالة الله التي اهتدينا بها لكي لا نتوانى عن تطبيق قيمها، ولكي نتصور واقعيًا نعمة الوحدة والأمن والطمأنينة والنشاط، وبالتالي سائر النعم التي جاءت نتيجة هذه الرسالة، والتي لا يمكن أن تستمر لو أنّا لم نتمسك بها تمسكا شديدا، بل هي بحاجة إلى المحافظة عليها، والتذكرة بأنها ستزول لو لم نسع من أجل المحافظة عليها.

الإفاضة مسيرة الإيمان

[١٩٩] بعد عرفات تبدأ المسيرة الإيمانية التي تسميها الآية بـ (الإفاضة) تشبيها لها

باندفاع السيل، آنئذ حيث تميل الشمس إلى المغرب، تستعد جموع الحجاج للتحرك إلى المشعر، ليرمزوا بذلك للسعي المشترك في سبيل الله، وعلى الدرب الذي حددته رسالة الله، دون أي تمييز بين الطبقات المختلفة.

وقد كانت الجاهلية تعطي لبعض القبائل شرف تقدم الناس في الإفاضة، فكانت تقف أمام الجماهير وتتحرك من نقطة أقرب إلى المشعر من سائر الناس، أو تفيض من المشعر ذاته. وجاءت الآية صريحة بإلغاء هذا الامتياز والبدء بالمسيرة مع الناس وقالت: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ من النقطة ذاتها التي يفيض منها الناس.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ليشعر كل إنسان بأنه مذنب أمام ربه، وأنه لا يجوز له أن يزكّي نفسه ويجعلها أشرف من الآخرين، فكلنا عباد الله وقد يكون الوضيع منا شريفا عند الله بل وأشرف من الذي يزعم نفسه شريفا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كيف نربح الدنيا والآخرة؟

[٢٠٠] بعد المشعر يفيض الحاج إلى منى حيث يؤدي مناسكه من: تقديم الهدي، ورمي الجمار، والتقصير، وآنئذ يجتمع الحجاج في منى ليبنوا حياتهم وفق تطلعاتهم، فينقسم الناس إلى نوعين: فمنهم من يذكر الله وينتمي إليه قبل أن ينتمي إلى أهداف أو أرض أو قوم، ويريد أن يبني حياته وفق نهج الله، ومنهم من يستعجل في الحصول على مكاسب الدنيا، دون أن يفكر في الآخرة فيخسرهما جميعا.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ في منى، رميا للجمرات، وهديا لله، وحلقا أو تقصيرا، وبالتالي بالتحلل من أكثر مظاهر الإحرام.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ حتى يصبح انتماؤكم الأول إلى الله، فيوحدكم الإيمان به، وتصبح أرض منى منطلقا للتعارف والتعاون والأمل، ولكن يبقى هذا الهدف مرتبطا بمنطلقات معينة.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ لا يملك أي رصيد في الآخرة. لأنه يريد كل جهوده أن تثمر في الدنيا، هؤلاء ليس لهم في الآخرة نصيب في الدنيا.

[٢٠١-٢٠٢] ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هؤلاء سوف يحصلون على مكاسبهم في الدنيا وفي الآخرة لأن منطلقهم سليم. وبالطبع لا ينفع هؤلاء مجرد سلامة منطلقهم، إذ إنهم لن يحصلون إلا على نصيب مما كسبوا لا بما قالوا. إن الدنيا والآخرة هدفان لا يتحققان ألاّ بسعيٍ وكلٌّ على قدره.

ان الذين يحددون نظرهم في الدنيا يصابون بقصر النظر، والذاتية. إذ ما دام العمل للدنيا، ولا يعرف المرء هل هو في غده من الأحياء أم الأموات، فمنطقه دعنا نتعجّل نصيبنا اليوم. وبذلك يستنفذون طاقاتهم في زمنهم العاجل، دون التحسب ورعاية المستقبل.

وما دام الفرد يعمل للدنيا وحياته القصيرة، ويعمل لذاته ولقرابته القريبة، فإن ذلك يقوّض الحضارة، إذ الحضارة تقوم على العمل الخلاّق من أجل النفع العام. فما عاشت أمة انتشرت فيها الذاتية وقصر النظر. بينما من يعمل من أجل الآخرة، يكون أمامه أفق بعيد يتطلع لتحقيقه، فيتجاوز ذاتياته، إذ إنه يفكر في رحمة الله الواسعة، فهو يذر المكاسب العاجلة الذاتية، ويعمل لمنفعة عامة المجتمع، لأن ذلك طريقه إلى الله. وهكذا يكون العمل للآخرة طريقا إلى بناء حضارة الأمة.

[٢٠٣] بعد قضاء مناسك منى يتوجه الحاج إلى بيت الله الحرام ليذكر الله، ولكي يرتبط بهدى الله ويوثّق علاقته بالانتماء التوحيدي له، ويعمل للدنيا والآخرة معا.

﴿ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ ثلاثة أيام من الحادي عشر حتى الثالث عشر. ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الهدف البعيد لكل هذه المناسك هو التقوى. ومنطلقه هو التفكير المستمر في أن الإنسان مهما طال عمره فسوف يُحشر إلى الله ويُسأل عما فعله، فعليه أن يجعل من نفسه عليها رقيبا ووازعا عن السوء، ودافعا إلى الخير، ولا ينتظر محاسبا اجتماعيًّا أو واعظا دينيًّا.

التقوى: رضا الله، السلم، العدالة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ (١) قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ (٢) ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ (٣) إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ (٤) مِّنَ ٱلْغَمَامِ (٥) وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ (٦) لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ

(١) يعجبك: الإعجاب هو سرور المعجب بما يستحسن، ومنه العجب بالنفس وهو سرور المعجب من الشيء استحساناً له وذلك إذا تعجب من شدة حسنه، والعجب كل شيء غير مألوف.

(٢) ألد: الألد الشديد الخصومة، تقول: لدّ يلدّ لدوداً ولدّه يلدّه إذا غلبه في الخصومة.

(٣) ينظرون: النظر هنا الانتظار. وأصل النظر الطلب لإدراك الشيء، وإذا استعمل بمعنى الانتظار فلأن المنتظر يطلب إدراك ما يتوقع، وإذا كان بمعنى الفكر بالقلب فلأن المتفكر يطلب به المعرفة، وإذا كان بالعين فلأن الناظر يطلب الرؤية.

(٤) ظلل: جمع ظُلّة وهي ما يستظل به من الشمس وسُمّي السحاب ظلة لأنه يُستظل به.

(٥) الغمام: السحاب الأبيض الرقيق سمي بذلك لأنه يغم أي يستر.

(٦) زُيّن: الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله في الدنيا ولا في الآخرة فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شي.

مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يبين لنا القرآن أهمية التقوى في مقاومة النفاق، ويبين بعدا هامًّا من أبعاد التقوى الاجتماعية، وهي (الوحدة)، وتنازل الطرف المخالف للحق عن نزاعه في مصلحة صاحب الحق.

يبدأ الحديث: بدعوة إلى السلم داخل المجموعة الإسلامية بوصفه هدفاً سامياً يجب على أبناء الأمة تحقيقه والمحافظة عليه، وتجعل الآية الناس كلهم مسؤولين عن الوحدة.

ومن ثم يحذرهم القرآن من الاختلاف بعد البيِّنة، ويضرب لهم من قصة بني إسرائيل مثلا لكيفية الاختلاف بعد البينات الكثيرة، بعد أن يقول: إن عليهم أن يكتفوا بهذه النصوص في رفع الخلافات بينهم، ولا ينتظروا أن يأتيهم الله في مظاهر عظمته حتى يحكم بينهم في خلافاتهم.

بعدئذ يبين السبب الجذري لكل الخلافات وهو حب الدنيا، الذي يدفع الإنسان إلى البغي على الآخرين. وفي آخر الآيات يحذر القرآن من الغطاء الفكري الذي يُلبسه الإنسانُ حب الدنيا، وبذلك يبرره بقيمة مزيفة. كما فعل الكفار عندما جاءتهم البينات.

وبهذه الآية يمهد القرآن للحديث عن الموضوع التالي وهو: أن الخلاف المشروع الوحيد هو الخلاف المبدئي بين أهل الدنيا المتمثل في الكفار وأهل الحق.

إن التقوى هي الضمانة الأكيدة لمقاومة حالة النفاق؛ حيث يعيش الإنسان في داخله شخصا وفي الخارج يتظاهر شخصا آخر، فيعمل بالحسنات لأجل الرياء فقط، كل ذلك لأنه لا يتمتع بروح التقوى الداخلية.

بينات من الآيات:

[٢٠٤] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ ويصوره صادقا لنا، ويدعم كلامه أبدا باليمين. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ في الجدل، لدود.

[٢٠٥] ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ هذه هي صفات المنافق الرئيسة الظاهرة، وهي أربع صفات:

الأولى: أنه معسول الكلام فيما يخص الحياة الدنيا وزخرفها. وهذه الصفة نابعة من شعور المنافق بالنقص فيما يرتبط بالدنيا والشغف بها، فهو يهتم بها اهتمام الجائع المنهوم بالرغيف.

الثانية: أنه يكذب وهو يعلم أنه يكذب، ولكي يبرز كذبه بمظهر الصدق، يحلف بالله كثيرا، وهذه الصفة ناشئة عن تصوره الدائم بأن الناس لا يصدقونه في أقواله.

الثالثة: أنه ينفجر غيظا إذا عُورض في كلام له، ويحاول أن يثبت كلامه بالرغم من الاعتراض، وذلك عن طريق مواصلة الجدل لأنه قد أجاد صناعة الكلام ولا غيرها.

الرابعة: إن عمله هو الفساد لا الصلاح، فهو لا يحب أحدا، ولا يحب أن يمتلك أحد شيئا، ولذلك فأمنيته الكامنة هي ألاَّ يعيش أحد ولا يبقى شيء سليما، تراه يفسد بين الناس بالغيبة، والنميمة، والتهمة ويبخس الناس أشياءهم بتحطيم شخصياتهم والنيل منهم، وعدم المبالاة بحقوق وحرماتهم الآخرين.

وإذا أوتي القوة استخدمها في إبادة الحياة، والزراعة، وإفساد ما ينفع عامة الناس.

[٢٠٦] هذه صفات المنافق الظاهرية، أما صفته الواقعية فهي عدم التقوى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾. إنه يصور نفسه فوق الحق وفوق قيم الله في الأرض، فلا يرى ضرورة للخضوع للحق، بل تأخذه العزة والأنفة، فإذا به يعتز بالأعمال السيئة التي يعملها، ويصورها حسنة لمجرد أنها صدرت منه، فهو يعتز بالإثم بدل أن يعتز بالحق.

إن هذه هي صفة المنافق الجذرية وهي: التمحور حول الذات وجعلها مقياسا للحق، وهي صفات مقابلة تماما للتقوى، وهي جعل الحق مقياسا للحقيقة أبدا، وعلى الإنسان أن يتمحور حوله لا حول نفسه.

أيُّ عذاب أليم يجب أن يكون جزاء هذا المعاند الأثيم؟

لا شيء غير النار. ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

[٢٠٧] عكس المنافق تماماً، المتقي الذي لا يكتفي بعدم التمحور حول ذاته، بل يبيع نفسه لله أيضا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، وحين يشري نفسه يجعلها تدور مدار الحق وتتبعه أنّى اتجه، سواء كان عند خاصته وقرابته وجماعته ومن يعلوه كرئيسه، أو كان عند خصمه البعيد عنه أو مرؤوسه. إنه يعرف الحق ولا يعرف أية قيمة أخرى ذاتية كانت أو طاغوتية اجتماعية.

إنه لا يفكر بعد أن باع نفسه لله أن يثبت لأحد أنه فعل ذلك، أو أنه مخلص، أو يُشهد الله على ما في قلبه، كلا إنه يعرف أن الله بصير به فيبقى مخلصا لربه العليم بحاله، ويكفيه ذلك من الناس، فتراه خاشعا لله مسلما له راضيا بأقداره، نشيطا في ابتغاء مرضاته، متصلبا في ذات الله، ثائرا ضد أعداء الله، لا ترهبه قوى العدو، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

هذه هي شخصية المتقي فهل نجدها في أنفسنا؟

الوحدة ضرورة جهادية

[٢٠٨] المجتمع الإسلامي مجتمع حرب دفاعية ضد أعداء الإنسانية وأعداء الرسالة، ولا يمكن لهذا المجتمع أن يواجه تحديات الحرب من دون وجود وحدة داخلية متينة، لذلك يدعو القرآن في الآية وقبل الحديث عن الحرب في الدرس القادم إلى الوحدة، ويجعلها مسؤولية كل الأفراد ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ إن رحاب السلام يتلوث بالحساسيات الصغيرة التي تتراكم على بعضها حتى تصبح سحابة داكنة، وعلى أي فرد مسلم داخل المجتمع أن يقاوم نمو هذه الحساسيات، ولا يتبع خطوات الشيطان منذ البداية، لأن الشيطان يستدرج الإنسان خطوة خطوة إلى الجحيم.

فعلينا أن نحدد عدونا الحقيقي وعدو الجميع (الشيطان) ونحذر من أول خطوة يدعونا إليها، وهي الحساسية ضد أحد من إخواننا، واعتباره عدوا لنا من دون الشيطان.

[٢٠٩] ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم يحذر ربنا المسلمين من السقوط في درك الخلافات الجاهلية النابعة من الشهوات، وينذرنا بأنه عزيز فلا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب، وأنه حكيم يجازي الناس حسب أفعالهم لا حسب أهوائهم وأمنياتهم وادعاءاتهم.

مسؤولية الحفاظ على الوحدة

[٢١٠] وهذا يعني أننا نحن المسؤولون عن المحافظة على وحدتنا بالاعتماد على هدى الله وبيناته، وليس من الصحيح أن ننتظر الله أن يأتي ويفضّ خلافاتنا إذ الحياة امتحان التقوى، والإنسان حر عاقل، ولله الحجة البالغة، حيث أن هداية الله للعباد متواترة، أو ننتظر مثلا الإمام الحجة (عج) حتى يصلح ما بيننا بطريقة غيبية. إنها آنئذ حين يأتي أمر الله (لا كما ادعت اليهود) ويتغير الكون ويُقضى الأمر بقيام الساعة. وهنالك لا مسؤولية على أحد، حيث ينتهي التكليف، ولا تؤخر العقوبة عن أحد. فالآية تتساءل استنكارا وتتهكم بأهل الكتاب، وتذكرنا بالمسؤولية.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كناية عن مجيء أمر الله (سبحانه) مع كل ملكوته. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي آنئذ انتهت حياة المسؤولية، وآنئذ تتبدل الحياة، فلو أراد الله بالجبر أن يصلح بين العباد بالخير، فالحياة تكون غير هذه الحياة. أما هنا الدنيا فنحن بأنفسنا مسئولون عن تصفية خلافاتنا وإصلاح أمورنا، ثم بعدئذ نَمْثُل أمام الله للمحاكمة في الآخرة. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

[٢١١] والأمم السابقة لم تنزل عليهم ملائكة الله، بل نزلت عليهم البينات، وكان عليهم أن يستفيدوا منها في تحقيق مسؤولياتهم، ومع ذلك فإن بعضهم لم يستفد منها. بل بدل فيها وحرّف، وما ظلموا إلا أنفسهم.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ لكن بعضهم بدل هذه الآيات. ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقد يكون العقاب في صورة شياع الفوضى بينهم، وضرب بعضهم ببعض نتيجة إهمالهم لرسالة الله، وتورطهم في الخلافات الداخلية.

لماذا الاختلاف؟!

[٢١٢] ولكن يبقى السؤال الهام: لماذا أساسا يختلف الناس؟ وما هو جذر المشكلة؟

الجواب: أنهم يختلفون لأن الدنيا زُيِّنت لقلوبهم، فمقاييسهم دنيوية ويقوّمون الأشياء والآخرين وفقها. ولكن المؤمن لا يتمحور حول الدنيا بل الآخرة، ولذلك فهو يتقي الدنيا وشهواتها وفواحشها، وهنا يظهر جليًّا مدى أهمية التقوى في إنشاء حياة كريمة، لأنها تسحب

فتيل الخلافات الاجتماعية المتمثلة في حب الدنيا.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لأنهم لا يأبهون بالدنيا كثيرا، أو لأنهم فقراء ماديًا أو ليسو من ذوي الحظوة الاجتماعية. في حين أن الحقيقة ان المؤمنين هم الفائزون.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾ والدنيا الفاضلة لا يحصل عليها كل من أرادها، بل هناك سبل يجب السير فيها حتى نصل إلى الدنيا الكريمة ذات النعم المتكاملة، وهي موجودة في آيات الله وفي طليعتها قانون الوحدة (الدخول في السلم كافة) إنه باب يؤدي إلى رزق الله.

ورزق الله في الدنيا متاح بالسعي الحكيم، وليس مربوطا بالإيمان والكفر ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

[٢١٣] وكمثل على ذلك لنقرأ قصة الرسالة الأولى. فالبشر كانوا جميعا على الضلالة بعد أن كانوا جماعة بسيطة ويحيون على الفطرة، ثم تنوع الاجتماع البشري واتسع وتضادت المصالح وتعددت المشارب وانحرفت البشرية، فجاءت رسالة الله، ومن أهدافها الرئيسية توحيد الناس على الحق، ورفع اختلافهم فيه، ولكن اختلف بعض ممن أوتي الرسالة. والسؤال هل لأنهم لم يملكوا ما يرفع اختلافاتهم؟

كلا، بل لأن طائفة منهم تظلم وتبغي على طوائف أخرى، وجاءت الرسالة ضد البغي، فعارضت مصالحهم المؤقتة فقاوموها أشد المقاومة، إذ إن جذر الخلافات هو البغي، وإذا تخلص الناس منه استراحوا.

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ وكانت هذه وسيلتهم لتوجيه الناس، لا المال ولا القوة، بل التبشير بحياة أفضل والإنذار من العذاب (الترغيب والترهيب). ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ كان يريد بعضهم ظلم البعض الآخر فكانوا يختلفون في الأمر، وهنا استفاد المؤمنون بالرسالة في حين خسر الكافرون، والمؤمنون إنما اهتدوا لأنهم رضوا أن يكون الحق مقياسا بينهم ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أما المؤمنون فقد اتخذوا من هدى الله ورسالته أداة لتوحيد صفوفهم، وحل خلافاتهم، في حين أن الكفار لم يفعلوا مثل ذلك، لأنهم كانوا يريدون البغي وليس الحق.

الفتنة أكبر من القتل

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟(١) حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ(٢) لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ(٣) عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ(٤) يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ(٥) أَعْمَٰلُهُمْ

---

(١) زلزلوا: الزلزلة شدة الحركة، والزلزال البلية المزعجة لشدة الحركة، والجمع زلازل، وأصله من قوله: زلّ الشيء عن مكانه، ضوعف لفظه لمضاعفة معناه نحو صَرَّ وصرصر، فإذا قلت: زلزلته فتأويله حركته عن مكانه.

(٢) كره: الكَره بالفتح المشقة التي تحمل على النفس، والكُره بالضم المشقة على النفس حُمِل أو لم يُحمل. وقيل: الكَره الكراهة والكُره المشقة وقد يكره الإنسان ما لا يشق عليه، وقد يشق عليه ما لا يكرهه.

(٣) صد: الصد والمنع والصرف نظائر، يقال: صد عن الشيء يصد صدوداً إذا أعرض وعدل عنه، وصدّ غيره صداً إذا عدل به عنه ومنعه. وأصل الباب العدول.

(٤) لا يزالون: يدومون، وما زال أي دام.

(٥) حبطت: حبط عمل الرجل حبطاً وحبوطاً وأحبطه الله، والحبط فساد ما يلحق الماشية في بطنها لأكل الحباط وهو ضرب من الكلأ، يقال: حبطت الإبل إذا أصابها ذلك، ثم سمي الهلاك حبطاً.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا (١) وَجَاهَدُوا (٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من أن هذه الآيات تبين لنا جوانب من فريضة القتال، إلا إنها ليست مرتبطة بآيات (الجهاد الإسلامي) بل هي متصلة ببناء شخصية الأمة، التي تتميز بالتقوى وبالتمحور حول الحق، في رد الخلافات إلى الإسلام، وأيضا بالاستقامة والتصلب في التمسك بالرسالة، وعدم التهاون فيها رغم الصعوبات التي تعترض طريقها.

ففي الآية الأولى نجد كيف أن الله يبشر الأمة بالأيام الصعبة التي تستقبلها، وينذرها بأنها إذا لم تستقم فيها على الحق فإن الجنة حرام عليها. ثم يتحدث عن الإنفاق باعتباره فريضة مقارنة لأيام الشدة. وبعدئذ يبين لنا أن القتال كره لكم ولكن لابد لكم منه، وأن هدف العدو من القتال هو استلاب دينكم وإعادتكم إلى أغلال الكفر وعليكم أن تصمدوا ضده. ويبشر أخيرا الصامدين في وجه الضغوط بكل خير.

وربما تكون الآية الأولى من الدرس القادم متصلة بالحديث عن الاستقامة والتصلب، إذ إنها تحرم الخمر والميسر وهما أداتا تمييع للأمة، وتسببان إبعادها عن الجدية الرسالية.

بينات من الآيات:

[٢١٤] حُفَّت الجنة بالمكاره، ومن أراد أن يدخلها فعليه أن يقتحم هذا السور الشائك. ولكن هل يعني ذلك أن أهل الجنة في شقاء دائم؟

كلا. بل يعني أنهم يتمتعون بالقوة والصلابة التي تجعلهم مستعدين لكل الظروف. وهي تعطيهم مناعة من الاستسلام للضغوط، وتحدي محاولات الاستعباد.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ عبثا وبلا ثمن ودون أن تكونوا من أهل الجنة الذين امتحنوا بالفتن الصعبة ونجحوا فيها.

(١) هاجروا: الهجر ضد الوصل، يقال: هجره يهجره هجراناً وهجراً وهجرة إذا قطع مواصلته. وهجر المريض يهجر هجراً إذا قال ما يهجر من الكلام. وسموا المهاجرين لهجرتهم قومهم وأراضيهم.

(٢) جاهدوا: جاهدت العدو مجاهدة وجهاداً إذا حملت نفسك على المشقة في قتاله.

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي دون أن يواجهكم ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ البأساء هي الصعوبات التي منشؤها العدو، والضراء الصعوبات المادية كالفقر والمرض [1].

﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ لهول الصعوبات والخسارة، كانوا يستعجلون نصر الله، وعندما تصل الصعوبة إلى ذروتها يجب أن نأمل الفرج.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وهذه الآية تعني أن الذين يحلمون بالجنة مجانا وبلا ثمن إنما يحلمون باطلا وسيجدون أنفسهم في النار.

الجنة ليست مربض الأغنام، إنها مقام الرجال ومكتسب الأبطال. وعهود التخلف والابتعاد عن صلابة الرسالة وخشونتها هي المسؤولة عن هذه النظرة اللامسؤولة إلى الجنة، ولهؤلاء يقول الإمام علي عليه السلام: «هَيْهَاتَ لَا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» [2].

الإنفاق سبيل التضحية

[٢١٥] كما في الحرب ،هناك في السلم فتنة وبلاء يتمثل في ضرورة الإنفاق والإنفاق هو الإعداد النفسي الخارجي للحرب، وهنا يشير القرآن إلى الجانب النفسي من الإنفاق إذ يجب أن يكون خالصا لله، حتى يربي صاحبه على العطاء والتضحية، ذلك أن التضحية، كأية صفة نفسية أخرى، تحتاج إلى التدريب، فهي تنمو شيئا فشيئا ابتداء من التضحية بالمال القليل، ثم المال الكثير، ثم القتال والصمود وهكذا، لذا يحدِّد القرآن هنا جهة الإنفاق، لعلاقته الوثيقة بالتضحية بالنفس، وقلما تحدث القرآن عن التضحية بالنفس دون أن يقرنها بالتضحية بالمال.

والسؤال عن مادة الإنفاق، أَجْمَلَ الجواب فيه بعنوان جامع بمطلق الخير، وفصّل عن جهة الانفاق لأنه السؤال الحكيم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ فكل خير يمكن إنفاقه، ولكن علينا أولا أن نحدد وجهته وهي: ابتغاء مرضاة الله بعيدا عن الأهداف المادية أو الرياء، والله عليم، وهذا مدعاة للإخلاص والاستزادة في الخير. وثانيا جهة الانفاق ومن يُنفق عليه، إذ إن من صلاح العمل أن يكون مناسبا ونافعا فيكون مرضيا من الرب. وقدم الوالدين ثم

(١) راجع مجمع البيان، ج ١، ص ٣٩٩ .

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٢٩ .

تدرجت الآيات بحسب الأهمية والأحقية بإحسان المرء ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

[٢١٦] الأمة المسلمة تتميز بالاستقامة على الحق، والتضحية رغم صعوبتها، وها هو القتال مفروض عليها، بالرغم من أنه مكروه من الإنسان.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الحق هو محور الإنسان الرسالي والأمة المؤمنة لا الحب والكره المجردين، ذلك لأن الحق ينفع الإنسان والباطل يضره، بالرغم من أن النفس تميل إلى الباطل وتزعم أنه أصلح لها، وذلك أنها تستعجل الخير المادي ولا تنظر للعواقب، ومن هنا ندرك أن تقييم الأمور يبدأ بتجنب العواطف لمصلحة العواقب المستقبلية وباعتماد ميزان العلم. والله هو الذي يحدد الحق، أما الناس فهم لا يعلمونه دائما، لأنهم محجوبون عنه بالشهوات التي تزيّن لهم الباطل وتصوره حقًّا لهم. وبما أن الرب تعالى عليم بما يصلح الإنسان وبعواقب الأشياء ورحيم به ينبغي على الإنسان التسليم لوصاياه فذلك لمصلحته.

الفتنة اشد من القتل

[٢١٧] هل يجوز القتال في الأشهر الحرم أم لا؟

كلا، ولكن ليس هذا هو السؤال الأساسي عند القرآن، إن السؤال هو: ما هو الهدف من القتال لأنه المقياس في الدين؟

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

ما هي الفتنة هنا؟

هي صرف المؤمنين عن دين الله، هي إضلال الناس عن الحق، وذلك بامتلاكهم السلطة، حيث يتأتى لهم فتنة الناس. ومصاديق الفتنة هذه مثل مصادرة حرية الإنسان ومصادرة حقوقه وإكراهه على الكفر بالإيذاء ونفي المؤمنين عن ديارهم.

هذه هي الفتنة في هذه الآية، والقتل والقتال يستهدف تطهير الأرض من عناصر الفتنة، وبالرغم من أن القتل عملية شاذة أساسا، لكن الإسلام يلجأ إليه لدفع ما هو أكبر ضررا منه وهو الفتنة.

من هنا فالقتال من أجل الحرية والحقوق قتال مشروع، لأنه قتال من أجل المبادئ الرسالية التي تريد تصفية عناصر الفساد، أولئك الذين لا يمكن مهادنتهم لأنهم لا يقفون عند حد معين في فسادهم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فهم يحاربون المبادئ الرسالية ويحاربون المعتقدين بها، وعلينا أن نقاتلهم دفاعا عن مبادئنا، وإلاّ نخضع لأهوائهم التي تشتهي أن تسرق منا قيمنا.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فالارتداد يسلب الإنسان ثمرة الإسلام في الدنيا والآخرة؛ لأن قيمة الإنسان إنما هي برسالته التي يلتزم بها ويدافع عنها حتى الموت.

فإذا تنازل الإنسان عن رسالته فقد تنازل عن قيمته رأسا، إنه إذا يُذل إذلالا، ويُحرم من حقوقه، ويعود مرة أخرى تحت نير الطغاة وخسفهم، وما سلف من أعماله لن ينفعه فقد نقض غزله وهدم بنيانه فهو هباء وكأنه لم يكن، فها هو في ربقة الكفر والظالمين. أما في الآخرة فإن الله يسوقه إلى النار، وحتى عباداته (كالصلاة، الصيام) سوف تحبط هي الأخرى ويبطل ثوابها. لأنه لم يحافظ على حريته، ولأنه أطاع الطاغوت في أهم أجزاء حياته، وجعل طاعة الله محدودة ببعض الجزئيات. إنه سوف يقضي حياته في النار.

[٢١٨] هذا عن أولئك الذين يستسلمون لضغوط الطاغوت، ويتنازلون عن دينهم وحريتهم وجهودهم للعدو، أما الذين يهاجرون في البدء ليشكلوا قوة فلا إحباط (إبطال العمل) فيما لو أخطؤوا جهلا في بعض الموارد، بل غفران الذنوب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إن هؤلاء يحدوهم الأمل بالانتصار على العدو في الدنيا، والجنة في الآخرة، وهذا الأمل سوف يتحقق بفضل الله لهم.

التقوى الاجتماعية

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ (١) وَٱلْمَيْسِرِ (٢) قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ (٣) ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ (٤) مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ (٥) قُلْ

---

(١) الخمر: أصله الستر، والخمر ما واراك من الشجر وغيره ومنه الخمار للمقنعة، ويقال: خامره الداء إذا خالطه، وخمرت الإناء أي غطيته. وأصل الباب الستر. ومنه الشراب المعروف، وسمي خمراً لأنه يغطي العقل ويستره.

(٢) الميسر: القمار اشتق من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه من قولك: يَسر لي هذا الشيء ييسر يسراً وتيسراً إذا وجب لك، والياسر الواجب لك بقداح وجب لك. وقيل للمقامر ياسر ويسر أي قامر. وقيل: أخذ من التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته.

(٣) تنكحوا: النكاح اسم يقع على العقد والوطء. وقيل: أصله الوطء ثم كثر استعماله حتى قيل للعقد نكاح، ويقال: نكح ينكح إذا تزوج.

(٤) أمة: الأمة المملوكة، يقال: أمة بينة.

(٥) المحيض: حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً ومحاضاً. وهو الدم الذي يصيب المرأة في أوقات معلومة.

هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا(١) النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ(٢) فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

هدى من الآيات:

من ميزات الشخصية الإسلامية في الفرد أو في الأمة، التقوى وإخضاع الشهوات للرسالة والتمحور حول الحق، وقد حدثنا القرآن الحكيم في الآيات السابقة عن التقوى في عدة مظاهر وآخرها حول الدفاع عن المبادئ بالقتال، والآن يحدثنا عن مظاهر أخرى للتقوى، وهي في الوقت الذي تحدد المحرمات في الإسلام تضرب أمثلة واقعية للتقوى.

يبدأ القرآن الحديث عن الخمر والميسر، باعتبارهما محرمان يشيعان عادة في الأمم المترهلة اللامبالية بواقعها، وعلى المسلمين أن يكونوا أمة جدية مسؤولة، تحارب من أجل مصالح الحق كل طواغيت الأرض، فكان من الطبيعي أن يأتي ذكر الخمر والميسر مباشرة بعد آيات القتال.

وبعدئذ يوجهنا إلى التقوى في المال وحقوق الناس، والتقوى في ممارسة الجنس بوصفه واحد من أهم حقوق المجتمع، وبمناسبة ذكر حقوق الناس يذكرنا بدور اليمين في تأدية هذه الحقوق والدفاع عنها، لا في هضمها والاحتيال على المجتمع بالأيمان الباطلة.

بينات من الآيات:

[٢١٩] الخمر وكل مسكر، والميسر وكل مقامرة، يلهيان الإنسان عن واقعه، ويدفعان بالمجتمع إلى زاوية الصراع بين أفراده والتشرذم. وإذا أردنا بناء أمة قوية متماسكة وجب أن نسد كل أبواب الاختلاف والترهل، وكل النوافذ التي قد تهب منها رياح الانقسام.

---

(١) فاعتزلوا: الاعتزال التنحي عن الشيء، وكل شيء نحيته عن موضع فقد عزلته عنه ومنه عزل الوالي، وأنت عن هذا بمعزل أي تنح.

(٢) يطهرن: الطهر خلاف الدنس، والطهور يكون اسماً ويكون صفة.

و ليس من الصحيح أن يفكر المرء بأنه يشرب قليلا من الخمر أو يلعب قليلا من القمار. فما يضر ذلك؟ كلا.

أولاً: لأن الخمر تسبب الإدمان وتسحبك إلى الازدياد منها وكذلك القمار.

ثانياً: لأن الإسلام حين يمنع الزنا يمنع التبرج، لأنه باب يؤدي إلى الزنا شئنا أم أبينا. وكذلك حين يمنع الخمر والميسر يمنع حتى الجلوس في محافلهما، حتى يسد كل الأبواب مرة واحدة.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ متمثلة في ملء الفراغ، وقضاء الوقت، والانتعاش الموقت وبعض المرابح المادية.

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ حيث إنهما يسببان توزع المجتمع وانقسامه وإلهائه عن واجباته الرسالية.

وهذه المقارنة بين المنفعة والإثم تلطفٌ في تحريمهما المتدرج، وتبيانٌ لحكمة التشريع، للتفكر والتبصر بما ينفع الإنسان، وهذه الموازنة أحد معايير التفاضل.

إن الهدف الأكبر من وراء حرمة الخمر والميسر هو المحافظة على وحدة الأمة ومنع الحساسيات عنها كما يظهر من آية أخرى في القرآن[١]. وبهذه المناسبة تحدث القرآن عن العفو باعتباره الوسيلة الثانية للهدف ذاته، فلو افترضنا أن الحساسية نمت بين أبناء المجتمع فعلينا تصفيتها بالعفو، وقد ورد في بعض الروايات أن المقصود بالعفو هنا التوسط في الإنفاق![٢]

وربما كان الإنفاق باليسر هو أحد موارد رأب الصدع وتأليف القلوب واستئصال الضغائن وتشجيع التسامح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾ وحين تقع الحساسية بين أبناء المجتمع تلهيهم عن مشاكلهم الرئيسية وعن جدية مواجهتها، لذلك ذكرنا القرآن هنا بأهمية التفكر، ليس في أمور الآخرة فقط بل في شؤون الدنيا أيضا وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[٢٢٠] ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ ﴾.

---

(١) وهي قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾.

(٢) روى في مستدرك الوسائل ج١٣ ص٥٣ عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «وَلْيَكُنْ نَفَقَتُكَ عَلَى نَفْسِكَ وَعِيَالِكَ قَصْداً فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾ وَالْعَفْوُ الْوَسَطُ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾».

التقوى والحقوق الاجتماعية

وتجربة التقوى في الحقوق الاجتماعية الأخرى تبرز بوضوح في حقوق اليتامى. إذ إنهم أضعف حلقة في المجتمع، إذ لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم تجاه نهم الطامعين في أموالهم، لذلك نجد القرآن يضرب من واقعهم مثالا لحرمة الحقوق في أكثر من مناسبة. وهنا يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ هل يبقون وحدهم، أم يخالطونهم، وبالتالي هل تفرز أموالهم ويقوم الولي بإصلاحها واستثمارها، أم تبقى مع أموال الولي يصلحها معها؟.

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ وليس يضركم لو نقص شيء منكم أو منهم في الشراكة. لأن الحرام هو تعمد الاعتداء على أموال الآخرين، أما لو خلصت النية وكان المشرف عليها محسنا، في تصرفاته تجاه اليتيم، فإن الله لا يحاسبه على خطئه ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة ٩١]، وجاء في بعض النصوص: «لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٤] الآية، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، انطلق كل من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه واشتد ذلك عليهم فسألوا عنه فنزلت هذه الآية، لكي لا ينفصل الأيتام عن المجتمع»[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ إذا اعتديتم على حقوق اليتامى. والتظاهر بالإصلاح بالتشدد في العزل ليس دليلا على الصلاح، فالاصلاح يعني إدارة أموالهم، وربما اقتضى اختلاط الأموال، والنوايا هي الفيصل، فإنه قادر على أن يسلب بعض نعمه عنكم حتى تعانوا مثلما جعلتم اليتامى يعانون من الحرمان. وربما تدل الآية على أن الله خفف عليكم الحكم بعد الشدة ولم يأمركم بإدارة اليتامى، مع فرز أموالهم عن أموالكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو قادر على استرداد الحقوق بعزته، ويفعل ذلك بحكمته.

التقوى وحقوق المرأة

[٢٢١] وكما التقوى في حق اليتامى، فكذلك في حقوق المرأة، الحلقة الضعيفة الثانية في المجتمع، التي يجب المحافظة على حقوقها بالكامل. والقرآن الحكيم ربط بين حقوق اليتامى والنساء في أكثر من مناسبة، وبهذه المناسبة يبين القرآن مجموعة التزامات تجب على المسلم في الجنس، ابتداء من اختيار الزوجة، ومرورا بالعملية الجنسية، والخلافات العائلية، والطلاق، والرضاع. وهي تنظم كذلك علاقات المجتمع الإسلامي، ولكن يبدو أن الهدف من ذكرها

(١) مجمع البيان: ج٢، ص٥٥٨.

هنا، هو التركيز على مظاهر الالتزام بحقوق الناس داخل المجتمع الإسلامي وبتعبير آخر: التقوى في حقوق الناس.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ تلك المشركة بجمالها وروعتها، أو بمالها وشهرتها. ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ المشرك، والسبب: أن أهم هدف من الزواج هو تكوين عائلة وأسرة تساهم في بناء المجتمع وتربية الجيل الصاعد منه. وعلينا أن نختار الزوجة والزوج وفق هذا الهدف وبمقياس الكفاءة الإيمانية، لأنها سوف تحقق هذا الهدف أفضل من غيرها. والمرأة المشركة لا تستطيع أن تكون عضوا صالحا في مجتمع الأسرة. وكذلك الرجل المشرك، فيضيع الطرف الثاني وتضيع الأسرة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إذ معرفة فلسفة الحكم لا تحتاج إلى أكثر من تذكر، بما سوف يجره التزاوج مع المشركين إلى الأسرة من ويلات، وثغرات داخل المجتمع الإسلامي.

ومن الشباب اليوم من يختار زوجته من الغرب أو الشرق لمجرد إنها تعجبه، فإذا به يتعرض لعدة مشاكل بعد عودته إلى بلاده. إذ فارق القيم والتقاليد والتربية وعموم الدين، تجعل زواجه جحيما. وكثيرا ما ينتهي بالطلاق.

لذلك ينبغي أن نفكر جيدا قبل الإقدام على هذه الخطوة لأن مصير الأسرة متعلق بها، ولا ينبغي أن ننسج بعض الأعذار من قبيل أن الزوجة قد آمنت قبل الزواج لأن الإيمان الذي يكون لمجرد داعي الزواج ثم لا تتبعه ممارسة إيمانية وانعكاس على واقع الحياة إيمان لا قيمة له لأنه ليس نابعا من قناعة واقعية.

حكم المقاربة في الحيض

[٢٢٢] ومن حقوق المرأة، وفي الوقت ذاته من آداب الزواج، ألاَّ تباشر النساء في الحيض لأنه يسبب انحرافا في صحة المرأة وخللا في أجهزتها الداخلية واضطرابات في الدورة الدموية. والمباشرة في هذا الوقت ليست فقط تشكل أذى للمرأة، بل وللذرية في المستقبل لو قدر لهم ذرية كما يهدد بعقم الزوجين وانتشار الأمراض في الأجهزة التناسلية فيهما.

والمحيض أذى أي أنه غير ملائم لطبيعة وسوية الجسد من حيث الاقتراب الجنسي، لا أنه ضرر بحد ذاته للمرأة، فهو من شؤون صلاح الرحم وإعداده لدورة خصوبة جديدة،

فالأذى بالاقتراب، وهو ضرر بمخالفة التشريع.

من هنا حرم الإسلام هذه المباشرة، وجعل ذلك حدًّا للشهوة الجنسية وتقوى لله فيها. حتى تروض النفس في سائر شؤونها، وتُطوِّع بإرادة الإيمان.

والسؤال يكشف عن أن القضية أصبحت تساؤلاً اجتماعيًا، وربما كان لاختلاط المسلمين بأهل الكتاب حيث كان اليهود يهجرون النساء فيه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾ حتى ينقطع الدم، وتنقطع الحرمة. بيد أن الأمر جاء بعد التطهر أي ينبغي الانتظار إلى أن تغتسل المرأة من الحيض وهو من المروءة.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ عن الدم واغتسلن ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾. والتعبير بـ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ قد يدل على ضرورة التزام المباشرة بالسبيل الفطري، حيث الرحم، وحيث تُرجى الولادة، لا من السبيل الآخر، حيث الشذوذ والأمراض وحرمان المرأة من لذة الجنس.

ويدل أيضا أن الاعتزال ليس كما ذهبت إليه اليهود من التطرف في هجرة الحائض، وإنما يقصر على منع الاقتراب الجنسي، وإن كان لفظ الاعتزال يوحي بأكثر من خصوص المُحَرَّم، لكن المحيض اسم مكان كالمبيت فتعلق الاعتزال به. أما الزمان فهو شامل لأيام الحيض بما فيها ساعات انقطاع الدم فيه بدلالة الغاية ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾ من الحيض وينقطع الدم تماما، فيفيد أن الحظر لا يختص بحالة السيلان فيعم أيام الحيض برمتها.

والله يحب التوابين، الذين إذا تعدوا حدود الله، وباشروا نساءهم في الحيض أو من غير السبيل الفطري؛ فإنهم سرعان ما يتوبون إلى الله. والله يحب المتطهرين الذين يلتزمون بحدود الله كاملة لأنه في إطارها تنمو قيم النظافة الروحية والجسدية، الروحية بالتقوى، والجسدية بالاغتسال.

[٢٢٣] لماذا المباشرة الجنسية؟ هل لمجرد المتعة؟ كلا. بل ابتغاء فضل الله من الأولاد الصالحين. إن وجود الهدف الأسمى للغرائز عند المسلم يجعله يمارسها في حدود تحقيق الهدف، ولا يسترسل معها إلى حيث يحطم جسده ويلوث روحه.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الهدف منهن إنجاب الأبناء ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ في أي مكان لا بمعنى غير موضع الحرث وأي زمان. ولكن دون أن تستبد بكم الشهوة الجنسية،

بل وتذكروا الآخرة وما فيها ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فقسّموا أموالكم وأوقاتكم وطاقاتكم، بين شهوات الدنيا وفي طليعتها شهوة النساء، وبين تطلعات الآخرة. إن في ذلك ضمانا لالتزامكم بحدود الله في ممارسة الشهوات.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ والتزموا بمناهجه في التمتع باللذائذ. ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ غدا حيث يعاقب الفاسق أشد العقاب ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتقين والملتزمين بحدود الله.

[٢٢٤] والتقوى يجب أن تكون حاجزا داخليًّا بين الإنسان وبين أنانيته وذاتيته. خصوصا في مجال الصراعات الاجتماعية، وبالأخص فيما يتصل بالخلافات العائلية.

فلا ينبغي الاستخفاف بالقسم بالله بجعله تعالى عرضة للحلف في صغير الأمور وكبيرها، ولا جعله حائلا عن الأعمال الصالحة بالحلف بعدم فعل بعضها كقطع الرحم.

والذي سيجسد التقوى هو عدم استخدام اليمين في إثبات الادعاءات الباطلة. وإذا التزم الناس باليمين الصادقة، كما هو المفروض في المؤمنين، فإنهم سيجدون حاكما عادلا بينهم، إذ يفصلون كل قضاياهم بمجرد أن يستحلف أحد الطرفين الآخر، ويتوقف صاحب الادعاء الباطل عن اليمين الكاذب ويعترف بخطئه.

لذلك شدد القرآن على اليمين وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

[٢٢٥] ويبشرنا القرآن الحكيم بالعفو عن القسم الذي يبتدر عن اللسان دون وعي أو قصد. وإنما يحاسب الله الإنسان على القسم الذي يعقد عليه قلبه، ويتعهد عليه تعهدا واعيا. وهكذا القسم نوع من العهد. ولذلك ألحقوه بالعهد ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

واجبات العلاقة الزوجية

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ[١] مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ[٢] أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو[٣] فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟[٤] ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ[٥] بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ[٦] بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ[٧] أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ

---

(١) يؤلون: آلى الرجل من امرأته إيلاءاً من الألية والألوة وهي الحلف، وائتلى وتألّى، وفي التنزيل ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ وهو أن يحلف ألاّ يقارب زوجته.

(٢) تربص: انتظر.

(٣) فاؤوا: الفيء الرجوع، يقال: فاء يفيء فيئاً إذا رجع. والفيء غنائم المشركين أفاء الله علينا منهم، وهو من رجوع الشيء إلى حقه، وفلان سريع الفيء من غضبه أي الرجوع.

(٤) عزموا: العزم هو العقد على فعل شيء في مستقبل الأوقات وهو إرادة متقدمة للفعل أكثر من وقت واحد يتعلق بفعل اللازم. يقال: عزم على الشيء عزماً.

(٥) إمساك: خلاف الاطلاق، والممسك البخيل، والمسك الإهاب لأنه يمسك البدن باحتوائه عليه.

(٦) تسريح: مأخوذ من السرح وهو الإطلاق، وسرح الماشية في المرعى إذا أطلقها ترعى.

(٧) أن يخافا: أي يظنا، وقيل: معناه أن يوقنا.

ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ (١) فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ (٢) أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ (٣) أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

هدى من الآيات:

يبين القرآن هنا مجموعة من الحدود في العلاقة الزوجية، والتي هي طائفة من حقوق المرأة في الأسرة تستعرضها هذه الآيات من زاوية الطلاق. لأن حالة الطلاق تعتبر قمة النشاز في العلاقة العائلية، والتي تتعرض حينها الحقوق للضياع. فالحديث عنها يعني الحديث عن الالتزام بالحقوق في الحالات العادية.

المسلم المتقي: هو الذي يلتزم بحقوق الناس، ابتداء من عائلته، ثم ليس في الحالات العادية فحسب، وإنما في الأوقات الصعبة أيضا كالطلاق.

في البدء يذكر القرآن جانبا من أحكام الإيلاء حيث يحلف الزوج ألاَّ يباشر زوجته، فعليه أن يكفِّر عن حلفه ويباشرها أو يطلقها. وهذه حالة يدخل فيها الحلف طرفا في الحقوق الزوجية، وذكرت هنا بمناسبة الحديث عن الأيمان الباطلة. باعتبار الإيلاء مثلا لاستغلال اليمين في الإضرار بالآخرين.

ثم يستعرض أحكام الطلاق، حيث يجب على المرأة أن تعتد حتى يستكشف ما في رحمها

(١) أجلهن: الأجل آخر المدة.

(٢) المعروف: المراد به هنا الحق الذي يدعو إليه العقل أو الشرع للمعرفة بصحته، خلاف المنكر الذي يزجر عنه العقل، أو السمع لاستحالة المعرفة بصحته، فما يجوز المعرفة بصحته معروف، وما لا يجوز المعرفة بصحته منكر.

(٣) تعضلوهن: العضل الحبس، وقيل هو مأخوذ من المنع، وقيل هو مأخوذ من الضيق والشدة. وعضلت الناقة إذا احتبس ولدها في بطنها. وتقول: عضل المرأة يعضلها إذا منعها من التزويج ظلماً، ويقال للداء الذي أعيا الأطباء علاجه داء عضال.

من حمل. وخلال فترة العدة، يجوز للزوج أن يرجع إليها.

ولا يجوز أن تستمر عملية الطلاق ثم العودة إلا مرتين، ففي الثالثة لا بد لهم من الاختيار النهائي، فإن استطاعا الالتزام بالواجبات الزوجية فليبقيا على العلاقة وإلا فتسريح بإحسان.

وفي الطلقة الثالثة لا تحل له إلا بعد أن تتزوج من غيره، وبعد العدة لا يجوز الإمساك بالمطلقة، لأنها حرة كما لا يجوز له أن يمنعها من الزواج بمن شاءت.

وبمناسبة الحديث عن الطلاق، يأتي الحديث عن الرضاع باعتباره موضع تفاهم بين الزوجين، ثم يعود الحديث إلى حقوق الزوج المتوفى عن زوجته. فعليها أن تبقى في حداد أربعة أشهر وعشرا.

وبعدئذ يواصل القرآن الحديث عن المطلقات، ويحذر من أن يصبحن أداة لمتعة أهل الشيطان، بل السبيل الوحيد لهن الزواج من رجال آخرين.

ومن حقوق المطلقات أيضا المهر، حيث يجب أن يدفع كله، بالرغم من الطلاق. إلا في حالة واحدة هي الطلاق قبل الدخول حيث يدفع نصف المهر.

ومن الطلاق ينتقل القرآن إلى الالتزام بالصلاة خصوصا الوسطى لكيلا ننسى ربنا. فهو الذي يبارك تلك العلاقات ويحل المشاكل، ويعطينا إيمانا نقاوم به مغريات الشيطان وسلبيات أنفسنا.

وبعد أن يذكر بعض الحقوق المستحبة للنساء، كالوصية لهن بالبقاء في البيت بعد وفاة الزوج، أو الإحسان إليهن بعد الطلاق، بعدئذ ينتهي الدرس.

إن أسلوب عرض القرآن لحقوق المرأة هنا يختلف عن أسلوبه في السور الأخرى. لأنه هنا يبين لنا: ضرورة الالتزام التام بحدود الله، وفي الأوقات الحرجة، حيث يكاد الشيطان يتغلب على إرادة الإنسان. ولهذا تجد القرآن يذكرنا هنا بالتقوى مرة بعد أخرى، ويطالبنا بتذكر الله وتذكر أنه عليم بعباده وأنه بصير خبير. وعلينا أن نحذره حذرا شديدا، كل ذلك ليكرّس روح التقوى في نفوسنا. تلك الروح التي هي واحدة من أهم ميزات الشخصية المؤمنة.

بينات من الآيات:

التقوى في العلاقة الزوجية

[٢٢٦] لا يجوز أن يضر الزوج بزوجته، فيجعلها في بيته دون أن يؤدي إليها حقوقها،

والتي منها حقها في المتعة الجنسية. بل عليه أن يباشرها لا أقل مرة كل أربعة اشهر. فإذا حلف يمينا أن يمتنع عن المباشرة الجنسية، لسبب أو آخر، فانه يمنح له فرصة أربعة أشهر. بعدها يجب عليه: إما العودة إليها وكفارة حلفه، وإما طلاقها. جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر والصادق عليه السلام أنهما قالا: «إِذَا آلَى الرَّجُلُ أَلاَّ يَقْرَبَ امْرَأَتَهُ فَلَيْسَ لَهَا قَوْلٌ وَلاَ حَقٌّ فِي الأَرْبَعَةِ الأَشْهُرِ وَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ فِي كَفِّهِ عَنْهَا فِي الأَرْبَعَةِ الأَشْهُرِ، فَإِنْ مَضَتِ الأَرْبَعَةُ الأَشْهُرِ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَسَكَتَتْ وَرَضِيَتْ فَهُوَ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ، فَإِنْ رَفَعَتْ أَمْرَهَا قِيلَ لَهُ: إِمَّا أَنْ تَفِيءَ فَتَمَسَّهَا وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَ، وَعَزْمُ الطَّلاَقِ أَنْ يُخَلِّيَ عَنْهَا»[1].

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بالرغم من أن نقض اليمين حرام، إلا أن هذا اليمين مرتبط بحقوق الناس. والله يغفر نقضه للإيلاء، للنية الصالحة وراء هذا النقض.

[٢٢٧] ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ فعليهم الالتزام بحقوق الزوجة وتقوى الله فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

[٢٢٨] بعد الطلاق الذي يقع بسبب أو آخر، يجب على المرأة أن تعتد ولا تتزوج خلال فترة تتحدد بعادتها بثلاثة قروء والسؤال ما هي القروء الثلاثة؟.

جاء في بعض كتب اللغة.. إن هنا فرقا بين (القرء) بفتح القاف فهو للحيض و(القرء) بضم القاف فهو للطهر، وأن جمع الأول يأتي على (أقراء)، في حين يأتي جمع الثاني على (قروء).

وهكذا تكون الآية دالة على أنه تكفي حيضتان وثلاثة مرات طهر. فإذا دخلت في الحيضة الثالثة بانت. وعلى ذلك أفتى المشهور، كما جاء في حديث شريف عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أن عليا كان يقول: «إِنَّمَا الْقُرْءُ الطُّهْرُ تُقْرَأُ فِيهِ الدَّمُ فَتَجْمَعُهُ فَإِذَا جَاءَ الْحَيْضُ قَذَفَتْهُ. قُلْتُ: رَجُلٌ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ طَاهِراً مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ بِشَهَادَةِ عَدْلَيْنِ؟.

قَالَ: إِذَا دَخَلَتْ فِي الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا وَحَلَّتْ لِلأَزْوَاجِ.

قُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ يَرْوُونَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ أَحَقُّ بِرَجْعَتِهَا مَا لَمْ تَغْتَسِلْ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ؟. فَقَالَ: كَذَبُوا»[2].

وهكذا إذا حاضت المطلقة ثم طهرت، حتى ثلاث مرات فقد خرجت من العدة وإذا لم

(١) الكافي: ج٦، ص١٣١.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٢٠٩.

تحض تنتظر ثلاثة أشهر، تخرج بعدها من العدة، وتصبح حرة في التصرف في نفسها.

إن العدة حق من حقوق الزوج على الزوجة كما هو حكم من أحكام الله. ذلك أنه في هذه الفترة يراجع الزوج نفسه وقد يعود إليها، وحكم من الله، إذ إنها تحافظ على ماء الرجل عن الاختلاط بماء غيره، وبالتالي تمنع ضياع نسب الأفراد. وظهور طبقة من الشذاذ في المجتمع.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ ينتظرن ثلاثة أطهار، يذهب عنهن الحيض مرتان، ودخول الثالث ايذان لنهاية الطهر الثالث، فإذا طهر خلال فترة التربص آثار الحمل فعليهن إظهاره، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ ففي هذا الوقت، وقت العدة، يحق للزوج الرجوع بشرط أن يكون رجوعه إلى الزوجة بعد تصميم على بناء حياة زوجية عادلة.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ وليس من الصحيح تحميل الزوجة واجبات دون أن تعطى لها حقوق، مثلا، حين يفرض عليها واجب التربص والانتظار، يُعطى لها حق النفقة خلال الفترة والواقع: إن هذا قانون إنساني عام حيث يجب أن تربط الحقوق بالمسؤولية في أي تشريع.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ إذ جُعِلَ الرجل هو الحاكم في محيط الأسرة، وبيده الطلاق، وعليه النفقة، وله الطاعة.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في قدرته على الرجال والنساء. حكيم في تشريع الواجبات وإلزام الناس بها.

[٢٢٩] الطلاق لا يتكرر إلى ما لا نهاية، ذلك أن تكرار الطلاق يجعل الزوج في وضع الحاكم المطلق الذي لا تتحدد تصرفاته. إنما يمكنه أن يطلق فقط ثلاث مرات حيث تحرم عليه المرأة إلا بعد أن تتزوج برجل غيره.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ﴾ وبعدهما على الزوج أن يختار أحد الأمرين ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وزواج صالح ومعاشرة معروفة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ أو إنهاء العلاقة الزوجية للأخير، وإعطاؤها حقوقها وإضافة الإحسان إلى الحقوق.

وعند الطلاق يبقى المهر عند المرأة ولا يحل للرجل أن يسترجع المهر إلا في حالة واحدة هي: تنازل المرأة عن مهرها في مقابل قبول الرجل بطلاقها إذا هي أرادت الطلاق. وبالطبع في هذه الحالة يجب أن يتدخل الناس ليعرفوا ما إذا كان طلب الطلاق من قبل الزوجة مستند

إلى تضييع الزوج لحقوق الزوجية، وعدم رعاية حدود الله فيها، أم نابع من شهوة أو غضبة عابرة.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ من المهر ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ حيث وصلت العلاقة الزوجية مرحلة بعيدة من الحساسية، بحيث يصعب معها الالتزام بالحقوق المتقابلة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ وأعطت من مهرها، ثمنا لطلاقها ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، الظالمون لأنفسهم وللمجتمع من حولهم؛ ذلك أن هذه الحدود وضعت ضمانا للعدالة الاجتماعية، ورعاية لحقوق الجميع، ومن يتجاوزها فهو الظالم الآثم.

[٢٣٠] وبعد الطلاق الثالث تحرم على الزوج حتى تتزوج من رجل آخر زواجا دائما، ويباشرها الزوج، ثم إن طلقها تحل للزوج الأول.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فلا يجوز العودة إليها، للإضرار بها، بل لكي يؤسسا، فعلا، حياة عائلية متينة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي للعلماء الذين يتفهمون الحقائق، ويعرفون مدى أهمية العلاقة الزوجية، ومدى ما تحتاج هذه العلاقة إلى الضبط والتحديد، لأن اندفاع شهوة الجنس من جهة، ونزغ النزاعات والسلبيات من جهة أخرى تجعلان العلاقة الجنسية مهتزة. وبالتالي تهددان البناء الأسري بالزوال، ولذلك بيّن الله حدودا حاسمة لهذه العلاقة حتى يحافظ من جهة على استقامة شهوة الجنس، وعدم انحرافها في متاهات بعيدة، ومن جهة ثانية يقلل من السلبيات ويحسم النزاعات.

إن المجتمع الصناعي (المادي) اليوم يعاني من اهتزاز العلاقة الجنسية. ويعاني لذلك من الكثير من السلبيات الناتجة عن انعدام الأسرة، ومنها انعدام التكامل الخلقي، وتراكم العقد، وإشاعة الأمراض الخطيرة.

[٢٣١] بعد العدة تصبح المرأة حرة، وعلى الزوج أن يفكر مليًّا فيما إذا يريد زوجته أم لا. فإذا أرادها فعليه أن يراجعها قبل انتهاء الفترة الممنوحة له. وإلا فليس له حق في منعها من التصرف في شؤونها لأنها أصبحت حرة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ لتضروا بهن، وتمنعوهن من الزواج بغيركم، لأن ذلك عدوان وظلم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ذلك أن حدود الله التي تحافظ على حقوق الناس

هي في مصلحة الجميع. فإذا تجاوزها شخص واعتدى على حقوق الآخرين، فقد يأتي شخص آخر ويعتدي على حقوقه هو. وهكذا تعم الفوضى. من هنا وقبل أن يفكر الواحد في ظلم الناس، لابد أن يجعل هذا الظلم في الإطار الاجتماعي العام ويحلل الموقف. هل يريد أن يعود للمجتمع الظلم والفوضى أم لا؟ إذا أحب ذلك فليقدم، ولينتظر النتائج السيئة. من هنا يذكّر القرآن هؤلاء الظالمين بنعمة الرسالة ويقول:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ فهل تحبون العودة إلى حياة الجاهلية، حيث لا كتاب فيه دستور حياتكم، ولا حكمة تشرح تفاصيل سلوككم؟

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ هذه الفكرة هي -في الواقع- ضمانة تنفيذ حدود الله المبينة في الآيات السابقة، وهي جوهر آيات هذا السياق، الذي يتحدث لنا عن التقوى في مظاهرها المختلفة.

[٢٣٢] هل تستطيع الزوجة أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء فترة العدة؟ بالطبع يجوز لها إذا اختارت ذلك، ودون أن يتمكن زوجها من جبرها على ذلك. إلا أن هناك بعض الأقارب (كالأب أو الأخ) قد يمنعونها من ذلك. وهم ظالمون.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ ولا تؤذوهن ﴿أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ وذلك بعقد جديد، يحتاج إلى تراض منهما معا، وليس من الزوج وحده ويكون ذلك بالمعروف ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ حيث أنكم لو منعتم المطلقة من زوجها فقد لا يخطبها أحد، أو قد تسقط في مهاوي الرذيلة. أو قد تربطها علاقة غير طبيعية مع زوجها الأول ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لا تعلمون أضرار الكبت الجنسي حيث يؤدي إلى انفجار خطير.

التقوى في إدارة البيت

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ (١) كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ (٢) نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ (٣) لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم (٤) بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ (٥) ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ (٦) فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ

---

(١) حولين: الحول السنة مأخوذة من الانقلاب في قولك: حال الشيء عما كان عليه يحول، ومنه الاستحالة في الكلام لانقلابه عن الصواب، وقيل: أخذ من الانتقال في قولك: تحوّل.

(٢) تكلف: التكليف الإلزام الشاق وأصله من الكَلَف وهو ظهور الأثر لأنه يلزمه ما يظهر فيه أثره.

(٣) وسعها: الوسع الطاقة مأخوذ من سعة المسلك إلى الطلب.

(٤) عرضتم: التعريض ضد التصريح وهو أن تضمّن الكلام دلالة على ما تريد، وأصله من العرض من الشيء الذي هو جانبه وناحية منه.

(٥) خطبة: الخطبة الذكر الذي يستدعي به إلى عقدة النكاح، أخذ من الخطاب وهو توجيه الكلام للإفصام، والخطبة الوعظ المتسق على ضرب من التأليف.

(٦) أكننتم: الاكنان الستر للشيء والكنّ الستر أيضاً، والفرق بين الإكنان والكن أن الإكنان الإضمار في النفس ولا يقال: كننته في نفسي، والكنّ في معنى الصون، وفي التنزيل ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَٰفِظُواْ[1] عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ[2] (٢٣٨) فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا[3] أَوۡ رُكۡبَانٗا[4]ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ (٢٣٩) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٢٤٠) وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٢٤٢)﴾.

هدى من الآيات:

وبمناسبة الحديث عن الطلاق يبين الله حكم الرضاعة، إذ كثيرا ما يشملها الخلاف العائلي، فهل على الزوجة أن ترضع وليدها؟ نعم، بمثل ما يجب على الزوج أن ينفق على الزوجة وعلى وليدهما، بيد أن حدود الرضاع ومقدار الإنفاق تتحدد بقدر المكنة والاستطاعة، إذ إن الله لا يكلف الناس أكثر من طاقاتهم.

وعلى الزوجين أن يتشاوروا في شؤون البيت وبالأخص في شؤون وليدهما، ويتخذا القرار المناسب في إنهاء فترة الرضاعة، كما أن بإمكان الزوج، آنئذ، أن يستأجر من النساء من

---

(١) حافظوا: الحفظ ضبط الشيء في النفس ثم يشبه به ضبطه والمنع من الذهاب، والحفظ خلاف النسيان، والحفيظة الحمية، والحفاظ المحافظة.

(٢) قانتين: أصل القنوت الدوام على أمر واحد، وقيل: أصله الطاعة، وقيل: أصله الدعاء في حال القيام.

(٣) رجالًا: جمع راجل وهو الكائن على رجله واقفاً كان أو ماشياً.

(٤) ركباناً: جمع راكب وكل شيء علا شيئاً فقد ركبه.

ترضع ابنه، بشرط أن يدفع أجورها كاملة.

بينات من الآيات:

[٢٣٣] ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ فهذه هي فترة الرضاعة الفطرية التي يحتاج الوليد خلالها إلى لبن الأم الذي هو أفضل غذاء للولد، خصوصا في أيامه الأولى. ولا ينبغي للأم أن تتهرب من واجبها كأم وتخاطر بمصير ولدها لأسباب كمالية تافهة. إذ يعتمد مستقبل ولدها على هذا اللبن، وقد ثبت علميًّا أن كثيرا من الضعف والمرض في الأولاد، يأتي نتيجة عدم الرضاعة من لبن الأم.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ فالأب الذي ولدت الأم وليدها له وفي صالحه، عليه ألاَّ يبخل بالنفقة، حسب المعروف ووفقا لمستوى معيشتها الاجتماعية.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ ﴾ لا يجوز أن يستخف بعاطفة الأبوين فيلحق بهما ضرر عبر الولد. كأن يتمانعا من زيارة المولود، أو يمنع الرجل زوجته أو العكس من لذة الجنس رعاية لحق الولد. جاء في الحديث المأثور عن الصادق -في تفسير الآية- في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ قَالَ عليه السلام: «كَانَتِ المَرْأَةُ مِمَّنْ تَرْفَعُ يَدَهَا إِلَى الرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ مُجَامَعَتَهَا فَتَقُولُ: لَا أَدَعُكَ إِنِّي أَخَافُ عَلَى وَلَدِي، وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ: لَا أُجَامِعُكِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَعْلَقِي فَأَقْتُلَ وَلَدِي، فَنَهَى الله عَنْ أَنْ يُضَارَّ الرَّجُلُ المَرْأَةَ وَالمَرْأَةُ الرَّجُلَ»[1].

ويظهر من النص الآتي أن معنى ذلك: عدم جواز منع الأب من زيارة ولده أو العكس إذا كان عنده. فقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِلْوَارِثِ أَنْ يُضَارَّ المَرْأَةَ فَيَقُولَ لَا أَدَعُ وَلَدَهَا يَأْتِيهَا، وَيُضَارَّ وَلَدَهَا إِنْ كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُ شَيْءٌ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْتُرَ عَلَيْهِ»[2].

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ الإنفاق على العائلة ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ لابنهما عن الرضاعة فلابد أن يكون ذلك ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ شأنه شأن سائر أمور البيت ولكن بشرط ألاَّ يسبب ذلك تضييع حقوق الأم التي أرضعت ولدها، بل على الأب أن ينفق عليها بقدر ما أرضعت ثم يعطي الولد للمرضعة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ

---

(١) تفسير العياشي: ج١ ص١٢٠، بحار الأنوار: ج١٠٠، ص٢٩٤.

(٢) تفسير العياشي: ج١، ص١٢١، وسائل الشيعة: ج٢١، ص٥٢١.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إنها التقوى، وإنه الالتزام بحدود الله في قضايا الإنسان الاجتماعية؛ ينقذ الإنسان من مخاطر الفوضى واللامسؤولية.

حق الزوج بعد الوفاة

[٢٣٤] التسلسل الطبيعي لسياق الطلاق والرضاعة والعدة، يؤدي بنا إلى الحديث عن التزام المرأة بالحداد على زوجها بعد الوفاة، كحق مفروض من حقوقه عليها من جهة، وعدة تعتدها منه من جهة ثانية ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فهن حرائر في التصرف بأنفسهن، ويستطعن الزواج ممن شئن دون تدخل الآخرين في حريتهن. اللهم إلا بقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي العام بين المسلمين، لذلك كرر القرآن هنا وفي آيات سابقة كلمة بالمعروف وقال هنا: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ للدلالة على أنهن هن المسؤولات عن تصرفهن في إطار القيم العامة للمجتمع، والتي تسمى بـ(المعروف) في لغة القرآن، أي القيم الرسالية التي تعارف عليها المجتمع، أما لو تعدين المعروف إلى المنكر، فالكل مسؤول عنهن وعن تصرفهن، وعليهم ردعهن عن المنكر.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعلم تعديكم على حقوقهن، كما يعلم اهتمامكم بتوجيههن إلى المعروف، وإذن لا تبرروا تدخلاتكم غير المشروعة في تصرفاتهن بغطاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كيف تختار زوجتك

[٢٣٥] الشهوة الجنسية لابد أن تجد لها سبيلا نافعا للمجتمع وإلا فهي تضر ولا تنفع والسبيل الصالح هو الزواج، والزواج يبدأ بالاختيار. وفي عملية الاختيار يتدخل الشيطان سلبيًّا، ويدعو الطرفين إلى الفاحشة، وعلى المسلم أن يصبر ويتقي ربه في هذا الوقت الحرج، ولا يخرج من حدود الشريعة، بل يجعل لقاءه بمن وقع عليها اختياره تمهيدا للزواج بها، وبناء الأسرة الفاضلة. ومناسبة الحديث عن الخطبة هنا، هي الحديث عن المطلقات اللاتي يبحثن عن الأزواج بطريقة أكثر شجاعة من الفتيات الأبكار، حيث إن الأخيرات يغلف شهوتهن الجنسية، لباس الحياء والكبرياء ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي في الدعوة المبطنة لهن بالزواج، كأن يقول لها: داري واسعة، أو أنا محتاج إلى زوجة. أو سوف أجدد

أثاث بيتي.. وهكذا.. ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ وجعلتم الزواج مجرد مشروع تفكرون في تطبيقه ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لأن الشيطان قد يدخل بين الرجل والمرأة إذا اختليا ببعضهما ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ هو التفكر في الزواج ذاته وليس أشياء أخرى. ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ وينتهي موعد العدة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ فلا تعتدوا على حدود الله في خطبة النساء. ولا تستعجلوا في إنشاء علاقة جنسية، ثم تفكروا في الزواج، ولكن لو فعلتم شيئا من ذلك، فلا تيأسوا من روح الله، وعودوا إلى رشدكم وتوبوا إلى الله ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾.

[٢٣٦] وإذا تزوجتم بواحدة من المطلقات أو غيرهن ولكن قبل أن تباشروهن، وتبدل الرأي بسبب من الأسباب، فمن الممكن التراجع عن تكميل الزواج بعد دفع جزء من المهر. ولكن لو لم تحددوا المهر سلفا، فعليكم دفع مقدار من المال يتناسب مع مقدوركم الاقتصادي. فالغني يدفع بقدره والفقير بقدره.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ متعة تقدر حسب وضع الزوج غنى وفقرا، فـ: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ ولا يكون هذا المتاع بهدف غير شريف ومقدمة للمنكر ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ويعتبر هذا المتاع، في الواقع، نوعا من الإحسان الواجب، إذ لم يحصل الزوج على ما يقابله من المتعة، ولكنه قد يمكن أن يسبب للزوجة نوعا من الأذى بإقدامه عليها وتراجعه عنها.

إن تحديد مقدار المهر في هذه الحالة يعود إلى العرف العام حسب ظروف كل منطقة. جاء في حديث مأثور عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، قَالَ: «عَلَيْهِ نِصْفُ الْمَهْرِ إِنْ كَانَ فَرَضَ لَهَا شَيْئاً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَرَضَ لَهَا فَلْيُمَتِّعْهَا عَلَى نَحْوِ مَا يُمَتَّعُ مِثْلُهَا مِنَ النِّسَاءِ»[1].

[٢٣٧] تلك كانت إذا لم تحدد فريضة المهر. أما إذا حددت وطلقها الزوج قبل المباشرة، فإن عليه أن يدفع نصف المهر. ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ معينة من المهر ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أن تعفو النساء عن نصف الفريضة. ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ أولياؤهن الذين يمكنهم إنشاء عقد النكاح، ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ ذلك أن الزوج لم يستطع أن ينتفع شيئا بزوجته. ﴿وَلَا تَنسَوُاْ

---

(١) الكافي: ج٦، ص١٠٦.

﴿الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تنسوا أنكم ذوو علاقة بينكم وعليكم المحافظة عليها وعدم قطعها بسبب سوء المعاملة، ذلك أن هناك مجالات تنفع الأطراف في المستقبل. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وسوف يجازيكم بالحسنات لو تحاببتم وأحسن بعضكم إلى البعض الآخر.

المجتمع الإسلامي يجب أن يكون متينا إلى درجة لا تؤثر فيه السلبيات الطارئة فحتى الخلافات يجب أن تسوّى بطريقة تخلّف وراءها متسعا لإنشاء وفاق أفضل ربما في ميادين أخرى. إن المسلم يجب أن يتفضل على إخوته، ولا ينتظرهم يتفضلون عليه.

[٢٣٨] إن العلاقة بين المسلم والمسلم يباركها الله، حيث إن المسلم أخ المسلم في الله، وكلما ضعفت هذه العلاقة بسبب الخلافات الطارئة يجب أن تعالج عن طريق زخم إيماني جديد. يمتن أخوة الإيمان بين المؤمنين.

لذلك يوصي الله هنا وفي زحمة الخلافات العائلية بالعودة إلى الصلاة باعتبارها وسيلة التقرب إلى الله. ويقول:

وقوموا لله قانتين

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ يبدو أن الصلاة الوسطى هي الظهر، حين يتوغل المرء في شؤون الدنيا، فالمحافظة على الصلاة فيه، يعطي المسلم مناعة من التأثر بسلبيات الدنيا.

[٢٣٩] والمحافظة على الصلوات لا تختص بأيام السلم بل حتى في الحرب يجب الاهتمام بها إذ إنها تعطينا روحا جديدة تساعدنا على القتال وعلى الانتصار. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ في حالة المشي إذا كنتم مشاة الجيش، أو في حالة الركوب، وفي هذه الحالة عليكم أداء الصلاة بأي شكل ممكن، ولكن بعدها يجب الاهتمام بشرائط الصلاة بالكامل.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ اذكروا الله وتذكروا نعمة الهداية إلى الدين الجديد. حيث أنقذكم من الضلالة إن تذكركم له ضمان للمحافظة عليه. والتمسك الشديد به.

[٢٤٠] بعد أن أمرنا القرآن بالمحافظة على الصلاة في كل حال وخصوصا في حال اشتداد الخوف، لكي يزودنا بالتقوى في مسيرة الحياة الصعبة، بعد ذاك عاد ليبين لنا بعضا من أحكام الزواج المستحبة، أبرزها اثنان: أن يوصي الزوج ببقاء زوجته في بيته بعد وفاته إلى عام،

دون أن يجبرها الورثة على الخروج منه. وثانيا: أن يحافظ المرء على علاقته الإنسانية بزوجته المطلقة، فيتعهدها بالإحسان بالرغم من انتهاء علاقتهما الزوجية. فقال عن الموضوع الأول:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ أي يوصي بأن تبقى الزوجة تتمتع بالنفقة وبالسكنى إلى عام. وإذا وصى الزوج بذلك، فإنه لا يعني أن يفرض على الزوجة البقاء في البيت، بل أن يكون لها الحق في ذلك فقط.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ فهي حرة. بعد انقضاء عدة الوفاة فيما تفعل لنفسها تستطيع أن تتزوج، أو أن تعمل أو تسافر أو ما أشبه.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يهيمن على أعمال عباده، بعزته، ويقدر لهم الجزاء المناسب بحكمته، وهذه الزوجة المتوفى عنها زوجها، لا تستطيع أن تخرج من عزة الله وحكمته إن خرجت من بيت زوجها لتفعل المنكر، ولذلك ليس من الصحيح حجزها في البيت، لأن الله يكفيها.. فهو العزيز الحكيم.

[٢٤١] وعن موضوع استمرار العلاقة الإنسانية مع المطلقات بالرغم من انتهاء الروابط الزوجية يقول ربنا: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ هذا فيما إذا انتهت فترة العدة. أما خلالها فإنها كالزوجة يجب الإنفاق عليها بالكامل.

[٢٤٢] وبانتهاء بيان القرآن لحدود العلاقة الزوجية التي يجب الالتزام بها، وتقوى الله فيها. بذلك ينتهي فصل من فصول التربية الإسلامية للشخصية المسلمة وبيان لمكوناتها الرئيسية. وفي الختام يذكرنا القرآن بأن التقوى بدورها نتيجة لنمو العقل في المسلم، إذ إن آيات الله في القرآن تستثير العقل، وتحرك طاقة التفكر في الإنسان المسلم، فيتوجه المرء إلى ربه، ويتقيه، وبالتالي يلتزم بحدود الشريعة في كافة جوانب حياته، لذلك قال الله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

الحاكمية الإلهية

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ(١) إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ(٢) ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ(٣) لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ(٤) وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ(٥) مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ

---

(١) ألم تر: الرؤية هنا بمعنى العلم، و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم.

(٢) يقرض: القرض هو قطع جزء من المال بلا عطاء على أن يرد بعينه أو يرد مثله بدلاً منه. وأصل القرض القطع بالناب، يقال: قرض الشيء يقرضه إذا قطعه بنابه، وأقرض فلاناً إذا أعطاه ما يتجازاه منه. والاسم منه القرض.

(٣) يضاعفه: التضعيف والمضاعفة بمعنى الزيادة على أصل الشيء حتى يصير مثلين أو أكثر.

(٤) يقبض: القبض خلاف البسط، يقال: قبضه يقبضه قبضاً، والقبض ضم الكف على الشيء، وقُبِض الإنسان إذا مات.

(٥) الملأ: الجماعة الأشراف من الناس. وأصله الاجتماع فيما لا يحتمل المزيد وإنما سمي الأشراف ملأ لأنه لا مزيد على شرفهم، وقيل: لأن هيبتهم تملأ الصدور.

ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ(١) عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ(٢) فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ(٣) فِيهِ سَكِينَةٞ(٤) مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ(٥) طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ(٦) فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ(٧) هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ(٨) قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من أن هذا الفصل يعالج -فيما يتراءى ظاهرا- موضوعات شتى، إلا أن هناك حقيقة واحدة تربط بين تلك الموضوعات، وإنما تعالج هذه الحقيقة من خلال معالجة تلك الموضوعات، وهذا هو منهج القرآن الحكيم. إنه لا يعالج الحقائق المجردة بل ضمن تجسداتها الواقعية، وتوجيهاتها التربوية، لقد رأينا كيف تحدثت الآيات السابقة عن التقوى، إنما تحدثت عنها ضمن الحديث عن مجموعة قضايا، في الحرب، وفي السلم، في الصراع الخارجي مع العدو، وفي الصراع الداخلي مع الناس وبصفة خاصة داخل الأسرة.

---

(١) اصطفاه: اختاره.

(٢) بسطة: فضيلة في الجسم والمال.

(٣) التابوت: ما يوضع فيه الميت.

(٤) سكينة: مأخوذة من السكن.. والسكينة والسكن واحد وهو زوال الرعب.

(٥) فصل: الفصل القطع، وفصل بالجنود أي سار بهم وقطعهم عن موضعهم، وفصل الصبي فصالًا قطعه عن اللبن.

(٦) يطعمه: يقال طعم الماء كما طعم الطعام.

(٧) جاوزه: المجاوزة من الجواز، يقال: جاز الشيء يجوزه إذا قطعه.

(٨) فئة: الطائفة من الناس.

وهنا يعالج القرآن: موضوع الإيمان بأن الله هو الذي يقضي في الحياة بحكمه، فبيده الأمور مباشرة، وأنه ليس بعيدا، كما تتصور اليهود، عن مباشرة سلطاته الإلهية سبحانه..

إن لهذه الحقيقة تجسدات واقعية في الموت والحياة، وفي الغنى والفقر، وفي الملك يؤتيه من يشاء، وفي الانتصار يهبه لمن يشاء، وفي الرسالة ينزلها على من يشاء..

وإن لهذه الحقيقة توجيهات تربوية تتجسد في: القتال في سبيل الله من دون خشية الموت (لأن الحياة بيد الله)، والإنفاق دون خشية من الفقر، والطاعة للحاكم بإذن الله والالتزام بتوجيهاته، والإيمان بكل رسل الله، والإنفاق في سبيل الله..

وقد ذكرنا القرآن بتلك التجسدات الواقعية، وهذه التوجيهات، من خلال قصص تاريخية ذات عبرة وآثار. وضمنها التوجيهات التربوية..

ولكن يبقى سؤال: ألم يكن من الأفضل: أن يتحدث القرآن بشكل تجريدي محض، عن الحقائق الواقعية، كما يفعلها مثلا الفلاسفة، وكتّاب علم الكلام الإسلامي؟

الجواب: كلا.. لأن القرآن كتاب حياة وكتاب تزكية، ولأنه كتاب حياة فهو لا ينقلنا من الحياة إلى غياهب التجريدات الذهنية التي لا تمثل إلا نفسها، ولا تعكس إلا خيالات أشبه ما تكون إلى الأشكال الهندسية والحسابات الرياضية لا تعني شيئا حقيقيًّا، بل يتحدث إلينا عن ظواهر الحياة ظاهرة ظاهرة. منها ما انتهت وتتكرر، كالظاهرة التاريخية، ومنها ما هي متلاحقة كالظاهرة الطبيعية، ومنها ما نصنعها كالحرب والسلام.. كل ذلك لتلتصق أفكارنا بالواقع الخارجي أكثر فأكثر، ثم يعطينا: رؤية نابعة من حقيقة عامة، تجاه هذه الظاهرة، رؤية تاريخية، رؤية طبيعية، رؤية في أفعال الإنسان. فالقرآن بذلك لا يفصلنا عن الواقع، بل يعطينا منظارا نافذ البصيرة ننظر من خلاله إلى الحياة، ذلك المنظار هي الرؤية وهي الحقيقة العامة (مثلا حقيقة هيمنة الله على الحياة)، وهي السنن الإلهية.

ومن جهة أخرى: لا يريد القرآن أن يشبع قلوبنا بحب الله، أو أفكارنا بالاعتقاد بالله من دون أن يكون لذلك الحب، وهذا الإيمان: انعكاس عملي في حياتنا، لذلك فكلما تحدث عن ظاهرة تاريخية، وأعطانا فيها رؤية حقيقية، أضاف إليهما عبرة تربوية وأمر بعمل نقوم به..

وهذه المزاوجة بين الحقائق العلمية والتوجيهات التربوية من أسرار التأثير النافذ للخطاب القرآني على النفس الإنسانية.

وسوف تجدون هذا المنهج في الآيات التالية.

بينات من الآيات:

خشية الطاعون

[٢٤٣] ، نزح أهل القرية من قريتهم، بيد أن الطاعون لحقهم فأفناهم في الصحراء، وبعد فترة طويلة مرّ بهم نبي فوجدهم عظاما نخرة، فدعا ربه أن يحييهم فاستجاب له ربه. هذه الواقعة تعكس حقيقة أن الله هو الذي يحيي ويميت.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ يتجسد في الحياة التي وهبها لهم. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ربهم على أنه ينعم عليهم بالحياة. وقد يكون الموت أيضا من فضل الله.

[٢٤٤] بينما يجب عليهم: معرفة واهب الحياة، ثم التسارع في تقديم حياتهم له، لو طلبها منهم، لأنها منه وإليه تعود. ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع الأصوات الظاهرة، ويعلم النوايا الباطنة، فلا تخلطوا مع الله في قتالكم عدوانا أو رياء، بل ليكن قتالكم خالصا لله وفي سبيل الله.

إن القتال في سبيل الله يجسد الإيمان بأن الله هو واهب الحياة.. والمطلوب من المؤمن أن يبلغ إيمانه بهذه الحقيقة إلى هذا المستوى حتى يثبت صدق إيمانه بالله..

[٢٤٥] والله واهب ما في الحياة من نعم كما هو واهب الحياة ذاتها، فهو الذي يوسع على من يشاء، ويقتّر على من يشاء ولكن ليس عبثا، وإنما بمقدار عطاء الفرد في سبيل الله، وتجارته معه تلك التجارة التي دعا الله إليها في كتابه في أكثر من مناسبة وهنا يدعو إليها ويقول:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ ﴾ وهل هناك مصرف في العالم يعطي على المائة، ثلاثة مائة وأكثر، ولكن الله يفعل ويطلب منا أن ننفق في سبيله حتى يعوضنا أضعافا. ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ فبيده الفقر، إذ يقبض عن الفقير يد نعمته، وبيده الغنى، حين يبسط على الغني يد رحمته. هذا في الدنيا.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة فيجازي المعطي في سبيله أجرا عظيما.. هذه الآية تشمل تجسيدا حيًّا لصفة هيمنة الله على الحياة، كما تشمل توجيها للإنسان انطلاقا من هذه الحقيقة، هو العطاء بلا خوف من الفقر والفاقة.

أمروا بالقتال فتولوا

[٢٤٦] أخرجوا من بلادهم ظلما وعدوانا وطالبوا نبيهم، بأن يختار الله لهم قائدا يحاربون أعداءهم تحت لوائه.. ولكن حين بعث الله لهم قائدا وجدّ الجد نكصوا على أعقابهم. إنهم مَثَلٌ لعدم الإيمان الحقيقي وبالتالي فصل دين الله عن الحياة، وفصل الدين عن السياسة ورجال الله عن أمور الدنيا..

إن الدين الذي يريده الله هو دين الحياة، وإن الإيمان الذي يطالب به العباد، هو الإيمان بالله المدبر للكون، المطاع بلا شريك في الحياة، وهذا الإيمان كان مفقودا عند هذه الطائفة لذلك فشلوا في الامتحان. وقال عنهم ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ الذي كان قائدهم المطاع والذي أنقذهم الله به من بطش فرعون. ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولكن النبي كان يعرف مستوى إيمانهم الضحل ولذلك ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾

فكيف لا نقاتل هل هذا معقول؟

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ كان يعرفهم قبل أن يكتب عليهم القتال، ويتولوا، ولكنه امتحنهم ليعرفوا أنفسهم، وليتم عليهم الحجة، ولعل الناس يعتبرون بقصتهم.

إن هؤلاء يمثلون فريقا من الناس يؤمنون بالله إيمانا ظاهرا وسطحيًا، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء كفروا بالله، إذ أنهم -منذ البداية- كانوا يزعمون: أن الله محصور في المسجد وبعض الصلوات والابتهالات، ومن ثم، بعض التعاليم الخلقية، أما الله الذي يأمر بالقتال، وبطاعة رجال معينين لا يملكون كفاءة القيادة حسب تصورهم الباطل.. فإنهم يكفرون به..

[٢٤٧] وقصة هؤلاء بالتالي، هي قصة المؤمن الذي لم يُذِبْ نفسه كاملة في بوتقة الإيمان، ولم يُسْلِم نفسه لله. ولا تزال رواسب الجاهلية وقيمها تتحكم فيه، لنستمع إلى القصة ونعتبر منها لأنفسنا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فإذا بهم يجن جنونهم، لماذا طالوت وليس فلاناً أو فلاناً.. ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأننا أكثر أموالا منه، والملك يجب أن يكون غنيًا وليس طالوت كذلك. ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ فأجابهم النبي: بأن قيادة الحرب لا تحتاج إلى مال، بل إلى كفاءة

أخرى موجودة في طالوت، ولذلك اختاره الله.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ وهذه هي كفاءة القيادة الحربية، أن يكون قادرا عليها جسديًا وعلميًا، ثم إن اختيار الله له تزكية له، وكافية لثقتكم بأمانته وكفاءته، ثم إن الله هو الحكم وبيده أمور عباده، وعليكم أن تطيعوه دون تلكؤ.. أو تقاعس.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قادر وقدرته واسعة، ورحيم ورحمته واسعة، وعليم فهو الملك الحقيقي للعباد، وهو يؤتي ملكه لمن يشاء.

[٢٤٨] بذلك أفحمهم، ولكنهم تساءلوا وقالوا: من يقول إن الله قد بعث طالوت ملكا؟ هنا بيَّن لهم علامة ملكه ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لقد كانت السكينة في التابوت بقية تراث الأنبياء وكانت كافيه لهؤلاء الناس بالاعتقاد بأن طالوت ملكهم، ولكنهم مع ذلك لم يقاتلوا معه كما يأتي. وكان التابوت -كما جاء في التفاسير- هو الصندوق الذي وضعت أم موسى، وليدها، بأمر الله فيه. وبقي عند فرعون إلى أن ورثت بنو إسرائيل ملك فرعون، فأخذه موسى ووضع فيه مواريث الأنبياء، مضافا إلى ودائعه، وأورثه وصيه (يوشع).

وكان التابوت (أو صندوق العهد) يعتبر أكبر من اللواء، والشعار عند بني إسرائيل. وقد استولى عليه الكفار من عبدة الأصنام في أرض فلسطين. وكانوا دائمي الحنين إليه. فلما أخبرهم (شموئيل) نبيهم بأن الملائكة سوف تعيد إليهم صندوق العهد استبشروا، لأنهم علموا أنه دليل انتصارهم على أعدائهم.

وتضيف التفاسير: أن الكفار، لم يهنؤوا بالصندوق، إذ توالت عليهم النكبات، فتطيروا بالتابوت. واستقر رأيهم أن يعلقوه بين بقرتين، ثم يهجموا بهما في الصحراء؛ لتذهبا به أنى شاءت الأقدار وكان ذلك الوقت مصادفا للفترة ذاتها التي نصب الله -عبر شموئيل- طالوت ملكا على بني إسرائيل، ووعدهم بأن تحمل الملائكة إليهم التابوت. فوجَّه الملائكة البقرتين الحاملتين للصندوق باتجاه ديار بني إسرائيل. وهناك أقوال أخرى في هذه القصة التاريخية إلا أن المهم عندنا عبرة القصة حيث نتساءل: إلامَ ترمز (السكينة والبقية) بالنسبة إلينا؟ إنها ترمزان إلى ضرورة توافر صفتين في القيادة:

١- الثقة بها، وإشاعة الاطمئنان فيمن حولها، وذلك عن طريق التجرد للحق، وعدم

الاستسلام للقوى الضاغطة، وعدم تفضيل طائفة من الناس على طائفة.

٢- الأصالة والارتباط بتراث الأمة الحضاري والقدرة على التعامل مع هذا التراث تعاملا إيجابيًّا مستمرا، إن تجارب الأمة النضالية عبر القرون أفضل ينبوع يلهم الناس الصبر واليقين والتضحية من أجل القيم الرسالية.

[٢٤٩] اختار طالوت جنوده، وتوجه تلقاء العدو، ولكنه كان محنكا لم يغامر بمواجهة العدو قبل أن يقوم بمناورة عسكرية، الهدف منها اختبار جنوده، فمر في طريقه بنهر عذب وكان جنوده يعانون من عطش شديد، فنهاهم عن أن يشربوا أكثر من كف من الماء فقط، وكانت المفاجأة أن أكثرهم فشلوا في الاختبار.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ﴾ الماء بمقدار ما تحتويه يده فقط ﴿غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهنا أمر طالوت الذين لم يصبروا عن العطش قليلا، بأن يعودوا ربما إلى أحضان أمهاتهم، إنهم ليسوا رجال حرب، الحرب بحاجة إلى خشونة وطاعة، ولا تنفعها الميوعة والخذلان، وسار بعيدا عن النهر بجيش صغير، ولكنه قوي المعنويات نوعا ما.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وكان جالوت يمثل جيش الكفر الذي خرج إلى جنود طالوت للحرب، في جيش ضخم، كثيف العدد، ولكن قليل المعنويات، وبالطبع أرهب عدد الجيش الضخم ومعداته الكثيرة، المؤمنين لأنهم بشر، بيد أن روح الإيمان أسعفتهم وذكرتهم بالآخرة وبأن الله يأمرهم بالمقاومة حتى يجزيهم الجنة، هنالك اطمأنوا بالإيمان.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ ويتصورون أنفسهم أمام الله أبدا، ويستمدون منه القوة والعزم قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إذ لا يهم عدد الجيش بل إيمانهم بقضيتهم وتضحيتهم من أجلها.

شروط الانتصار على العدو

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا[1] لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ[2] وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾.

---

(١) برزوا: البروز أصله الظهور ومنه البراز وهي الأرض الفضاء.

(٢) خلة: خالص المودة، والخليل الخالص المودة من الخلة لتخلل الأسرار بينهما، وقيل: لأنه يمتنع من الشوب في المودة.

هدى من الآيات:

للنصر شرطان: الصبر واليقين، أما الصبر فهو تحمل المصاعب والمكاره الجسدية والنفسية والتطلع إلى المستقبل والتعويض به عن مشاكل الحاضر، وأما اليقين فهو يعطيك الاندفاع والتضحية والثقة بالمستقبل وهؤلاء جنود طالوت سألوا الله أن يزودهم بالصبر واليقين، وفي الوقت ذاته كانوا يسعون من أجل توافر هاتين الصفتين في أنفسهم إذ كل دعوة إلى الله بتحقيق شيء لا تستجاب لو لم يسعَ المرء عمليا من أجل تحقيقها. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ في وصيته لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ يَكْفِي مِنَ الدُّعَاءِ مَعَ الْبِرِّ مَا يَكْفِي الطَّعَامَ مِنَ الْمِلْحِ»(١).

بينات من الآيات:

[٢٥٠] ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي اشملنا بصبر منك حتى لا نتزعزع بأية صعوبة. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي ارزقنا اليقين حتى تطمئن نفوسنا وتترسخ خطانا على الاستقامة وهذه وتلك تمهيد للهدف الأكبر وهو النصر الذي سألوه أخيرا وقالوا.. ﴿وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

[٢٥١] أثمرت دعواتهم وجهودهم.. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقد أذن الله لهم فانتصروا عليهم إذ إن الصبر واليقين كانا من عطاء الإيمان بالله والتقرب إليه والدعاء إليه، وبالتالي استجابة الله. وكان هناك شاب صالح مؤمن بالله برز في المعركة اسمه داود ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ ولأنه قتل جالوت وكان صالحا فقد التفت حوله الطائفة المؤمنة وتقرب إليه رئيسهم طالوت واستخلفه عليهم ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ وجعله خليفة في الأرض بإذنه ملكا نبيًّا كما تأتي قصصه في مناسبات أخرى.. ولكن هنا يريد القرآن أن يذكرنا بأن الملك لله يؤتيه من يشاء وعلينا أن نطلبه منه، كما أن النصر والغنى والحياة منه.

لقد بين القرآن الحكيم في مناسبات عديدة فلسفة الجهاد وأبرز أهدافها وبمناسبة الحديث عن داود ذكر هذه الفلسفة هنا أيضا وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث يهيئ من عباده المؤمنين أمة رسالية تقوم بالدفاع عن مبادئ الله المتمثلة في الحق والعدالة

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٨٤.

والحرية ومختلف المبادئ والقيم، وتحارب كل من تسوّل له نفسه بالظلم والجور والاستعباد وتنقذ الناس منه. إن هذا فضل كبير على الناس، ولولا هذه الأمة إذن لأصبحت الحياة البشرية أسوأ من حياة الغاب يأكل فيها القوي الضعيف ويأكل الضعيف من هو اضعف منه، ويعيش الناس الخوف والفقر والحرمان.

وكلما كانت هذه الأمة أكثر نشاطا وإيمانا تكون مبادئ الله أفضل تطبيقا، أما إذا تراخت الأمة عن واجبها (كما نحن في عصرنا) فإن الفساد سيعم الأرض.

[٢٥٢] وكما الحياة والغنى والملك والنصر من الله كذلك الهدى منه فهو الذي يهدينا إلى منهاج الحياة وأساليب مكافحة الفقر والوصول إلى الملك والنصر وذلك عن طريق رسالاته التي يختار لها رجالا أمناء من عباده ويبعثهم أنبياء بها. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

[٢٥٣] ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ كما موسى عليه السلام، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ كما إبراهيم اتّخذ خليلا وجُعِل للناس إماما، ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أيده بالعصمة التي منعته من أي نوع من الفحشاء والمنكر ولقد أيد الله؛ سائر الأنبياء بها أيضا بيد أن عيسى كفر فيه بعض الناس وزعموا أنه هو القدوس بذاته ودون تأييد من الله فنفى ربنا ذلك.

إذن الرسالة من الله وهي تُعطى للأنبياء على شكل متفاوت حسب درجات الأنبياء ومصالح الله في العباد. وهنا يبرز سؤال: إذا كان الله يهدي الناس فلماذا اختلف أتباع الرسل من بعدهم؟ لماذا لم يهدهم الله جميعا هدى واحدا وتركهم يقتل بعضهم بعضا..؟!

يجيب القرآن: إن الله لا يهدي الناس كرها وإنما يوفر لهم فرصة الهداية فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها. هكذا أراد الله للدنيا أن تكون مختبرا لمعادن الناس وقاعة امتحان لمدى إيمانهم ولا يسأل الله عما أراد. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الأنبياء من أتباع حيث تقاتلوا ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فلم يكن اختلافهم لنقص في هداية الله لهم بل لخلل في إيمانهم بها واستجابتهم لدعواتها. ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ وكان اختلافهم على الحق.. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فلم تكن أعمالهم صحيحة بمجرد أنهم (كانوا) من أتباع الرسل، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وهنا أبرز القرآن -مرة أخرى- هيمنة الله على الحياة، وأن ما يجري فيها من خير وشر لا يدل على اعتزال الله سبحانه للسلطات ولا على أنه مغلوب على أمره، لا يسعه منع حدوث الشر!. كلا، ولا على أنه راض بها

يقع على الناس في الدنيا من شرور، بل لأنه يريد اختبارهم فتركهم إلى أجل مسمى وهو قادر على أخذهم إذا شاء بسطوته العزيزة وقدرته الواسعة التي لا يعجزها شيء.

[٢٥٤] ماذا تعني هذه الحقيقة بالنسبة لنا، إنها تعني أننا لسنا مخلوقين عبثا ولا متروكين هكذا إلى الأبد بل إن هناك فرصة قصيرة أمامنا لتجربة إيماننا وإرادتنا، فعلينا استغلال هذه الفرصة بالعطاء والإنفاق قبل أن تنتهي الفرصة.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ ﴾ لأنه لا يملك أحد شيئا حتى يبيعه. ﴿وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ ﴾ وليس هناك من صديق، وحتى لو كان فلا يستطيع أن يفعل لنا شيئا؛ لأنه هو الآخر مبتلى ومغلوب على أمره إذن دعنا نفكر في ذلك اليوم وننفق.. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الذين يظلمون أنفسهم ولا يبعثون لحياتهم الأخرى خيرا..

ومناسبة الحديث عن الإنفاق قد تكون تكميلا للحديث عن القتال في سبيل الله في الآيات السابقة إذ يتحدث القرآن عنه إذا تحدث عن القتال على الأكثر.

أسماء الله الحسنى

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ (١) ٱلْقَيُّومُ (٢) لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ (٣) وَلَا نَوْمٌ (٤) لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ (٥) بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ (٦) ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ

(١) الحي: هو من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المدركات إذا وجدت.

(٢) القيوم: من القيام وهو القائم بتدبير خلقه.

(٣) سنة: النوم الخفيف وهو النعاس.

(٤) نوم: النوم خلاف اليقظة، وهو استرخاء أعصاب المخ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل: هو موت خفيف والموت نوم ثقيل.

(٥) يحيطون: يقال لمن أحرز شيئاً أو بلغ علمه أقصاه قد أحاط به.

(٦) بهت: انقطع وتحير، يقال: بَهَتَ الرجلَ أبهته بهتاناً إذا قابلته بكذب، فالبهت الحيرة عند استيلاء الحجة لأنها كالحيرة للمواجهة بالكذب لأن تحير المكذب في مذهبه كتحير المكذوب عليه ومنه قوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ كأنه قال: أتأخذونه ادّعاء للكذب فيه.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ[1] عَلَىٰ عُرُوشِهَا[2] قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

هدى من الآيات:

من خلال القصص السابقة، ذكرنا القرآن ببعض أسماء ربنا الحسنى وفي طليعتها أنه يهب الحياة والغنى والملك والنصر وأخيرا الهدى. والواقع أن الغنى والملك والنصر والهدى ليست إلا بعضا من مظاهر الحياة التي يهبها الله للإنسان. وفي هذه الآيات يتابع القرآن تذكرته بربنا وبيانه لصفاته الحسنى، والتي منها قدرته على بعث الناس من جديد.

فالآية الأولى والتي تسمى بآية الكرسي، وقد جاء في السنة الشريفة اهتمام بها وتوجيه إلى قراءتها، لأنها تلخص صفات الله التي تساهم معرفتها في تربية النفس البشرية. فهو الذي يدبر الحياة ويحفظها في كل لحظة، ولولا حفظه تعالى للحياة إذن لزالت. بعدئذ يوجهنا القرآن إلى الناحية العملية للإيمان بأن الله حي قيوم، وهي ضرورة التسليم لله وحده، والتمرد ضد كل سلطة لا تستمد شرعيتها من قيم الله، والتي يسميها القرآن بالطاغوت. ثم بيّن القرآن إن الإيمان بالله وبقدرته الواسعة يدعونا إلى الإيمان باليوم الآخر، حيث إن الله قادر على إن يحيي الموتى. فليست هنالك أية صعوبة في إعادة الناس إلى الحياة للحساب.

---

(١) خاوية: أصل الخواء الخلاء، والخواء الفرجة بين الشيئين لخلو ما بينهما، وخوت الدار تخوى خواءً فهي خاوية إذا باد أهلها لخلوها منهم، والخوى الجوع خوى يخوي خوىً لخلو البطن من الغذاء.

(٢) عروشها: أبنيتها، وقيل: الخيام وهي بيوت الأعراب، وقيل: خاوية على عروشها أي بقيت حيطانها لا سقوف عليها وكل بناء عرش، وعريش مكة أبنيتها، والعريش البيت لارتفاع أبنيتها.

بينات من الآيات:

[٢٥٥] في حالة الرخاء لا يكتشف البشر شيئا أما في الشدة فإنه يستثير عقله، ويحاول أن يفهم الحياة بعمق، حتى يرفع حاجته، وإذا اشتدت حاجة الإنسان واستبدت به الضراء، وأعيته مذاهب الحياة، فإنه -آنئذ- يتوجه إلى ربه، ويجأر إليه، وتسقط أمامه كل الأصنام التي كان يعبدها.

بهذه المناسبة سمى العرب ربهم بـ(إله) لأنهم يألهون إليه، ويتوسلون به أشد التوسل، عندما تصيبهم الضراء. والكلمة المفضلة في لغة القرآن للدلالة على ربنا هي كلمة (الله) وهنا تبدأ آية الكرسي بهذه الكلمة لاستثارة ضمير الإنسان بأن الذي تجأر إليه وتتوسل به، هو وحده الجدير بأن يكون ربك الحقيقي.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

ما هي صفات الله؟

يبدو أن لربنا سبحانه الصفات الحسنى، التي تتصل بذاته القدوس.فهو عالم، قدير، سميع، بصير، يريد ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل. وهناك كلمة تشير إلى هذه الصفات هي ﴿ٱلْحَىُّ﴾، وله الأسماء الحسنى التي تتصل بأفعاله ومظاهر خلقه للأشياء. فهو فعال لما يشاء، خالق، رازق، رحمن، رحيم، منعم و... وتشير إلى هذه كلمة ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ والتي تدل على أن الله قائم بذاته فلا يحتاج إلى شيء، وتقوم به الأشياء فلا يستغني عنه شيء.

وهنا يذكرنا القرآن بالله عبر صفتين ﴿ٱلْحَىُّ - ٱلْقَيُّومُ﴾، ويبين بعضاً من مظاهر هاتين الصفتين:

فالله هو الحي، مطلق الحياة، أبدي الحياة، واسع العلم والمقدرة سبحانه. أنه ربنا، الجدير بنا أن نتخذه ولياً، وليس هؤلاء العباد المربوبين الأموات، الذين يستبد بهم النوم والجهل، ولا يملكون شيئاً.

وصفة ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ نابعة من صفة الحياة، أن الله الحي بذاته، الذي يملك ما في السماوات والأرض، ويحيط علمه بما فيهما، هو القيوم عليهما.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فمن مظاهر صفة الحي تعاليه عن النعاس (السنة والنوم) ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

ومن مظاهر الحي، إن ربنا واسع القدرة فهو مالك كل شيء، نافذ في كل شيء أمره و مشيئته، لأن: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فكل شيء تحيط به قدرته مهيمن عليه، ويدبر أموره ولذلك فهو غني عن كل أحد.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ فلا يستطيع أحد أن يحتم عليه أمرا بل إنما يمكنه أن يدعوه، فيستجيب له إن شاء أو أن لا يستجيب.

إن ملوك الأرض يعتمدون، في سيطرتهم على الناس، على مجموعة من ذوي النفوذ، وهؤلاء يشفعون فيمن يخصهم. ولكن الله تعالى سلطانه عن أي تدخل من أي أحد، حتى الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون عليهم السلام، ليسوا سوى عباد مكرمين.

ومن مظاهر اسم الحي، علم الله بكل شيء وتعاليه عن العقول أن تسمو إلى جنابه.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ يعلمهم ويعلم ما سبق وما يأتي من حياتهم، وعلم الله واسع يشمل كافة جوانب البشر.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ وبينه هو لهم. هذا هو الحي، تعالى مجد ربنا وتقدست أسماؤه.

وصفة ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ نابعة من صفة الحياة، إن الله الحي بذاته الذي يملك ما في السماوات والأرض ويحيط علمه بما فيهما، هو القيوم عليهما.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ عرشه وسلطانه امتداد نفوذ مشيئته، واسع للسماوات و الأرض فكل شيء يصرف شؤونه ليل نهار، دون أن تتعبه إدارة ملكوت السماوات و الأرض، أو أن تحجبه المجرات الكبيرة بما فيها من شموس و أقمار، عن إدارة ما في الذرة المتناهية في الصغر بما فيها من نواة وتوابع.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ لأنه تعالى عن التعب والإعياء، وأنه يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ عليّ لأنه حي تعالى عن أي صفة عجز، وعظيم لأنه قيوم على كل شيء.

ونستفيد من هذه البصيرة حقيقتين:

الأولى: أن صفة الحي وما تتصل بها من أسماء حسنى، هي دليل صفة القيوم. فالحي

القدير المليك المقتدر العليم المهيمن، هو القيوم الذي وسع كرسيه السماوات والأرض.

الثانية: أن القائم بالقسط هو الله الذي لا إله إلاّ هو. فالقيوم حقاً هو الله، وله الولاية الحق. أما قيمومة غيره، فهي بما خوّله الله له من الولاية تكويناً، وفي حدود ما أمر به تشريعاً.

[٢٥٦] هذا هو ربنا وهذا علاه وعظمته وهذه قدرته وسلطانه، أفتتخذ بعد ذلك إلها من دونه، أو قائدا لا يرضى ربنا به. إن القلب الذي عمر بالإيمان بالله، كيف يعظم أحدا سواه، أم كيف يعبد إلهاً من دون الله، وكيف لا يرفض ويلفظ هؤلاء الأقزام الذين يطغون في الأرض بغير الحق ويأمرون الناس بطاعتهم.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ إن الدين لا إكراه فيه. والهدى الذي يُكره عليه لن يهتدي به أحد، وإنما هو إكمال الحجة وإتمام عناصرها، ليستبين الرشد ويتمايز عن الغي.

وفي الجهة الثانية إن الاستسلام للطاغوت ضعف يفقد الإنسان استقلاله ووعيه وحريته، ومن هنا يكون الإنسان مسؤولاً عن ضلالة نفسه، حيث يُسلم قياده للجبت والطاغوت، فيحجب نور العقل عن نفسه.

لقد خلق الله البشر ليبتليهم، وجعل مادة الابتلاء الاهتداء. ولو شاء لجعل لهم الهدى بالفطرة كما نور أعينهم، فاهتدوا إلى الحق جميعاً. ولكن أين إذن شرف الحرية، وأين حكمة الاختيار؟.

ومن هنا لا يكون هَمُّ المؤمنين جبر الناس على الهدى، وإنما إبلاغ آيات الهدى إليهم، حتى يتبين لهم الحق. إن شدة وضوح (قيمومة) الله تعالى وهيمنته ورحمانيته لا تحتاج معها إلى بيان آخر يبرهن على أنه هو الإله الحق، لا إله إلا هو.

إذن ينبغي للناس أن يعبدوه بطاعته وأن يتخذوه وليًّا من دون الشركاء والطواغيت.

بيد أن الخطوة الأولى هو في التمرد على الباطل، كما النفي في كلمة التوحيد ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأنه استعاد حريته وإنسانيته، واستطاع أن يستثمر طاقاته في السبيل الأقوم. وأية قوة هي أقوى من الإنسان حين يكفر بالطاغوت، ويتمرد على كل سلطة تستعبده وتستغله، ثم يؤمن بالله ويعمر قلبه بالثقة والأمل والتواضع للحق والتسليم له؟!.

إن القوة الحقيقية في هذا الكون هي قوة الحرية (الكفر بالطاغوت) وقوة الحق (الإيمان بالله). والله يؤيد بنصره من يشاء، وهو سميع لما يقولون من كلمة كفر أو إيمان، وعليم بما يضمرون من نية صالحة أو خبيثة.

[٢٥٧] إن في الحياة سلطة حقيقية واحدة -متمثلة في سلطان الله- وقدره وقضائه، وبالتالي سننه الحتمية، وأنظمته التي لا تتحول ولا تتبدل. ومن خضع لهذه السلطة، واتصل بها، واستمد منها القوة والشرعية، استطاع أن يسخر الحياة، ويصبح خليفة عليها من قبل تلك السلطة. ومن كفر بها وتمرد عليها، وفتش عن سلطات وهمية واستسلم لها، ظل عبدا وتاه في ظلمات لا يبصر. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لأنه وليهم وسيدهم، وهم اتصلوا بسلطانه، واستمدوا منه القوة والشرعية والنور. والهدى الذي لا يحصل عليه الإنسان مادام مستعبدا للطواغيت ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ إذن فالإنسان الذي لا يخضع لله، لا يتمرد على الطاغوت، لأنه أساسا يكفر بالله استجابة لضغط الطاغوت المتمثل في المجتمع الفاسد، والنظام الفاسد والاقتصاد الفاسد، وأول ما يسلبه الطاغوت ممن يستعبده قدرته على التفكير واستقلاله فيه، فلا يرى إلا ما يراه الطاغوت. ولا يعمل إلا بما يملي عليه. من هنا يفقد عقله الذي وهبه الله للإنسان.

إن الشرط الأول للفكر السليم، هو التحرر من الاستعباد والتبعية. لأن العقل لا يتحرك إلا بوجود الثقة والحاجة. والرجل الذيلي أنّى له الثقة بذاته أو الشعور بالحاجة إلى التفكر، مادام لا يحتاج إلى التفكر، ولن يطبق نتائج الفكرة لو قدر له عرضا أن يفكر في شيء.

والتفكير السليم، هو الشرط الأول للقوة في الحياة. من هنا ركز القرآن الحكيم على أن الإيمان بالله يعطي صاحبه التحرر، والتحرر يعطيه القوة (التمسك بالعروة الوثقى) والعلم (يخرجه من الظلمات إلى النور).

ولكن أي إيمان هذا الذي يعطينا القوة والعلم.. إنه الإيمان الواعي، لا الإيمان المكره عليه الذي هو الآخر نوع من الاستعباد والخضوع للطاغوت. أرأيت لو آمن شعب بالله لأن السلطة السياسية فيه أجبرته عليه، هل هذه حرية أم استعباد..؟ بالطبع استعباد، لأن هذا الشعب سوف يكفر بالله لو أن السلطة السياسية أمرته بالكفر. من هنا تحدث القرآن في بداية الحديث عن الحرية الدينية وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

[٢٥٨] من الذي يمثل السلطة الشرعية الحقيقية في الحياة، الله أم الطواغيت؟

إنه الذي يمنح الحياة لمن يشاء ويقدر له الموت حينما يشاء، الذي يجعل الحياة تستمر بتزويدها بمقوماتها من نعم لا تحصى، الذي يدبر الشمس التي تطلع كل نهار لتملأ الدنيا دفئا ونورا وحياة، مَنْ هو غير الله سبحانه.. ولكن الظالمين لا يفقهون.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ فبدل أن يشكر ربه على الملك الذي آتاه، انقلب على ربه وطغى في الأرض. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وليس ربي مثلك أنت الطاغوت العاجز، ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ أمر باثنين حكم عليهما بالإعدام، ثم عفا عن واحد وقتل الثاني، ولكن هل كان بإمكانه أن يعيد المقتول إلى الحياة؟ كلا بيد أن إبراهيم لم يشأ أن يجادله بل إنه هز فطرته بصورة عنيفة تجعله أمام الواقع بلا لبس ولا تشويه. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾. ولكن لماذا لم يؤمن؟ لأنه كان ظالما، والظالم يحجبه ظلمه عن الحق. إنه لا يفكر إلا بمصالحه وأهوائه وشهواته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الملوك الذين يحاربون الدعوات الإصلاحية، والأغنياء والمترفون الذين يناهضون الثورات الإصلاحية، والأحبار والرهبان والعلماء الذين يعادون الأفكار البناءة التقدمية، إنما هم ظالمون ويخشون العدالة والإصلاح. وكل ظالم اختار عمليًّا سبيل الاعتداء على حقوق الناس، فهو سيقف في صف الباطل -فكريًّا- كما وقف في صفه -عمليًّا- ويكفر بالحق عاجلا أم آجلا.

[٢٥٩] أما الذين التزموا بالحق عمليًّا ولم يعتدوا على حقوق الناس، فسوف يهديهم الله، لأن فطرتهم سليمة ولا تحجبهم عن رؤية الحقائق سوى الغفلة التي يكشفها الله عنهم، فإذا بهم يبصرون الحقائق، حيث هداهم الله إلى نفسه حين عرَّفهم أنه هو واهب الموت والحياة جميعا، وأنه قادر على أن يحيي الموتى.

إن سياق الآيات لا يزال يحدثنا عن تدبير الله سبحانه مباشرة للحياة، ويلهمنا أفكارا - عملية - مستوحاة من هذه الحقيقة ولقد رأينا آية الكرسي كيف انتهت بنا إلى ضرورة رفض حكم الطواغيت، أما هنا فينتهي بنا السياق إلى ضرورة الإيمان بالبعث انطلاقا من الإيمان بقدرة الله الواسعة. لنعد إلى الآية ولنستمع إلى قصة عزير الذي هداه الله إلى نفسه. ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ كان مع عزير حماره وطعامه، الحمار كان قد أصبح رميما، أما طعامه فلم يزل طريًّا كذلك أراد الله أن يبين لعبده قدرته وتدبيره المباشر لشؤون الحياة فقال له: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ أي لم يتعفن.. بالرغم من مرور مائة عام عليه، أما الحمار فقد انتهى إلى رميم ولكن سيبعثه الله من جديد.

﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ حيث إن الله أحياك، من بعد موت دام مائة عام، وأحيا أمامك حمارك لتنظر إليه، وتنقل إلى الناس كيف، وبأية صورة يحيي

الله الموتى. كذلك أخّر الله إحياء الحمار حتى تتم العملية أمام عينه، ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ نركّبها بعضها على بعض ونرفعها إلى بعضها -بدقة-. ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذه هي الحقيقة التي لابد أن نفهمها جيدا. وهي أن قدرة الله ليست محدودة كما هي قدراتنا.

[٢٦٠] ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ(١)﴾.

ذلك إن الإيمان درجات أعلاها: درجة اليقين والاطمئنان، الذي يطرد تماما شيطان الشك من النفس، ولا يعود الإنسان يرتاب أبدا فتسكن النفس (الطمأنينة) وتستقر. لكن السؤال ليس عن أصل الإحياء (البعث)، فتعبير ﴿أَرِنِي كَيۡفَ﴾ أنه عليه السلام طلب الرؤية والشهود عيانا لكيفية حصول البعث لا البعث نفسه. وجواب إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلَىٰ﴾ يقطع توهم؛ بأن الخليل انتابه شك.

وقد أرى الله الخليل عليه السلام (الكيف)، وأراه من ملكوت خلقه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام٧٥].

﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ (صرهنّ) من (الصور) أي التقطيع، ومعنى التقطيع أنسب من المعاني الأخرى كالميل والنداء بدلالة ﴿جُزۡءٗا﴾ أي خذ أربعة من الطير واذبحهنّ وقطّعهنّ واخلطهنّ.

﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ﴾ بأسمائهن الواحد بعد الآخر.. الغراب، الحمام، العصفور، وهكذا.. ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾.

إذن؛ فالبعث يكون للجسم وللروح معاً، وهذا معنى الإحياء، كما أن تجمع الأجزاء المتناثرة واضح في ذلك، وهو ما رآه إبراهيم عليه السلام بعينيه؛ أي ضم الأجزاء وعود الروح فيها.

﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ فهو قادر ويفعل بقدرته في الحياة ما يشاء فهو عزيز الجانب لا يغلبه أحد ولا شيء وهو حكيم لا يتصرف عبثا ومن دون هدف.

---

(١) عن صفوان قال: «سَأَلْتُ أَبَا الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ أَكَانَ فِي قَلْبِهِ شَكٌّ؟ قَالَ عليه السلام: لَا؛ كَانَ عَلَى يَقِينٍ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ مِنَ الله الزِّيَادَةَ فِي يَقِينِهِ». مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٩٥.

الإنفاق في سبيل الله

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ (١) سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ (٢) حَلِيمٌ (٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ (٣) وَٱلْأَذَىٰ (٤) كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ (٥) أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ (٦) وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ

---

(١) أنبت: النبت الحشيش وكل ما ينبت من الأرض يقال نبت نبتاً.

(٢) غني: الغني الواسع الملك، والله غني بأنه مالك لجميع الأشياء لأنه قادر عليها لا يتعذر عليه شيء منها، والغنى ضد الحاجة، والغنى الكفاية.

(٣) المنّ: هو ذكر ما ينقص المعروف كقول القائل: أحسنتُ إلى فلان وأنعشته. وأصل المن القطع، ومنه قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع. وسمي ما يكدر المعروف مِنَّة لأنه يقطع الحق الذي يجب به.

(٤) الأذى: ضرر يتعجل وصوله إلى المضرور.

(٥) بربوة: الربوة المرتفع من الأرض.

(٦) طل: المطر الصغار، يقال: أطلت السماء فهي مطلة، وروضة طلة ندية.

وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ
الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ(١) فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ
إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ
يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ
وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ
﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ(٢) فَنِعِمَّا
هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا(٣) وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ
عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ
عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا
تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ
الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا
فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ(٤) لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا(٥) وَمَا تُنفِقُوا
مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم

---

(١) إعصار: الإعصار غبار يلتف بين السماء والأرض كالتفاف الثوب في العصر.

(٢) الصدقات: الفرق بين الصدقة والزكاة أن الزكاة لا تكون إلا فرضاً والصدقة قد تكون فرضاً وقد تكون نفلاً.

(٣) تخفوها: تستروها.

(٤) سيماهم: السيماء العلامة التي يعرف بها الشيء، وأصله الارتفاع لأنه علامة رفعت للظهور، ومنه السوم في البيع وهو الزيادة في مقدار الثمن الارتفاع فيه عن الحد.

(٥) إلحافاً: إلحاحاً في المسألة، وقيل: التحف شمل المسألة وهو مستغن عنها، واللحاف من هذا اشتقاقه لأنه يشمل الإنسان في التغطية.

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

الإنفاق في سبيل الله نتيجة مباشرة للإيمان بالله وعلامة على عمق اليقين بأن الله هو القادر على الكون وأنه واهب الحياة والغنى والملك والهدى.

وشخصية المسلم تتميز بأنها معطاءة، وعطاؤها ليس من أجل شهرة أو رياء، بل في سبيل الله. ووفق المنهاج الذي رسمه الله.

والقرآن تحدث عن الإنفاق في أكثر السور، إلا أن حديثه هنا يتميز بالجوانب النفسية للإنفاق، والتي تعالجها سورة البقرة أكثر من غيرها، فالإنفاق هنا جاء بوصفه مظهر من مظاهر الإيمان بالله واليوم الآخر.

ففي الآية الأولى نجد التوجيه إلى ضرورة أن يكون الإنفاق في سبيل الله، وفي الثانية والثالثة والرابعة ألاَّ يكون وراءه منّ ولا أذى، أما الخامسة فهي تضرب مثلا على الإنفاق في سبيل الله كيف أنه يثبت الإيمان، أما الآية السادسة فهي تأمر بأن يكون الإنفاق من المال الطيب وليس الخبيث وهكذا..

بينات من الآيات:

[٢٦١] الله هو واهب الحياة وواهب نعمها، والآن يطلب منا أن نقدم له بعضا مما أعطانا، حتى يعوضنا عنه أضعافا مضاعفة، إن ما نقدم لله لن يضيع، بل مثله كالحبة التي ندفنها تحت الأرض، فهي لا تنتهي، بل الأخرى التي نأكلها هي التي تنتهي، أما هذه التي سترناها تحت الأرض، فهي تنمو وتنمو حتى تصبح مئات الحبات، هذا صنع الله، إنه يأخذ منك قدرا بسيطا من المال تنفقه في سبيله فيضاعفه لك. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

[٢٦٢] قد يكون الإنفاق في سبيل الله في ظروف صعبة، كأن يكون صاحبه قليل المال، ولكنه ينفق على من هو أفقر منه، أو يؤثر الآخرين على نفسه وبها حاجة، أو يتحدى بالإنفاق سلطان الطاغوت، أو يداوي جرح مظلوم. وآنئذ يكون الجزاء بقدر المشقة، وبحسب الظروف الموضوعية والنفسية التي تكتنف الإنفاق، والله يعلم بهذه الظروف تماما، وهو قادر على أن

يضاعف العطاء بسببها.

إذن الإنفاق في سبيل الله نوع من الاستثمار في الحياة الدنيا والآخرة، ولكن هذا الاستثمار مهدد بالخسارة، لو لم يحافظ عليه صاحبه، ويقاوم شهوة الشهرة والسلطة، وألاَّ يتبع إنفاقه بالمن والأذى. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فلا يشبع شهوة الشهرة، أو السلطة، في نفسه عن طريق الإنفاق، فيتعالى على الفقير أو يتجبر عليه بغير حق، ويكوّن لنفسه طبقة ضد طبقة الفقراء، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

[٢٦٣] ثم يؤكد القرآن هذا الشرط الصعب في الإنفاق، الذي يحتاج تحقيقه إلى ترويض شديد للنفس الأمارة بالسوء، وردع دائم للشهوات الشيطانية فيها. يؤكده ويقول: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ فلو لم يدفع الغني ماله للفقراء، ولكنه يجالسهم ويحسب نفسه واحدا منهم ويعتبرهم إخوانه، ولم يتسلط عليهم، بل إذا صدرت منهم خطيئة صبر عليها، وغفرها لهم. هذا أفضل عند الله من أن يدفع ماله بدافع السيطرة عليهم، وتذليل كرامتهم، وتكوين حالة طبقية في الأمة.

هكذا يرفض الإسلام أي نوع من الإنفاق المشروط من قبل الأغنياء يكرس كبرياءهم المزيفة، وتسلطهم اللا مشروع. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ فلا يحتاج إلى إنفاق المرائين ولا غيرهم وإنما المحتاج هو الإنسان نفسه. وهو سبحانه ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يبادر الناس بالعذاب بل يترك المجال مفتوحا لهم ليتوبوا حينما يغلبهم الشيطان.

[٢٦٤] ويتابع القرآن الحديث عن الفكرة ذاتها بكلمة توجيهية للمؤمنين يحذر فيها من أن صدقاتهم سوف تتبخر، بل وتحترق، بمجرد استخدامها في سبيل السيطرة على الفقراء والمحرومين، ولا تعود الصدقات سببا لنمو المال، ولا لرحمة الله في الآخرة.

ويضرب لنا مثلا موضحا ويقول: أرأيت كيف يبطل الإنسان عمل الخير؟ إنه أشبه شيء بأرض جبلية صماء، جمع الفلاح حفنة من التراب عليها ليزرع فيها، ولكن سيول المطر ذهبت بتلك الحفنة من التراب، فعادت الأرض إلى طبيعتها الأولى، لا تصلح للزرع، هكذا.. الذي ينفق ماله، ثم يستخدم إنفاقه للسيطرة كالصحراء لا تصلح لنبات الخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ حتى يراه الناس فيرضون عنه، ويقدرون جهوده، وبالتالي يتعالى عليهم. ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ حتى يكون عطاؤه في سبيله فهو لا يعمل لوجهه ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ومادام إيمانه باليوم الآخر ضعيفا فهو يبحث عن

الشهرة والسمعة، والنتائج العاجلة، فسعيه يكون للدنيا وحدها.. دون أن تدخل فيه حسابات الآخرة.. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ الصفوان: الحجر الأملس المستوي، والوابل: المطر شديد الوقع، والصلد: الصخرة الملساء التي لا تنبت شيئا، ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ لأنهم أبطلوا استثمارهم، ولم يبق لديهم شيء في بورصة الآخرة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بل تتحول قلوبهم كتلك الصخرة الصماء، لا تزرع فيها الهداية، لأنها -أساسا- لا تطلب الهداية، بل تعشق السلطة والسيطرة والتكبر على الناس.

[٢٦٥] وهناك مثل آخر، يعاكس هذا المثل تماما، إنه مثل المؤمنين المخلصين لله في إنفاقهم: إنهم سوف يحصلون على ثلاث فوائد:

الأولى: اكتساب مرضاة الله.

الثانية: تزكية أنفسهم وتربيتها على التقوى والعطاء.

الثالثة: جني ثمار العطاء في شكل ثواب عظيم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ لأن الإيمان، كأية موهبة أخرى، تزداد كلما استفاد الإنسان منها، كالإرادة تقوى كلما تحدت الصعاب، والمعرفة تزداد كلما انتفع بها صاحبها في العمل، والحب ينمو كلما اهتم به صاحبه، وهكذا الإيمان يثبته العمل الصالح وينميه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ فهي جنة أساسا.. لا مجرد صخور، كذلك قلب المؤمن، أرض قابلة للزراعة، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ عن طريق العمل الصالح المركز.. كالإنفاق في الظروف الحرجة، حيث إنه سوف يضاعف من قوة الإيمان، وثباته في النفس ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ إذ أن طبيعة الجنة، أنها تستدر الرطوبة وتكثفها في الفضاء، فلابد أن يصيبها طل (مطر خفيف)، أو رطوبة مفيدة، كذلك القلب المؤمن حتى ولو لم يواجه بنجاح تحديات خطيرة (كالإنفاق في المجاعة) فإنه سوف يمارس الأعمال الصالحة اليومية، مما يحافظ على إيمانه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا تفكروا في الناس ولا تراؤوهم، كفى بالله رقيبا على أعمالكم، وكفى به مثيبا.

[٢٦٦] ويضرب الله: مثلا رائعا لما يصيب الإنسان من خيبة أمل بسبب إحباط أعماله، يوم يحتاج إلى الجزاء، فيكتشف أن لذة الشهرة أو السيطرة التي أرادها من عمله فأتبعه بالمن والأذى، قد ذهبت بخيراته، وأصبحت هباء منثورا، يقول ربنا: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ

﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ كم يحتاج هذا المسكين إلى هذه الجنة، التي هي خلاصة جهوده في الحياة الدنيا..؟ ولكن كيف به إذا أحاط الخطر بجنته ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، هل يمكن تصور خيبة أمل هذا الشيخ المحروم من جهده؟! كذلك هي حالة ذلك الذي أنفق أمواله رجاء الثواب، ثم بعث بنار المن والأذى، فالتهمت ثواب إنفاقه، ويوم احتاج إلى ذلك الثواب لم يجده، ووجد الله هناك أعد له نارا لاهبة، جزاء ريائه وكبريائه السخيفين ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

[٢٦٧] إذن الشرط الأول للإنفاق الصالح: أن يكون في سبيل الله، والشرط الثاني ألاّ يُتبع بالمن والأذى، فلا يستثمر من أجل تكريس الطبقية في المجتمع، والشرط الثالث يبينه القرآن في هذه الآية ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فعليكم باختيار أفضل ما عندكم، سواء حصلتم عليه بالجهد، كما المال والبناء، وما صنعتم بأيديكم، أو لم تصرفوا فيه جهدا، كما الزرع والضرع.. المهم أن تختاروا أفضل أموالكم لتقدموه لله، ولا تتوجهوا نحو الخبيث، حتى تختاروه للإنفاق، وفكروا لو انقلب الحال وكنتم أنتم الفقراء وغيركم ينفق عليكم هل كنتم تقبلون بهذا الخبيث؟

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟﴾ وتتساهلوا ﴿فِيهِ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وليس بحاجة إلى إنفاقكم، فهو غني وهو حميد في غناه. يتفضل عليكم من بحر غناه فيحمده الجميع، وأنتم -عباد الله المؤمنين به- تخلّقوا بأخلاق ربكم، وأعطوا من غناكم شيئا يحمدكم الناس عليه.

[٢٦٨] ولا تستجيبوا لصراخ الشيطان الذي يناديكم من داخل أنفسكم: لا تنفقوا لأنكم سوف تصبحون فقراء لو أنفقتم. كلا.. إن الإنفاق يدوّر الثروة بين الناس، ويسبب انتعاش الاقتصاد، وبالتالي استفادة الجميع، وحين يدعوكم الله إلى العطاء، فإنه يدعوكم إلى أفضل منه. ومن جهة أخرى، الشيطان يخوفكم من الفقر، فتمسكون أيديكم فيكرهكم الناس، وتنتشر البغضاء، وتتولد منها الفحشاء، أوَليس الأفضل هو الإنفاق، حتى ينتشر المحبة والوئام والخصام.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لأنه يخوفكم منه. ولكن لماذا يريد الإنسان المال؟ أليس حتى يتصرف فيه بحرية؟ فكيف إذا جاءه الفقير، ولم يتصرف في المال بالإنفاق. إذن ما الفرق بينه وبين الفقير الذي لا يملك شيئا!، كلاهما لا يملك قدرة التصرف في المال، وحال البخيل

أسوأ، فعجزه والمال حاضر، والفقير عجزه معذور لفقد ما يتصرف فيه.

ومن يخشى الفقر يهضم الحقوق ويظلم الناس ويُشيع الفحشاء في المجتمع وهذا من عمل الشيطان ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ متمثلة في السلام داخل قنوات المجتمع. بالإضافة إلى تزكية النفس من رواسب الذنوب، والنجاة من النار في الآخرة ﴿وَفَضْلًا﴾ متمثلا في مردود العطاء في سبيل الله حيث ينزل بالطبع على المنفق بالخير الكثير ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ العطاء.. لمن أنفق في سبيله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن ينفق فيجازيه خيرا من لدنه.

[٢٦٩] هذه حكمة وعلم للحياة، ومعرفة بالقوانين الثابتة التي تحكمها، أن العطاء يزيد من المال والبخل ينقصه. والتعرف على الحياة طريق للسيطرة عليها.

ولكن ليس كل الناس يملكون الحكمة التي هي خير كثير. إذ تَلَقِّي الحكمة بحاجة لترويض النفس ومغالبة الهوى لمطاوعة العلم والتبصر بالعواقب والقفز على ضيق الحاضر

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ الذين أوتوا العقل، ويستفيدون من عقولهم بالتنبيه والتذكرة، لأن العقل يكتشف الأشياء ويحيط بها علما، بشرط أن يتوجه إليها، ومهمة التذكرة التوجيه إلى العقل.

[٢٧٠] تأثير العطاء في الرخاء الاقتصادي، تأثير واقعي ترعاه سنة الله في الحياة، سواء عرف الناس بالعطاء أم لا. لأن علم الناس أو جهلهم، بالعطاء ليس له أثر في مدى تأثير العطاء في نمو الاقتصاد. ويكفي: أن الله يعلم بذلك، وهو الذي يزيد الثروة بالإنفاق لا الناس ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيجزي به خيرا، سواء كان إنفاقكم بسابق نذر أو لا، أما الذين لا ينفقون أموالهم ولا يفون بنذورهم، فحتى لو اعتقد الناس أنهم فعلوا ذلك، فلن ينفعهم ادعاؤهم الإنفاق، في نمو أموالهم، أو في منع الكوارث عنهم ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمكنهم نصرة الظالم، الذي لا يدفع حقوق الناس أو حقوق الله.

[٢٧١] مهدت الآية السابقة للحديث عن كتمان الإنفاق، وجاءت هذه الآية تشرحه بوضوح أكثر.. مادام الإنفاق في سبيل الله وليس بهدف الاستعلاء على الناس، فهو عمل صالح ولا يضره علم الناس به، ولكن كتمانه أفضل، لأنه أبعد عن هواجس النفس ووساوس الشيطان، وربما لهذا نسب الخير للمنفقين ذواتهم.. ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ خصوصا إذا كان ذلك يشجع الآخرين على العطاء ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فلستم بحاجة أبدا إلى علم الناس.. بل الله يعلم، وهو يزيدكم بالإنفاق خيرا، ويدفع عنكم الضر، ويكفر بعض السيئات..

[٢٧٢] والإنفاق إنما هو في سبيل الله، وليست القيادة الإسلامية إلا قناة للمال المنفق توصله إلى مستحقيه، وليست مسؤولة في إنفاق الأغنياء عن أكثر من ذلك ومن الحض عليه كما تبينه آيات أخرى.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ إنما المسؤول الأول عن أعمال الشخص هو ذاته، لأن فوائده وأضراره تصيبه مباشرة ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ ولا يحسب إنفاق عند الله إلا ذلك الإنفاق الخالص لوجه الله ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾. والإنفاق لا يختص بالمال، بل يمكن أن يشمل أي شيء يملكه المرء كالجاه حين يبذله في خير الضعفاء، والعلم يدل به الجهال إلى الخير، وكل شيء ينفق فهو محبوب عند الله في كتاب، مجزي به غدا ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

[٢٧٣] إلى هنا عرفنا شروط الإنفاق الصالح، يبقى أن نعرف: أين ننفق الأموال ولمن؟

يجيب السياق عن هذا السؤال: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ بسبب منع العدو لهم، كالذين أخرجوا من ديارهم، لأنهم لم يستسلموا للطاغوت.. أو بسبب الضعف والمرض كالمحاربين القدامى الذين أكلت المعارك شبابهم، ثم أصبحوا ضعفاء، لا يستطيعون امتهان عمل، ولا يمكنهم العودة إلى عملهم السابق ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ لأنهم لا يسألون أحدا شيئا لكرامتهم وعفة نفوسهم.. ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.

[٢٧٤] وكلمة أخيرة في الإنفاق في سبيل الله على الإنسان ألاَّ يضع حدًّا لإنفاقه، بل عليه أن ينفق أنّى وجد ثغرة في المجتمع يحاول سدها بإنفاقه، ويكون من ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

الربا والفساد الاقتصادي

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا۟(١) لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ(٢) الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ(٣) اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٤) (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ(٥) إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ(٦) وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

---

(١) الربا: الزيادة من قولهم: ربا الشيء إذا زاد، والربا هو الزيادة على رأس المال، وأربى الرجل إذا عامل في الربا ومنه الحديث: «مَنْ أَجْبَى فَقَدْ أَرْبَى».

(٢) يتخبطه: التخبط أصله الخبط وهو الضرب على غير استواء، والخبط ضرب البعير الأرض بيده، ويقال للذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه فهو يخبط خبط عشواء. والتخبط المس بالجنون والتخبل لأنه كالضرب على غير استواء في الإدهاش.

(٣) يمحق: المحق نقصان الشيء حالًا بعد حال، يقال: الله يمحقه محقاً فانمحق وامتحق أي هلك وتلف بذهابه حالاً بعد حال، والمحاق آخر الشهر لانمحاق الهلال فيه.

(٤) أثيم: المتمادي في الإثم.

(٥) نَظِرة: تأخير.

(٦) ميسرة: الميسر والميسور بمعنى اليسار والغنى والسعة.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

هدى من الآيات:

من الناس من ينفق في سبيل الله على الضعفاء، ومنهم من يعكس تماما فيستغل الضعفاء، ويبني كيانه الاقتصادي على أنقاض ثرواتهم المحدودة، هؤلاء هم المرابون الذين يتحدث عنهم القرآن هنا، لأنهم الوجه المتناقض مع المنفقين الذين تحدث عنهم الدرس السابق.

والآية الأولى تحدثت عن النتائج المرة للخلط بين البيع والربا، وبينت الآية الثانية الفرق بين المنفق في سبيل الله والمرابي، فالأول يضاعف له الله والثاني يمحقه.

وبعد أن وجَّه القرآن الأنظار إلى الصلاة والزكاة باعتبارهما وسيلتي خلاص للمؤمن من ضغط الشهوات ومنها شهوة الإثراء السريع بالربا، بعدئذ وجَّه نداء آخرا للمؤمنين بترك الربا والاكتفاء فقط برأس المال، ولم يكتف القرآن بذلك، بل أمر في الآية التالية بأن تُعطي مهلة كافية لمن لا يستطيع تسديد ديونه، أما الآية الأخيرة فقد ذكَّرتنا بالتقوى، تلك الصفة النفسية التي يكون تجنب الربا واحدا من مظاهرها.

بينات من الآيات:

آثار الربا

[٢٧٥] التجارة تزيد العقل، لأنها تحمل بين طياتها مخاطر الخسارة، فيفكر صاحب التجارة بكل أسلوب ينجح تجارته ويجنبها الخسارة، وبالتفكر المستمر ينمو العقل أما لو اطمأن الإنسان إلى مصدر ثابت من الربح يأتيه بلا تعب فلماذا يفكر؟!

إنه يعطل عقله لأنه لا يحتاج إليه، وشيئا فشيئا يضمر العقل حتى ينتهي، والربا هو ذلك المصدر الثابت الذي ينتظره كل الكسالى حيث يأملون أن تكون لديهم ثروة معينة يقرضونها للفقراء مقابل جزء من جهدهم، سواء خسر أولئك الكادحون أم ربحوا، ولذلك فإن أخطر أضرار الربا هو تشجيعه على تكوين طبقة من المترفين والمعتوهين في المجتمع.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾ لا يجهدون أنفسهم إنما يقومون ويتحركون لمجرد اللهو حيث يخالطهم خبل من الشيطان.

أن هذا الخبل نتيجة طبيعية لاختيارهم السيئ منذ البداية، حيث إنهم اختاروا الربا، وخلطوا بينه وبين البيع، فخالطهم الخبل وأصبحوا معتوهين طبيعيًّا، لخلطهم الباطل بين البيع والربا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وزعموا أنه كما يجوز التعامل بالبيع والاكتساب به، كذلك يجوز الاكتساب بالربا، فالبيع عندهم هو الربا بالضبط، ولكن بصورة أخرى: أنت في البيع تعطي سلعة وتأخذ ثمنا، وهنا تعطي قرضا وتأخذ إيجاره. كلا..

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ بالطبع ليس عبثا إنما الهدف محدد وهو: منافع البيع وأضرار الربا ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ له ما سلف من رأس أمواله، وهو مرجو لأمر الله إن يشأ يعذبه أو يَتُبْ عليه ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

[٢٧٦] والربا يسبب تكوين طبقة من المترهلين والعاطلين عن العمل المنتج، فيؤخر اقتصاد المجتمع، وهو في الوقت ذاته يمتص جهود الفقراء، ولا يشجعهم على العمل الجاد، في حين أن الإنفاق في سبيل الله، وإعطاء الفقراء صدقات لرفع عوزهم، وتهيئة رأس مال لهم، سوف يسبب في تدوير الثروة، وتحريك عجلة الاقتصاد وتشجيع العاطلين على العمل من هنا تقع الصدقات، في مواجهة الربا تماما.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ والصدقات دليل على إيمان المنفقين وشكرهم لنعمه الثروة، في حين أن الربا دليل كفر المرابين الحقيقي بالله، بالرغم من تظاهرهم بالإيمان، كما أنه عمل إجرامي وأثيم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، وربما جاءت كلمة الكفَّار بصيغة المبالغة للدلالة على أن المرابي يكفر مرتين، مرة حين لا يدفع للفقراء الصدقة، ومرة حين يمتص جهود الفقراء بالربا.

ما هو العلاج؟

[٢٧٧] كيف نتخلص من الربا؟ إن القلب البشري يهوى الثروة، ومن الصعب التخلص من هذا الهوى؟

يقول القرآن الحكيم: إن طريقة الخلاص من شهوة الثروة هي الإيمان بالله، والعمل الصالح، والصلاة، والزكاة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

[٢٧٨] أن تنمية التقوى في النفس هي مسؤولية المسلم نفسه، فعليه ألاَّ ينتظر شخصا

يربيه أو يعظه، بل ليكن واعظ نفسه ومربيها، وليتخلص من السلبيات وفي طليعتها الربا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإذا كانت بينكم وبين الناس ربا، فارضوا منهم فقط برأسمالكم، وأعفوهم عن الربا.

[٢٧٩] إذا لم تتقوا الله فإن الله يعلن عليكم حربا تتمثل في تخلف اقتصادكم، وإشاعة الخلاف بينكم، وتسلط العدو عليكم، ونزول الكوارث الطبيعية بكم وغيرها، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

[٢٨٠] يمكنكم استعادة رؤوس أموالكم التي دفعتموها للمقترضين دون اخذ الربا منهم، ولكن لا يجوز لكم الضغط عليهم ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ الذي استدان منكم ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ فلابد من إعطاء مهلة حتى يقدر على الوفاء، والأفضل من إعطاء المهلة هو التغاضي رأسا عن الدين، واعتباره صدقة ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

[٢٨١] صحيح أن من الصعب عليكم ذلك، ولكن يجب على الإنسان أن يتجاوز الدنيا في سبيل الحصول على الآخرة، فغدا لا تنقذ الإنسان من عذاب الله ثروته أو شهرته ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

العلاقة التكاملية بين التقوى والأنظمة الاجتماعية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

هدى من الآيات:

تكميلا للحديث عن الإنفاق والربا، تحدث القرآن في الآيتين ما قبل الأخيرتين من

سورة البقرة عن التقوى في الدين، مما يحتاج إليه المجتمع، وأمر ألاَّ يعتمد أحد الطرفين على حسن سلوك الطرف الآخر، بل يضبط عمله، فيكتب دينه إلى أجله ويستشهد عليه. والكتابة تكون بيد أمين، يملي عليه صاحب الدين فيكتب. وإن لم يكن هناك كاتب، فلابد أن يقبض صاحب الحق رهينة.

إن حكم الدين مَثَلٌ بسيط وواضح للعلاقة التكاملية بين التقوى بوصفها رادعاً نفسيًّا للمسلم عن الظلم، وبين الأنظمة الاجتماعية التي تمنع الظلم. فلا يمكن أن يكتفي المجتمع بواحد دون الآخر. إذ قد يكون الظلم ناشئا من عامل السهو والغلط والنسيان، وقد تكون التقوى ليست قوية إلى درجة منع الظلم، ولكنها إذا قرنت بالأنظمة الاجتماعية تصبحان معا عامل ردع ضد الظالم.

لهذا نجد: أن الله يأمر بالتقوى لتكميل ثغرات الأنظمة، فالكاتب والشهيد وصاحب الحق ومن يقترض منه، يجب أن يتزود كل أولئك بالتقوى، حتى يمكنهم التعامل من دون ظلم.. الكاتب يكتب بالعدل، والشهيد يقوم بالشهادة لله، وصاحب الحق لا يسأم من كتابة دينه صغيرا أو كبيرا، ومن عليه الحق (المقترض) لا يضار بالكاتب والشهيد، كل هذه ثغرات قانونية لا تسد إلا بالتقوى. وتأتي آية الدين لتكمل حديث القرآن هنا عن التقوى وربطها بالأنظمة الاجتماعية.

بينات من الآيات:

كتابة الدين

[٢٨٢] من هنا يقرر القرآن أن من المفروض أن يكون الدين إلى أجل مسمى، وأن يكتب حتى تسهل المطالبة به، وبالتالي لا يحجم أحد عن إقراض أخيه بحجة الخوف من المماطلة فيه أو إنكاره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ وهنا تلقى المسؤولية على المثقفين، فعليهم أن يراعوا العدل في الكتابة فلا يزيدوا أو ينقصوا، وأن يتحملوا مسؤوليتهم في الكتابة فلا يحجموا عنها بسبب أو بآخر ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾ وليتذكر الكاتب أن الله هو الذي زوَّده بنعمة العلم، فعليه أن يؤدي شكر هذه النعمة باستثمارها في خدمة المجتمع، فلا يمتنع عن الكتابة وليكتب ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي فليكتب الكاتب حسب ما يمليه عليه المقترض

لا حسب ما يمليه الدائن، لأن المقترض هو الذي سوف يُطالب بالمال في الأجل المحدد، وعليه أن يعترف سلفا بما يمكن فرضه عليه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ وهنا يأتي دور التقوى حيث من الممكن أن يتلاعب المقترض في الأوراق، فلا يعترف حين الكتابة بكل المال الذي استدانه، أو بالأجل المحدد له، فعليه أن يتقي الله ولا يغير في الكتابة الرسمية، منذ البدء، تمهيدا لأكل أموال الناس بالإثم.

﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ كأن يكون مريضا أو صغيرا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بأي سبب من الأسباب كأن يكون مسافرا، أو شخصا كبيرا لا يمكن حضوره عند الكاتب أو ما أشبه، فآنئذ يقوم وكيله ووليه بالإملاء على الكاتب، ويعتبر إقراره وتعهده كافيين لمطالبة موكله أو وليه بالحق.

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ على الورقة الرسمية ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ من الذين تقبل شهادتهم لمزيد الثقة فيهم، ولكن لماذا تخلفت المرأة عن الرجل في الشهادة؟

السبب أن المرأة قد لا تضبط الشهادة بسبب انصرافها عنها، وانشغالها عادة بأمور أخرى، فكان من المفروض أن يزداد العدد لمواجهة النقص في النوعية ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ وإذا طلب من الشهداء الحضور فعليهم الحضور لأنه من دون حضورهم قد يضيع الحق ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

ويجب أن يكتب دينه أنى كان قليلا أو كثيرا ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ لأنه من دون الكتابة يتعرضون للنزاع، والنزاع قليله كثير، وقد يمنع النزاع الصغير من تدوير الثروة في المستقبل.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ فالله يحب ذلك لأنه يضع حدًّا لأكل المال الحرام، وهو يسهل عملية الشهادة، لأن النص المكتوب دليل قوي على الحق، وهو بالتالي يمنع انتشار الريب في المجتمع الإسلامي، واللاثقة التي تتسبب بدورها في تحجيم المعاملات التجارية.

﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فلا يكتب لتسهيل عملية التجارة من يد تاجر إلى آخر، مما يعرف بالطبع موقع تداول السلعة فلا يتعرض للنسيان، كما أن الإنكار فيها أو السرقة غير وارد بسبب طبيعة انكشافها لدى الناس.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ لأن ذلك أقسط عند الله، وأبعد للخلاف في المستقبل. خصوصا في الصفقات الكبيرة كالعقارات. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي لا يجوز الإضرار بهما بسبب شهادتهم بالحق ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ فالإضرار بالكاتب أو الشهيد يجعلهما يميلان عن الحق ويجاريان الأقوى، وقد تكون أنت الأقوى اليوم، أما غدا فيكون خصمك هو الأقوى، في حين تكون أنت صاحب الحق ضعيفا. وإذا انتشر في المجتمع الإضرار بالكاتب والشهيد، وبالتالي انتشرت الكتابات الوجاهية وشهادة الزور، آنئذ قد تصبح أنت ضحية هذا الفسوق، لذلك قال القرآن: ﴿فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ أي فساد يشملكم كلكم، وهنا ثغرة قانونية تسدها التقوى، إذ ينبغي أن يلتزم الجميع بعدم الإضرار بالكاتب والشهيد التزاما نابعا من إيمانهم بالله، حتى لا ينتشر الفساد والفسوق. وأخيرا يذكرنا الله بعلاقة التقوى بالعلم، ويبين أنه إذا كانت التقوى نابعة من الإيمان بالله، فإن العلم هو الآخر نعمة من نعم الله، فعلينا ألاَّ نكتفي بواحد عن الآخر ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

هذه الآية أطول آية في القرآن. وتناولت العلاقة بين الغيب والشهادة، بين الروح والجسم، بين الإيمان والعلم، وبالتالي بين النصائح الخلقية والأنظمة الاجتماعية، وهي توصي بضرورة الوصول إلى الحق عبر أي وسيلة مادية أو معنوية مشروعة ممكنة، وتدع الباب مفتوحا أمام بعض الوسائل الحديثة التي تكشف صاحب الحق، لأن كل وسيلة مادية توصلنا إلى اليقين التام والعلم القاطع بالحقيقة يأمر الإسلام بها، ويعتمد عليها جنبا إلى جنب اعتماده على روح التقوى المتجذرة في النفوس.

[٢٨٣] وتكميلا للحديث عن الدين يتحدث القرآن عن الرهن فيقول: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ فإن الرهن يساعد على استمرار العلاقة التجارية بين الناس، فعملية الرهن ليست مفروضة لذاتها، بل بهدف المحافظة على حق الدائن.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ فمادام الشخص وضع ثقته فيك فلا تخنه في أمانته، واتق الله لأنه سيطالبك بحق صاحب الأمانة، ويأخذه منك عاجلا أو آجلا.

﴿وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فإذا كان أحد من الناس يعرف أمانة عند أحد، فليشهد لصاحب الأمانة ولا يكتم الشهادة، فإن ذلك سوف يسبب نقصا في إيمانه.

المسؤولية ومسقطات الأحكام

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا[1] كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من هذه السورة، يحدد الله بعض بنود المسؤولية والتي تزرعها التقوى في النفس، فيبين:

أولاً: أن الله يحاسب الإنسان على كل عمل، وعلى كل نية سواء أظهرها الإنسان أم لا. فمادامت النية (الإرادة) هي منشأ العمل، فإن الله يحاسب عليها.

ثانياً: أهم مسؤولية على الإنسان وهي مسؤولية الإيمان بالله ورسوله والاعتقاد أبدا

---

(١) إصراً: كل ما عطفك على شيء من عهد أو رحم. وأصل الباب العطف فالإصر الثقل لأنه يعطف حامله بثقله عليه.

بالتقصير أمام الله.

ثالثاً: يبين حدود مسؤولية الإنسان، إنها في إطار قدراته. فبقدر سعة قدرات الإنسان تتسع مسؤولياته، وكل إنسان يتحمل مسؤولياته دون مسؤوليات الآخرين. وهنا استثناءات في المسؤولية منها: الخطأ والنسيان والحرج والعجز (الضرر).

هذه الاستثناءات خاصةً ليست دائمة، بل في ظروف معينة (كالجهاد في سبيل الله) لا يستثني عن المسؤولية شيء. ذلك لأن النسيان ينشأ من اللامبالاة، والخطأ ينشأ من عدم الجدية. أما الحرج والضرر، فهما يرافقان ظروف الجهاد بصورة طبيعية.

وتنتهي سورة البقرة بالدعاء بالانتصار على الكافرين، وهو التطلع العظيم الذي يبقى دافع الأمة نحو التقدم والبناء، والمحور الذي تلتف حوله فئات الأمة فتبتعد عن التشرذم.

بينات من الآيات:

[٢٨٤] إصلاح الأمة يبدأ من إصلاح أفرادها، ويبدأ إصلاح الفرد بتزكية نفسه وتصحيح منطلقاته وأهدافه.

ذلك لأن كل شخص يعمل وفق ما تمليه أهدافه، وينظر إلى أحداث الحياة ويحدد مواقفه منها حسب منطلقاته. والقرآن الحكيم يحمل الإنسان مسؤولية إصلاح منطلقاته وأهدافه حين يحمله مسؤولية أفكاره. فلست حرًّا في أن تفكر فيما شئت، ذلك لان بعض تلك الأفكار من أبنية الشيطان التي تكبر وتكبر حتى تصبح أعمالا خبيثة. فعليك أن تفرض على قلبك رقابة شديدة، حتى لا تدخله كل فكرة خبيثة وهاجسة انحرافية. وعليك أن تعرف أن علم الله وقدرته وسلطته تحيط بك وبالسماوات والأرض فانتبه لكل أعمالك.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ والإنسان بعض ما في الأرض ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم الذين إذا مر بهم طائف من الشيطان تذكروا فاستغفروا الله، هؤلاء يقبضون على الأفكار المتسللة الدخيلة إلى قلوبهم ويطردونها، فيغفر الله لهم الله، بعد أن يحاسبهم حسابا يسيرا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على الحساب الدقيق لما يجري في النفوس، وقادر على الجزاء. وربما هذه الآية جاءت لتبين مسؤولية الإنسان تجاه أفكاره تكميلا لبيان مسؤوليات البشر.

[٢٨٥] فالإنسان إذن مسؤول عن تصرفاته ومسؤول عن أفكاره، وعليه فهو مسؤول

عن الإيمان أو الكفر في قلبه، ذلك لأن كل بشر يولد بالفطرة التي يستطيع أن يعرف الله بها، لو لا أنه يطمر فطرته في تراب الشهوات، ويحتجب وراء سحب الأساطير والخرافات، فلا يؤمن بالله. إلا الذين يستجيبون لفطرتهم ويستنيرون بنور العقل ويخرقون به حجب الغفلة والأساطير، إنهم يصممون على أن يقاوموا ضغوط الهوى باتجاه الفكر، وأن يتبعوا هدى العقل في الإيمان بالله.

من هنا فالمؤمنون هم الذين يتحملون مسؤوليتهم تجاه ما يجري في قلوبهم فيختارون الإيمان ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ هذه هي عناصر الإيمان الأساسية وهي قاعدة بناء الشخصية المسلمة التي يلخصها القرآن في نهاية هذه السورة التي تحدثت عنها بشكل مسهب. الإيمان بما أنزل الله من كتاب، والإيمان بالرسل جميعا دون حساسية تجاه رسول، إذ إن أية حساسية من هذا النوع تضر بالإيمان ذاته.

فاليهود مثلا، الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ انطلاقا من حساسيتهم تجاه العرب، كانوا كفارا حتى برسالة موسى، لأن رسالة موسى لم تكن عنصرية، بل إلهية وهم حوَّلوها إلى عنصرية.

والإيمان بالملائكة هو رمز الإيمان بهيمنة الله وسلطانه في كل شيء، وانه الذي يدبر ما في الكون من فوق عرشه العظيم الذي وسع السماوات والأرض.

وهذا الإيمان يدفع بصاحبه إلى السماع والطاعة. السماع لفهم كتب الله ورسالاته. والطاعة لرسل الله ورجال دعوته.

﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والإيمان يدفعك إلى الشعور بالمسؤولية والخشية من الذنب والاهتمام بالمغفرة، كما أن الإيمان بالله يدفعك إلى الإيمان بأن مصير العباد إليه، وأنه يجازي على الحسنات وأنه قادر على أن يبعث الموتى.

إطار المسؤوليات

[٢٨٦] ما هي حدود المسؤولية وبالتالي حدود التقوى التي تحدثت عنها الدروس السابقة؟

أهم هذه الحدود:

١- القدرة: إن القدرة شرط عقلي للتكليف، ولذلك لا يكلف الله أحدا على أعمال

الآخرين لأنه لا يقدر عليها فبقدر استطاعتك يكلفك الله، ولن يكلف الله أحدا إلا بما يقدر. فلو استطاع شخص التأثير على الناس باتجاه الخير، فسوف يُكلَّف بهم بقدر استطاعته، وفي حدودها ولا يكلف الطفل الذي لا يميز شيئا، ولا المجنون، ولا المريض بما يعجز عنه، ولا المعدم.

ولا يحمّل الله الإنسان مسؤولية الهواجس التي تتزاحم في قلبه من دون إرادة منه (كالحسد الذي لا يطيعه صاحبه أو كالتشكك في الخلق، والتشاؤم الذي لا يتبعه صاحبه).

و التكليف يقدر أيضا بالعمل سلبا وإيجابا.. فبقدر عملك الصالح تجازى بالخير، وبقدر عملك السيئ تعاقب بالسوء. ولا ينفعك عمل غيرك كما لا تضرك ذنوبه (أبوك، عشيرتك، مجتمعك) كل يعمل لذاته، وأنت تعمل لنفسك وإنما عملك يشفع لك ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾.

٢- والخطأ الذي يرتكبه الإنسان من دون عمد مَعْفُوٌّ عنه، بالرغم من أن المسؤولية قد تشمله بسبب أن الخطأ ينشأ من اللامبالاة. ومن هنا نجد أن الله وضع على بعض أنواع الخطأ كفارة ليردع الناس عنها، وليزيدوا من اهتمامهم بأنفسهم ولا يتورطوا فيها. مثل كفارة الخطأ في الحج وكفارة قتل الخطأ.

٣- النسيان هو الآخر معفي عنه بالرغم من أنه يقع في حدود قدرة الإنسان أيضا. فبالاهتمام تستطيع ألاَّ تنسى شيئا.

من هنا جاء تعبير القرآن عن رفع مسؤولية الخطأ والنسيان بصورة دعاء. في حين كان التعبير عن رفع مسؤولية العجز بشكل قاطع. قال الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾.

٤- التكاليف التي تسبب ضررا لحياة الإنسان وابتعادا عن سنن الله، كالرهبنة والاعتزال عن الناس والامتناع عن الزواج أو عن أكل الطيبات، إن هذا النوع من التكاليف كانت في الأمم لأسباب مرحلية، ولكنها انتفت في الإسلام لأن الإسلام ليس دينا مرحليا بل دين أبدي، للبشر.

٥- في الإسلام خففت التكاليف المجهدة والتي سميت بالحرج، فإذا أصبح الصوم مرهقا لصاحبه ويستنفد كل جهده وكل طاقته، يجوز له آنئذ ألاَّ يصوم. وكذا الحج وكل التكاليف. لذلك قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا

﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ هذه هي حدود المسؤولية، ومشكلة الإنسان أنه قد يقع في الذنب حتى داخل هذه الحدود فيحتاج إلى العفو. العفو عن الذنب والتغاضي عنه، وعدم العقاب عليه، أما الغفران فهو محو الذنب من قائمة الشخص وتصفية آثاره. والإنسان بحاجة إلى عفو الله وغفرانه، كما يحتاج إلى توفيق الله له بأن يصلح من نفسه ما أفسده الذنب عليه.

إن كل ذنب يخلّف في ذات الشخص وداخل مجتمعه آثارا، وعلى الإنسان الذي يتوب إلى الله من ذنوبه أن يقوم بجهد مكثف بإصلاح ما أفسدته الذنوب، وهنا يحتاج إلى رحمة الله.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾
وهذا الدعاء الأخير هو تطلع الأمة إلى المستقبل، هذا التطلع الذي يعتبر هدف الأمة المقدس الذي يتمحور حوله كل أبنائها.

إن أية أمة بحاجة إلى هدف يكون بمثابة حبل يشد بعضهم ببعض، وقناة تصب فيها جهود الأمة، ومقياس لمدى تقدم الأمة أو تخلفها، ودافع قوي لأبناء الأمة يدعوهم إلى التضحية والعطاء والنشاط والتعاون.

والأمة الإسلامية تتطلع إلى يوم تنتصر فيه على الكافرين، وتحقق مبادئ الإسلام في الأرض، وتحمل الخير لجميع الناس. إنها تتطلع إلى تطبيق رسالتها في الأرض، ولذلك فهي ليست أمة عدوانية، أو عنصرية، أو استعمارية، إنها أمة تبني ذاتها لتهيئها للعطاء.

سُورَةُ آل عِمْرَانَ

* مدنية.

* عدد آياتها: ٢٠٠.

* ترتيبها النزولي: ٨٩.

* ترتيبها في المصحف: ٣

* نزلت بعد سورة الأنفال.

فضل السورة

قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ قَرَأَ السُّورَةَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلاَئِكَتُهُ حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ».

(بحار الأنوار: ج٨٦ ص٣٥٨).

***

قال رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ فَإِنَّ أَخْذَهُمَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهُمَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهُمَا الْبَطَلَةُ -يَعْنِي السَّحَرَةَ-، وَإِنَّهُمَا لَيَجِيئَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ عَبَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ».

(مستدرك الوسائل ج٤، ص٣٣٢)

الإطار العام

معدن الوحي ومهبط الرسالات

لماذا سميت هذه السورة باسم (آل عمران)؟ هل لأن آل عمران كانوا يشكلون التجمع الإيماني الصادق باعتبار أن السورة تتحدث عن الأمة الإسلامية بوصفها مجتمعاً مبدئيًّا يتمحور حول الإيمان بالله والحق، فقد سميت بآل عمران بوصفهم مثلاً واقعيًّا لهذا التجمع؟ أم لأن التجمع الإيماني يتمحور حول أشخاص، هم رسل الله في الأرض، وهؤلاء الأشخاص هم صفوة الناس الذين اختارهم الله بحكمته البالغة لما علم فيهم من إخلاص له، وصدق في العمل من أجله، و(آل عمران) هم مثل بارز لهؤلاء الصفوة، فكانت السورة باسمهم؟.

وسواء كان هذا أو ذاك السبب في تسمية السورة، فإن الله خلَّد هذه العائلة الكريمة بذلك، لكي تكون قدوة للإنسان المسلم، وللأسرة المسلمة، وبالتالي للمجتمع الإيماني.

ويتصل هذا الموضوع بالإطار العام للسورة، حيث إن هناك قيمتين تحكمان الناس؛ هما قيمة رسالات الله، وقيمة الأرض وما فيها من زخرف الحياة الدنيا. تتجلى قيمة الرسالة في الإيمان بالله، والتسليم له، واتباع الحق الذي أوحاه الله، وطاعة رسل الله بلا تفريق بينهم، وبالتالي قيمة مسؤولية الإنسان الكاملة عن أي تصرف يقوم به.

وتتجسد قيمة الأرض في تقديس البشر لذاته، والاعتقاد بالتمييز العنصري، ومن ثم القومي، والإقليمي، والطبقي، والتنصل عن بعض المسؤولية اعتماداً على العنصرية.

وتتحدث سورة (آل عمران) عن التقابل بين قيمتي السماء والأرض في الحقل الاجتماعي، حيث تبين لنا أن الأمة الإسلامية إنما هي تجمع مبدئي، تستمد تلاحمها من قوة الرسالة، وتتمحور حول قيم الإيمان بالله والتسليم له (وهو الإسلام) والخضوع للحق وتقبل المسؤولية، وبالتالي الجهاد الذي هو قمة المسؤولية والتضحية.

إن ضرورة الالتفاف حول القيادة الشرعية رغم تنوع رجالها وتعددهم ونبذ القيادة الكافرة، يعتبر موضوعاً رئيسياً لهذه السورة المباركة.

وتتحدث هذه السورة عن الوحدة المبدئية التي تربط رسالات السماء ببعضها، كما تربط عناصر الأمة فيما بينها، وكذلك تفصل بين الأمة الإسلامية وبين الأمم العنصرية الأخرى. فالمبدأ هو المقياس وهو القيمة، فهو الذي يفصل بين الأخ وأخيه، وهو الذي يربط بين العربي والأعجمي.

ومن هنا؛ تشير آيات سورة (آل عمران) إلى فكرة (العنصرية)، والتي تتجسد في عبادة أشخاص، واتخاذهم آلهة من دون الله (مثل عيسى عند النصارى). باعتبار أن هذه الفكرة هي جذر فكرة العنصرية، وهي تمثل أخبث ثمرة لتقديس الذات. لذلك يفصِّل القرآن الحديث حولها.

وهذه السورة، تتحدث في البدء عن الله الذي أنزل الكتاب بالحق ليهدي الناس؛ ولأن الله لا يخفى عليه شيء، فهو أحق أن يهدي إلى الحق (الآيات: ١-٦).

والكتاب الذي يمثل الدين الحق، لا ريب فيه، وإنما يختلف فيه البعض لأنهم يبتغون الفتنة، ويعتمدون تحريف الكتاب بسبب ابتعادهم عن المسؤولية، فهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ويزعمون أن أموالهم تغنيهم عن العذاب (الآيات: ٧-١٣).

إن الشهوات هي وراء انحراف الناس عن الحق، وإنما الخلاص منها بالإيمان بالآخرة، وبما أعد الله للصابرين عن الشهوات من أجر عظيم (الآيات: ١٤-١٨).

ورسالة الله إلى الإنسان واحدة، لأنها تشع من المشكاة ذاتها، بيد أن اختلاف الناس فيها نابع من أنفسهم المريضة، التي تريد الظلم والبغي. ولكي تتخلص البشرية من الاختلاف، فلابد أن يتكامل إيمانها بالله تعالى، وتبتعد عن العنصرية، وتعرف أن الله يراقب تحركاتها، وتؤمن بيوم الجزاء وتتبع رسل الله (الآيات: ١٩-٣٢).

وقد اختار الله رسله؛ لأنهم اتبعوه الله وأخلصوا له العبادة، فليست هنالك أية عنصرية، وليس النبي عيسى إلا عبداً لله، امتحنه الله فاختاره لرسالته. وإذا لم يكن عيسى عليه السلام إلا عبده، جزاه الله بصالح عمله، فهل يقدر البشر أن يتقدموا بلا عمل صالح، ولمجرد أنهم من عنصر مقدس؟!.

إن العنصرية هي أسوأ ما تعانيه البشرية، وهي الطرف المعاكس والمتناقض تماماً مع الرسالية.

وسورة (آل عمران) تنسف فكرة العنصرية من جذورها البعيدة، وتتحدث طويلاً عنها من خلال بيان مفصل لقصة النبي عيسى عليه السلام، ومن خلال الحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام الذي قدسه اليهود، وزعموا أنهم أولياء الله لمجرد أنهم أبناء إبراهيم عليه السلام (الآيات٣٣-٩٧).

كما أن هذه السورة تتحدث عن الوحدة داخل التجمع الإيماني، وما يجب أن تكون عليه الوحدة من صفات، ومنها صلابة موقفهم تجاه الكفّار، واعتمادهم على المبدأ الحق، دون المصالح الشخصية (الآيات: ٩٨-١٠٩).

وكلمة أخيرة؛ إن سورة (آل عمران) تتحدث مباشرة عن المسؤولية، باعتبارها أهم نتائج التجمع الإيماني، وفي نهايات السورة تتضح فكرة المسؤولية، ويضرب السياق أمثلةً توجيهيةً لها، أبرزها الجهاد في سبيل الله (الآيات: ١١٠-١٨٤).

وبمناسبة الحديث عن المسؤولية، تتحدث السورة عن الجزاء، وتبين أن كل من عمل صالحاً سيجزى بعمله، وأن من الخطأ تصنيف الناس حسب انتماءاتهم العنصرية، أو ولاءاتهم الدينية (الآيات: ١٨٥-١٩٥).

كما يذكرنا القرآن الكريم عبر هذه السورة بضرورة التسلح برؤية تأريخية ثاقبة، لاكتشاف القوانين الاجتماعية والسنن الكونية التي وضعها الله للحياة، ومنها حتمية انتصار الحق، وأن رسالات الله ما هي إلا توضيحات لتلك السنن.

هذه الفكرة هي التي تختم السورة آياتها بها، ونستوحي منها ضرورة الاعتماد على العمل في سبيل الله (الآيات: ١٩٦-٢٠٠).

رسالات الله بين الوحدة والعنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ (١) اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ[1] فِي الْأَرْحَامِ[2] كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن يذكّرنا الدرس الأول من سورة آل عمران بربنا الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، يبصّرنا بأن الكتاب الذي نزّله الله على قلب الرسول حق، وأنه يصدق ما مضى من كتب، وأن منزله هو الذي أنزل من قبل التوراة والإنجيل، مما يوحي بوحدة رسالات الله. أو ليست جميعا هدى للناس؟ وأنه لقرآن كريم يفرق بين الحق والباطل، وينذر الكافرين به بعذاب شديد نازل من عند عزيز منتقم.

والذي أنزل الفرقان حكيم خبير بمصالح عباده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي يحيط علما بطبائع البشر. أوَلَيس قد صورهم في الأرحام كيف يشاء. سبحانه لا شريك له وهو العزيز الحكيم.

(١) يصوركم: التصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها.
(٢) الأرحام: جمع رحم وأصله الرحمة، وذلك لأنها مما يُتراحم به ويُتعاطف، يقولون: وصلتك رحم.

بينات من الآيات:

[١] ﴿الٓمٓ﴾ كلمات مضيئات، معجزات لا يعرف مداها إلا الله والنبي ﷺ والراسخون في العلم.

[٢] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلمة التوحيد هي النقطة الأساسية التي تتمحور حولها الأمة الإسلامية. فهي خلاصة قيمها (لأن القيم مستوحاة من الله)، وهي رمز وحدتها. وهي قاعدة قيادتها، لذلك بدأت السورة بهذه الكلمة: أما ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، فهما اسمان من أسماء الله تعالى، يرمز كل واحد منهما إلى جانب من فكرة السورة.

﴿ٱلْحَيُّ﴾ اسم يرمز إلى أهم الصفات الذاتية لله، صفة القدرة والإرادة والعلم، إذ العاجز والمجبور، والجاهل، يفقد من حياته بقدر عجزه وجبره وجهله. وتعالى الله عن الموت بكل أشكاله وصوره، إنه الحي مطلق الحياة.

ما هو القيوم؟

الحياة التي نعيشها ليست موجودة فقط، وإنما هي منظمة أيضا تنظيما دقيقا، وكل نظام بحاجة إلى من يقوم به، ويهيمن عليه. فمن هو قائم بتنظيم هذه الحياة الواسعة؟

إنه الله الذي يشمل قيامه بالحياة على كل مرافقها، إنه يقوم بنظام حركة المجرة، لكيلا تصطدم نجومها مع سائر المجرات، كما يقوم في الوقت ذاته بنظام الذرة، لكي تبقى الإلكترونات والبروتونات تدور حول بعضها.

وكما في الكون كذلك في المجتمع، يجب أن يسود نظام الإسلام، ذلك النظام الذي أوحى به الله سبحانه، الذي لا يعلم فقط نظام الطبيعة -وبينها طبيعة الإنسان- وإنما يقوم أيضا بتسيير هذا النظام.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ هو صيغة الكثرة من القيام، والقيام استخدم في آيات الكتاب في معنى النظام أكثر من مرة واحدة ولأن الله حي وقيوم فهو الذي يجدر أن ينظم حياتنا الاجتماعية ويقوم عليها قياما، وهذه بالذات هي فكرة هذه السورة من بدايتها إلى نهايتها. إذن السورة ما هي إلا ترسيخ لاسمي الحق والقيوم، وتبسيط لهما وربطهما بسائر مرافق الطبيعة والحياة.

[٣] ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ لأن الله حي وقيوم فإنه نزل الكتاب تنزيلا متدرجا حسب الحاجة إليه، والكتاب لم يهبط على جبل، بل على

بشر كسائر البشر. إلا أنه بشر يتميز باتباعه للحق وتجسيده له.

والحق الذي نزل به القرآن على النبي ﷺ، هو التعبير الموجز عن التوافق بين الطبيعة وحياة الإنسان. وان التشريع السليم للحياة ينبغي أن يكون متناسبا مع الطبيعة وخالق الطبيعة العليم بها، ومدبر شؤونها، والقيوم عليها، أجدر بأن يشرّع للحياة وينظمها، ويقوم على تسيير هذا النظام.

والتشريع الموحى في الكتاب (القرآن) قديم قدم الإنسان ذاته وقدم حاجته إلى النظام، وعلم الله هو الآخر قديم. لذلك كان كتاب الله الأخير مصدقا لكتبه الأولى. لأن المشكاة التي أضاءت الحياة بالقرآن، هي التي أعطتهم الإنجيل والتوراة. فكل هذه الأنوار آتية من مصباح واحد.

[٤] ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

والقرآن والإنجيل والتوراة، وكل رسالات السماء نور واحد يستهدف غاية واحدة هي توفير الهدى للناس. ولماذا الهدى؟ لأن في الحياة خير وشر، صحيح وسقيم، صالح وطالح، فكيف يميّز الإنسان الخير عن الشر. أوَلَيس بمقياس؟ وبميزان وبقيم وبالتالي بفرقان يفرق بين الحق والباطل؟ ومن هنا أنزل الله ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾.

الذين يهتدون بالرسالات السماوية ويتمسكون بالفرقان، يميزون به الحق من الباطل، والخير من الشر، فطوبى لهم، أولئك لا خوف عليهم. أما الذين كفروا بآيات الله فماذا تنتظر لهم، هل تنتظر كفاية الدرب وبلوغ الهدف؟

كلا بل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وأي عذاب أشد من الضلال، ومن الانفلات في فوضى الحياة والوقوع في المهالك.

والله سبحانه لا يتركهم يعانون من عذاب شديد في الدنيا فحسب، بل يقف لهم بالمرصاد ليأخذهم في الحياة الآخرة أيضا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وحين يكون العزيز القوي المقتدر ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فيا للمأساة، ويا للنهاية المروعة.

والكتاب هدى وفرقان لسبب بسيط هو أن الله باعث الكتاب حي وقيوم، فهو حي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وقيوم، يهيمن على نظام الحياة

من أكبر الأشياء إلى أبسط شيء.

[٦] ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ هناك حيث لا تمد إليه يد الأبوين ولا يمتد إليه علمهما، هناك الله اللطيف يقوم بفعل التصوير حسبما يشاء. لأنه مطلق المشيئة واسع المشيئة، لا تخضع مشيئته سبحانه لضغوط أو حتميات، كما هي مشيئة الإنسان، حيث تخضع لضغوط الشهوة وحتميات العجز والجهل.

وإذا كان كل شيء ضمن عرض علم الله حيث لا يخفى منه شيء، وكل شيء في رحاب قدرة الله -حتى في الأرحام يصورنا كيف يشاء- فإنه الرب الأحد.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ واسمي ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هما معا مظهر المنظم الحقيقي. فالقائم بالنظام ينبغي ان يتمتع بالقدرة (العزة) و(العلم) أي الحكمة، ونجد هذين الاسمين في القرآن كلما ذكرت أنظمة وتشريعات.

والعزة هي المظهر الاجتماعي للقدرة، كما أن الحكمة هي الجانب العملي من العلم. ولذلك جاءتا عند الحديث عن التشريع دون اسمي القدير العليم.

حقائق القرآن بين حق التأويل وفتنة الباطل

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ (١) هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ (٢) وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ (٣) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ (٤) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ (٥) فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ (٦) لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ (٧) ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ (٨) إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ (٩) وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (١٠) ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ

---

(١) محكمات: المحكم مأخوذ من قولك: أحكمت الشيء إذا ثقفته وأتقنته.
(٢) أم الكتاب: أصله.
(٣) متشابهات: أي يشبه بعضها بعضاً فيغمض الأخذ من الشبه لأنه يشتبه به المراد.
(٤) زيغ: ميل.
(٥) الراسخون: الثابتون.
(٦) هب: الهبة تمليك الشيء من غير ثمن، والهبة والصلة والنحلة نظائر.
(٧) كدأب: الدأب العادة. يقال: دأب يدأب إذا اعتاد الشيء وتمرن عليه.
(٨) تحشرون: الحشر الجمع مع سوق.
(٩) جهنم: اسم من أسماء النار، وقيل: أخذ من الجهنام وهي البئر البعيدة.
(١٠) المهاد: القرار وهي الموضع الذي يُتمهد فيه أي يُنام فيه مثل الفراش.

يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً[1] لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾.

هدى من الآيات:

أرأيت كيف تتوحد حبات المسبحة؟ إنها تنخرط جميعا في خيط واحد. أوَ رأيت كيف تتوحد أوراق الشجرة الكثيفة؟ إنها تلتف حول الفروع التي تتمسك -هي بدورها- بالساق الغليظة الضاربة بجذورها في الأرض.

كذلك أبناء آدم لا يمكن أن يتَّحدوا من دون حبل يعتصمون جميعا به، أو أصل راسخ يلتفون حوله. فما هو ذلك الحبل في رؤية الإسلام؟

إنه كتاب الله المتجسد في رسول الله ﷺ، أو في من هو امتداد حقيقي لشخصية رسول الله. ولأن سورة (آل عمران) تتحدث لنا عن التوحيد والوحدة. سواء على صعيد المؤمنين برسالات السماء جميعا أو على صعيد المسلمين فقط، فإن القسم الأول من هذه السورة يتحدث عن كتاب الله ثم عن رسله إلى الناس.

ما هو كتاب الله؟ لماذا لا يؤمن به الناس وما هو مصير الكافرين به؟ حول هذه الأسئلة تبحث آيات هذا الدرس:

بينات من الآيات:

كيف تكون الرسالة عامة؟

[٧] ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الناس مستويات مختلفة، وكتاب الله جاء للناس جميعا، فكيف يمكن أن يرسل الله رسالة واحدة لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم؟

الجواب: إن الله جعل كتابه على درجات أيضا. ليست كل آياته لكل الناس إنما فيها آيات عامة يفهمها الجميع، وهي بمثابة قاعدة راسخة تبنى عليها سائر الأفكار والأحكام. وفيها آيات خاصة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم، أولئك الذين أوتوا نصيبا كبيرا من العقل

(١) لعبرة: لآية.

والمعرفة. وبالطبع الراسخون في العلم بدورهم متفاضلون بينهم في درجات، فقد تكون الآية الواحدة عند بعضهم واضحة، ولا تكون واضحة عند من هو أقل منه علما.

القسم الأول: من الآيات تسمى ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾. والقسم الثاني: ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، وعلى الإنسان أن ينظر إلى الآيات، فإذا فهمها وتبصر ما فيها من رؤى وأفكار اخذ بها. وإذا لم يفهمها فليس له أن يضيف إليها من آرائه شيئا، ويفسرها على هواه، إنما يجب عليه أن يسأل أهل الذكر، الراسخين في العلم. فعسى أن يأخذ مما لديهم ذكرا وعلما في ذلك. وقبلئذ يكتفي بالآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب.

إن التفسير الخاطئ لنصوص الكتاب يسبب الاختلاف في الدين وإنما جاء الدين ليجمع الناس، فحين يتخذ أداة للتفرقة لا يكون هناك دين حقيقي. وبذلك يكون التفسير الخاطئ وسيلة لهدم الدين أساسا.

بين المحكم والمتشابه

ومن هنا ركّز القرآن الحكيم على تفسير هذه الناحية، وأعطى في بداية حديثه عن القرآن (القاعدة العامة) التي تصلح أن تكون طريقا لفهم القرآن الحكيم، وهي قاعدة (المحكم والمتشابه)حيث يجب على الإنسان ألاّ يأخذ من آيات القرآن إلا الآيات التي يفهمها جيدا، وتكون واضحة أمامه ووضوحا تاما.

ولو اكتفى كل إنسان بالأفكار الواضحة جدًّا، ولم يقل شيئا لا يعلمه، لم يخلط العلم بالجهل، ولم يأخذ الفرد غرور العلم. في حين أنه لو عكس فاشبع نهم روحه إلى العلم بأفكار خاطئة لاختلط عنده العلم بالجهل، وانتشى بغرور العلم، وركن إلى الجهل وتبلد فكره، ولم ينفعه علمه.

والوقوف عند الآيات المحكمات دون تجاوزها إلى المتشابهات، يعني أيضا تربية العقل عند الإنسان، وتنمية قدرته على كشف الحق من الباطل، والعلم من الجهل.

لماذا الاختلاف في الدين؟

وبعد بيان قاعدة المتشابه والمحكم، بيّن القرآن بوضوح، وبتفصيل سبب الاختلاف في الكتاب، وبالتالي في الدين.

وبالرغم من أن السبب واحد، إلا أنه يتدرج في مراحل، ابتداءً من الزيغ في القلب، وانتهاءً بالكفر ومرورا بالتكذيب.

ألف: أما عن الزيغ فقال ربنا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

ما هو الزيغ؟

الزيغ هو: الانحراف والانصراف عن الحق. ويُعتقد أن القرآن يفسر الخطأ الإنساني تفسيرا نفسيًّا فلا يخطأ الإنسان إلا بسبب انحراف في نفسه من عقدة الضعة، أو ترسب الأفكار الوراثية، أو الاستسلام لأفكار المجتمع أو الجماعة التي ينتمي إليها، أو الخضوع لضغوط الشهوة، أو التسرع في إصدار الحكم بهدف الراحة أو بسبب توتر النفس.

وحين تنتهي مشكلة الإنسان النفسية بتنمية إرادته ومقاومة الضغوط، فإن العقل ينطلق للبحث السليم وسيصل -بالطبع- إلى المعرفة.

وقد يطرح سؤال: كيف تكون المشكلة العقلية مرتبطة بالمشكلة النفسية، علما بأن وعي الإنسان قادر على أن يكون حاجزا يقف أمام خلط أحكام النفس وأمانيها، مع بصائر العقل وأفكاره؟

الجواب: إن محيط النفس والعقل هو محيط واحد، وحين تهوى النفس شيئا فإنها تقوم بالتسويل للعقل، والتزيين له، حتى تحجبه عن الرؤية تماما، خصوصا إذا استجابت إرادة الإنسان (وهي القوة الحاسمة عند الإنسان، التي تختار العقل أو الهوى) للنفس، فإنها تحاول القيام بعملية خداع ذاتي، وأكثر ما يقع الناس في الخطأ هو بسبب الخداع الذاتي. حيث يصعب عليهم أو يستحيل في بعض المراحل تمييز بصائر العقل وأفكاره عن أهواء النفس وأمنياتها.

من هنا تكون التربية النفسية طريقا لتحرير العقل من أغلالها. أما إذا انحرفت النفس فإن العقل سيتأثر سلبيًّا. من هنا اعتبرت الآية الكريمة زيغ النفس وانحرافها سببا لتأويل الباطل وحذَّرت من أي نوع من الزيغ.

التأويل

بعد وجود الزيغ في القلب تبدأ عملية التأويل، وهي تطبيق القيم العقلية والرسالية على أهواء الذات، فمثلا: يتم تطبيق قيم العدالة والمساواة على هوى الذات. كيف؟ يقول من

ابتلي بانحراف في نفسه: إنه ليس من العدالة إن أكون فقيرا والناس أغنياء، فعليّ أن أسرق من الناس لجبر فقري. أو يقول الحاكم المستبد أن ضرورة النظام تفرض علينا كبت حريات الناس، وهكذا يتم تحريف القيم باتجاه الهوى. أو بتعبير القرآن تأويلها بما يتناسب والأهواء الذاتية.

الفتنة

والتأويل يأتي بعد الفتن في المستوى الفردي الذي هو الزيغ، والفتنة الاجتماعية هي هدف التأويل وهي ظلم الناس، إذ لا ينحرف البشر إلا استجابة لضغوط شهوات الذات، التي تدعو بالطبع إلى اغتصاب حقوق الآخرين، مما يسمى بالفتنة في منطق القرآن.

إن علامة الانحراف هي التأويل غير العلمي، وعلامة التأويل غير العلمي هي استهداف الفتنة. وباستطاعتنا أن نكشف الانحراف العقلي من المظاهر الاجتماعية (الظلم الاجتماعي). فالنتائج السلبية للفكرة تكون أبسط دليل على خطأ الفكرة ذاتها. من هنا نبّه القرآن إلى أن الفكرة الخاطئة هي التي تستهدف نتائج ظالمة. وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ يعني أن المنحرفين نفسيًّا هم الذين يتركون الآيات الواضحة إلى الآيات الغامضة لتأويلها حسب أهوائهم وبهدف ظلم الناس وغصبهم حقوقهم.

من يعلم التأويل؟

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ ولا يوجد التأويل الصحيح أي: التطبيق الصحيح لقيم الوحي، أو العقل على الموضوعات الخارجية، إلا عند الله وعند الراسخين في العلم. فمن هم هؤلاء الراسخون في العلم؟

إنهم أولئك الذين لم يكتفوا بالعلم بالأشياء فقط، إنما يركّزون أيضا في العلم، ويكثرون النظر فيه حتى تترسخ أقدامهم في أرض العلم، وهناك يعرفون كيف يطبقون العلم على الواقع.

إن تطبيق القيم الرسالية على الواقع الموضوعي، لا يتم سليما إلا إذا توافرت شروط ثلاثة تشير إليها الآية الكريمة وهي:

١- سلامة النية.

٢- العلم بالقيم علما راسخا.

٣- العلم بالواقع علما راسخا.

وكلمة أخيرة: إن هذه الآية لتدل على أن أهم مسؤوليات رجل العلم تطبيق القيم على الواقع تطبيقا نزيها.

الإيمان قبل المعرفة

ثم تتحدث الآية عن علاقة الإيمان بالمعرفة، وتؤكد أن المعرفة هي وليدة الإيمان، وليس العكس، والسبب أن الشرط المسبق للمعرفة هو الاستعداد النفسي لتقبلها والتسليم لها متى ما ظهرت له.

إن الفرد الذي يتكبر -سلفا- على الحق، ويستبطن في نفسه رفض الحق إن جاءه فسوف لن يصل إلى المعرفة، وإنما يعرف الراسخون في العلم التأويل الصحيح للقرآن لأنهم يؤمنون به سلفا ولا يريدون تكييف القرآن حسب أهوائهم، إنما يبتغون الاتباع والتسليم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هناك قضايا واضحة كالقضايا التي تحدثت الآيات الماضية عنها، ولكنها تحتاج إلى التنبه إليها، فمن يتنبه؟ إنما الذي يمتلك اللب يتذكر ومن لا يمتلك كيف يتذكر؟ وبماذا يتذكر؟ إنما باللب، فما هو اللب؟

هل هو العقل باعتباره جوهر الإنسان ولبه، أم أن أولي الألباب هم الذين لا يهتمون بالقشور والظواهر، وإنما بالحقائق التي تكشف الظواهر عنها.

[٨] من الذي يكشف انحراف النفس (زيغ القلب) غير الإنسان ذاته. وبالرغم من أن الآخرين قد يساعدونه في التنبيه إلى زيغه وانحرافه، إلا أنهم لا يقدرون على إصلاحه إلا إذا أراد هو.

والوعي الذاتي لا يصلح القلب بعد الزيغ فحسب، إنما يمنع عنه الزيغ في المستقبل أيضا. لذلك تجد الراسخين في العلم يتوسلون إلى الله من أجل ألاّ تزيغ قلوبهم. وبهذا الدعاء يخلق الله في أنفسهم مناعة عن الزيغ ووعيا ذاتيا لاكتشافه متى تسرب إلى قلوبهم، فهم يكررون أبدا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ إن الرحمة الهابطة من الله أقسام. ولكن أهمها هي المعرفة التي يمن بها الله على البشر سواء وحيا بالقرآن، أم إلهاما.

وينمي الدعاء تطلع المؤمنين الراسخين في العلم إلى المعرفة ولذلك فهم يرددون هذا الدعاء ويطلبون الرحمة (المعرفة) من الله.

وأساسا الروح العلمية بحاجة إلى تربية وتنمية، وبهذا الدعاء ينمّي المؤمنون هذه الروح.

الإيمان باليوم الآخر.. حجر الزاوية في المعرفة

[٩] كما الجبال الراسيات تحفظ الأرض من أن تميد، وكما القواعد تحفظ البناء من الزلزلة والانهيار، كذلك الإيمان باليوم الآخر حجر الزاوية في البناء الذهني للمؤمنين، فمن دونه يتوتر القلب ولا يستقر على اتجاه، كيف ذلك..؟.

إن القلب البشري كسفينة تتقاذفه الأهواء، فمن ضرورات الحياة، إلى مطامع الشهوات إلى ضغوط المجتمع، إلى حتميات الطبيعة. تعصف جميعها بالنفس وتحدث فيها طوفانا عاتيا. والعقل كسكّان متين، يحاول توجيه السفينة في خط مستقيم، ولكنه يعجز عن التحكم بالسفينة من دون الاستعانة بالثقل الذي يرسيها به. وثقل النفس هو الإيمان بالحياة الآخرة، إذ عن طريق هذا الإيمان تطمئن النفس، ويحدث فيها نوع من التوازن.

فإذا عصفت شهوة الجنس بالنفس وأرادت أن تستبد بتوجيهها، جاء الإيمان بالحياة الآخرة ليخفف من ضغط هذه الشهوة، ويقول لصاحبها: كلا.. ليست هذه الشهوة هي كل شيء في الحياة إذ هذه الحياة بالذات ليست كل الحياة، إنما الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية، وبهذا تطمئن النفس ويستطيع العقل أن يُحكم توجيهها.

وقبل أن يذكّرنا القرآن فيما يلي من الآيات بالعوامل النفسية التي تسبب زيغ القلب، وبالتالي انحراف البشر، انطلاقًا من مبدأ القرآن الآنف الذكر (أن مشكلة الإنسان في العلم نفسية) يذكرنا قبلئذ القرآن باليوم الآخر باعتباره حجر الزاوية في توجيه النفس البشرية.

وقال على لسان الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ومادام الإنسان يتمثل غدا أمام الله فعليه أن يفكر ويتذكر ولا يسترسل مع رياح الهوى. عليه أن يذكّر ذاته بأن الحكمة المستنبطة من القرآن تقرر: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[١] وبالتالي التجرد عن حب الدنيا رأس كل فضيلة ومن هنا كلما تذكّر الإنسان (المعاد) اطمأنت نفسه وكان أقدر على توجيه شهواته.

الاعتماد على الله فقط

[١٠] اعتمادا على المال أو الولد يتكبر المرء على الله وعلى رسالاته، ويحسب أن ماله يخلده وأن أبناءه سينصرونه من دون الله. ولكن متى ما عرف الإنسان نهايته الحتمية وأنه حين يقف

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٣٠.

أمام الله سيحاسب حسابا عسيرا، فلابد أن يسلِّم للحق.

يقول القرآن بصراحة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ وحين يذكِّرهم بمصيرهم الأسود حين يتحولون إلى مجرد وقود للنار، فلابد أن ذلك يرغم أنوفهم ويحطم كبرياءهم.

[١١] وكمثل من التاريخ.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إن ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وصلوا قمة التقدم المادي فهل انتصر لهم تقدمهم من الله؟ وهل نفعتهم أموالهم وأولادهم وأعطتهم مبررا لتكبرهم أو لمقاومتهم الحق؟

[١٢] وباختصار فإن الاستكبار عن الحق، لا ينفع الإنسان لا في الآخرة ولا في الدنيا، فأما الآخرة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

[١٣] وأما في الدنيا فإن شواهد التأريخ تتوالى لتدل على أن أهل الحق هم الغالبون في الدنيا، ولهم النصر والمجد ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فلماذا التكبر عن الحق مادام الباطل ذل في الدنيا وعذاب في الآخرة؟ إن التكبر عن الحق والإحساس بالتعالي والمجد يشكل نسبة النصف من أسباب الكفر، ويجب معالجة هذا الشذوذ في النفس بتذكيرها بعاقبة المتكبرين في الدنيا والآخرة حتى تخشع النفس وتقنت للحق. ثم ذكرت الآية أن في هذه الحقائق عبرة لأولي الأبصار.. فما هي العبرة؟ وكيف يستفيد منها الإنسان؟

العبرة هي -مثلا- الانتقال من الدليل إلى معناه، ومن رؤية ظاهرة الفقر إلى سببها الاجتماعي.

الذين لا يملكون الأبصار يجمدون على الظواهر ولا ينتقلون منها إلى الحقائق، فإذا رأى ظاهرة الفقر في المجتمع جمد عندها ولم يستدل بها على وجود الطبقية في المجتمع، أو وجود التخلف الفكري والصناعي مثلاً.

أما الذين يملكون الأبصار فإنهم لا ينظرون إلى الظاهرة فحسب بل إلى أسبابها التي يرونها من خلالها، والعملية تسمى عبور أو (عبرة) أي انتقالا من على جسر الظاهرة إلى شاطئ الحقيقة.

وظاهرة انتصار المؤمنين بالحق أبداً تكشف عن السبب وراءه وهو أن التكبر عن الحق ذل حاضر في الدنيا. إنما هذا الكشف يختص بمن يبصر أما من يغض طرفه عن الحقيقة فحتى الشمس يمكن أن تخفى عليه.

الحياة بين آفاق المستقبل وشهوة الحاضر

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ[١] مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ[٢] الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[٣] وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ[٤] وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[٥] (١٧) شَهِدَ[٦] اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ[٧] وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ

---

(١) الشهوات: جمع شهوة وهي توقان النفس إلى المشتهى.

(٢) القناطير: جمع قنطار وهو المال الكثير العظيم.

(٣) المسومة: من قولهم: أسمت الماشية وسوَّمتها إذا رعيتها.

(٤) القانتين: المطيعين.

(٥) الأسحار: جمع سحر، وهو الوقت الذي قبيل طلوع الفجر. أصله الخفاء لخفاء الشخص من ذلك الوقت.

(٦) شهد: حقيقة الشهادة: الإخبار بالشيء عن مشاهدة أو ما يقوم مقام المشاهدة.

(٧) الإسلام: أصله السلم، معناه دخل في السلم، وأصله التسليم لأنه تسليم لأمر الله، وهو تأدية الطاعة على السلامة من الإدغال.

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

إذا كانت الجنة في الآخرة هي المنى وهي الحياة حقاً فما هي هذه الدنيا التي نحن فيها، وما هي مسئوليتنا فيها حقاً؟.

إنها مزرعة لتلك الجنة، وكلما نكتسب هنا فإننا نراه هناك، ومسئوليتنا أن نتخذ مما فيها متاعاً ووسيلة لبلوغ ما هناك.

وبالرغم من إن الناس قد زُيِّن لهم حب الشهوات إلّا إن عليهم تجاوز هذه الشهوات العاجلة لبلوغ نعيم الآخرة. وهكذا تجد عباد الرحمن يتطلعون بالدعاء إلى درجات الجنة التي أُعِدت لهم وهم يسألون ربهم المغفرة والخلاص من النار، - فما قيمة شهوات الدنيا إذا أعقبت نار جهنم؟.

وهذه الدعوة الصادقة النابعة من الإيمان حقاً بالله و باليوم الآخر تجلت في صفاتهم المثلى فإذا هي الصبر والصدق والقنوت (لله) والإنفاق (في سبيله) والاستغفار -بالذات عند الأسحار-.

ويشهد المؤمنون بالتوحيد الخالص لله فتطمئن قلوبهم بالإيمان. والله جل جلاله هو الذي شهد لنفسه بالتوحيد (ولا يرضى -إذاً- لعباده الشرك) وشهد بذلك ملائكته وأولوا العلم من خلقه.

(وتوحيد الله يتجلى في الحياة بوحدة الدين) والدين الحق هو الإسلام (التسليم التام لله) وأما اختلاف الناس في الدين فهو ناشئ من بغيهم (وظلمهم بعضهم لبعضهم).

بينات من الآيات:

[١٤] النفس البشرية، تفضِّل العصفور الواحد في اليد خير من عشرة على الشجرة، حتى إذا كان المرء قادرا أن يصيد العشرة بقليل من الجهد.

من هنا يفضل البشر الشهوات الحاضرة على التطلعات البعيدة المدى، فالطالب يفضل الراحة والكسل عن تحصيل العلم، على الميزات التي يحصل عليها بعد التخرج، كما يفضل العامل صرف راتبه بالكامل في سبيل راحته، على تحويله إلى رصيد، يشتري به اسهما في شركة رابحة.

وعقل الإنسان، يدفعه أبدا إلى الموازنة، بين المستقبل وبين الحاضر فيأمر الطالب بالاكتفاء بشيء من الراحة، والجهد من أجل الحصول على راحة أكثر بعد التخرج، وكذلك يأمر العامل بادخار علاوة معاشه من أجل أيام ضعفه.

والعلاقة بين الدنيا والآخرة هي العلاقة ذاتها بين الحاضر والمستقبل؛ إذ تدعونا الشهوات إلى صرف كل طاقاتنا في الدنيا حتى إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة لا نجد فيها شيئا في حين أن العقل يدعونا إلى الموازنة بين الدنيا والآخرة.

وحين يتطلع الإنسان إلى الآخرة فإن مستقبل دنياه أيضا مضمون، إذ كل عمل يوفره البشر للآخرة يعطيه مردودا دنيويا أيضا.

وحين يهتم المرء فقط بالدنيا وشهواتها الحاضرة يكفر بالمستقبل لأنه لا يراه بل لا يريد أن يراه، وهكذا تحجب عنه جدران الشهوات النظر إلى رحاب المستقبل الواسع.

وحب الإنسان للشهوات طبيعي، كما أن تطلع البشر إلى مستقبل الحقيقة فطري إلا أن المهم ألاَّ يختار المرء الواحد على الآخر. من هنا عبَّرت الآية عن الشهوات بأنها زُيِّنت للنفس.

وشهوات النفس تتدرج إلى أنواع هي:

١- شهوة الجنس - والبنين.

٢- شهوة الخلود ومتطلباته من الثروة الطائلة كالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والقنطار يعني المال الكثير.

٣- شهوة الرئاسة والفخر، ومتطلباتها من الخيل المسومة، أي المعروفة لمن هي، والأنعام والحرث.

تقول الآية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلا أن هذه الشهوات العاجلة يجب أن تبقى في حدودها المعينة وذلك بالتفكر في أن هناك تطلعا أسمى منها يجب أن يوازن به الإنسان حياته، ذلك التطلع هو ما عند الله، فماذا عند الله؟.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي المستقبل المضمون، والجيد.

[١٥] ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ولم يسترسلوا مع الشهوات إلى نهاية الشوط، إنها وجَّهوا شهواتهم حسب تطلعات عقولهم، وقيم دينهم. لهؤلاء عند الله:

﴿جَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهذه تشبع في الإنسان الإحساس بطلب ضرورات حياته، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهذه تشبع فيه تطلعه إلى الخلود، ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ يوازن بها المؤمن شهوة الجنس في الدنيا، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ يشبع به المؤمن حبه للمديح في الدنيا.

إنك ترى كيف أن الذي اتَّقى في الدنيا من الإفراط في الشهوات، نال في الآخرة عن كل شهوة دنيوية اتَّقى منها ما يتناسب معها من نعم عظيمة. وبذلك يتم التوازن في قلب المؤمن، بين حاضر شهوات الدنيا، ومستقبل تطلعات الآخرة.

معنى التقوى

يبقى أن نعرف أن التقوى هي رقابة ذاتية، إذ ليس هناك من شخص يراقبك أو يحاسبك، على مدى توجيهك لشهوات ذاتك، إنها أنت تراقب نفسك وتحاسبها، حتى إذا ذهبت إلى الله لا يفاجئك حسابك العسير.

وهذا ما يؤكده قول الله في نهاية الآية: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إذ مادام الله يحاسب الإنسان، فعلى الإنسان أن يخشى المفاجأة السيئة أمام الله العليم فيتقي الله ما استطاع.

[١٦] من المتقي؟ وكيف يوازن المتقي بين شهوات الدنيا وتطلعات الآخرة؟ وبالتالي كيف يربي ذاته لتقبل الحقيقة؟.

للتقوى منطلق نفسي، ومظاهر خارجية، فمن وجدهما في ذاته فليعرف أنه تقي فعلا. الجذر هو الإيمان بالحساب، وأن الذنب سيحاسب عليه حسابا عسيرا ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إن التقوى هي وجود رادع في النفس يمنعها من الإفراط في الشهوات.

[١٧] أما مظاهر التقوى الخارجية فهي الصفات النفسية التالية والمتدرجة على بعضها:

ألف: **الصبر**: الصبر عن الشهوات، وعن الاسترسال معها إلى مرحلة الإفراط. إنها الصفة الأولى والأساسية في شخصية المؤمنين باليوم الآخر، وحين يصبر عن الشهوات يبتعد عن الزيغ وآنئذ يكون صادقا.

بـاء: **الصدق**: وهو تعبير عن الاستقامة على الحق، وأي انحراف يطرأ على قلب الإنسان فلابد أن يظهر في كلامه بصورة أو بأخرى. إذ لا يمكن أن يستمر الإنسان في الانحراف العملي دون أن يظهر في قوله.

والذي يلتزم بالصدق فلابد أن يحاول إصلاح انحرافه. وقد جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وَسَأَلَهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا يَنَالُ بِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَا يُطَوِّلَ عَلَيْهِ. فَقَالَ عليه السلام: «**لَا تَكْذِبْ**»[1].

جيم: **القنوت**: بعد أن تتربى النفس على الصبر عن الأهواء والصدق، فإنها تستعد لقبول الحق. إذ تكون آنئذ قانتة مسلمة للحق، إذ تزول من طريقها آنئذ العقبة الرئيسية التي تمنع من اتباع الحق وهي اتباع الهوى.

دال: **الإنفاق**: وأبسط وأهم مظهر للقنوت للحق هو العطاء. إذ مادامت النفس شحيحة فليس من المؤكد أنها تتبع الحق فعلا.

هـاء: **الاستغفار**: بعد أن تعرف النفس شحها، وتخرج من سجن الذات إلى رحاب الحق، عليها أن تتحدى ضغوط الحياة لكيلا تزين الباطل للنفس، فتحتاج النفس إلى تصفية ذاتية للرواسب اليومية التي تلحق بها، وذلك بالاستغفار في الأسحار.

إن الاستغفار أشبه شيء بالغسل الذي يقوم به العمال كلما آووا إلى بيوتهم فينظفون أنفسهم من آثار العمل، بالرغم من أنهم عملوا المستحيل من أجل تجنبه خلال النهار.

هذه هي الصفات الظاهرة للتقوى. وهي كما تقول الآية: ﴿ **ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ** ﴾.

بين الوحدة والتوحيد

[١٨] بعد الحديث عن الروح العملية في الآيات السابقة، وتصفية العقبات النفسية التي تعترض طريق الإيمان الصحيح، دخل القرآن في صلب الموضوع الرئيسي وهو التوحيد

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢٤١.

والوحدة فذكر أن الله لا إله إلا هو.. يقوم بالنظام العادل والمتمثل في الإسلام، الدين الوحيد لله، وهو لا يعني الخضوع لفئة من الناس، ولا حتى لشخص معين، إنما يعني التسليم لله وحده. وبذلك يضع القرآن أرضية الوحدة بين أبناء الرسالات السماوية.

قد ينكر أحدنا اعترافه بالله، ولكنه يعرف قبل غيره أن أفكاره ليست سوى تكبر يتكلف به تكلفا، وأنه حين يستغشي ثيابه بالليل أو يبدأ يفكر بعيدا عن التكبر والمصلحة، آنئذ يؤمن بربه إيمانا أقوى من إيمانه بنفسه.

إن هيمنة الله على كل مرافق الحياة، وتجليه للناس في آيات الطبيعة حينا، وفي خلجات القلب أحيانا، هي اكبر شاهد على أنه لا إله إلا هو، وهل يكون شيء أكبر من الله وكل نظام قائم به، أوَ يكون شيء أكثر ظهورا من الله والسماوات والأرضون آياته؟!

إن الله هو ذاته دليل ذاته وهادي العباد إليه. وهو دليل إلى كل شيء غيره. من هنا قالت الآية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ وحين تشهد الملائكة وأولو العلم فليس ذلك سوى دليل بسيط جدًا أمام شهادة الله ذاته إلا أنها قد تنفع الذين تغرهم الطبيعة بقوتها أو بغموضها، فيقول لهم القرآن: إن الملائكة الموكلة بالطبيعة وأولي العلم العارفين بالطبيعة هم بدورهم مؤمنون بالله.

وأكبر صفات الله العدل الذي يجريه في الطبيعة، حيث يسنّ للحياة سننا يجريها عليها بقدرة وسلطان. فلا يدع جانبا منها يطغى على جانب آخر. فقط الإنسان أكرمه بالحرية، ولكنه حدد حريته بوقت، فبعده يعيده إلى حدوده بالقوة إن لم يعد إليها بالهداية.

من هنا قال الله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي مطبقا للنظام العادل في الحياة.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ومن أولى بتطبيق العدالة في الحياة من العزيز (المقتدر) الحكيم (الخبير بالأمور).

[١٩] كانت هذه مقدمة جيدة لبيان أن لله دينا واحدا فقط، قد تختلف بعض تفاصيله من عصر لعصر ولكن أصوله تبقى واحدة، وتجري عليها الأمة المسلمة جيلا بعد جيل.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ولكن لماذا يختلف الناس إذن في الدين؟

هل لأن الله هو الذي أوحى باختلاف الرسالات؟ بالطبع لا.. بل لأن الاختلاف نابع من اختلاف الطبيعة، والمصلحة والهوى، لا من اختلاف الرسالة والعقل ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾، فجذر الاختلاف نابع من

البغي وهو استهداف الظلم واغتصاب حقوق الآخرين، وحين يسود السلام قلب الإنسان، والعدالة علاقات الناس مع بعضهم، فسوف يزول الاختلاف وتنتهي أسبابه من واقعه.

والاختلاف في الدين بمثابة الكفر بآيات الله، إذن ماذا تنفع قشور الدين إذا جُرِّدت من أي مضمون؟ ماذا ينفع الإيمان بآيات الله إذا فُسِّرت هذه الآيات بما يخالف معناها؟ ماذا ينفع الدين الذي اتخذ أداة للبغي، والظلم الاجتماعي، وسببا للاختلاف وضرب الناس بعضهم ببعض؟ من هنا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وكيف يحاسب الناس الذين يكفرون بآياته؟

بالطبع هناك طرق لا تحصى ولكن أبسطها هو عدم الانتفاع برسالته النيرة، إذ إن الرسالة النافعة هي التي تعرَّف بتفسير الله وبيانه وليست التي تفسرها أهواء الناس والتي تضر ولا تنفع.

فمثلا: حين كانت رسالة النبي عيسى عليه السلام تعني عند تابعيه الإخاء والنشاط والطيب، أعطت المسيحية لهم التقدم والهناء، أما حين أصبحت تعني التعصب والجهل والاختلاف، أعطتهم التخلف والعذاب.

[٢٠] إن الدين يجب أن يُتَّخَذَ أرضية مشتركة للتوافق؟ وبالطبع لا يكون الدين هكذا إلا إذا كان خالصاً ومجردا عن الأهواء المتمثلة في المصالح العنصرية والولاءات المادية، وبالتالي مجردا عن أية صبغة جاهلية، هنالك فقط يكون الدين وسيلة جمع لا وسيلة تفرقة.

متى يكون الدين مجردا عن الماديات؟ حين يكون الإيمان بالله وحده القيمة الاجتماعية، من هنا دعت رسالة السماء أبناء الرسالات السابقة إلى هذه القيمة وقالت ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، إن القرآن جرد الرسول من مسؤولية القبول أو الرد من قبل أبناء الرسالات السابقة، ولخص مسؤوليته في البلاغ لكيلا يرقى إلى نقاء التوحيد في رسالته أدنى شك.

إن الطريق الوحيد للوحدة هو إخلاص كل الأطراف المبادئ الواحدة ذاتها حتى تكون بمثابة بوتقة ينصهر الجميع فيها.

نتائج ضعف الروح الدينية

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾

هدى من الآيات:

يتحدث القرآن هنا عن قوم من أتباع الديانات السابقة، تفشت فيهم صفات سيئة بسبب ضعف الروح الدينية فيهم. وهذه الصفات هي التي تهدد وحدة الأمة. من هذا الجانب يتحدث القرآن عنها وهي:

أولاً: إنهم قاموا بتصفية رجال الله في الأرض وهم الأنبياء عليهم السلام والمطالبون بالعدالة من الناس.

ثانياً: إنهم كانوا لا يتحاكمون إلى كتابهم إذا اختلفوا بينهم، إنما يتولى الفريق المتضررة مصالحة -بحكم الكتاب- يتولى عن الكتاب، وبذلك يبقى الدين معطلا عن التأثير الاجتماعي.

ثالثاً: الفكر العنصري المنتشر فيهم، واعتقادهم أنهم أفضل من غيرهم، لا بأعمالهم إنما بأجسامهم ودمهم ونسبهم.

وهذه الأسباب الثلاثة لا تختص باليهود فقط، وإنما قد تهبط كل أمة مؤمنة إلى دركها، وربما لذلك لم يذكر القرآن اسم اليهود.

بينات من الآيات:

كيف يتسافل الإنسان؟

[٢١] كيف يهبط الإنسان إلى مستوى متدن في الأخلاق ويقتل رجلا لا لشيء إلا لإخلاصه، أو صدقه، ونقاء إيمانه، وحبه لله وللمجتمع. إن الإنسان لا يهبط فجأة إلى هذا المستوى السحيق، إنما في البداية يكفر بآيات الله، وحين يختار موقف الكفر ينضم إلى صفوف المعارضة، وتنمو في قلبه السلبيات الصغيرة.. حقده على رجال الله، حسده من تقدمهم، اعتبارهم أعداء مصالحه، اعتبارهم أعداء وطنه و.. و.. حتى يغطّي العداء كامل قلبه. وهناك يقدم على تصفيتهم جسديًّا، فيصل به الأمر إلى قتل الأنبياء وهناك يستحق العذاب الأليم.. يقول الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، إنهم قتلوا الأنبياء والصالحين لأنهم يأمرون بالقسط، بالعدالة، بالمساواة، فكيف يرضى الطغاة والظالمون والمستكبرون بالقسط؟ فلكي يفتحوا طريقهم إلى الظلم كانوا يقتلون رجال الله الذين يضعون من أنفسهم سدًّا أمام رغبات الظالمين.

والعذاب الأليم الذي ينتظر هذه الفئة يتلخص فيما يلي:

[٢٢] حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة. إذ ماذا تنفع الصلاة مع الظلم، أو الحج مع الاغتصاب، أو إنفاق جزء من ثروة حصلت كلها من طريق غير مشروع.

وبالتالي: ماذا تنفع سائر الواجبات إذ جُرِّدت من روحها الحقيقية وأهدافها الاجتماعية.

ومن هنا قال عنهم ربنا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ إذ لا تعطيهم الوظائف الدينية المجردة عن الإيمان الحقيقي لا تعطيهم المردود الدنيوي الذي لابد أن تعطيه. فالصلاة لا تهذب نفوسهم، والحج لا يحافظ على وحدتهم، والزكاة لا ترفع الطبقية

عنهم. وكذلك حبطت أعمال هؤلاء في (الآخرة) لأنه كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فلا تنصرهم أعمالهم المحبطة. كما لا ينتصر لهم تأريخهم الحافل بالجرائم أو انتماؤهم الكاذب إلى الرسالة.

تفسير الدين على الهوى

ثم تناولت الآيات المشكلة الثانية وهي تفسير الدين حسب أهوائهم.. فقالت:

[٢٣] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، إن هذا الكتاب هو كتاب اليهود الذي جاء ليرفع اختلافهم ويوحد طاقاتهم، فبدل أن يتحاكموا إليه، ويتنازل كل فريق عن أهوائه، وآرائه، ومصالحه تسليما لأمر الكتاب وخضوعا لحكمه، بدلا من ذلك أعرضوا عن الكتاب وبذلك جردوا واقعهم الاجتماعي من أهم منفعة فيه.

إن أية أمة رسالية لا تستطيع الاستمرار والتصاعد إذا لم تجعل كتابها المقدس فوق رغباتها ومصالحها، والأمة الإسلامية لا تخرج بالطبع عن هذه القاعدة.

ولكن يبقى سؤال: ما هي العلة وراء رفض الاحتكام إلى الكتاب؟

تجيب الآية التالية:

[٢٤] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فالفكرة العنصرية هي التي فرّغت واقع الأمة من الروح الرسالية، وأبقت الممارسات الدينية مجردة من محتوياتها الاجتماعية الإصلاحية. إذ الأمة لا ترى في البدء تفضيلا لها على سائر الأمم إلا بقدر توفر قيم الحضارة فيها من التعاون على البر والتقوى والنشاط والتنظيم، ولذلك تتسابق إلى بلوغ المزيد من هذه القيم. ولكنها قد تصل إلى درجة من التشبع الحضاري[1] فتتحول نظرتها إلى ذاتها، وتحسب أنها مفضلة على غيرها لما فيها من روح إلهية، وما في غيرها من طينة العبودية، وآنئذ لا تجد في ذاتها باعثا إلى عمل الخير، أو رادعا عن فعل الشر. فمادامو قد خلقوا لرضوان الله والجنة، خيرا عملوا أم سوءاً، ومادام أعداؤهم قد خُلِقوا لسخط الله والنار، مهما عملوا من خير أو شر فلماذا

(١) الإشباع والإحساس الكاذب بالوصول إلى قمة العلم والمعرفة والإيمان والتطور، والانخداع بمكيدة شيطانية تؤكد لهم قربهم الكبير من الله تعالى.

يجهدون أنفسهم بعمل الخير أو التسابق إلى المكرمات؟

إن خطورة القضية تكمن في تسرب هذه الفكرة العنصرية إلى مفاهيم الدين نفسه، فإذا بهم يفسرون الدين بطريقة لا تدعو إلى العمل الصالح. والإيمان الصادق بقدر ما تدعو إلى تمجيد ذوات وتقديس أسماء، وانتماءات كاذبة.

من هنا قال الله سبحانه: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾ أي تفسير مفاهيم دينهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بحيث سربوا وأدخلوا أفكارهم الشاذة في تفسير نصوص الدين. وعوضا من أن يفسروا الأحداث وفق رؤى دينهم وبصائره، فسروا الدين وفق أفكارهم الكاذبة.

[٢٥] كلا: إن الله حين يجمع الناس في اليوم المعهود والموعود الذي لا ريب فيه يوم القيامة، يجمعهم في صعيد واحد، دون أن يفضِّل بعضهم على بعض، بحسب أو نسب، هناك يأخذ كل شخص نصيبه بالكامل ودون تفسيرات عنصرية.

إن مجرد التفكير بذلك اليوم يجعل الفكرة العنصرية بلا دليل، وبالتالي يفندها من الأساس، إذ إن أساس الفكرة العنصرية مبتن على حب الذات، والمغالاة في تعظيمها وبالتالي تقديسها وجعلها قيمة أساسية. فإذا تصورنا -ولو مجرد تصور- أننا سنقف للحساب أمام الله، فإن تقديس الذات سيذوب في النفس لتعود إليها الخشية على الذات من سوء العمل.

من هنا يتساءل القرآن: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر وجوزيت جزاء كاملا على أعمالها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وكلمة أخيرة: قلنا سابقا: إن الإيمان بالآخرة حجر الزاوية في فكر المسلم. وأقول الآن: إنه كذلك حجر الزاوية في التفكير السليم، إذ إنه مثلا يناقض التفكير العنصري، وفيما يلي من الآيات سنجد ان الله يذكِّرنا بالآخرة، عندما يذكر بضرورة إصلاح الفكر، أو إصلاح النفس في أي جانب من الجوانب.

القيادة الصحيحة في المنظور القرآني

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ[1] الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ[2] اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾.

هدى من الآيات:

يبدو أن سورة آل عمران تدخل مع هذه الآيات في رحاب موضوعها الرئيسي وهو ضرورة الالتفاف حول القيادة الصحيحة ونبذ القيادات الدخيلة وضرورة ذلك في الوحدة. فتهيىء النفوس -قبل ذلك- ببيان أن الملك لله، وأن القدرة المطلقة بيده.

ثم تنهى عن قبول قيادة كافرة إلا تَقِيَّةً، ثم يأمر بالطاعة للقيادة الإسلامية ويربط بين

---

(١) تنزع: النزع قلع الشيء عن الشيء.

(٢) تولج: الإيلاج الإدخال.

طاعة القيادة الرسالية الصحيحة وبين الإيمان بالله. بل بينها وبين حب الله.

ثم -حذر من طرف خفي- الذين لا يتبعون القيادة: بأنهم كفار يتعرضون لسخط الله تعالى.

بينات من الآيات:

لمن الملك؟ لله

[٢٦] الله وحده يملك الملك ويعطيه لمن يشاء وعلينا أن نلتمس الملك، من الله وليس من عند الكفار يقول الله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ولكن السؤال: لمن يعطي الله الملك؟ هل لكل من هب ودب؟ أم لكل من تمنى على الله وربى في نفسه أحلاما ذهبية؟ بالطبع لا.. إنما هناك سنن جعلها الله في الطبيعة وهدى البشر إلى تلك السنن عبر مناهج أوحى بها عن طريق أنبيائه وهدى العقول إليها. وليس من ريب أن أولى تلك السنن، هي الالتفاف حول القيادات الرسالية التي يتحدث عنها القرآن فيما يلي:

شمولية القدرة الإلهية

[٢٧] وليست الحياة الاجتماعية فقط بيد الله، وإنما الطبيعة أيضا. والذي بيده الطبيعة أولى بقيادة الحياة الاجتماعية، فالله هو الذي نتوجه إليه قائلين: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وحتى الرزق الذي ينزل على الإنسان من تعاقب الليل والنهار فإنه من الله، يعطيه لمن يتبع مناهجه وسننه التي غرزها في الطبيعة، وأوحى بها إلى العقول والرسل.

بين مفهومي القدرة والقيادة

[٢٨] ومادام الله هو الذي بيده الملك، فلماذا تبعية المسلم للكفار؟!

ومن هنا: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يبدو أن أهم معاني ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ -المناسب أيضا مع السياق- هو الأئمة والقادة ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ إذ يرفض الله انتماء الناس إلى رسالته لفظيًّا، دون انتمائهم إليها عمليًّا..

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ أي تخشوا من بطشهم، وآنئذ سيكون التسليم لولايتهم تسليما ظاهريا فقط. في حين أنهم يحتفظون بانتمائهم الحقيقي لرسالتهم الصحيحة.

إن التقاة ممارسة عملية الجهاد سرية ضد الطغاة، وهي عملية صعبة ليست فقط لاحتمالات الخطر التي تهدد الرسالي في كل لحظة، وإنما -أيضا- لاحتمال الاستسلام لإغراءات السلطة والثروة و.و. التي لابد أن يتصارع الرسالي معها طوال الفترة التي يقوم بالعمل السري.

إن مثل الرسالي هنا كمثل الطبيب الذي يعالج طائفة من المجذومين فلو لم يكن في جسده مناعة كافية، ستسري إليه عدوى الجذام..

ومن هنا يذكر القرآن هؤلاء العاملين بأنه رقيب عليهم، وعليهم أن يحذروه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ حيث يحاسب الناس ليس على شكليات الولاية فحسب، وإنما على روح الانتماء أيضا. أي على ما يجري في القلب من ارتباط صادق.

الجهاد وجه التوحيد البارز

[٢٩] إن مقارعة الطغاة -وهي الوجه الحاد للتوحيد وإخلاص العبادة لله - بحاجة إلى ضمير ديني حي. وهذا الضمير الديني يصنعه الإحساس الدائم برقابة الله على الإنسان، وهيمنته المطلقة على أعماله. من هنا ذكرنا القرآن: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ إن العمل لا يكون صالحا أو فاسدا، إلا حسب موقعه الذي يجعل فيه، والهدف الذي يتوخاه صاحبه. فالصلاة قد تكون رياء وقد تكون لله، والصلاة هي هي، لا تتغير في ظاهرها أما واقعها فيختلف اختلافا بيناً.

من هنا تكون تعاليم السماء لتزكية النفس، وتطهير الروح من النية الفاسدة، والهدف الطالح. إن الله يعلم خبايا النفس البشرية، ويحاسب الناس على الأهداف الحقيقية التي يريدون تحقيقها بأعمالهم.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ومن هنا فإن انحرافات البشر النفسية، وما وراءها من انحرافات مادية جميعا، يحيط بها علم الله وقدرته، إحاطة تامة. ثم إن الله بعلمه يحصي الأخطاء، وبقدرته يجازي عليها: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إن قوة الجبابرة لن تكون أكبر من قوة الله، فلماذا يرهبهم الإنسان؟!

[٣٠] ويتجلى علم الله وقدرته في يوم البعث: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ

مُّحْضَرًا﴾ أمامها، حيث تتجسد الأعمال وتتحول إلى حقائق مشهودة يراها الإنسان، وكم هو ممتع أن يجد الإنسان خير عمله، حيث قد ذهب عناؤه وانتهت صعوباته، وبقيت عاقبته الحسنى.

ولكن ماذا عن الأعمال السيئة: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ حيث تلاشت اللذة البسيطة، وبقيت عواقب الذنوب.

إن المجرمين يفرون من عواقب أعمالهم بشتى الوسائل الممكنة، ولكن هل ينجحون؟ كلا. كذلك المذنبون في الدنيا سيلاقون عواقب أعمالهم.. من هنا يقول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ إن الحذر هو الضمير الحي الذي ينبض في داخل النفس، والذي يراقب بدقة نتائج الأعمال، والتحذير الذي يوجهه الله للإنسان، نابع من رحمة الله التي تبقى الملجأ الأخير للإنسان في الأرض.. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

الجماهير بين تقديس الذوات وبصائر القرآن

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ[(١)] ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ[(٢)] ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا[(٣)] فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا[(٤)] قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا[(٥)] رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا[(٦)] زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ[(٧)] وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

(١) تحبون: المحبة هي الإرادة، إلا أنها تضاف إلى المراد تارة وإلى متعلق المراد أخرى، تقول: أحب زيداً وأحب إكرام زيد. ومحبة الله تعالى للعبد هي إرادة ثوابه، ومحبة العبد لله هي إرادته لطاعته.

(٢) اصطفى: اختار واجتبى وهو مأخوذ من الصفوة، والصافي النقي من شائب الكدر فيما يشاهد، فمثّل الله خلوص هؤلاء القوم من الفساد بخلوص الصافي من شائب الأدناس.

(٣) محرراً: يحتمل أمرين، أحدهما: المُعتق من الحرية، يقال حررته تحريراً اعتقته، والآخر: من تحرير الكتاب يقال: حررت الكتاب تحريراً أي أخلصته من الفساد وأصلحته.

(٤) وضعتها: ولدتها.

(٥) فتقبلها: قبلها.

(٦) كفّلها: ضمنها، من كفل وكافل إذا تكفلت مؤنته.

(٧) المحراب: مقام الإمام من المسجد وأصله أكرم موضع في المجلس وأشرفه، ويقال للمسجد أيضاً محراب، وقيل: إنه أخذ من الحرب لأنه يُحارَب فيه الشيطان.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا[1] وَحَصُورًا[2] وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ[3] قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا[4] وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ[5] وَالْإِبْكَٰرِ[6] ﴿٤١﴾﴾.

هدى من الآيات:

من خلال قصة واقعية لرجال عاشوا وخلفوا لنا عبرا.. آل عمران وآل إبراهيم. ومن خلال تجربة حية لا تزال تتفاعل في الحياة. تتحدث آيات القرآن عن حقائق كلية، وبصائر عامة، تكون هدى للناس جميعا وفي كل عصر.

ومن أبرز تلك الحقائق: أن العنصرية أخبث الثمار لقيمة الأرض، وقيمة التراب، والتمحور حول الذات وتقديسها وجعلها المقياس الأفضل.

أقول: هذه العنصرية هي الطرف المتناقض تماما مع حقائق الكون، وسنن التاريخ. وإنها فكرة متخلفة وباطلة، وتحمل في طياتها أخطر النتائج ضد الإنسان وبوجه خاص ضد من يحملها.

ولابد أن تتجسد العنصرية في شكل تقديس ذات بشرية وجعلها في مصاف الله، كما صنع النصارى مع عيسى عليه السلام، واليهود مع عزير عليه السلام.

وتنتشر القداسة بعدئذ في أتباع عيسى عليه السلام، وأبناء عزير عليه السلام، وأقاربه، وإذا بها تتحول إلى فكرة باطلة، تزعم أن مجرد الانتماء الجسدي أو اللفظي يكفي لخلاص الإنسان من

---

(١) سيداً: السيد مأخوذ من سواد الشخص، فقيل: سيد القوم بمعنى مالك السواد الأعظم، وهو الشخص الذي يجب طاعته لمالكه، هذا إذا قُيِّد وإذا أطلق فلا يستعمل إلا لله سبحانه.

(٢) حصوراً: ممتنع عن الجماع، ويقال للذي يكتم سره: حصور.

(٣) عاقر: من الرجال الذي لا يولد له، ومن النساء التي لا تلد.

(٤) رمزاً: الإيماء بالشفتين، وقد يستعمل في الحاجب واليد، والأول أغلب.

(٥) بالعشي: من حين زوال الشمس إلى غروبها.

(٦) الإبكار: من حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

المسؤولية. في الوقت الذي لم يستطع أولئك الرجال أن يصلوا إلى تلك الدرجات العالية من دون العمل الصالح المخلص لله، والعبودية المطلقة لسلطانه العظيم.

من هو عيسى عليه السلام؟ إنه مجرد عبدٍ لله. كانت أمه مريم عليها السلام وكانت جدته امرأة صالحة. وكان هو من أنبياء الله عليهم السلام، وحملة المسؤولية وكان أهلا لها. إن معالجة السياق لمشكلة تقديس الذوات، من خلال تقديس أنبياء الله العظام، أفضل وسيلة لضرب هذه الفكرة، التي هي قاعدة التمييز العنصري. والسبب أن الله فضّل أنبياءه عليهم السلام، وأكرمهم، وحمّلهم أقدس رسالة، وخصهم بأكبر نعمة، هي العبودية له. ولكن مع كل ذلك لم يرتفعوا إلى درجة القداسة الذاتية، التي تبعدهم عن مسؤولية أعمالهم. فكيف إذا قدسنا بشرا عاديين، أمثال فرعون وهامان أو آخرين.

إن الشعوب الإسلامية تردت اليوم إلى حضيض تقديس الذوات التاريخية والمعاصرة. فهي تقدس السلاطين، والخلفاء، والعلماء السابقين إلى درجة تحجبها عن تقييم أعمالهم، وأفكارهم. كما تقدس السياسيين والقادة المتسلطين عليها، وهذه فكرة متخلفة تجدها أيضا في الشعوب البدائية.

والقرآن كتاب هدى ونور جاء لينقذ الإنسان من أغلاله الفكرية، والاجتماعية، ولا ريب أن من أسوأ تلك الأغلال: هو تقديس الذوات، فجاءت في هذه السورة، قصة آل عمران دليلاً على أن الله لم ينتخب أنبياءه عبثا، بل لأنهم كانوا من ذرية طيبة. فبدأت الآيات: بالأمر بالاتباع والطاعة لكتب الله ورسله، ثم بينت طريقة اصطفاء الله لرسله الذين لا يختلفون عن بعضهم في شيء، فذكّرت بأن التربية الصالحة، وصدق إيمان الأم، وتقوى الأب، هذه هي من عوامل الاصطفاء.

لقد كانت مريم عليها السلام صديقة، لان أمها نذرتها لله. أما يحيى عليه السلام فقد أصبح نبيًّا صالحا، لأن أباه عليه السلام دعا ربه.. ولم تصبح مريم عليها السلام صديقة، بنذر والدتها فقط، كما أن يحيى عليه السلام لم يصبح نبيًّا، لدعاء والده فقط. بل لعملهما أيضا.

بينات من الآيات:

كيف نحب اللّه؟

[٣١] هل يكفي أن نحب ربنًا حبا صوفيًا ساذجا؟ كلا، الحب الصادق هو الذي يعكسه العمل الصالح وإلاّ فهو ليس سوى خداع للذات. والله لا يحب أحدا من دون العمل. بيد أن

العمل لا يمكن أن يكون لله، إلا عن طريق الرسول. إذ لا يوحي الله إلى كل إنسان وفرد. فإذا حاول كل منا أن يستكشف الدين من خلال عقله، فإن انحرافات كثيرة سوف يقع فيها، بسبب امتزاج عقله بهواه، وعلمه بشهواته من هنا جاءت الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ اتباع الرسول يستدرج غفران الله، ولأن مجرد الاتّباع تنازل عن ذاتية الإنسان، وارتفاع إلى مستوى التسليم لله، فهذا العمل العظيم يشفع لصاحبه في بعض الذنوب الصغيرة.

[٣٢] اتباع الرسول يتم بتطبيق رسالة الله التي نزلت عليه، واتخاذه أسوة حسنة فيما قام به من عمل، أو تمييز به من سلوك. ولكن الاتباع وحده لا يكفي، بل يجب طاعة الرسول أيضا. وذلك فيما يرتبط بالقضايا التي تحدث يوميًّا، وتتجدد، من حرب وسلم، واقتصاد وسياسة، واجتماع وعمران، وبالتالي في كل الحقول الحياتية المتجددة وطاعة الرسول في هذه القضايا جزء من طاعة الله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ فكما أن طاعة الله واسعة وشاملة، كذلك طاعة الرسول ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

وهؤلاء الذين يرفضون طاعة الرسول هم بمثابة الكافرين إذ إن أهم فوائد الإيمان التسليم لله، ليس في القضايا الثابتة من حياة الإنسان فقط، بل وفي الأحداث المتطورة، التي تتركز فيها ضغوط الحياة بشكل حاد، ولا تدع صاحبها يطيع القيادة الرسالية، إلا بصعوبة بالغة.

[٣٣] ولكن لماذا نتبع الرسول ونطيعه؟ أفليس من الأفضل أن يتّبع كل منا عقله، ويطيعه في قضاياه، مسترشدا بالتعاليم الدينية؟ لماذا يضع بينه وبين الله واسطة بشر آخر هو الرسول، أو القيادة التي تجسد رسالة الدين؟

الجواب: إن البشر الذين يأمر الله عباده باتبّاعهم، ليسوا كسائر البشر إنما هم صفوة الله في الأرض. اختارهم الله بعد أن ابتلاهم، ووجدهم أهلا لرسالته. واتباعهم، وطاعتهم، ضمان للبشرية من الانحراف عن خط الرسالة، والاختلاف فيما بينها من زحمة الحياة، وتحت ضغوط الأهواء الشديدة. ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

[٣٤] ولم يكن هذا الاصطفاء بسبب عنصري، والدليل على ذلك أن الله اختار آدم، وآدم أب الناس جميعا. ثم اختار من آل إبراهيم ومن آل عمران، أنبياء دون أن يميز واحدا على آخر على أساس عنصري. فلم يكن عنصر آل عمران أفضل من سائر فصائل آل إبراهيم المنحدرين من غير عمران.. بل هؤلاء بعضهم من بعض دون تمييز، فهم قمة السمو ولا يجوز

التمسك ببعضهم دون البعض الآخر: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيختار من عباده، من يرى فيه صلاحية الاختيار. ولا يختار رسله من عنصر معين أنى كانوا.

في رحاب الاختيار

[٣٥] ولنستمع إلى قصة واحدة لهذا الاختيار، ولتبدأ القصة من هناك، من داخل القلب الطاهر والنية الصادقة والإيمان التائب: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إنها كانت كأية امرأة أخرى، حملت بجنين، وأخذت تفكر في مصير الجنين الجديد. لم تفكر في أن يصبح رجلا ثريًّا، أو ملكا كبيراً، أو عالماً، أو طبيباً، أو مهندساً أو ما أشبه. ولم تحلم بأيامها معه في المستقبل، حيث يساعدها على مشاكل الحياة حين تضعف مقاومتها للمشاكل. كلا لم تفكر امرأة عمران بهذه الأحلام المادية، بل فكرت في رسالة الإنسان في الحياة، وهي عبادة الله، والعمل في سبيله، فنذرت أن تجند ابنها لهذه الغاية، وتحرره من أية روابط اجتماعية، أخرى، حتى يتفرغ في سبيل الله، ثم تضرعت إلى الله أن يتقبله بفضله.

[٣٦] وكانت هذه أمنية امرأة عمران طوال فترة الحمل، حتى إذا وضعت أنثى صعقت، وكأن آمالها قد خابت، حيث زعمت أن الأنثى لا تستطيع أن تتفرغ للعمل الجهادي في سبيل الله ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ فهي ليست أنثى كأية أنثى. إنها صدِّيقة تكونت في رحم امرأة عمران المؤمنة الصادقة، ونمت فيها روح الرسالة بسبب إيمان أمها، وعملها الصادق أيام حملها لها ولكن امرأة عمران قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

آثار التربية على نمو الطفل

[٣٧] وكان لهذا الإيمان الصادق أثر في مستقبل مريم.. ذلك لأن إيمان الأم، وتربيتها، يؤثران إيجابيًّا في تنمية فطرة الإيمان في الوليد. وقد رأينا كيف أن امرأة عمران، تضرعت إلى الله بأن يعيذها من الشيطان، وتعني ضراعتها أنها أخذت تعمل من أجل هذه الغاية أيضا، إذ الدعاء هو قمة العمل الجهادي عند المؤمنين وليس أبدا بديلا عن العمل. من هنا كان للدعاء والعمل أثر إيجابي كبير على مستقبل مريم: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ إن الإيمان كسكة الحديد لو وضع قطار عليها. ساعدت على استقامته وتقدمه.

كذلك الإيمان، لو رافق حركة النمو عند الطفل منذ البداية، ساعد على استقامة الطفل في كافة جوانب تربيته. وذلك بألاّ تنمو فيه صفة على حساب صفة. فلا دلال على حساب المسؤولية. ولا كبت على حساب الشعور بالكرامة، ولا حب على حساب الاستقلال، ولا جفاء على حساب العلاقة الاجتماعية.

كما يساعد جو الإيمان في البيت، على تعزيز روح الالتزام في نفسية الطفل. ذلك لأن الطفل الذي لا يرى الذين من حوله ينفذون برامج محددة، وبإخلاص واطمئنان، فهو الآخر يحب أن ينفذ برامج مثلها من دون ضغط.

كل ذلك ساعد على إنبات مريم نباتا حسنا، وكان من أفضل نعم الله على مريم، انه كفلها زكريا ذلك الشخص العالم، والنبي العظيم، الذي أفنى عمره في الله، وخدمة لعباد الله. وهكذا يكون دور المربي الصالح، في تنمية كفاءات الطفل، حيث أثمرت تربيته الصالحة، ودعاء أم مريم وتربيتها في تكوين مريم التي اتجهت كلية إلى الله تعالى، وأخذت تقف ساعات طويلة، تتضرع إلى الله وقابلها ربها بفضله وذلك: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذه مريم وأولئك أهلها، وتلك تربيتها، وهذا كفيلها، وهذا من فضل ونعم الله عليها.

كيف يختار الله الرسل؟

[٣٨] لنترك مريم مؤقتا إلى قصة أخرى تبين كيف يصطفي الله رسله.

بيّن الله ببساطة لماذا فضلت مريم، والآن يبين أن كل من اتبع الطريق ذاته فسوف يصل إلى النتيجة التي وصلت إليها مريم؟ فهذا زكريا حين وجد عند مريم رزقا في غير موسمه، ومن غير الطرق العادية، عرف أن الدعاء إلى الله، زائدا العمل الخالص لله، ينفع الإنسان في الوصول إلى طموحاته، وغاياته بالطرق غير الطبيعية.

لذلك توجه إلى الله، بهدف تحقيق أمنية قديمة عنده ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وبالطبع كان زكريا كأي نبي آخر، يعلم أن الله يجيب الدعاء، ولكن وجد مناسبة صالحة للدعاء ونبّه عليها القرآن بكلمة ﴿هُنَالِكَ﴾ لكي تكون لنا عبرة، تدل على أن الله لا يَمُتُّ إلى أحد بقرابة، بل يجازي كل من يعمل صالحا. فلم تكن مريم الوحيدة التي أجيبت فيها دعوة والدتها، بل زكريا هو الآخر استفاد من الوضع ودعا ربه فاستجاب له ربه في ذريته.

[٣٩] ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ كما كانت مريم من قبل قائمة في المحراب، فكان يأتيها الرزق من السماء.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تلك الكلمة التي هبطت على مريم بعدئذ في شكل عيسى، حيث كان يحيى نبيًّا تابعا لعيسى ومصدقا به: ﴿وَسَيِّدًا﴾ بالرغم من أنه تابع لعيسى، إلا أن اتّباعه لعيسى عليه السلام كان نابعا من إيمانه بالله، فلم يفقده كرامته وسيادته ﴿وَحَصُورًا﴾ معصوما عن الذنوب، وبصفة خاصة الفواحش الجنسية، التي كانت شائعة يومئذ، والتي قتل بعدئذ في مقاومته لها ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

[٤٠] كان زكريا قد دعا ربه، حين وجد عند مريم رزقا، دعا ربه في قمة تأثره بالحادثة، لأنها ذكّرته بأمنيته القديمة. أما الآن وهو في المحراب، فقد نسي نفسه وأمنياتها، وربما يكون قد نسي حادثة الدعاء. إنه الآن متوجه إلى الله وحده خالص لله وجهه، لذلك فوجئ ببشارة الملائكة: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

[٤١] كان مجتمع بني إسرائيل آنئذ فاسدا، إلى درجة أنهم كانوا يرتابون حتى في زكريا. والآن لو ذهب إلى الناس، وأخبرهم بأن الله رزقه يحيى من امرأة عاقر، فكيف يصدقونه.. لذلك ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ وذلك في صيام صامت، واعتزال ظاهر عن الناس الذين فسدت ضمائرهم، وأخذوا يتشككون فيه. إن نوع العبادة كان ينسجم مع نوع المجتمع.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ فمزيدا من الارتباط بالله، عن طريق ذكر الله وتسبيحه ليل نهار، هو الكفيل بإعادة ثقة الناس بالنبي. إذ النبي لا يُعرف بكثرة المال، أو كثرة الحديث، بل بالتوجه إلى الله، والدعوة إليه. وهذا من أبرز علامات الأنبياء دائما..

وعلى الناس أن يفكروا هم بأنفسهم، إن زكريا لا يمكن أن يكون كاذبا، فيأتي بوليد من الشارع (حاشا لله) ويسميه ابنا له، إن على الناس أن يعرفوا نبيهم بعقولهم، لا بمزيد من خوارق الطبيعة. والمجتمع الذي لا يريد أن يتعرف على رسوله، لا تنفعه خوارق الطبيعة، كما لم تنفع مع أقوام المرسلين السابقين. لعله لهذا لم يزود الله زكريا بآيات خارقة للطبيعة. بل أمره بالمزيد من تطبيق شريعته، وفي ذلك أكبر دليل على صدقه.

رسالة عيسى عليه السلام من ميزات النشأة إلى خصائص الرسالة

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ[1] الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ[2] عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا[3] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا[4] وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

---

(١) أنباء: أخبار.

(٢) المسيح: أي مُسِحَ من الأقذار وطُهِّر.

(٣) وجيهاً: كريمًا على من يسأله فلا يرده لكرم وجهه.

(٤) كهلًا: ما بين الشاب والشيخ. وقيل: الكهولة بلوغ أربع وثلاثين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كنا نتابع رحلة الرسالة مع مريم، وبالمناسبة مع زكريا، حيث اختار الله ابنه رسولا ليس عبثا ولا بمحض الصدفة.. بل لما تمتع به زكريا من إخلاص، ثم دعوته الصادقة إلى الله. ونعود إلى مريم، لنرى كيف أنها بدورها تضرعت إلى الله فوهب لها غلاما زكيًّا.

ذلك الغلام كان عيسى الذي اختاره الله للرسالة منذ الولادة.. كرامة لمريم الصديقة، ولأم مريم الصالحة، إن الله لم يبعث رسله منذ الولادة إلا في قصتي يحيى وعيسى، لكيلايعتقد الناس بألوهية الأنبياء، فلو كان الأنبياء آلهة إذن لكانوا أنبياء منذ الولادة، ولما ابتلوا وافتتنوا وخرجوا من مصنع الابتلاء ومن ثم اختيروا أنبياء.

أما يحيى وعيسى عليهما السلام فلم يكن اختيارهما عبثا، بل كرامة لوالديهما، وجزاءً حسنا لأعمالهما الصالحة، والله لا يعاقب أحدا بسبب ذنب غيره، ولكنه قد يكرم أحدا بسبب حسنة غيره.

وتبين آيات القرآن هنا بعضا من معاجز عيسى عليه السلام، ويشير القرآن إلى أنها كانت بإذن الله، لكي ينسف الدليل الثاني الذي تمسك به النصارى في اتخاذهم عيسى إلها، أما الدليل الأول وهو ولادته من دون أب، فيبينه حين يقارن بينه وبين آدم الذي خلقه من التراب فهو أولى إذن باتخاذه إلها.

وتبين الآيات خلاصة لدعوة عيسى عليه السلام والتي كانت خالصة لله، وأخيرا، ينهى الحديث ببيان أن الله ربي وربكم وعلينا جميعا التسليم له، وبالتالي فإن عيسى لم يكن سوى عبد مطيع لله، والآيات عموما تعالج فكرة العنصرية من زاويتها الدينية كما يأتي الحديث عنه.

بينات من الآيات:

[٤٢] لم تصبح مريم عليها السلام صدِّيقة ووالدة عيسى عليه السلام، لمجرد دعاء أمها، وتربية زكريا كفيلها، بل وأيضا لقيامها بواجبها في عبادة الله ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

[٤٣] ولكن لا يعني اصطفاك أنك غير مسؤولة عن عمل، ولا مكلفة بواجب، بل بالعكس تماما تتضاعف مسؤولياتك وأعمالك ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ

ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ فالخضوع لله والتسليم لأوامره، والتجرد عن الذات (القنوت)، ثم التطبيق العملي لهذا الخضوع (السجود)، ثم التطبيق الاجتماعي له (الركوع مع الراكعين)، هو الواجب المضاعف على مريم عليها السلام، الذي استتبعه اختيارها للرسالة.

إذن.. مريم لم تسقط عنها التكاليف بسموها إلى درجة الصديقين، بل ازدادت للدلالة على خطأ الفكرة العنصرية.

[٤٤] وكانت من نتيجة طهارة مريم وتسليمها المطلق لله، أن أخذ الناس يختصمون أيهم يكفل مريم، فاحتكموا إلى القرعة بطريقة فريدة. أن يأتوا البحر ويلقوا فيه أقلامهم، فالقلم الذي يغوص في الماء يحظى صاحبه بشرف كفالة مريم، حيث كان ذلك هو زكريا كما بيّن القرآن سابقا، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

[٤٥] هذه هي مريم وتلك قصتها.. قصة امرأة صالحة تضرعت لربها، فولدت مريم الصدّيقة، التي لم تكتف بطهارة مولدها، بل أتعبت نفسها في ذات الله فأصبحت صديقة.

أما قصة عيسى عليه السلام فقد ابتدأت من كرامة الله لمريم التي جزاها لأنها أحصنت فرجها بأن رزقها ولدا من غير أب ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾.

أسماء عيسى عليه السلام وخصائصه:

إنه كلمة من الله، لأنه أخلص نفسه وأخلصه الله للدعوة إليه واصطنعه لنفسه. وإنه كلمة من الله، لان الله يخلق كل شيء من خلال السنن الكونية، أما عيسى فخلقه بكلمة، كما خلق كذلك آدم من قبل فقال له ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

إن إرادة الله ومشيئته الحرة تتجسد في أمر إلهي، يسميه القرآن بالكلمة، لأن كل أمر يصدر منا نحن الذين يتحدث القرآن لنا وحسب مستوى فهمنا، يعبر عنه بالكلمة. ولكن لماذا سماه الله بـ (المسيح)؟ لأنه: لم يختر لنفسه منزلا بل انتقل من موقع لموقع، يدعو الناس إلى الله.

وعيسى لم يكن ابنا لله. بل لمريم. ولذلك نسبه الله إليها والحال أن القرآن يذكر أنبياءه من دون نسبة إلى أب، أو أم، أو عشيرة. فلا نجد في القرآن مثلا التعبير عن نبينا بـ (محمد بن عبد الله).

﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ومَنْ أكثر وجاهة وشهرة وتقديرا من عيسى،

الذي يقدره اليوم الملايين؟! أما عند الله فهو نبي وجيه، ومن الأنبياء أولي العزم، الذين فضلهم الله على العالمين وجعلهم مقربين إليه سبحانه.

[٤٦] ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فهو لا يدعو الناس فقط، بل ويدعو نفسه إلى الله، ويعبد الله سبحانه بإخلاص.

[٤٧] ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

مريم الصديقة ارتاعت وامتلكها التعجب والدهشة، كيف يرزقها الله ولدا؟! وهكذا كانت القضية غيبية، متصلة بإرادة الله، ولم تكن طبيعية مرتبطة بسمو مريم إلى درجة الألوهية، أو سمو عيسى إلى هذه الدرجة. وإلا فإن العملية لم تكن عجيبة بالنسبة إلى مريم نفسها.

إنما كانت خلقة الله لعيسى تماما كخلقته لكل شيء في الكون، لم يكن، ثم كان بإرادة الله، وبكلمته لها ﴿كُن﴾، فهل صحيح أن نقول: إن الله ولد الأشياء لمجرد أنها لم تكن، ثم كانت؟! كذلك غير صحيح أن نتصور عيسى ابنا لله لمجرد أنه وُلِدَ بصورة غير طبيعية.

[٤٨] وعيسى لم يكن إلها، بل بشرا علمه الله الأسماء، ولو كان ذا طبيعة إلهية، إذن لما احتاج إلى تعليم الله له؛ لأن من يتصف بالألوهية يعلم الأشياء ذاتيًّا، أما عيسى فقد أعطاه الله من علمه بقدر ما شاء.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ لعل الكتاب هو الدستور الثابت المتصل بالرؤى العامة في الحياة. أما الحكمة فهي التشريعات العملية الخاصة ذات الصبغة التطورية، والكتاب كان يتمثل في التوراة، أما الحكمة فكانت موجودة في الإنجيل.

[٤٩] وبعد أن علمه الله الكتاب والحكمة، اختاره نبيا، وأعطاه صفة الرسالة عطاءً، دون أن يمتلكها ذاتيًّا، كما يمتلك أحدنا -مثلا- عينه.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وليست الآية مني بل من الله وأنا واسطة نقل فحسب، وهكذا لم تكن معاجز عيسى دليلا على أنه ابن الله، إذ كانت تلك المعاجز في الواقع من الله وإنما ظهرت على يد عيسى، كما أن العين مثلا آية عظيمة من آيات الله، ولكنها تظهر في جسدي وجسدك. فهل هي دليل على أننا آلهة (سبحان الله).

من هنا نجد كلمة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تتكرر في المقطع التالي، للدلالة على أن كل تلك المعاجز هي من الله ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ تمثالا واجعله ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

طَيۡرَۢا ﴾ حيًّا يطير في السماء كأي طير آخر كل ذلك ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ فإذا كان لأحدكم قرصان من بر وشعير، أكل أحدهما فإني أخبر أيهما أكل، بأيهما احتفظ.. كل هذه المعاجز لا يقدر عليها البشر فهل استطاع البشر أن يحول قطعة طين إلى طير حي فيه مليارات الخلايا، وكل خلية معجزة إلهية؟ لا يستطيع البشر أن يصنعوها ولو اجتمعوا عليها. أم هل استطاع كل أطباء العالم أن يحققوا حلم الإنسان بإحياء الموتى؟ ولكن عيسى قدر عليه بإذن الله.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أما إذا عاندتم فإن ملايين الآيات لن تنفع الجاحد.

وحدة الرسالات في المبدأ والهدف

[٥٠] رسالات السماء واحدة، وأبسط دليل على صدقها جميعا هو وحدتها. إذ مستحيل على البشر أن يوحِّد أفكاره بهذه الدرجة، مع اختلاف العصور والظروف والضغوط، والثقافات و، و.

إنك لا تجد كاتبين يتحدان في أصول الفكر، أو في تفاصيله، حتى ولو كانا توأمين ينتميان إلى مذهب واحد، ويعيشان في أرض واحدة، ويعملان من أجل هدف مشترك فكيف بشخصين عاشا في عصرين متناقضين، ويختلفان عن بعضهما في كل شيء، إلا في التفكير؟! هل يمكن ذلك لو لم يكن مصدر الفكر واحدا؟

وبالطبع لم يكن عيسى عليه السلام مقلدا لموسى عليه السلام، بل كان مشرِّعا أيضا، ومطبِّقا لشريعته بإذن الله، وحسب الظروف المختلفة، ولكن مع كل ذلك فقد ظلت أصول فكرهما، وطريقة معالجتهما للقضايا، وأهدافهما التشريعية واحدة لأنهما رسولان من إله واحد..

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ للدلالة على صدق النبوة وضمان سلامة التطوير، انه من عند الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

[٥١] وأهم وأبرز الأدلة على صدق الأنبياء في دعوتهم، أنهم لا يدعون الناس إلى أنفسهم، بل إلى الله الذي يلزمون أنفسهم بأوامره ويخلصون له العبادة، ثم يأمرون الناس بمثل ذلك وعيسى فعل مثل ذلك، وهو دليل على أنه بشر وأنه رسول، فهو ليس إلها يدعو الناس إلى ذاته، كما أنه ليس سلطانا يفعل مثل ذلك باعتبار أن السلاطين يستحيل أن يدعوا الناس إلى غير أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾.

بشرية الرسول ومراحل انتصار الرسالات

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كان عيسى بشرا رسولا، تلك هي خلاصة الآيات في الدرسين السابقين وفي هذا الدرس أيضا، ولكن القرآن يعالج هذه الفكرة هنا من جهات عديدة.

أولاً: من جهة موقف الحواريين، وهم الرعيل الأول من المؤمنين بعيسى، موقفهم منه، وأنهم لم يتخذوه إلها كما فعل التحريفيون، ولو كان عيسى عليه السلام إلها لحق لأولئك قبل غيرهم أن يكشفوه، لأنهم عاصروه مباشرة.

ثانياً: من جهة نهاية عيسى الخارقة، حيث رُفِع إلى السماء فهي لا تدل على أنه ابن الله. بل لا يعدو ذلك أن يكون معجزة كسائر معاجزه.

ويختم القرآن هذا الدرس بدليل بسيط على أن عيسى لم يكن إلها، هو أن مثله كمثل آدم. فهل آدم إله لأنه خلق من غير أب؟

وفي بداية الدرس يبين القرآن المراحل الاجتماعية لانتصار رسالة عيسى، وهي المراحل ذاتها التي تجتازها أية رسالة، متصلة بجهود البشر أنفسهم، وليست دليلا على أن الله يحب عنصرا ويفضله على غيره، فلم يتقدم الحواريون لمجرد حبهم لعيسى، بل للجهد المكثف الذي بذلوه عبر المراحل التالية:

ألف: مرحلة الفرز واعتزال الأكثرية الضالة ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

باء: مرحلة الحرب وتخطيط كل طرف بالانتصار على غيره وتقدم صاحب التخطيط الأفضل ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴾.

جيم: مرحلة الانتصار على العدو.

بينات من الآيات:

[٥٢] عرف عيسى عليه السلام أنهم يخادعونه، ولا يخلصون الإيمان بالله بالرغم من أنهم كانوا ينافقون له ويتظاهرون بأنهم مؤمنون، فلم ينتظر عيسى عليه السلام أن يبادروا بالقضاء عليه، بادر بالاعتزال عنهم مقدمة لحربهم والانتصار عليهم، ودائما تمر على الدعوات الرسالية هذه المرحلة حيث تتكون العناصر الأولية لها فتنفصل عن المجتمع الفاسد، وتكوّن لنفسها مجتمعا مثاليًّا يتفاعل ويتزايد عناصره ويحارب وينتصر.. كذلك فعل عيسى عليه السلام.

ميزان العاملين

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ طلب من الناس أن يحددوا مواقفهم، فاختارت طائفة منهم «الرسالة» سماهم القرآن بالحواريين.. فقرروا اتباع عيسى وإخلاص العبودية لله والاستعداد للتضحية.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ إنهم آمنوا بالله إيمانا صادقا وسلّموا لله أنفسهم.

[٥٣] إن إيمان هذه الطائفة بالله كان عميقا وخالصا من المصالح والأهواء، ومن الريب والشك، وكان بهدف واحد هو مرضاة الله سبحانه، إنه كان إيمان العارفين، وكل دعوة تنتصر إذا امتلكت عناصر مخلصة، مثالية في إيمانها، وتقدم ذاتها ببساطة تامة إلى الله ودون تعقيد، أو فلسفة، أو تردد..

من هنا نجد هذه الطائفة تعبر عن إيمانها بهذا الدعاء الدافئ الصادق ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

[٥٤] في مواجهة هذه الطائفة كانت الأكثرية الضالة، التي حاولت أن تخطط لضرب هذه الطائفة بشتى الأساليب، وكلها فشلت لأن هذه الطائفة الصغيرة كانت تتمتع بإيمان صادق، وبخطة ذكية مستوحاة من الله سبحانه ومعتمدة على إيمان أصحابها.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إن أصحاب الرسالة السابقين يتمتعون بميزات لا توجد في مجتمعاتهم، فهم مؤمنون، ومضحون، ونشطون، ومتحدون، ويمتلكون القدرة على المبادرة والحسم، وليس كذلك مجتمعاتهم المترهلة.

النهاية المعجزة

[٥٥] وانتهت حياة عيسى عليه السلام بأن رفعه الله إليه، ولكنه كان يتطلع إلى يوم تنتصر رسالته وأصحابه فطمأنه الله على ذلك ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إن التوفي هنا يدل على أن الله رفع عيسى بجسمه وروحه معا؛ لأن الكلمة تدل على الأخذ بالكامل.

وجاءت كلمة ﴿وَرَافِعُكَ﴾ شرحا لمعنى كلمة الوفاة.

أما كلمة ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ فتشير إلى التهمة الرخيصة، التي أراد اليهود إلصاقها بعيسى فطهره الله منها حين استعاده (توفاه) منهم ومن مجتمعهم الفاسد.

ثم يبين القرآن أن الله سوف يجازي أتباعك وأعداءك مرتين. ففي الدنيا يجعل أتباعك فوق أعدائك وفي الآخرة يحكم بينهم بالحق.

[٥٦] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ولا ينفعهم انتماؤهم الكاذب إلى موسى عليه السلام، أو نسبهم الشريف الذي يربطهم بالأنبياء، بل

سيأخذهم العذاب الشديد في الدنيا، متمثلا في الذلة، والمسكنة، والتشرد، وفي الآخرة متمثلا في الجحيم وساءت مصيرا.

[٥٧] ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ولأنه لا يحب الظالمين، فأولى به ألاَّ يظلم أحدا من عباده، فلا يبخس أحدا حقوقه، كلا إنه سوف يوفِّيها بالكامل، ودون أن يُنقص منها شيئاً، ودون أن يعطي جنانه بلا شيء من العمل الصالح، والجهد، ومخالفة الهوى، إن الأجر هناك بقدر العمل.

فلتعتبروا يا أولي الألباب

[٥٨] تلك كانت قصص عيسى وقصص المعاصرين له، فهل هي مجرد قصة كلا.. إنها أولا آيات تدل على حقائق، وأبرزها أن أنبياء الله كانوا بشرا، وأن الله اختارهم لرسالته حين وجدهم أكفَّاء، وقادرين على العمل الصالح، وليس اعتباطا، ولا لأنهم كانوا من عنصر أفضل من غيرهم.

هذه حقيقة واحدة نستفيدها من قصص عيسى، وهناك حقائق أخرى نجدها وراء هذه القصص وهناك عبر وعظات نستفيدها من هذه القصص، أبرزها ما نتذكر به تذكر حكيم تفيدنا بصيرة عملية في الحياة، وعلما نافعا: من ضرورة العمل الصالح والاجتهاد، محاربة العناد في أنفسنا، حتى لا يصبح مصيرنا كاليهود بل حتى نرتفع إلى درجة الحواريين الصديقين لذلك لخص القرآن فلسفة القصص السابقة بالقول: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

[٥٩] وبيَّن القرآن بعدئذ الحقيقة البارزة في قصص عيسى وقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فليس ﴿عِيسَى﴾ ابنا لله، كما أن آدم لم يكن ابنا له، بل إن تلك القدرة التي قالت للتراب كن.. فكان رجلا سويًّا وأصبح آدم أب البشر، تلك القدرة هي التي خلقت عيسى من غير أب.

وكذب اليهود حين كذَّبوا مريم واتهموها بالإثم، لأن مريم كانت صدِّيقة يعرفها الجميع، ولأن الله قادر على أن يخلق عيسى من غير أب، كما خلق آدم من التراب.

الحق مقياس الصواب وأساس الوحدة

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ[1] فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ[2] سَوَآءٍۭ[3] بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ[4] فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) نبتهل: فيه قولان، أولاهما: بمعنى الالتعان، وبهله الله أي لعنه الله. أما الآخر: بمعنى الدعاء بالهلاك، فالبهل كاللعن وهو المباعدة عن رحمة الله.

(٢) كلمة: كلام فيه شرح قصة، ولذلك تقول العرب للقصيدة كلمة.

(٣) سواء: عدل، وقيل: سواء مستوٍ.

(٤) تحاجون: الحجاج هو ما يتضمن حجة أو شبهة في صورة الحجة، والحجة هي البيان.

هدى من الآيات:

كانت قصص عيسى ويحيى عليهما السلام تمهيدا جيدا لدحض العنصرية، ذلك الانحراف الكبير الذي وقعت فيه اليهود والنصارى وابتعدوا به عن المحور الأساسي للأمة الرسالية ألا وهو (الحق).

وفي هذا الدرس يبين القرآن محورية (الحق)، ويطرح بعض الحجج القاطعة عليه، أو بتعبير أفضل يبين لنا كيف نكتشف الحق وبأية ووسيلة، فيذكرنا:

أولاً: بأسلوب المباهلة.

ثانياً: بطرح برنامج للوفاق الرسالي، الذي يعتمد بالأساس على توحيد الله ومخالفة التحزب والعنصرية. ثم يعالج قصة إبراهيم الذي جعله اليهود والنصارى مقياسا للحق، ويبين أنه مقياس باطل.

ألف: لأن إبراهيم لم يكن يهوديًّا أو نصرانيًّا.

بـاء: لأنه بوصفه شخصاً لا يصلح مقياسا للحق، بل إنما كان إبراهيم نبيًّا لأنه اتبّع الحق.

جيم: وأخيرا، ليس الانتماء إلى إبراهيم بالنسب، أو بالكلام، بل بالاتباع الصادق. وبعدئذ يتابع السياق في الدروس القادمة مواقف أهل الكتاب من الرسالة الجديدة والتي منها توسلهم بأساليب التضليل السافلة ككتمان الحق، أو تلبيسه بالباطل، أو الإيمان ثم الارتداد، لإلقاء الشك في النفوس. ثم يناقش بعض الآثار العملية للفكرة العنصرية متمثلة في خيانة الأمانة.

ويبين أخيرا: دور علماء الدين والثقافة، المنحرفين، في تضليل الجماهير، بإعطائهم ثقافات مريضة ومسمومة، وكيف أن هذا الدور يناقض دور عالم الدين أو المؤمن الصادق.

بينات من الآيات:

[٦٠] إن الحق مقياس التقييم السليم، لا الرجال ولا العنصر. والحق من الله. فهو الذي يهدي إليه، وهو الذي يجزي عليه، وهو الذي يضمن تنفيذه بالتالي شئنا أم أبينا. ولأنه من الله فلا أحد يستأثر به، أو يحكم باسمه الناس، ويتخذهم عبيدا، لأن الله رب الجميع، وليس لطائفة

دون أخرى. ولأن الحق لله فهو لا ريب فيه، لأن مصدر الشك هو الهوى والمصلحة والجهل، وتعالى الله عنها.

دلائل صدق الرسالة

إننا قد نشك في دعوة مصدرها رجل، وعنصر، أو قوم أو أهل إقليم، لأننا نعرف أن الرجل قد يكون جاهلا أو ساذجا أو خبيثا، وأنه قد يتأثر بضغوط مصالحه أو مصالح عنصره أو إقليمه أو قومه. بيد أن الله لا يرقى إليه شك من هذا النوع أو من غير هذا النوع سبحانه، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

[٦١] يقين الرسول برسالته شاهد حق على صدقها، ذلك أن هذا الإيمان لا يجتمع أبدا مع كذب الرسول أو خداعه للناس، ولكن كيف يمكن للناس أن يكتشفوا صدق الرسول في إيمانه برسالته ويقينه التام بمضمونها؟ هل من خلال أقواله فحسب؟ كلا.. بل من خلال ممارساته العملية، ومن خلال جهاده وتضحياته وعطائه، وأيضا من خلال عملية الابتهال حيث تقف طائفتان متعارضتان أمام الله وتدعوان على الكاذب منهما، وبالطبع سيسقط آنئذ القناع عن تلك الوجوه الكاذبة، وتشرق الحقيقة من أفق الصادقين.

المباهلة وسيلة لكشف الحق

والابتهال -بالتالي- هو نوع من التحاكم أمام الغيب حيث يراجع كل طرف ضميره ويحتكم إلى تقواه ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في الحق فلا تجادله معه جدالا كلاميًّا قد يطول، بل دعه يحتكم إلى الواقع، لأن العلم ليس لفظا ولا كلمات تحريرية، إنما هو كشف عن واقع ملموس في الخارج إذن ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، إلى الله ونتضرع في أن يكشف الحقيقة ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهنا لا يستطيع الكاذب أن يستدرج اللعنة على نفسه فيُفتضح، وقد فعل الرسول مرة واحدة هذه العملية، حيث جمع أهل بيته وذهب إلى مواجهة نصارى (نجران) للابتهال ولكنهم انسحبوا وافتُضحت دعواهم.

[٦٢] ثم إن الحق من الله، والاحتجاج فيه يتم عبر الابتهال إلى الله، ولكن أين يوجد كلام الله؟ في (القرآن).. حيث يحدثنا من خلال قصصه الواقعية عن الحق، فالحق في منهج القرآن ليس ألفاظا ولا قواعد مجردة، إنما هو بصائر تُعطى من خلال قصص واقعية.

تلك القصص تنتهي إلى إقرار حقيقة التوحيد التي تعطي بصيرة تامة وتفسيرا صحيحا لكافة ظواهر الحياة.

ولكن ليس التوحيد اعتزال عن الحياة الاجتماعية بل التوحيد الذي تعكسه قصص القرآن التاريخية يهدينا إلى رب يهيمن على الحياة ويدبرها وهو عزيز حكيم. فلأنه عزيز تتجلى قوته في الحياة، ولأنه حكيم يستخدم علمه. انظروا إلى القرآن ماذا يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

[٦٣] ومن لا يتبع الحق فهو يتبع الباطل، وسوف لا ينتج إلا الفساد. والله ليس بعيدا عنه بل هو عليم به يراقبه ويأخذه على حين غفلة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

[٦٤] كان الابتهال أسلوبا يهدف: إقناع الكفار من أهل الكتاب بالرسالة، والأسلوب الآخر: هو طرح طريقة للوفاق تتضمنه هذه الآية، التي دعت إلى المساواة على صعيد التوحيد، حيث لا يشرك بالله شيئ في التفكير والسلوك وتسقط كل القيم الاجتماعية غير قيمة الحق فلا عنصر ولا رجل ولا قوم ولا.. .

لتسقط جميعا، لأنها شرك بالله ثم ليسقط الاستعباد فلا يتخذ البعض أربابا من دون الله.. فلا قيادة ولا استعباد ولا ظلم ولا كبت.

هذه هي دعوة التوحيد الحقيقية، المساواة في عالم يسوده الحق وتنعدم فيه قيم الضلال وترتفع قيمة التسليم لله وحده دون أي نوع من الاستعباد ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهذه هي كلمة التوحيد التي تعني عدم الشرك بالله في القيم ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ كما تعني هذه الكلمة عدم الشرك في القيادة والمحافظة على الحرية الشخصية ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وسوف لن نطبق هذه المبادئ مزايدة بل لأنها تمثل مبادئنا الحقيقية التي تحكم داخل مجتمعنا.

تطبيق المبادئ وسيلة الخلاص

ومن الذي لا تعجبه هذه المبادئ (المساواة - الحق - الحرية). أي مجتمع أم أي فرد؟ العالم اليوم يبحث عن وفاق، وخطر الحرب الذرية يهز أعماقه، ولكنه سوف لن يجد الوفاق إلا ضمن هذه المبادئ، لتسقط قيم العنصرية، والإقليمية واستعباد الإنسان للإنسان، وكبت الحريات ولترتفع قيمة التوحيد والتسليم لله وحده، وليرى العالم كيف يتحقق الوفاق.

وحتى داخل المجتمعات الصغيرة بل داخل تجمع صغير لو سادت هذه المبادئ لكانت وسيلة للتلاحم الأكثر، والإنتاج الأفضل، لو سادت قيمة المساواة أمام القانون، وقيمة التوحيد وعدم الاعتقاد بأية قيمة أرضية باطلة، وقيمة الحرية وعدم الاستعباد.

إن هذه الآية تجسد جوهر سورة آل عمران.. فهي دعوة إلى الوحدة وعلى أساس الحق وبناء التجمع التوحيدي الذي يتمحور حول الحق وينبذ القيم الباطلة.

[٦٥] حين رفعت الآية السابقة لواء المساواة وعدم استعباد فريق لفريق، فإنها تضمنت دعوة صريحة لنبذ صنمية وعبادة الأشخاص، والتمحور حولهم ومحاولة الانتساب إليهم.

تلك الحالة التي تقف أمام وحدة المجتمع البشري، كما أنها تعترض طريقه نحو التقدم والصعود، حيث يفقد البشر قدرته على الإبداع. وثقته بذاته من أجل التقدم.

وضربت هذه الآية مثلا على ذلك من واقع إبراهيم عليه السلام، حيث حاول اليهود والنصارى الارتباط به، والاختلاف عليه، ومحاولة كل فريق دعم فريقه باسمه، متناسين أن عظمة إبراهيم لم تكن بسبب عنصره المتفوق، أو بسبب والده أو قومه أو إقليمه، بل لأنه سلَّم نفسه لله وأخلص في التوحيد.

ولو أنهم اتبعوا ملة إبراهيم في التوحيد، لوحدتهم تلك الملة، بدل أن تفرقهم، ولما فكروا تفكيرا حزبيًّا ضيقاً، ولم يحاول كل فريق أن يكون لجماعته أشد من انتمائه للحق، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ إن عليكم أن تجعلوا إبراهيم رمزا للوحدة، لا سببا للتفرقة والجدل الطائفي بينكم؛ ذلك لأن الاختلاف جاء بعد إبراهيم لا قبله.

[٦٦] ثم يتابع القرآن حديثه ويقول: إن التعصب يدعو صاحبه إلى العمى، حيث انه لا يفكر تفكيرا علميًّا، بل يحاول إثبات جانبه بأي ثمن، فإبراهيم كيف يمكن أن يكون يهوديًّا واليهودية متأخرة عنه؟ أم كيف يكون مسيحيًّا؟.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ والأفضل أن نوحد الله ونسلم له حتى نبتعد عن العصبية الطائفية، ونستفيد من العلم والعقل.

[٦٧] من كان -إذن- إبراهيم؟ إنه كان عبدا لله ولم يكن منتميا لطائفة أو عنصر. وبذلك أصبح عظيما ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

إنه رفض الانحرافات الاجتماعية التي سادت مجتمعه، وحنف ومال عنها ثم توجه إلى الله ووحده فعبده، وبالتالي تحرر من ضغط الجبت والطاغوت، فلم يخضع لأية قوة فكرية أو اجتماعية أو سياسية غير الله.

[٦٨] هذا إبراهيم فمن أراد أن يهتدي إليه فليبدأ يرفض مجتمعه الفاسد، وليمل عنه باتجاه معاكس، تماما إلى الله، وليسلم نفسه لله والحق، وليتحرر من كل القوى المستعبدة للبشر. هذا هو الانتماء الصحيح لإبراهيم، ولا تجده إلا في النبي محمد ﷺ والمؤمنين به ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وأخلصوا التوحيد لله ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

مواقف أهل الكتاب عصبية وتضليل

﴿ وَدَّت[1] طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ[2] وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾.

هدى من الآيات:

ما هي مواقف أهل الكتاب من الرسالة الجديدة (الإسلام) الذي اتبعه إبراهيم؟.

إن أهم ما يميز مواقف أهل الكتاب، هو التعصب الأعمى لطائفتهم على حساب الحق،

---

(١) ودت: أي تمنت.

(٢) وجه النهار: أوله، وسُمّي وجهاً لأنه أول ما يواجهك منه.

إنهم لا يفكرون في أن يهتدوا، بل يحاولون تضليل المؤمنين أيضا، ومع علمهم بأن الرسول حق، فهم يكفرون به، انطلاقا من عصبيتهم الطائفية، وعنصريتهم القومية، ويستخدمون وسائل ماكرة وغير شريفة في إضلال المؤمنين، مثل أن يتظاهروا في الصبح أنهم مؤمنون، ثم يكفرون مساءً، لعلهم يضعضعون إسلام المؤمنين بالرسول، أو أنهم يُشيعون في أوساطهم فكرة الطائفية، ويحاولون اللعب بمشاعر الناس الاستقلالية، وينفخون في كبريائهم القومية ويقولون: لهم لماذا تتبعونهم؟ دعوهم، فهم يتبعونكم، فأنتم أولى بالاتِّباع، وكأن المسلمين يدعونهم إلى اتِّباع أنفسهم.

وتبرز هذه المواقف كأسوأ ما تكون في العنصرية، التي تَّدعي أن اليهودي لا يُعذب شيئا، إذا خان الناس من غير اليهود. انظر كيف تنحرف المفاهيم، بسبب العصبية الطائفية.

ويرد القرآن -كما نبين قريبا- هذه الأفكار وتلك المواقف بحجج قوية.

بينات من الآيات:

نتائج التعصب

[٦٩] إن أهل الكتاب ليسوا سواء، هذا ما توحي به هذه الآية وتبينه آية تأتي لتؤكد لنا: أن جزاء العصبية ليست عصبية مثلها، بل التقييم السليم، والاحتكام إلى الحق فقط، فإذا قالوا لنا: أنتم كلكم منحرفون، لا نرد عليهم القول ذاته فنقول: بل أنتم المنحرفون جميعا، بل نقول الحق أبدا. فليس كل الطوائف من أهل الكتاب يكفرون بنمط واحد، إنما هناك طائفة من أهل الكتاب يودون تضليل المؤمنين بالرسالة الجديدة وهم يستفيدون من الدين المنحرف السابق، سواء كانوا الكبراء أو الأحبار أو الأثرياء أو من أشبه.

ولكن هذا التضليل سوف يسبب لأنفسهم مزيدا من الضلالة، إذ إن الذي يحاول تضليل غيره سوف تتكرس في نفسه الأفكار الباطلة، التي يلوكها من أجل إقناع الآخرين بها، ذلك لأنه سوف يفتش عن بعض الأدلة الباطلة، التي تدل عليها، ويكررها، حتى يصدق هو بها، كما وتأخذه حالة التحدي، والاعتزاز بالإثم، ولا ينظر إلى الأفكار المعاكسة لفكرته، كل ذلك سوف يسبب له مزيدا من الضلالة ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

[٧٠] العصبية عمياء لا بصيرة لها.. إنها تسبب الكفر بالحق بكل صراحة، فإذن من يخسر بالكفر؟ أو ليس الكافر نفسه؟!.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ هل هناك فائدة في الكفر بآيات الله الواضحة.

[٧١] إنهم لم يكونوا يكفرون بالحق فقط، بل يحاولون إضلال المؤمنين بشتى الوسائل، التي منها:

أولاً: خلط الحق بالباطل ودمج الباطل به، وخداع البسطاء فيه، وهم أهل الكتاب الذين اؤتمنوا عليه.. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ هل هذا في كتابكم أم من أجل تحقيق أهوائكم الضالة؟!.

ثانياً: كتمان جوانب من الحق، من أجل ألاَّ تصبح حجة عليهم أمام الناس ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ أنه الحق من ربكم..

إن الله حمَّل أهل الكتاب مسؤولية بيانه للناس، وكانت ثقة الناس بهم آتية من منطلق أنهم سوف يحققون مسؤولية العلم التي على أكتافهم، ولكنهم خانوا الله وخانوا الجماهير، حين كتموا الحق، وخلطوه عمدا بالباطل.

[٧٢] وقاموا بخطوات عملية ماكرة، لزرع الشك بالحق في قلوب البسطاء من أتباعهم لكيلا يؤمنوا بالرسالة الجديدة.

فلقد كانوا يتظاهرون بالإيمان في فترة من الوقت، ثم يكفرون ويعودون لجماعتهم، ويقولون: نعم خُدعنا وآمنا لأننا كنا طيبي القلب، ومخلصين، ولكننا اكتشفنا أنهم على باطل ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾، انظر كيف يؤدي الكفر بالحق إلى اتخاذ مواقف خطيرة ضد الحق، ومن أجل إضلال الناس عنه.

[٧٣] وكانوا يثيرون في انفس اتباعهم العصبية الجاهلية البعيدة كل البعد عن روح الدين، فيقولون لهم: دعوهم هم يتبعون دينكم، لأنكم أنتم أصحاب الدين الحقيقي. علما بأن الدين لله ليس لهؤلاء ولا لأولئك ﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ وليس هدى عنصر أو قوم معين، ثم إن الرسالة التي هبطت على قلب محمد ﷺ، هي مكملة لرسالة الله وخاتمة لها.. في حين أن رسالات الله السابقة لم تكن بذلك المستوى.

﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ ﴾ أيها المسلمون: فلا ترتابوا في دينكم، لمجرد أن طائفة من الأحبار يؤمنون ثم يكفرون، أو لمجرد أنهم يقولون: إننا حملة الرسالة التقليديون، فكيف انتقلت الرسالة إلى العرب وهم ليسوا بمستوى حمل الرسالة؟! كلا: إن الله يعلم أين يضع رسالته.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ وليس يختص بفضل الله بنو إسرائيل، لان الله الذي خلق بني إسرائيل، وتفضل عليهم برسالته، هو الذي خلق العرب. والخلق أمامه سواء، وإنها خصهم الآن بالرسالة لما علمه من كفاءات حملها فيهم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ولأنه واسع لا يخصص فضله لجماعة دون أخرى، ولأنه عليم يجعل في كل فترة رسالته في موقع معين، تبعا للحكمة البالغة والمصلحة العامة.

[٧٤] ولأن الله سبحانه عليم، ولأنه فعال لما يريد فلايحق لأحدٍ أن يعترض على مشيئته، لأنه أعلم حيث يجعل رسالته؛ من هنا فهو: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وفي خاتمة الآية إشارة لطيفة للناس ألا يتحاسدوا وألا يتمنى كل واحدٍ استلاب النعمة من الآخر، بل عليهم أن يسألوا الفضل من الله، لأنه سبحانه ذو فضل عظيم. وهذا هو الذي يسمى غبطة وهي صفة حميدة.

[٧٥] لذلك نجد أن الله يختار اليهود تارة، والعرب تارة. وبالطبع إن هذه العنصرية لم تكن جزءا من رسالتهم السماوية، بدليل أن بعضهم -وهم المتمسكون جيدا برسالتهم- كانوا يؤدون الأمانة، حتى القنطار من الذهب ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ وتطالبه به بقوة حتى تستلم أمانتك منه.

ولكن لماذا يخونون الأمانة؟

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ فلا يحاسبنا الله على الخيانة بالعرب الأميين، أو بالأحرى على الخيانة بكل شعب غير شعب اليهود، الذي نزلت عليه ومن أجله فقط رسالة السماء ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إذ لم ينزل الله دينا عنصريًا لناس دون ناس. ولكن دوافع هؤلاء الحقيقية هي دوافع مصلحية، وعصبية، ولذلك يتلبسون بالدين عمدا.

[٧٦] وقد رأينا كيف أن الله يمدح طائفة من اليهود، لأنهم يؤدون الأمانة، إن ذلك دليل بسيط على أن رسالة السماء لا تعترف بالعنصرية أبدا، والقيمة الوحيدة عندها هي العمل الصالح، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ سواء كان ذلك العهد هو المال كما في الآية السابقة، أو كان العلم الذي حمّله إياه الله لكي ينشره بين الناس. ولكن العصبية الجاهلية العمياء، هي التي أملت على اليهود مخالفة الهدى من ربهم لمجرد أنه أنزله على العرب، والواقع أن هذه العصبية انتهت بهم إلى عنصرية عمياء، فإذا بهم تجدهم يخونون أمانات الناس -مثلا- من دون أي حرج، بزعمهم أنهم لا يحاسبون على الذنوب التي يرتكبونها في حق الأميين.

العلماء بين تبرير الهزائم وتفجير الطاقات

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ[1] أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ[2] بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ

(١) يلوون: أصل اللي الفتل من قولك: لويت يده إذا فتلتها، ومنه لويت الغريم.

(٢) ربانيين: الرباني هو الرب يربُّ أمر الناس بتدبيره وإصلاحه إياه، يقال: رب فلان أمره إذا دبره وأصلحه، فيكون العالم ربانياً لأنه بالعلم يرب الأمر ويصلحه. قيل: إنه مضاف إلى علم الرب وهو علم الدين الذي يأمره به إلا أنه غير في الإضافة ليدل على هذا المعنى فقيل لصاحب علم الدين الذي أمر به الرب رباني.

عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٨٥)﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من أن آيات الدرس السابق كانت عامة، إلا أن رجال الدين التحريفيين وأنصاف المثقفين كانوا أولى الناس بها، إذ إنهم هم أبرز ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. فالكتاب يعرفونه قبل غيرهم ويدرسونه ويعلمونه الآخرين فهم أهله بالأولوية.

والحديث في هذا الدرس يتركز على هؤلاء بالذات، ويبدأ بأن العلم أمانة، والذين لا يتحملون مسؤولية العلم لبعض المال، ويخونون أمانته، ينالون جزاءهم في الآخرة.

وخيانة العلم قد تكون بالتفسير الخاطئ للدين. بتحريف معاني نصوصه وجعلها تتوافق ومصالحهم الدنيوية.

وهؤلاء ليسوا أمناء الله على رسالته، إنما أمناؤه الأنبياء الذين يخلصون الدعوة إلى الله لا إلى أنفسهم، ولا إلى الملائكة أو الأنبياء، ويصدق بعضهم ببعض، وفقا للميثاق الذي اتخذه الله منهم قبل أن يحملهم مسؤولية الرسالة: أن يؤمنوا بالنبي الذي يبعث إليهم وينصروه فوافقوا جميعا عليه، وأشهدوا الله على أنفسهم.

وهذا في الواقع هو الإسلام بمعناه الصادق، فهو تجرد كامل عن الذاتية، وتسليم مطلق لله. تماما كما أسلمت السماوات والأرض لسنن الله.

وبالنسبة لنا يعني هذا الإسلام، الإيمان بجميع الرسل انطلاقا من وحدة الرسالات السماوية، التي سيبحثها القرآن في الدروس التالية مباشرة.

بينات من الآيات:

الرسالة مسؤوليات وواجبات

[٧٧] رسالة الله مسؤولية كبيرة يحملها الإنسان في الحياة، وتتركز عند الأنبياء والصديقين، وعند الذين ينصبون أنفسهم دعاة إلى الدين. وهي -في الوقت ذاته- مسؤولية ثقيلة وذات

قيمة كبيرة، لأنها أداة لتوجيه الناس إلى الحياة السعيدة وإلى مقاومة الجبت والطاغوت، ولنا أن نتصور أن قدرة الإنسان في ضبط نفسه عن شهواته متصلة بفهمه الصحيح لرسالة الدين في الحياة. إذ إنها هي التي تحذره من مغبة الاسترسال مع الشهوات وتبين له أن لقمة واحدة يمضغها الإنسان بشهواته، قد تمنعه من الأكل الهنيء طول حياته. وأن ساعة واحدة من الغفلة واللاإرادة، قد تجعل حياته وإلى الأبد جحيما لا يطاق، وأن أية شهوة طائشة، أو جريمة، أو ذنب، أو هفوة، توجب عليه الحساب والعقاب الأليم في الآخرة. وبالتالي رسالة الدين تجعل إرادة الإنسان قوية وقادرة على ضبط الشهوات وتوجيه طاقاته نحو الجد.

نتائج التحريف

أما لو جاء رجل دين منحرف، ومن أجل المماشاة مع أصحاب الشهوات والربح عليهم. وجمع أكبر عدد منهم حوله، برّر لهم سيئاتهم وهوّن عليهم أمر العقاب وأخذ ينشر فيهم أفكارا من قبيل أن الله غفور رحيم، أو أن الأنبياء والأولياء يشفعون لك ذنوبك، وانك سوف توفّق للتوبة وهكذا. فإن النتيجة ستكون خطيرة، إذ إن أداة الضبط تتراخى في النفس وتندفع الشهوات في كل اتجاه. وقد يقدم صاحبها على أكبر الجرائم اعتمادا على تلك التبريرات السخيفة.

إن مجازر الحروب الصليبية ارتكبت بفعل تحريف رسالة الدين، وتحويلها من أداة لضبط الشهوات إلى أداة لتبريرها.. بل وتكريسها وإعطائها الشرعية.

كما أن العديد من طغاة التأريخ كانوا يستغلون في مجازرهم الرهيبة بعض رجال الدين التحريفيين، الذين يزورون الدين ويُسوّغون لهم أقتراف الجرائم.

وأولاد اليهود اليوم وفي إطار دولتهم الغير شرعية يقترفون الجرائم باسم الدين، ولكن أي دين ذلك الدين الذي يبرر الجرائم بدل أن يدينها.

هذا عن الجبت. أما الطاغوت المتمثل في السلطات المستبدة والمستغلة والمستعبدة للبشرية فإن القوة الوحيدة التي تستطيع أن تتحرك ضدها هي قوة الشعب، الذي يجب أن يحافظ على حريته وثرواته ويجاهد ضد مستغليه. ولكن الشعب بحاجة إلى سلاح فكري يساعده في تجميع قواه، وتوحيد طاقاته، وتبرير تضحياته.. وذلك السلاح هو الدين. ولكن يشترط ألاّ يسرق رجال الدين سلاح الشعب منه، ويبيعوه إلى الطواغيت، بثمن بخس دراهم معدودة.

ولنا أن نتصور كم ألف ألف جريمة تُرتكب في كل يوم بسبب خيانة رجال الدين لرسالة الدين. وكم يستعبد ملايين الناس لهذا السبب وهل لها قيمة تلك الدراهم التي يقبضها هؤلاء

الخونة لقاء تلك الجرائم الكبيرة التي يتحملون وزرها.

من هنا نجد القرآن شديد مع هؤلاء ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فمهما يكون الثمن الذي يقبضه الإنسان لقاء جريمته بحق الشعوب، فهو قليل. والعهد والإيمان سيتحدث عنهما القرآن في الآية (٨١) من هذه السورة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ إنهم في الآخرة بلا رصيد، بالرغم من بعض مظاهر الطاعة التي عندهم من صلاة وصيام.

إذ إنهم يبيعون دينهم في الدنيا، فلا يبقى منه شيء للآخرة، وأولئك هم الأذلون في يوم القيامة، إذ إنهم طلبوا من وراء بيعهم للدين الحصول على بعض الجاه؛ فجزاهم ربهم بعقاب مناسب حين أذلهم في القيامة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾. وهؤلاء دائما يزكون أنفسهم، ويجعلونها مقدسة، ومتعالية عن النقد، وأي نقد يوجه إليهم يعتبرونه نقدا موجها إلى الدين، ويكفِّرون صاحبه؛ لذلك قال الله عنهم. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ جزاء للذات البسيطة التي استفادوها ببيعهم الدين.

[٧٨] إن ملايين الناس يتمردون على الدين ذاته بسبب وصاية هؤلاء الخونة على رسالته المقدسة. إذ إن هؤلاء يصورون الدين أداة للتبرير، وللكسل، والجمود والاستسلام للطاغوت، والرضا بالاستعباد. وهذا التفسير الماكر يستخرجونه من بعض النصوص بطريقة ماكرة ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. والتعبير بـ: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ تعبير دقيق لحالة هؤلاء النفسية والسلوكية فهم من الناحية النفسية يحاولون تحريف الدين وليِّه بأي شكل من الأشكال، وهم من الناحية السلوكية يعيشون الكتاب على صعيد الألسن فقط دون أن تتعمق رؤى الكتاب في قلوبهم، أو تظهر في حياتهم. إنهم اتخذوا الكتاب أحرفا يتعاملون بها كما يتعاملون مع قطعة حلوى يصنعون منها ما يشاؤون صورا شتى حسب المواقع وحسب الظروف المصلحية.

[٧٩] إن الكذبة الكبيرة التي قالها هؤلاء الخونة -من رجال الدين والعلم التحريفيين- هي عبادة عيسى، واتخاذه إلها من دون الله، ومثله عبادة سائر الأنبياء والأولياء، والعظماء. وكان الهدف الخبيث وراء هذه الكذبة:

أولاً: التعصب المذهبي، حتى لا يتحول النصارى مثلا إلى مسلمين بفعل الإعلام الإسلامي أو لكيلا يتحول أهل مذهب إلى مذهب أو جماعة حزب إلى حزب ثان.

ثانياً: أن يعطوا لأنفسهم نوعا من القداسة المزيفة، فإذا كان عيسى إلها فالأحبار أنبياؤه أو أنصاف آلهة. إن عبادة الذوات تقع بالضبط في الطرف الآخر لعبادة الله وان التمحور حول الأشخاص متناقض تماما للالتفاف حول الحق، كما أن هؤلاء الخونة يريدون إبعاد البشر عن الحق وعن الله معا.

فإنهم يُشيعون عبادة الذوات في الناس تلك التي يقول عنها ربنا: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ كعيسى الذي لم يكن لديه شيء إلا من عند الله سبحانه، وكان واحدا من الناس فرفعه الله إلى درجة الحكم والنبوة.. ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ لا يمكن ذلك.

ألف: لأنه يعلم قبل غيره أن كل شيء يملكه هو من عند الله فلا يعمل عملا يسلبه بسببه الله كل شيء.

بـــاء: لأن الله لا يختار لنبوته رجلا خائنا حاشاه.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ هذه دعوة عيسى إلى رجال الدين، قال لهم: كونوا رجال دين تقدرون ربكم قبل ذواتكم وقبل مصالحكم، لماذا؟

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾، إن دراسة الكتاب وتعليمه للآخرين يحملكم مسؤولية كبرى، هي ضرورة التطوع لله وعدم التفكير أبدا في ذواتكم، تماما بعكس عبادة الذات.

[٨٠] كذلك لم يكن عيسى عليه السلام ليأمركم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا، مثلما فعلت النصارى حين دخلت في ثقافتهم الأفكار الصنمية المشركة من مذاهب منحرفة، فزعموا: أن كل القوى الكونية، والتي تمثلها الملائكة، أرباب وآلهة صغار، يقاومون ضغط الإله الكبير في العرش (سبحانه)، ويشفعون للناس رغما عنه. وبالتالي يجب توزيع العبادة بين الله، وبين تلك الأرباب، حيث تقتسم مع الله سلطانه ويقول الأحبار عنه: «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر» وبالتالي يحدث فصل بين الدين والسياسة، بين الآخرة والدنيا وهكذا ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

الالتزام بمسؤولية العلم ضمان الاستقامة

[٨١] وإن أهم مسؤولية من مسؤوليات العلم والدين ورسالتها المقدسة الإخلاص

للحق، والابتعاد عن الذاتية بكل صورها، وعدم استخدام العلم والدين من أجل دعم المذهبية، والعنصرية الضيقة، وبالتالي من أجل حرمان الآخرين واستعبادهم واستغلال ثرواتهم.

إن العالم اليوم يعاني من استخدام تقدم العلم في نشر الدمار في الأرض. إن نصف الأبحاث العلمية في العالم تتركز من أجل صناعة وتطوير آلة الحرب، والقسم الأكبر من النصف الثاني يُستثمر من اجل السيطرة على الشعوب المحرومة. وهذا بعيد عن رسالة العلم وخيانة لأمانته ومخالفة لعهد الله مع العلماء. وقديما كان الدين يُستغل من أجل الأهداف ذاتها. كان رجال الدين هم الذين حصروا أنفسهم في إطار العنصرية والإقليمية والقومية، وساعدوا -بذلك- الطواغيت في فرض أنفسهم على الشعوب، وفي استغلال واستعباد الشعوب، وفي إثارة الخلافات المصلحية بينها، في حين كانت رسالة الدين الحقيقية واحدة، ورمزا للوحدة ونقطة التقاء بين الناس، وأداة جمع وإصلاح بينهم.

وفي هذه الآية يذكرنا القرآن بهذه الرسالة، عبر الحديث عن الأنبياء، وكيف أن الله تعالى أخذ منهم الميثاق والعهد، بأن يصدق بعضهم ببعض، وأن ينصر بعضهم بعضا، وبالتالي ألاَّ يتفرقوا في الدين بأي شكل من أشكال التفرقة، ونجد في الآية تأكيدات شديدة على هذه المواثيق ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لأني حملتكم رسالة الدين والعلم، الدين المتمثل في الكتاب، والحكمة المتمثلة في تطبيق الدين على واقع الحياة، والذي يحتاج بالطبع إلى المعرفة بالحياة (العلم) ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أمرهم بأن يؤمنوا بالرسول، وينصرونه، وجعل الأمر بصيغة مشددة للتأكيد عليه، ثم ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾، طلب منهم الإقرار. وسمى عهده هذا (بالإصر) -وهو الحمل الثقيل- من أجل بيان أهميته، حتى إذا أقدموا على إعطاء الميثاق يعرفون أيَّ عمل عظيم يقدمون عليه، فلا يمتنعون في المستقبل عن أدائه، ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ إنه بعد الإقرار طلب منهم الشهادة، وكأنه أمرهم بالتوقيع النهائي على ورقة التعهد، كل ذلك من أجل التأكيد على رسالة الدين، والعلم في الحياة.

[٨٢] ثم أكد الله أهمية هذه الرسالة بالوعيد وقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وبالطبع لا يتوانى أنبياء الله عن هذه الرسالة، ولكن أتباعهم هم الذين يتولون وينالون نصيبهم من الفسق، بالرغم من مظاهر الدين التي يتقنعون بها.

[٨٣] هذا دين الله دين واحد، ذو قيمة واحدة، هي قيمة التوحيد والتسليم لله ولا مكان فيه لقيم الأرض أو العنصر واللغة.

والذين يتولون عن رسالة الدين ويحورونها عن خطها الصحيح إنما يتبعون غير دين الله بل دين الأرض، أو العنصر أو اللغة ويقول لهم الله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فهم مضطرون إلى العودة إلى دين الله، إلى سنن الحق الحاكمة على الكون لأنهم لا يمكنهم البقاء طويلا في مواجهة كل قوى الكون، وإذا ماتوا فهم يرجعون إلى الله.

[٨٤] ما هو دين الله؟.

دين الله دين الوحدة بين جميع رسالات الله ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ هذا دين الله: الإيمان بما أنزل على الأنبياء الأسبقين من كتاب، وما أوتي الأنبياء الآخرون من كتاب وحكمة ومعاجز (وربما كان التعبير بـ ﴿أُوتِىَ﴾ في الأنبياء الآخرين للدلالة أيضا على المعاجز التي ظهرت على يد موسى وعيسى عليهما السلام).

[٨٥] وهذا هو الإسلام الحقيقي، الإيمان بالله، وبجميع أنبيائه، دون تفريق بين كتاب عربي وآخر عبري، بين مكة والقدس، بين عنصر العرب وعنصر اليهود، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الإسلام بمعناه الحقيقي، الذي يعني التسليم لله والإيمان بجميع أنبياء الله دون تفريق بينهم، الإسلام بمعناه الحقيقي، الذي يعني التعالي على قيم الأرض إلى قيم السماء والترفع عن حواجز المصلحة، والحساسية والقومية، واللغة، والعنصرية، والإقليمية، والالتقاء على صعيد الله والحق والحرية والعدالة والمساواة.

الارتداد أقسامه وجزاؤه

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[1] (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى[2] بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ[3] حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

هدى من الآيات:

إن الذي يكفر ببعض رسالات الله فكأنه كفر بها جميعا، لماذا؟ لأنه ينطلق في كفره بهذه الرسالة من قيمة ذاتية، أو أرضية، تتناقض مع قيمة التوحيد. فهو -مثلا- يكفر بالرسول محمد ﷺ لأنه عربي، فهو ينطلق إذ، من قيمة العنصرية المتناقضة مع قيمة التوحيد، التي نزلت على النبي موسى عليه السلام. ولن يقبل الله منه الإيمان، لأنه في الواقع يعني لا إيمان مطلقا بالله

---

(١) ينظرون: يؤخرون.

(٢) افتدى: من الفدية وهي البدل من الشيء في إزالة الأذية، ومنه فداء الأسير لأنه بَدَل منه في إزالة القتل والأسر عنه.

(٣) البر: أصله السعة ومعناه النفع الواصل إلى الغير مع القصد إلى ذلك، وضد البر العقوق.

وبحاكميته المطلقة على الكون.

وفي هذا الدرس تعالج الآيات قضية الارتداد بهذا المفهوم، وبعد أن تبين أن الله لا يهدي المرتدين لأنهم تعمدوا الكفر بعد الإيمان، والله لا يجبر أحدا على الإيمان بعدئذ يبين أن هؤلاء ملعونون عند الله، وبعيدون عن قيم الله، وملعونون عند الملائكة، فهم بعيدون عن سنن الحياة وملعونون عند الناس فهم بعيدون عن الجماهير.

ثم يقسم المرتدين إلى ثلاثة أقسام:

ألف: الذي يتوب ويصلح ما أفسده.

بـاء: الذي يزداد كفرا، ولا يتوب إلا عندما يحضره الموت.

جيم: الذي لا يتوب حتى يأتيه الموت.

بيد أن القسم الأول فقط، تقبل توبته، أما الآخران فإنهما لن تقبل توبتهما. والارتداد -عموما- يحصل بسبب متاع الحياة الدنيا، وعلى الإنسان أن يقاوم إغراء الدنيا، وعلى الإنسان أن ينفق ما تحبه نفسه حتى يحبه الله.

بينات من الآيات:

[٨٦] الذي يكفر بالرسالة عن جهل، ثم لا يظلم نفسه ولا يظلم الناس، فإن عاقبته قد تنتهي بخير، ولكن الذي يكفر بالرسالة بعد الإيمان بها قلبا، ثم يظهر إيمانه أيضا بالشهادة بها علنا، ويقتنع بكل ذلك اقتناعا عقليًّا، ثم يكفر ابتغاء مصلحة ذاتية؛ فإنه لا ينال الخير ولا يهديه الله. لماذا؟

لأنه ظالم. وكيف؟

الذي يكفر بعد الإيمان، فإنما ينطلق كفره من قيمة ذاتية، أو عنصرية، أو إقليمية، أو ما أشبه، وكل هؤلاء يظلمون الناس طبيعيًّا، كما يظلمون أنفسهم، أترى من يعبد شهواته، أو عنصره لا يظلم الآخرين؟

والظلم يتناقض والهداية. ذلك أن الظلم يحجب العقل، ويفسد الضمير، ويضعف الإرادة في النفس.﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إيمانا قلبيًّا أو ظاهرا ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ شهادة في الظاهر ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ حتى اقتنعوا عقليًّا، وبالتالي كفروا بعد تكامل عناصر الإيمان، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأن هؤلاء هم ظلمة بتقديسهم قيم غير قيمة التوحيد، وانطلاقهم منها في طريق الكفر بالله.

جزاء الارتداد

[٨٧] الجزاء الأول: يناله علماء السوء، إن الله يسلب منهم العقل، ويجعل بينهم وبين الحقيقة حجابا من شهواتهم، وأهوائهم، فلا يرون شواهد الحق في الواقع.

الجزاء الثاني: هو أنهم يُبعدون عن رحاب الله، إذ يسلب منهم الله نعمة الإيمان، ولا يتذوقون حلاوة مناجاة الله، والارتباط الروحي به. وبالتالي يبتعدون عن كل القيم السامية، كقيمة الحق، وقيمة الحرية، والكرامة، قيمة العدالة، والمساواة. وتتحجر قلوبهم، فلا تخشع لذكر الله أبدا.

الجزاء الثالث: هو أنهم يبتعدون عن القوى الفاعلة في الكون (والتي يهيمن عليها الملائكة)، نتيجةً طبيعيةً لضلالتهم عن الحقائق، وعن القيم السامية.

إن سنن الله في الحياة لا يستطيع أن يستثمرها الإنسان في صالحه، إلا إذا عرفها معرفة تامة، وكان له تطلعات سامية، أراد أن يحققها من خلال السنن تلك، وهؤلاء لا يعرفون السنن، ولا يمتلكون التطلعات السامية التي تصنعها القيم، وبتعبير آخر ليست لهؤلاء رسالة في الحياة، والحياة ترفض الخضوع لمن لا رسالة له فيها.

الجزاء الرابع: والذي يأتي نتيجة لما سبق فهو الابتعاد عن الناس، ذلك أن الناس ينفضون عمن ليست له هداية، ولا روحانية، ولا قدرة له على استغلال الحياة، فلماذا يلتف حولهم الناس؟!

ولنا أن نتصور عمق الخيبة التي تصيب هؤلاء الخونة، إنهم خانوا رسالة الله، للحصول على مرضاة الناس، فخسروهما معا، ذلك هو الخسرانُ المبين.

والقرآن يسمي الابتعاد بـ(اللعنة)، لأنها تعني الطرد والأبعاد بذلة وصغار، وهي تتناسب مع حالة العقاب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾.

[٨٨] وهذه اللعنة تبدأ في الدنيا ولكنها تستمر إلى الآخرة، وتتحول هناك إلى صورة عذاب إليم، لا يخفف عنهم أبدا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون لإعادة النظر في واقعهم، بسبب ارتدادهم عن الرسالة بعد العلم بها.

بين الرحمة والتوبة

[٨٩] ولا يعني هذا الواقع المر الذي انتهى إليه خونة الرسالة، أن أبواب رحمة الله سدت في وجوههم، كلا إن رحمة الله واسعة، ولكن يجب عليهم أن يتوبوا وأن يحاولوا إصلاح ما

أفسدوه بأعمالهم السابقة، مثلا السعي من أجل هداية من أضلوا من الناس ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

[٩٠] لو تاب خونة الدين في المراحل الأولى من حياتهم، حيث تنفع التوبة في إصلاح الناس، وحيث إن الرسالة لا تزال ناشئة، وحيث تكون التوبة خالصة لله، ودليلا على تبدل حقيقي في الموقف. لو تابوا آنئذ قبلت توبتهم. ولكن لو استمروا على الضلالة، وقاموا بكل الفساد الممكن ضد الرسالة، حتى إذا انتشرت الرسالة وخسروا كل مواقعهم، تابوا لكي يكسبوا عطف الرسالة الجديدة، هؤلاء لا تقبل توبتهم، لأن توبتهم ليست في الله، بل من اجل تغطية فشلهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي أنهم لا يهتدون أبدا وأن توبتهم ليست حقيقية بل هي طمع في الدنيا.

[٩١] ويشبِّه أولئك الذين يستمرون على الضلالة حتى يدركهم الموت، أنهم من أهل النار، ولكنهم يأملون لو أنهم يملكون ثروة الدنيا، ويدفعونها من أجل إنقاذ أنفسهم من نار جهنم، ولكن هيهات. إن هؤلاء ضيعوا على أنفسهم فرصة جيدة في الدنيا والآن لا ينفعهم الندم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ إنهم في الدنيا خانوا الرسالة من أجل الحصول على بعض الثروة، وبعض الأنصار، وهناك في الآخرة لا تنفعهم ثرواتهم، ولا أنصارهم شيئا.

[٩٢] وكان عليهم أن يضحوا في الدنيا ببعض الثروة، وبعض الناس، من أجل مرضاة الله. ذلك أن مرضاة الله لن تنال دون تضحية، ودون التغلب على حب الذات من أجل الله ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ والله يعلم بما تنفقون في سبيله، ولا يخدعكم الشيطان ويقول لكم: اعملوا من أجل الناس، إنهم يعطونكم الجزاء العاجل، أما جزاء الله فلا يعلم هل يأتي أم لا ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾.

وكلمة أخيرة: إن رجال الدين هم المهدَّدون قبل غيرهم بخطر الابتعاد عن روح الدين، لأن الناس لو ابتعدوا عن الدين فالأمل معقود برجال الدين، أن يهدوهم، وقد يستجيب الناس لهداية رجال الدين، لأنهم يعترفون بدور أولئك في الموعظة والهداية، ولكن لو فسد رجال الدين فمن الذي يهديهم؟ وحتى لو افترضنا أن الناس يعظونهم فإنهم بالطبع يتعالون على الناس، ولا يستمعون إلى مواعظهم.

العصبية عقبة الوحدة وأساس الكفر

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ[1] مُبَارَكًا[2] وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا[3] عِوَجًا[4] وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) بكة: وأصل بكة البكّ وهو الزحم، يقال: بكه يبكه إذا زحمه، فبكة مزدحم الناس للطواف وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام، وقيل: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا لحدوا فيها بظلم ولم يمهلوا، والبك دق العنق.

(٢) مباركاً: من الثبوت أي كثير الخير والبركة.

(٣) تبغونها: تطلبونها.

(٤) عوجاً: ميل.

هدى من الآيات:

حرم يعقوب على نفسه بعض الطعام وكان ذلك من أجل ترويض نفسه على الزهد انطلاقا من قاعدة ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وأكرم الله يعقوب بهذه النية الصادقة فحرم على بنيه ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تلك الأطعمة اقتداء بأبيهم إسرائيل ﴿يَعْقُوبَ﴾. وكان تحريم الطعام قانونا مؤقتا ذا هدف محدد.

ولكن بني إسرائيل تشبثوا بهذه المحرمات الوقتية واتخذوا منها ذريعة لعدم الاعتراف بالنبي محمد، ولو أنهم راجعوا التوراة لوجدوا كيف أنها كانت محرمات وقتية، وذات صبغة خاصة.

وهذا مثل لنوع الحجج التي يستند إليها علماء بني إسرائيل في رفضهم للرسالة الجديدة، وهو يعتمد على القشرية والجمود على الأشخاص وعلى سيرتهم.

ويعارض القرآن مثل هذه الحجة حين يطرح إبراهيم شخصيةً بديلةً عن يعقوب يوحد بين جميع الديانات.

ويستدل على ذلك بأن إبراهيم كان أبا للجميع وهو باني الكعبة التي يقدسها العرب، وهناك دلالة واضحة على ذلك في مقام إبراهيم، وفي أن الدعوة إلى الحج دعوة عامة تشمل القادرين، ثم يذكر القرآن أهل الكتاب بأن خلافهم هذا يسبب في ابتعاد الناس عن الدين.

ويوجه خطابه إلى المسلمين فيدعوهم إلى الحذر من اتباع أهل الكتاب لأنهم ليسوا -في الواقع- دعاة للدين إنما خونة للرسالة وهم يدعون إلى الكفر.

بينات من الآيات:

تقديس الأشخاص يعرقل سبيل الوحدة

[٩٣] ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ إسرائيل اسم يعقوب وهو الجد الأعلى لقبائل بني إسرائيل. وقد حرَّم على نفسه بعض أنواع الطعام فاتبعه بنوه على ذلك ولم يكن هذا التحريم شريعة إلهية ثابتة. والشواهد على ذلك موجودة في كتاب التوراة ذاته ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وسوف تجدون فيه كيف أن تحريم الطعام لم يكن أبديًا وبالتالي فإن رسالة محمد

جاءت لتحلله إليكم.

[٩٤] ولكن بني إسرائيل تشبثوا بهذا التحريم وجعلوه ذريعة لرفض الإسلام وبالطبع انعكس هذا الرفض على أنفسهم وكانوا هم قبل غيرهم الخاسرين بهذا الرفض ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد مراجعة التوراة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

[٩٥] إن الالتصاق بالأشخاص التاريخيين كثيرا ما يصبح عقبة في طريق الوحدة بين (أصحاب الرسالة) وعلينا أن نعرف أن أولئك الأشخاص كانوا أمة قد خلت لها ما كسبت ولنا ما كسبنا، ولا ندع حياة أولئك وسيلة للتفرقة.. ثم في مواجهة أولئك الأشخاص يوجد آخرون يوحدون بين أصحاب الرسالة، دعنا نركز الضوء عليهم ونقوي الانتهاء بهم حتى تشتد صلاتنا ببعضنا البعض أكثر فأكثر.. فمثلا: إذا كانت العرب تختلف عن اليهود في يعقوب فإنها تجتمع في إبراهيم، دعنا نتجه إلى إبراهيم ونكتشف في شخصيته رمز وحدة الرسالات.. وهي الكعبة ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ مائلا عن الشرك، ورافضا للطاغوت المتسلط على رقاب الناس باسم قيم الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فلا عبد الطاغوت، ولا اتخذ العجل إلها من دون الله ولا قال: إن عيسى ابن الله.

[٩٦] وإن رمز وحدة الرسالات هو بيت الله الحرام لأنه كان قبل كل بيوت العبادة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ في بيت الله أكثر من آية بينة تدل على أنه بيت الله الأول، ومن أبرز تلك الآيات مقام إبراهيم. وهو تلك الصخرة التي كان إبراهيم عليه السلام يقف عليها لبناء البيت ووجودها وتكريم الناس لها بالصلاة لله عندها، لدليل على أن باني البيت هو إبراهيم.

ومن هو إبراهيم عليه السلام؟

إنه الأب الروحي لرسالات التوحيد الثلاث، والجد الأعلى لبني إسرائيل -ولا نقول كل اليهود- وكثير من العرب، وموضع احترام الجميع. فلتلتقي كل الرسالات في البيت الحرام ولتجتمع عليه انه بيت الأمن، بيت الإسلام، يجتمع فيه الجميع دون اختلاف في اللغة أو اللون أو العنصر أو المذهب، ويحترم فيه الجميع، ويعطى للجميع حرية الكلام، حرية الحوار والنقد وبالتالي.. التفاعل الثقافي والحضاري.

إذن فبيت الله موضع التقاء فعلي لكل الرسالات، لكل المذاهب، وبذلك يكون أفضل أداة للوحدة الحقيقية، الوحدة القائمة على أساس التعارف والتحاور والتعاون.

[٩٧] الدعوة إلى الحج عامة وشاملة ولا تخص جماعة دون أخرى وعلى كل من يستطيع تلبية الدعوة إلى الحج دون تلكؤ. وما دامت الدعوة عامة فإن نوازع العنصرية أو الطائفية التي تمنع الحج هي كفر بالنعمة، وتمرد على دعوة الوحدة، ورفض لها، وصاحبها يتحمل مسؤوليته بالكامل ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وحج البيت يعني الذهاب إليه وتقصده من بعيد. والاستطاعة هي: القدرة الجسدية والمالية والأمنية.

من معاني الكفر

والكفر هنا يحمل معنيين:

الأول: الكفر بالله في رفض تنفيذ أوامره ومنها الحج.

الثاني: الكفر بنعمة الحج حيث الحرية والبركة والهدى وبالتالي حيث الوحدة الرسالية، والكلمة تعريض واضح بأهل الكتاب الذين لا يطبقون فريضة الحج إلى البيت بالرغم من إيمانهم بأن إبراهيم هو الذي بناه.

وكلمة أخيرة: الحج الذي شرعه الله لجميع الناس وجعله رمزا للوحدة وموقعا للتفاعل الحضاري قد انتهى اليوم إلى مجموعة طقوس فارغة لا تشمل واحدة بالمائة من منافعه العظيمة، بسبب ابتعاد الأمة عن روح التعاليم الإلهية، وبسبب سيطرة الطواغيت على شؤون الأمة.

ولولا هذا الفهم القشري لدور البيت في الوحدة وفي التعارف والتفاعل والتعاون، ولولا الطواغيت الحاكمة على البلاد الإسلامية لرأينا إذن كيف كان الحج قادرا على تحقيق دوره الحضاري في وحدة الأمة وتقدمها وتطورها وتغلبها على مشاكلها الداخلية، وتحدياتها الخارجية.

[٩٨] ولكن أهل الكتاب يكفرون مرة واحدة بكل تلك الآيات العظيمة للحج والتي في طليعتها ما ذكرت في الآية السابقة، ويتساءل القرآن لماذا هذا الكفر الصريح؟.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وسوف يحاسبكم على هذا الكفر، لأنه يؤدي إلى انحرافات عملية.

[٩٩] والكفر يبدأ قليلا ويزداد حتى يصل إلى درجة العمل من أجل إضلال الآخرين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ إنهم

كانوا يصدون المؤمنين عن الصراط المستقيم الذي هو صراط الله وسبيله، وكانوا يريدون أن ينحرف السبيل إلى حيث تتحقق أهواؤهم، بالرغم من أنهم كانوا شهداء، والمفروض في الشهيد أن يتجنب الكذب وأن يصدق بالحقيقة وإن كانت مخالفة لأهوائه.

أهل الكتاب هم حملة علم الدين، الذين يفترض فيهم أنهم يدعون إلى الله، لا أن يقطعون طريق السالكين إلى الله، ويحرفون طريقهم بسبب طائفياتهم أو حزبياتهم أو مذهبياتهم الضيقة، وهذا الواقع هو الذي يعيشه كثير من حملة الدين حتى اليوم، لا يخلصون لدعوتهم بقدر ما يخلصون لحزبهم أو مذهبهم أو طائفتهم، وهم بذلك السبب الرئيسي لكفر طائفة كبيرة من البشر ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

[١٠٠] إن أهل الكتاب بدؤوا بالكفر بالرسالة الجديدة ثم صعَّدوا الموقف فأخذوا يمنعون جماعتهم من الإيمان بهذه الرسالة بشتى الوسائل، ثم صعدوا الموقف وحاولوا تضليل المؤمنين من غير جماعتهم، أولئك الذين كانوا مشركين من قبل وكان المفروض بأهل الكتاب (وهم المؤمنون) أن يفرحوا بتحولهم إلى الإيمان، ولكن النظرة الطائفية الضيقة هي التي أعمت قلوبهم ولا تزال تعمي قلوب كثير من دعاة الدين حتى اليوم.

ومن هنا حذر القرآن المسلمين من المسحة الدينية التي تكسو وجوه فريق من أهل الكتاب، الكفار برسالة الله، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

الوحدة هاجس الأمة الحضاري

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم [1] بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ [2] وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ [3] ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا [4] حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ [5] يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

---

(١) يعتصم: يمتنع.

(٢) تقاته: من وقيت.

(٣) بحبل: السبب الذي يوصل به إلى البُغية كالحبل الذي يتمسك به للنجاة من بئر أو نحوه ومنه الحبل للأمان.

(٤) شفا: حرف.

(٥) أمة: اشتقاقها من الأمّ الذي هو القصد في اللغة، وتستعمل على ثمانية أوجه منها الجماعة، ومنها اتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصد واحد. ومنها القدوة لأنه يأتم به الجماعة، ومنها الدين والملة كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، ومنها الحين والزمان إلخ.

هدى من الآيات:

(وحدة رسالات الله) كان موضوع الدرس السابق، أما موضوع هذا الدرس فهو (وحدة الأمة الإسلامية) التي تتمسك برسالة الله الواحدة، حيث يعالجها القرآن من عدة وجوه أبرزها: أن أهم شروط الوحدة وجود رابطة مشتركة بين أفرادها وفئاتها ورابطة الوحدة الإسلامية كتاب الله والقيادة الإسلامية التي تجسد هذا الكتاب، ومزيد من الاعتصام بهما يعني مزيدا من التفاعل والتماسك، وليس من الممكن أن نطلب الوحدة من دون مبدأ. ونظرة إلى الوراء، إلى الجاهلية، تكشف لنا كيف أن العرب لم يقدروا على توحيد أنفسهم -بالرغم من إيمانهم بالوحدة وبضرورتها الحياتية لهم- حتى جاءت الرسالة فوحدهم الله بها.

ولأن الوحدة مبدئية فلابد أن توجد في الأمة فئة تتطوع للمبدأ، وتدافع عنه، وتراقب مدى تنفيذ الأمة له، حتى لا يتراخى الحبل الذي يشد الأمة ببعضها.

والوحدة المبدئية هي التي يباركها الله ولا يبارك الله وحدة أمة من دون خضوعها لقيم الله، إذ إن الله سيفصل الذين لا يخضعون لقيمه عن المؤمنين في يوم القيامة ويفرّق بينهم، وسيجعل المؤمنين في منزلة واحدة.

ونحن كذلك يجب أن نفكر في يوم القيامة حيث يفصل الله بين الناس ونطبق في الدنيا القيم الإلهية، والفكرة التي يكررها القرآن خلال حديثه عن الوحدة هنا، هي: أن الخلاف غير المبدئي يساوي الكفر بالقيم التي تربط الأمة ببعضها، فإذا لم يتراخَ حبل القيم الذي يعتصم به الجميع، لا يمكن أن توجد ثغرة بين المؤمن وأخيه المؤمن.

بينات من الآيات:

الوحدة بالاعتصام بالله

[١٠١] الذين يتبعون أهل الكتاب يكفرون بالرسالة وذلك لأنهم يتركون النبع الصافي إلى الرافد البعيد أو حتى إلى السواقي الملوثة، يتركون رسول الله، وهو منهم ويعث فيهم، ويتركون كتاب الله، وقد نزل عليهم وبلغتهم، يتركونها إلى رسول توفاه الله من زمان بعيد، وإلى كتاب عملت فيه يد التحريف ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أما من يترك الله إلى شهواته فسوف تنحرف به الطرق إلى كل واد سحيق.

إن الإيمان بالله والتسليم للحق، ومخالفة الهوى والشهوات هو الضمان الأكيد لاستقامة الإنسان في الحياة إذ لا ينحرف البشر إلا باتباعه هواه أو خضوعه لشهواته.

والاعتصام بالله يعني -حسب دلالة السياق- الالتزام بكتاب الله -وبقول رسول الله الذي يجسد ذلك الكتاب، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما أبدا؛ لذلك تجد القرآن بدّل التعبير فلم يقل: من يعتصم بهما (كتاب الله ورسول الله) بل قال: بالله، للدلالة عن أنهما شيء واحد.

[١٠٢] من السهل أن يؤمن البشر بربه وبكتبه ورسله ولكن الصعب هو تحديه لشهواته، حيث تثور عليه كما يثور البركان ويتحدى الضغوط حين تتزاحم عليه من كل جانب، إلا إذا خشي الإنسان ربه وتذكر عظمته وتذكر الموت والحساب، وبالتالي أصبح متقيًّا.

وإذا تراخى الإنسان أمام شهواته أو ضغوط الحياة فإنه قد يموت في لحظة تراخيه وابتعاده عن الإيمان فيموت كافرا، ولذلك كان على الإنسان أن يصمم على المقاومة حتى الموت، متحديا كل الضغوط، هكذا يأمرنا الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (حق تقاة الله) هو التصميم على الاستمرار في خط الرسالة حتى الموت.

ومناسبة الحديث عن الاستقامة والاستمرار هنا هي مقاومة ضغوط الانحراف باتجاه الكفر بعد الإيمان الذي تحدث عنه القرآن في الآية السابقة وكذلك بمناسبة الحديث عن ضرورة الوحدة إذ الاختلاف لا ينشأ إلا لضعف التقوى على النفوس.

[١٠٣] الاعتصام بكتاب الله وبالرجل الذي يمثل هذا الكتاب هو حبل الله الذي تحدثت عنه الآية الأولى، وهذه الآية، وهو الطريق الوحيد للوحدة الحقيقية التي من دونها لا معنى للوحدة، بل للدجل والنفاق ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

لا وحدة إلا بالعقيدة

الهدف المشترك والمصلحة المشتركة والمصير الواحد و..و.. قد يكون سببا للوحدة، ولكن بشرط وجود أيديولوجية واحدة يتمسك بها الجميع فتعطيهم رؤية مشتركة تجاه الوضع.

وإذا افترضنا شعباً (كالشعب العربي) ذا هدف مشترك هو التخلص من دولة إسرائيل المحتلة، ومصلحة مشتركة هي تطوير ثرواته القومية، وله مصير واحد، فأما التقدم والاستقلال أو التخلف والاستعباد.

ولكن لو لم يكن للشعب العربي أيديولوجية واحدة فإنه يختلف على بعضه في طرق تحقيق الهدف بين الانتماء إلى الكتلة الشرقية أو التحالف مع الغرب أو الحياد الإيجابي وبين الاقتصاد الحر أو الاشتراكية وبين الحزب الواحد أو تعدد الأحزاب، وهكذا.

وكذلك يختلف في أساليب الوصول إلى المصلحة وبالتالي في أبعاد المصير الواحد. من هنا يركز القرآن على أهمية الاعتصام بحبل الله (كتاب الله والقيادة المنبعثة منه) لتحقيق الوحدة، ويذكرنا بظروف العرب قبل الإسلام ويقول: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ الأخوة العربية لم تأت بسبب الدم المشترك أو اللغة الواحدة، أو حتى الأرض، والمصلحة والمصير الواحد، بل جاءت بعد أن منَّ الله عليهم بنعمة الكتاب، فإذا بالفكر يتوحد، والعواطف تتفاعل، وتتحقق الأخوة. ولولا نعمة الكتاب لكانت الخلافات تهددكم بالدمار ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وتعرفون أن الاخوة القائمة بينكم ليست سوى نتيجة الإيمان بالله والاعتصام بحبله، ولذا هي تأليف بين القلوب حيث تتجلى اجتماعيًّا في إطار الأخوة، وليست مجرد تأليف اجتماعي ظاهري.

ويا ليت العرب اليوم تذكروا وحدتهم، وعرفوا كيف كانت ولماذا، وعادوا إلى نعمة الإيمان التي تؤلف بين قلوبهم وتجعلهم إخوة صادقين.

كيف نحافظ على الوحدة

[١٠٤] للمحافظة على الوحدة.. لابد من المحافظة على القيم التي وحدت الناس.. والمتجسدة في كتاب الله.. فبدون تلك القيم يتعذر تحقيق التآلف الاجتماعي، ومع فقدان العدالة الاجتماعية كيف يمكن مطالبة المظلوم بالوحدة مع الظالم، ومع فقدان قيمة المساواة كيف يمكن للمستعبَد أن يسكت عن المستغِل.. ومن دون قيمة التقوى كيف تثق الجماهير بالحكام.. أو كيف يثق الحكام بالجماهير.

من هنا ولأجل المحافظة على القيم التي تضمن الوحدة لابد من وجود طائفة نذرت نفسها لله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهذه الطائفة يجب أن تكون رمزا للقيم ورمزا للوحدة، لتشكيل قوة معنوية هائلة للمحافظة على الوحدة داخل المجتمع الإسلامي.

[١٠٥] وعاد القرآن يأمرنا بالوحدة ويبين أن الاختلاف بعد الإيمان يعقبه عذاب عظيم

وسواد الوجه ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إن دراسة تجارب الأمم تُعطي رؤية واضحة لحال أمتنا، فتلك الأمم تفرقت فإذا كل طائفة منهم تتشكل حسب قيم أرضية زائفة: قيمة الدم واللغة والإقليم والمصالح العاجلة، وكان تمسكهم بتلك الروابط اشد من تمسكهم بالدين فلذلك اختلفوا فيما بينهم.. لأن هذه القيم مختلفة ولا تنتج إلا الاختلاف فابتلوا بعذاب عظيم في الدنيا وفي الآخرة.

[١٠٦] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ إن الاختلاف المشروع الوحيد هو بين الكفر والإيمان لأنه الخلاف الذي يعترف به ربنا هناك عند الحساب الحق.. والكفر بعد الإيمان.. هو الاختلاف حسب القيم الأرضية الزائفة بعد تمسك الأمة بقيمة واحدة هي قيمة التوحيد.

إن الإيمان بالأرض وتقديس التراب والوطنية ومحاربة الناس من أجلها نوع من الكفر بقيمة التوحيد التي تجعلك تؤمن بالله وبكل إنسان مؤمن به، في أي أرض عاش.. وكذلك الإيمان بسائر القيم الزائفة، من هنا نعرف أن الاختلاف كفر.

[١٠٧] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لأنهم بقوا ملتزمين بقيمهم وبوحدتهم.

[١٠٨] الوحدة حسب قيم السماء خير للناس وتقدم ورفاهية، والله يبين ذلك من أجل أن يصل البشر إلى مستوى رفيع من التقدم والرفاه ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

التزام القيم ضمانة الاستقامة

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ[1] عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[2] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

(١) تغني عنه: تدفع عنه ضرراً.

(٢) صِرّ: برد شديد، وأصله الصرير. وقيل: الصر صوت النار التي كانت في تلك الريح. ويجوز أن يكون الصر صوت الريح الباردة الشديدة. وذلك من صفات الشمال.

فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يتابع السياق حديثه عن المسؤولية الاجتماعية تجاه القيم المقدسة، حيث يجب على الجميع أن يحافظوا عليها ويعرفوا أن محافظتهم عليها هي ضمان استمرار تقدمهم وعزهم، وأن التهاون فيها سيؤدي بهم إلى الذلة وغضب الله والمسكنة، ويأتي القرآن الحكيم بمثلين للالتزام بالمسؤولية الاجتماعية، واحد من واقع الأمة الإسلامية، حيث أنها لم تستطع أن تصل إلى مستواها من المجد.. إلا بفضل قيامها بهذه المسؤولية، ثم يقارنها بمثل آخر من واقع أكثرية أهل الكتاب الذين تركوا هذا الواجب فَضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة.

وحين يتحمل أبناء الأمة مسؤوليتهم الاجتماعية فإن ذلك سوف يعطيهم الوحدة المبدئية ذات الرابطة الإيمانية. إذ انه ينمّي روح القيم السامية في الأمة لتشد بعضهم إلى بعض شدًّا متينا.

وفي آخر الدرس ينسف القرآن الأسس الفكرية التي تعتمد عليها أكثرية أهل الكتاب في كفرهم، وهي: الأموال، والمصالح، ثم الأولاد والطموحات، ثم حب الخلود في الدنيا. ويبين أن كل تلك القواعد تنقلب عليهم في الآخرة، حيث أنها لا تنفعهم شيئا وإن كل ما ينفقون في هذا السبيل أشبه شيء بزراعة تطوف عليها رياح هوج فتهلكها.. إن كل أتعاب الفلاح ستذهب أدراج الرياح، بسبب ظلمه لنفسه، وعدم اهتمامه بموقع حيث زرعها في حقل مكشوف، كذلك الكفار كل ما ينفقونه في الدنيا لا ينفعهم شيئا في الآخرة.

بينات من الآيات:

[١٠٩] بالرغم مما قد يلاحظه الناظر الساذج في أحداث الكون وبالذات الظواهر الاجتماعية فيها، من أنها ترتبط بهذا العامل أو ذاك. فإنها في مستوى أعمق محكومة بسنن فطرية عامة تُهيمن على السنن الجزئية أجراها الله في الحياة، وهو يدبرها من فوق عرشه العظيم بحكمته ورحمته، إن تقدم الأمم أو تخلفها، عزها أو ذلها، رفاهها أو شقاءها، وهكذا سائر الظواهر الاجتماعية ليست مجرد صدف عارضه؛ هي أشبه شيء ببناء البيت أو زراعة الحديقة ويُحكمان بسنن جزئية تختص بكلٍ على حده دون إطار من السنن والحكمة التي تجمع سائر الظواهر الكونية الطبيعية والبشرية في نسق متفاعل، بل يخضع كل شيء للسنن العامة المنبثقة من الحكمة والرحمة الإلهية، إذ كل الأمور مرجعها النهائي هو الله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

[١١٠] ومن هذه السنن التي أحكمها ربنا، ودبرها، وأجراها في الكون، أن الأمة لا تصبح خير أمة، إلا إذا تحملت مسؤوليتها الاجتماعية، ذات الرؤية الواضحة بإخلاص كاف ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فأنتم أمة خير وليس أمة شر، وهي قد ﴿أُخْرِجَتْ﴾ حيث صنعتها الرسالة ولم تصنع نفسها بنفسها، ثم هي ﴿لِلنَّاسِ﴾ وليست عليها، إذ مسؤولية الأمة الإسلامية هي الدفاع عن المحرومين والمظلومين، وتوفير السعادة والأمان لجميع الناس، وضمن هذه المسؤولية الاجتماعية هو أنكم: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ والأمر بالمعروف لا يعني مجرد الأمر اللساني، بل يعني السعي وراء تحقيق المعروف بشتى الطرق.. وكذلك النهي عن المنكر، ولكن الأمة الإسلامية التي تحمل هذه الرسالة الاجتماعية، تنطلق فيها من قاعدة صلبة هي الإيمان بالله، إذ أن مصدر التحسس بالمسؤولية الاجتماعية هو الإيمان بالله، وباطل أو لا اقل محدود ذلك التحسس الاجتماعي الذي لا يستمد قوته من الإيمان بالله. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أهل الكتاب هم بدورهم مهيؤون لتحمل هذه المسؤولية، إذ إنكم -أيها المسلمون- لم تتحملوا هذه المسؤولية لأنكم عرب، أو إن نبيكم شخص محمد ﷺ، بل إن الله حمّلكم رسالته، كما حمّل أهل الكتاب رسالته. وإذا تحملوا هم بدورهم هذه المسؤولية أصبحوا -كما أنتم- خير أمة أخرجت للناس ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وفي الآيات التالية يضرب الله سبحانه مثلا للفاسقين منهم ثم مثلا للمؤمنين.

بين الفسق والإيمان

[١١١] أما الفاسقون فإنهم أذلاء، ضعفاء بفسقهم وانحرافهم، وهم لا يستطيعون إلا إلحاق أذى بسيط بكم، وحين القتال ينهزمون ثم ليس هناك فئة تنصرهم كما أن بعضهم لا ينصر بعضا ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

[١١٢] إنهم أذلاء أين ما وجدهم الناس مارسوا معهم أساليب التذليل، وليس أمامهم إلا طريق واحد للخلاص من هذه الذلة هو العودة إلى كتاب الله واتباع سنن رسول الله. أو الارتباط بالأمة الإسلامية المتقدمة عليهم. فإذا اعتصموا بحبل الله (كتاب الله والقيادة الإسلامية) فإنهم سوف يصبحون أعزاء بذلك، وإن اعتصموا بحبل من الناس (الأمة الإسلامية) فإنهم سوف يصبحون أقوياء بالتبعية والتحالف مع الأمة القوية. وإلا فهم أذلاء والذلة تؤدي بهم إلى المسكنة.. والفقر وذلك بسبب فرض الأقوياء عليهم التخلف والاستغلال.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أي في أي بلد تواجدوا هم والمسلمون الأكثر قوة منهم ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يتمثل في الخلافات الداخلية، وفي التخلف والاستعباد، وحتى الكوارث الطبيعية التي تلاحقهم بسبب تخلفهم وجحودهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ وهي الفقر المدقع أو الفقر بذلة وصغار.

ويبقى السؤال: لماذا انتهى بهم الحال إلى هذه الدرجة من الانحطاط؟

والجواب: لأنهم لم يتمسكوا أساسا بحبل الله، المتمثل في كتابه ورسله.. لماذا؟

لأنهم كانوا يعصون الله في الأمور الصغيرة، وشيئا فشيئا تزايد عصيانهم وتمردهم إلى درجة الكفر بآيات الله وكانوا يعتدون على الناس، ثم تصاعد عدوانهم حتى اعتدوا على حياة قادتهم الأنبياء ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إن العصيان هو التمرد على الحق، وهو يؤدي إلى الكفر ألم يقل ربنا: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى..﴾ والكفر بآيات الله يستدرج الإنسان إلى الكفر بالسنن والقوانين الفطرية التي جعلها الله للكون، وبالتالي الكفر بالحقائق كلها.

أما كيف ينتهي الاعتداء على الناس إلى الاعتداء على حياة الرسل؟ فلأنهم سوف يدافعون عن الناس بكل وسيلة، ويدافع المعتدي عن نفسه ويقتل الأنبياء.

وإذا ذهبت آيات الله وأنبياؤه، فإن الحياة ستصبح فوضى ويحكمها الذلة والمسكنة.

[١١٣] هذا مثل سيئ لأهل الكتاب، أما المثل الآخر فهو يتجسد في طائفة صغيرة يقومون بالعدل، ويؤمنون بالكتاب ويخضعون لله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ بأوامر الله، منفذة لها ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ حيث تنام الأعين، وتستيقظ قلوب المؤمنين، وتخمد نيران شهواتهم، وحيث لا عين تراقبهم فيستهويهم الشيطان برياء، أو سمعة، والملاحظ في القرآن أنه يأمر بالتبتل في الليل اكثر من النهار ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ لله.. فهم ينفعلون بآيات الله عمليًّا، ويخضعون لها سلوكيًّا. ولا يتلونها مجرد لقلقة لسان.

[١١٤] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ فليس أمرهم بالمعروف إلا نابعا من شخصيتهم المحبة للخير، بدليل مسارعتهم إلى الخيرات وقيامهم بها قبل غيرهم ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

[١١٥] هؤلاء أهل الكتاب، وليسوا بمؤمنين في تلك اللحظة لسبب أو لآخر، ومن دون عناد، أو تمرد على أمر الله باتباع رسالته النازلة على النبي محمد ﷺ ومع ذلك فهم يجزون

على أعمالهم بالكامل ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهذه الآية تنفي الرؤية القشرية للانتماء للإسلام بالاعتقاد بأن مجرد أن يكون الفرد يشهد بشهادة الإسلام كلامياً فهو مسلم، ومن أهل الجنة. ومن لا يشهد بذلك فيكفر وهو من أهل النار، كلا.. الله ينظر إلى الأعمال قبل الأقوال.

[١١٦] لماذا يكفر من يكفر؟ لأنه يغتر بماله أو أولاده. ولكن ماذا تفعل الأموال والأولاد بعد الموت؟ لماذا يخادعون أنفسهم وإلى متى؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والحديث عن الكفار هنا يأتي بمناسبة أهل الكتاب، الذين كفروا بالرسالة وناصبوها العداء. حيث يبين القرآن الحكيم في الدرس القادم الموقف الذي يجب أن يتبناه المسلمون من الكفار.

إن كثرة الثروة المادية أو الطاقة البشرية لن تغني من الحق شيئا، وعلينا ألاّ نخضع للكفار بمجرد أنهم يملكون الثروة أو الكثرة.

[١١٧] أما أعمالهم وأموالهم وحتى بعض الصالحات التي يقومون بها، فإنها سوف تذهب هباء منثورا ذلك لأنها لا تعتمد على قاعدة صلبة. أرأيت لو أن الدكتور اشتبه في تشخيص المرض منذ البداية ثم أتعب نفسه في اختيار الدواء المناسب، واهتم كثيرا بصنع الدواء، هل ينفعه ذلك شيئا؟ أو إذا ضل الطيار طريقه، فلم يعرف هل عليه أن يتجه يمينا أو يسارا، فهل ينفعه التعب في توضيح الاستقامة في التحليق؟ كذلك الكفار أخطؤوا في فهم الحياة أساسا فلا ينفعهم معرفة بعض الجزئيات. لذلك فكل جهودهم تقع في إطار ذلك الفهم الخاطئ وتصبح هي الأخرى عبثا بلا فائدة ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ وذهبت بكل جهودهم في لحظات، إذ إنهم ظلموا أنفسهم ولم يختاروا مثلاً مكانا مناسبا للزراعة، فهل الله مسؤول عن بعث رياح هوج؟! كلا، إنهم هم المسؤولون ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

الموقف المبدئي من الكفار

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً (١) مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ (٢) خَبَالًا (٣) وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ (٤) قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ (٥) مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ (٦) الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا (٧) وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ (٨) وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ (٩) أَن يُمِدَّكُمْ (١٠) رَبُّكُم

---

(١) بطانة: خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره، مأخوذة من بطانة الثوب الذي يلي البدن لقربه منه.

(٢) لا يألونكم: لا يقصرون في أمركم ولا يتركون جهدهم، ويألو أي يفتر ويقصر ويضعف.

(٣) خبالًا: الشر أو الفساد. ومنه الخبل للجنون لأنه فساد العقل.

(٤) عنتم: أصل العَنَتُ المشقة، وعنت الرجل يعنت أي دخلت عليه المشقة.

(٥) الأنامل: أطراف الأصابع.

(٦) تبوّىء: تتخذ مواضع للغير، يقال: بوأت القوم منازلهم وبوأت لهم أي أسكنتهم إياها.

(٧) تفشلا: تجبنا. والفشل الجبن.

(٨) بدر: ماء بين مكة والمدينة.

(٩) يكفيكم: حسبكم.

(١٠) يمددكم: يعطيكم حالًا بعد حال. ومنه المد في السير أي الاستمرار.

بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ[1] هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ[2] فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا[3] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

هؤلاء الكفار من أهل الكتاب كيف يجب أن يكون موقف المسلمين منهم؟.

إنه يجب أن يكون موقفا متصلبا، يعتمد على المبدأ، وليس على المصالح، أو الصداقات الشخصية.

إن بعض المسلمين كان يحب أهل الكتاب، باعتبارهم أقرب من الناحية الثقافية، إلى المسلمين من المشركين. ولكن القرآن نهاهم عن ذلك، وبيّن أن مجرد كفر أهل الكتاب برسالتكم، واتخاذهم موقفا سلبيًّا منكم، يدعوهم إلى اعتبار أي انتصار لكم موجها ضدهم، وبالتالي فهم يتميزون غيظا من أي تقدم لكم، ويفرحون كلما أصابتكم سيئة.

وعليكم ألاَّ تهنوا وتدعوا إلى الوحدة مع هؤلاء خوفا من مجابهتهم، بل عليكم أن تلتزموا بالصبر، والتقوى حتى تدفعوا شرهم. وكدليل تأريخي على أن الصبر والتقوى كفيلان بإحراز النصر، يضرب القرآن مثلا من واقع الأمة في حرب بدر، كيف نصرهم الله وهم أذلة، وبالتالي كيف يمدُّ الله المسلمين بالملائكة، لتطمئن قلوبهم، فيحاربون العدو، وينصرهم الله عليه.

وهناك ثلاث نهايات تنتظر العدو: فإما يكسر الله جناحا من أجنحتهم بالحرب، وبذلك يحطم جانبا من قوتهم العسكرية. وإما أن يصيبهم الله بنكسة نفسية، فيعودوا من ساحة القتال، وهم مصابون بخيبة أمل، أنهم لم يحققوا أهدافهم بالرغم من التضحيات التي قدموها، أو أنهم

(١) فورهم: أي على الابتداء وقيل: الفور القصد إلى الشيء بحدة.
(٢) يكبتهم: يخزيهم ويذلهم، وأصل الكبت شدة الوهن الذي يقع في القلب.
(٣) ما: ذكَرَ لفظ ﴿ما﴾ لأنها أعم من (مَنْ) فإنها تتناول ما يعقل وما لا يعقل لأنها تفيد الجنس.

يعودون إلى رشدهم ويستقبلون الرسالة فيتوب الله عليهم، ذلك أن التوبة لا تخص الرسول، أو أحدا من المسلمين، إن الله هو الذي يقرر من يتوب عليه من عباده، ومن يعذبهم، ذلك لأن له ما في السماوات والأرض.

بينات من الآيات:

مبدئية الوحدة الإسلامية

[١١٨] الوحدة القائمة بين المسلمين، هي وحدة مبدئية، ولذلك لا يجوز أن تلعب فيها الأهواء والمصالح الخاصة، فيفضل أحد المسلمين واحدا من الكفار، ويجعله لمصلحة أو لهوى، أقرب الناس إليه، ومن حاشيته وجهاز عمله، بل عليه أن يختار رجاله من المسلمين أنفسهم، بالرغم من الحساسية، أو من الضرر الذي قد يلحق به مؤقتا من جراء ذلك، إذ إن الضرر البسيط يعوض، ولكن نفاق الكافر، وعدم إخلاصه، وتحينه الفرص بالمسلم، حتى يوجه إليه ضربة قاضية، كيف يعوض..

إنهم لا يمنعون عنكم أي ضرر، قليلا أو كثيرا، لأنهم غير مخلصين، وفي الواقع يفرحون، كلما أرهقكم شيء، والدليل واضح من ألسنتهم، حيث إنهم يقولون كلاما يحمل في تضاعيفه ما يخفونه في صدورهم، ذلك أن الإنسان مهما حاول إخفاء شيء، فإنه يظهر في فلتات لسانه، وشوارده، وسقطاته، وبالتالي في لحن قوله. وأنتم قادرون لو تدبرتم قليلا، أن تكتشفوا هذه الحقيقة من خلال كلامهم..

أما صدورهم فقد ملئت غيظا وضيقا عليكم. هذه هي الآيات الواضحة التي بيَّنها الله لكم، يبقى عليكم أن تثيروا عقولكم، ولتفهموا الحقيقة بأنفسكم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ البطانة: أقرب الناس إلى الفرد والخبال: الضرر.

﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يحبون عنتكم وإرهاقكم وما يؤذيكم.

ولم يقل من كلامهم، لأن ظاهر كلامهم لا تبدو منه البغضاء. ولكن ما يصدر من أفواههم من الغلط، أو أسلوب الكلام، أو حتى ملامحهم أثناء الكلام، هي التي تدل على حقيقة ما في قلوبهم.. ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[١١٩] الأمة الإسلامية تعمل من أجل الناس جميعا، وضمنهم بالطبع الكفار وبصفة خاصة المحرومين منهم والمضطهدين. ولهذا فإن المسلمين يكنون الحب للناس جميعا، بيد أن الكفار الذين اتخذوا موقفا سلبيًّا من المؤمنين، واعتبروهم خارجين عن الشرعية، يختلف الوضع عندهم. إنهم ينافقون ظاهرا، ويكنون أشد البغض للمؤمنين، ويعتبرون أي تقدم يصيب المسلمين ضررا عليهم، فيشتد غيظهم، وضيقهم، وتصرفاتهم الانفعالية، وغير الحكيمة نابعة كلها من هذه النفسية المعقدة، والمتميزة غيظا.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ في حين أنهم لا يؤمنون بكتابكم، وهذا هو الفرق، أنتم لا تحملون حقدا على رسولهم أو كتابهم، وهم يحملون هذا الحقد وينعكس عليهم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ إذ أن صاحب الغيظ الشديد يعض أنامله، لتخفيف غيظه الذي يثقل صدره.

﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولذلك لا ينطلي عليه النفاق، ثم إنه لا ينصركم أيها المنافقون على المسلمين، لأنكم أنتم الحاقدون بالباطل عليهم، ونصر الله يصيب أصحاب القلوب الطيبة والنيات الصافية.

[١٢٠] ومن طبيعة هذه الفئة، الحسد الشديد، إلى درجة أنهم يتظرون أي نوع من الأذى بكم، ويستاؤون إذا أنعم الله عليكم بأي خير ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، الصبر هو التفكير في المستقبل، وبُعْد النظر، وعدم حساب بعض الخسارات البسيطة إلا بالقياس إلى الأرباح الكبيرة، التي تأتي في المستقبل. أما التقوى فهي الالتزام بخط الإسلام، وعدم الانحراف تحت ضغط المشاكل، أو بعض الخسارات أو حتى النكسات. والتقوى تعني هنا أيضا العمل. حتى لا يكون الصبر انتظارا سلبيًّا محضا، إنها انتظارا إيجابيًّا، يرافقه العمل، الجاد من أجل تعويض الخسارة، والضرر وتحويل النكسة إلى انتصار.

والكيد يعني: الخطط التي يتبعها العدو، وهي لا تضر الأمة التي تصبر وتتقي. الأمة المستعدة للتضحيات، والواعية الملتزمة بالواجبات.

ثم إن قدرة الله الهائلة، تقف وراء المؤمنين، فهو محيط بما يعمل الكافرون، وعلينا ألا نستسلم نفسيًّا لهم، بمجرد أنهم أصابونا بنكسة أو هزيمة، أو حتى عدة هزائم.

دروس من معركة بدر

[١٢١] وللمثل على هذه الحقيقة يكفينا أن ننظر إلى حرب بدر، وما فيها من دروس وعبر للأمة، وهي الحرب غير المتكافئة، والأولى من نوعها في مواجهة الأمة لأعدائها، ولقد كانت ذات دروس تلخصها الآيات التالية:

ألف: إن الرسول وهو القائد الأعلى لقوات المسلمين المسلحة، لم يكتف بأنه على حق، وأنه رسول من الله، وأن الله سينصره. إنما قام بالإعداد العسكري، وبنفسه في ميدان المعركة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

أولاً: سبقتَ القوم بالغدو، وهو الذهاب صباحا مبكرا.

ثانياً: ابتعدتَ عن أهلك، ووضعت نفسك في المعركة، وهذه صفة هامة في القيادة أن تستعد هي للتضحية أيضا..

ثالثاً: أخذتَ تحدد مواقع المؤمنين القتالية، استعدادا للهجوم..

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أوامرك، ووقع نشاطاتك الظاهرة، ويعلم بما تكن صدور المؤمنين وهو يحدد نتائج المعركة، بما يسمع، وما يعلم من أعمال ظاهرة، وقلوب طاهرة.

[١٢٢] باء: إن الرسول واجه مشكلة حرجة جدًا، هي مشكلة الخلاف بين طائفتين من رجاله (المهاجرين، والأنصار) بسبب توزع ولائهما بين الله، وبين الأرض، والعشيرة، وما أشبه. ولكن الرسول (والإسلام عموما) عالج هذه المشكلة معالجة جذرية، عندما ذوَّب الكيانات الطائفية في بوتقة الإيمان بالله، دون أن يعتمد على طائفة دون أخرى، وبذلك ضمن جيشا عقائديًا، يحارب من أجل المبدأ، وليس من أجل الرياء، والتنافس الطائفي.

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مع أن الله ولي الطائفتين، فإنهما كادتا تفشلان بالخلاف، وهذا الخلاف كان نابعا من الإحساس بالضعف، حيث كان أهل المدينة منهزمين نفسيًا أمام أهل مكة، ويتصورون أن الرسول حملهم اكثر من طاقتهم، حين أخرجهم لقتال أهل مكة، ولكن الله بين لهم أنه لا داعي للخوف، مادام المؤمن يتوكل على الله.

[١٢٣] ونتيجة للإعداد الاستراتيجي، والإعداد الأيديولوجي، والإخلاص لله، نصر الله الأمة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فلا داعي للخوف كما

لا داعي للخلاف، إنما يجب التقوى لله سبحانه بالتزام أوامره كاملة، وإذا التزم الإنسان أوامر الله فهو شكر نعمه السابقة، وعموما الشكر يعني -فيما يعني- التفكير في أسباب النعمة، بهدف المحافظة على تلك الأسباب، وبالتالي المحافظة على النعمة ذاتها، في حين أن كفر النعمة يعني العكس تماما. وذلك بالتفكير بأن النعمة أبدية، وبالتالي إهمال المحافظة عليها، وعلى العوامل التي أدت إليها، حتى تزول النعمة تماما.

والنصر، لا يجوز لنا أن نركن إليه، ونترك الاستعداد للمعركة القادمة، إذ إن النصر نعمة، ولها عواملها. ومن أبرز عوامل النصر الاستعداد، وعلينا الاحتفاظ بتلك العوامل، والاحتفاظ بعوامل النصر، يسميه القرآن هنا بالتقوى، حسبما يبدو.

[١٢٤] جيم: التعبئة المعنوية ذات أثر كبير في الحروب، والإسلام يوليها اهتماما كبيرا وأهم عنصر فيها، الإيمان بالنصر (بعد الإيمان بالقيم التي يحارب من أجلها الجندي) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

[١٢٥] والملائكة وقفوا بجانبكم، ولكن دون أن يعني ذلك أنهم حاربوا بديلا عنكم، إنما هبطوا بعد تحقق أمرين:

أولاً: لم يأتوا إلا بعد أن عملتم أنتم بكافة واجبات الحرب (الصبر والتقوى بالتفسير السابق للكلمتين)، ولم تبق لديكم حيلة لسرعة مداهمة العدو لكم ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي يقتلون العدو ويخلّفون فيه علامة.

[١٢٦] ثانياً: إن أهم خدمة أداها الملائكة لكم، هي إعادة الثقة بأنفسكم، واطمئنان قلوبكم بالنصر ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أما النصر الحقيقي فهو من الله وليس من الملائكة، والله قادر على أن ينزل نصره بألف سبب ومسبب، ولكنه لا ينزله من دون كفاءة مَنْ ينزله عليه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فهو عزيز (قادر ويستخدم قدرته)، وهو حكيم لا ينصر من ينصره عبثا، ودون أن يوفر هو أولا مؤهلات النصر في ذاته.

[١٢٧] دال: أهداف القتال الاستراتيجية ثلاثة:

- فإما شل القدرة العسكرية للعدو؛

- أو تحطيم الروح المعنوية له؛

- أو تحييده مؤقتاً، ويكون أمره إلى الله في المستقبل ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

حتى يكسر جناحهم ويشل قدرتهم العسكرية ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ ويفكروا في أنفسهم: هؤلاء أقوياء، ولا نستطيع أن نقاومهم، فتحصل عندهم خيبة أمل تكبت طاقاتهم في المستقبل..

[١٢٨] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فيدفع شرهم عنك، ثم ماذا يفعل بهم الله، فهذا أمر آخر ليس للأمة أن تبحث عنه، فأما يتوب عليهم إذا تابوا، أو يأخذهم الله بظلمهم بطريقة أخرى غير هزيمتهم على أيديكم، ذلك لأن الظلم نار تلتهم صاحبه، سواء وجدت قوة اجتماعية تعجل في ضرب الظالم، أم لا.

[١٢٩] والله قادر على أن يتوب، كما هو قادر على أن يعذب الظالمين بطريق أو بآخر ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

السلوك الإيماني حصن الأمة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ[١] الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً[٢] أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا[٣] عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾.

هدى من الآيات:

يبين القرآن في الدروس السابقة: موقف الأمة من أهل الكتاب الكفار برسالة النبي محمد ﷺ، وبعد هذا الدرس يستمر السياق في الحديث عن المواجهة المسلحة بين المؤمنين والكفار، ولكن هنا نجد أن الحديث توجه إلى طائفة من السلوكيات الإيمانية داخل المجتمع الإسلامي، لماذا وما هي مناسبة ذلك؟.

---

(١) الكاظمين: أي لا ينقمون إذا امتلؤوا غضباً. أو غيظاً.
(٢) فاحشة: أصلها الفحش وهو الخروج إلى عظيم القبح.
(٣) يصروا: يقيموا على الذنب. وقيل: أصله الثبات على الشيء.

لدى التدبر في الآيات السبع من هذا الدرس، نجد عدة نواهي وأوامر تجمعها فكرة واحدة هي: ضرورة تمتين الجبهة الداخلية، عند المواجهة مع العدو، وبناء إنسان رسالي ذي شخصية صادقة، ومجتمع المساواة، والمواساة، المطيع لله وللرسول بدافع الضمير الإيماني.

من هنا نجد الحديث عن القضايا التالية:

١- حرمة الربا: باعتباره أكبر خطر على وحدة الأمة ومثاليتها الرسالية، وهو ثغرة اقتصادية كبيرة.

٢- ضرورة تقوى الله وطاعة رسول الله، باعتبارهما دعامتين للمجتمع الإسلامي.

٣- المسارعة في الخير، ووجود دافع ذاتي لدى المسلم في القيام بالواجبات.

٤- الإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو، والإحسان باعتبارها سلوكيات اجتماعية تمتن علاقة الأمة ببعضها، كما تربي صاحبها على التضحية من أجل الله، بكل شيء بالمال، بعزة الذات وغرورها.

٥- الاستغفار بعد الذنب، باعتباره أكبر وازع نفسي يمنع من الذنب.

إن بناء الإنسان، والمجتمع ذي المواصفات السابقة، هو الإعداد الحقيقي للمعركة مع العدو، وإلا فإن الحرب تصبح خاسرة، وبلا محتوى رسالي صالح.

بينات من الآيات:

خطر الربا

[١٣٠] الربا: أو الفائدة على المال، التي تتضاعف بصورة طبيعية، كلما ازدادت السنين ازداد الفقير مسكنة، والغني شبعا وجشعا، إنه خطر كبير على وحدة الأمة الإسلامية، وبالتالي خطر على الشخصية الرسالية المثالية التي يقدمها المجتمع الإسلامي نموذجا للحياة السعيدة، وخطر في المواجهة مع العدو.

إن (الربا) قد يبدأ بذرة صغيرة، ولكنه ينمو في نفس الغني، حتى يصبح شجرة خبيثة للجشع، وينمو في نفس الفقير حتى يصبح جدارا ضخما من الكراهية، وينمو داخل المجتمع حتى يصبح طبقية مقيتة، وتصل درجة الطبقية إلى حد تعاون المرابي مع العدو الخارجي ضد أمته وشعبه.

والإسلام حرم الربا، ولوّح بأن عذاب المتعاطين به كعذاب الكفار، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

[١٣١] ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

ولا يمنع الربا إلا بتقوى دفينة في النفوس، ذلك أن الربا هو رمز الاستغلال البشع والإسلام لم يحرم الرمز فقط، بل وحرم الاستغلال بكل أنواعه وصوره، حرم الاحتكار، وحرم الغش، وحرم الاسترسال في الربح، وحرم السرقة ظاهرة وباطنة، وحرم الرشوة، وحرم تحديد حرية التجارة، والصناعة، والزراعة لمصلحة الأغنياء.

لذلك يجب أن يكون للمجتمع المسلم ضمير حي يتمثل في تقوى الله، حتى يكف عن الاستغلال، ويتطهر من الجشع المؤدي إليه، وآنئذ فقط تتحقق السعادة والفلاح للمجتمع ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

[١٣٢] حين يتطهر المجتمع من الاستغلال، يتطهر من أكبر أسباب التمرد والنفاق، ويستعد للطاعة للرسول، خصوصا في تحكيم الرسول في الخلافات العرقية والقومية، والمصلحية بين فئات المجتمع، لذلك ذكر القرآن.. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وطاعة الرسول تستدرج الرحمة والرفاه، لأنها تقضي على نوازع الشر، وأسباب الخلاف والتمرد، وتوجه الأمة كلها باتجاه البناء في ظل اطمئنان وارف يشعر الجميع بأن جهودهم لن تذهب سدى.

[١٣٣] وإذا شعر الجميع بالاطمئنان، جاء دور التوجيه إلى تفجير الطاقات، والتسارع إلى الخيرات، وإلى مغفرة الله، بوصفها هدفاً سامياً لابد لجميع أبناء الأمة أن يبادروا إليه، أو حتى يتنافسوا من أجله.

﴿ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والمغفرة من الله، تتبع إصلاح الفساد الاجتماعي والسلوكي، فلا يغفر الله لمجتمع مكب على أصنام له، أو مصر على الظلم والاستغلال، والمنكر والفحشاء، كما لا يغفر لفرد لم يترك المحرمات، إنما يغفر لهما -الفرد والمجتمع- بعد أن يتركا الذنب، ويصلحا ما أفسده الذنب فيهما، فيعيد الظالم حقوق المظلوم إليه. والمستغل يكف عن استغلاله ويسترضي ضحاياه بالمبرات، وتارك الصلاة يقضي صلواته وهكذا..

أما الجنة فإنها تأتي بالمسارعة في الخيرات، فبعد عملية الإصلاح تبدأ عملية البناء بالعمل الصالح النشيط والمستمر ذي الهدف الخيِّر. إن هذا من أبرز معالم المجتمع المسلم ومن أقوى دعائمه التي يعتمد عليها في مواجهة العدو.

كيف نفوز بالجنة؟

[١٣٤] ما هي الأعمال الصالحة التي يجب التسارع فيها للوصول إلى الجنة؟!.

إنها على النحو الآتي:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وبتعبير آخر:

الصفة الأولى: هي العطاء سواء في حالة اليسر أو العسر، وبالتالي التضحية بالمال، والإيثار به.

الصفة الثانية: عدم الاندفاع مع شهوات الذات، وبالتالي التضحية بغرور الذات وأنانيتها وطغيانها وجفوتها في سبيل الله، وذلك بكظم الغيظ ومن ثم العفو عن الناس، إن كثيرا من الخلافات الاجتماعية الحادة تنشأ في البدء من حساسية بسيطة بين شخصين، تشتد حتى تصبح خلافا عقائديًّا مزعوما. وفي المجتمع الإسلامي يجب قتل الحساسية وهي في المهد حتى لا تكبر وتصبح مشكلة كبيرة.

الصفة الثالثة: الإحسان إلى الناس وخدمتهم دون مقابل مادي دنيوي لأنه الرابطة القوية التي تشد المجتمع ببعضه.

[١٣٥] **الصفة الرابعة:** للمتقين، وجود وازع نفسي يردهم عن ارتكاب الذنوب أو على الأقل التمادي فيها﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً ﴾ ذنبا كبيرا يعود ضرره على الناس، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بذنوب بسيطة يقتصر ضررها على الذات فقط ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وعرفوا: أن الله يراقبهم ويحاسبهم ويجازيهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

أما في حالة الغفلة والنسيان، أو طغيان الشهوة، فقد يقعون في الذنب ثانية، ولكنهم يستغفرون فورا، لأنهم لم يتعمدوا ذلك بوعي كامل.

[١٣٦] ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ هذه هي صفات المجتمع الإسلامي، والشخصية الإيمانية التي يعدها الإسلام نموذجا للحياة السعيدة، وقوة يحارب بها الكفار، وإنك لترى أن الصفة الأساسية في هذا المجتمع هي تقوى الله.

لنعد إلى.. سنن التاريخ

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ(١) فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ(٢) لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا(٣) وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ(٤) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا(٥) بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ(٦) اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ(٧) إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا

---

(١) سنن: السنة الطريقة المجعولة ليُقتدي بها، ومن ذلك سنة رسول الله ﷺ، وأصل السنة الاستمرار.

(٢) موعظة: ما يلينُ القلب ويدعو إلى التمسك بما فيه من الزجر عن القبيح والدعاء إلى الجميل، وقيل: الموعظة هو ما يدعو بالرغبة والرهبة إلى الحسنة بدلاً عن السيئة.

(٣) تهنوا: الوهن الضعف.

(٤) قرح: جراحات.

(٥) نداولها: الدولة الكرة لفريق بنيل المراد.

(٦) يمحص: يخلّص من العيب.

(٧) محمد: أخذ من الحمد والتحميد فوق الحمد، فمعناه المستغرق لجميع المحامد؛ لأن التحميد لا يستوجبه إلا المستولي على الأمر في الكمال فأكرم الله عز اسمه نبيه وحبيبه ﷺ باسمين مشتقين من اسمه تعالى (محمد) و(أحمد).

بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟(١) ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا(٢) فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

في إطار الحديث عن المواجهة بين الأمة والكفار، يذكرنا القرآن في هذا الدرس بضرورة التسلح بمنظار تأريخي، يكشف القوانين الاجتماعية التي وضعها الله للحياة، ومنها أن الحق ينتصر، وأن رسالة الله ما هي إلا توضيحات لتلك السنن، يهتدي بها المتقون، ويتخذون منها، عبرا نافعة لأنفسهم، بينما يتركها الناس.

إن التاريخ يكشف لنا: أن الفئة المؤمنة هي المنتصرة أخيرا، فعليها ألاّ تهن أو تحزن، ولكن دون أن يعني ذلك أنها تستطيع الغلبة دون تضحيات، ذلك لأنها ضرورية لكشف العناصر المؤمنة حقيقة بالرسالة، عن الأخرى المنافقة، ولتأديب العناصر المؤمنة، حتى ترتفع إلى مستوى الشهداء (القادة)، لتطهير نفوسهم من الغل أو الريب، ولتمييز الكافرين، وتصفيتهم جسديًّا وفكريًّا.

ثم إن التضحيات ثمن الجنة، فمن دونها كيف يفضّل الله قوما على قوم، فيدخل بعضهم الجنة والبعض النار.

والتضحيات هي هدف المؤمنين، لأنهم كانوا يأملون أن يقدموا لله أغلى ما عندهم، حبًّا له وإيمانا صادقا به، وليس رسول الله ابنا لله حتى ينتصر أتباعه بمجرد الانتماء إليه، بل هو كسائر الرسل يحيا ويموت. والارتباط يجب أن يكون بالرسالة أكثر من الرسول، حتى يحصل الإنسان على جزائه من عند الله. والكافرون هم الذين ينقلبون عن الرسالة فور موت الرسول تفضيلا للدنيا على الآخرة.

(١) استكانوا: أصلها من الكنية وهي الحالة السيئة. يقال: فلان بكنية أي بنية سوء.
(٢) إسرافنا: تجاوزنا الحق إلى الباطل.

بما أن النبي محمد ﷺ رسول، فإنه يتبع سيرة الرسل من قبله. وهم لم يتقدموا إلا بالقتال ومعهم الربيون من أصحابهم، وهم (الربيون) كانوا بشرا يذنبون ويسرفون، ولكنهم كانوا مؤمنين يستغفرون ربهم، ويطلبون منه أن يثبتهم على الجهاد؛ ولذلك انتصروا في الدنيا والآخرة معا.

بينات من الآيات:

[١٣٧] الحياة الاجتماعية كالحياة الفردية، لها أنظمتها وقوانينها (وحسب التعبير القرآني سننها)، وعلينا أن نكتشف هذه الأنظمة، حتى نستفيد منها في واقعنا، ولكن كيف؟! إننا حين نريد أن ندرس حياة الفرد، نخضعه للتجربة بعض الوقت، نقيس ضغط دمه، ودرجة حرارته، ودقات قلبه و..و.. ثم نعرف طبيعته، أما المجتمع فكيف نقيسه؟ أفضل طريقة للقياس، هي العودة إلى التأريخ، ففيه دورات كاملة للحياة الاجتماعية، حضارات نشأت وسادت، ثم بادت بفعل أنظمة حتمية، وسنن إلهية لا تتحول.

وعندما نريد أن نقيس مدى تقدم رسالة، يجب ألاّ نقيسها بمنظار تحليلي، كأن نقول: كم عدد أفراد هذه الرسالة؟ ما هي ميزانيتها المالية؟ وما هي خططهم العسكرية؟ كلا بل بمقياس تأريخي فنقول: كم هي نسبة الحقيقة فيها؟ وكم مقدار إيمان أصحابها بها؟ وما هي نقاط الضعف في مجتمعات أعدائها التي ستقضي عليها؟ وهكذا.

وحين نعود إلى سنن الله في التأريخ، نجد أن الحق ينتصر بشرط وجود مؤمنين صادقين به. لذلك يذكرنا القرآن بهذه الحقائق فيقول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ إلى آثار تلك الأمم التي كانت من قبلكم ثم خلت وخلفت وراءها العبر والدروس، أهمها أن سبب انتهائها كان شيئا واحدا هو التكذيب بالحق فانظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[١٣٨] وفي مجال الحديث عن سنن الله في الحياة يأتي الحديث عن القرآن، ذلك أن دوره دور المذكر بتلك السنن، حيث يلفت أنظار الناس إليها. ولكن الذي يستفيد منها المتقون فقط، حيث يهتدون إلى حقيقة السنن، ويطبقون دروسها على أنفسهم (يتعظون بها) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون ربهم، ويستعدون للالتزام بالحق، يكتشفون الحق. أما الذين يهتمون بأنفسهم، وبأهوائهم وشهواتهم فإنهم لايعرفون الحق. لأنهم أساسا لا يريدون الاهتداء إليه.

[١٣٩] من سنن الله في المجتمع أن المؤمنين ينتصرون. فعليهم ألاً يهنوا وألاً يتسرب إلى نفوسهم الانهزام، أو اليأس والضجر. كما أن عليهم ألاً يتألموا لبعض الخسارات، إذ إن ربح الانتصار سوف يغطي على الخسارات البسيطة ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

[١٤٠] ومن تلك السنن أن العلو والنصر لا يأتي بالصدفة، أو بلا شيء من التضحية، بل لابد من الاستعداد للقرح، ومعرفة أن الأعداء هم بدورهم يستعدون له، فلماذا التهرب منه ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ إن من المهم أن تعرف أن عدوك يصاب بمثل ما تصاب به، وأنه يتمايل إلى الضعف والهزيمة كما أنت، وأن النصر لمن يستمر أكثر، ويصبر على الألم، حتى يفقد عدوه صبره، وقدرته على الصمود.

ثم إن الحياة وأزمتها ليست ملكا لأحد ولا تدوم لأحد، بلى؛ قد يكون ثمة ملك لبلد ما أو نظام متطاول يمسك بأزمه الأمور، أو طائفة ما تستأثر بحكم بلدٍ ما، لكن ذلك كله لا يعني استمراره إلى الأبد، هذا أولاً. وثانياً إن هؤلاء إنما حكموا لتوافر الأسباب لديهم. إذن سيأتي من بعدهم من يُمسك بأسباب ذلك. فلا يعني ذلك أنهم سوف يستمرون، بل إن هؤلاء إنما جاؤوا لتوافر العوامل القيادية فيهم، وقد تتوافر فيك أيضاً -كما هو- فتأتي مكانهم.

ومن المهم جداً أن نتخلص من الاعتقاد بأن الواقع يبقى كما هو، وإنما نؤمن جازمين بأن الحقيقة وحدها تبقى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

منافع الناس في التضحية

ثم إن للتضحية منافع أخرى للامة، يذكرنا القرآن بها فيما يلي:

ألف: التضحية تفرز المؤمنين عن المنافقين، ففي بداية انطلاقة الرسالة قد يؤمن بها جماعة طمعا في أنها سوف تنتصر سريعا، فيحصلون على مغانم مجانية، أو أنهم كانوا مستائين من الوضع فاندفعوا نحو الرسالة مدفوعين بتيار الإحساس الساذج، أو كانوا يحبون قائد الرسالة فانتموا إليها لذلك، أو عشرات من الأسباب الأخرى غير الإيمان الصادق.

فوجود هذه الطائفة في الأمة يسبب لها الضعف والانهيار، حيث تنتشر فيها المصلحية، والأنانية، والفوضوية، وتنتهي الأمة سريعا، ولا يمكن الفوز إلا بتعرض الأمة للتضحيات، فيعرف المؤمنون عن غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

بـــاء: الحرب مدرسة المقاتلين، تربيهم على الجدية والطاعة والتفكر وتقديم مصلحة الأمة على المصالح الخاصة وتعلمهم الصراحة والفكر العقلاني وهكذا.

وهذه الصفات ضرورية للأمة الرسالية، التي تريد أن تقود الأمم الأخرى. ولنفترض المجتمع الجاهلي في الجزيرة -مثلا- كيف كان يمكنه أن يقود العالم، وهو غارق إلى أذنيه في الفوضى، والجهل، والأنانية و..؟ إنه كان بحاجة إلى مدرسة تربوية تخرِّج القادة. وكانت الحرب بما فيها من تضحيات، هي المدرسة التي خرَّجت قادة المستقبل، وحسب التعبير القرآني (الشهداء على الناس).

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولذلك فهو بدوره، لا يظلم أحدا، وإذا أعطى النصر والتقدم فبعد إثبات الأمة لجدارتها، عن طريق التضحيات السخية. وإلا فقد كان ظالما -حاشا- لتلك الأمة المغلوبة.

[١٤١] جيم: ثم إن قلوب المؤمنين ليست طاهرة بالكامل من الريب في الرسالة، والشك في تعاليمها، فهي بحاجة إلى نار تطهرها، والتضحيات هي تلك النار، ذلك أن الإنسان الذي ضحى من أجل شيء فسوف يتمسك به، بعكس الذي حصل عليه مجانا وبلا تضحية، إنك تجد التاجر أحرص على ماله من ابنه الذي يرثه بغير تعب، كذلك المؤمن المضحِّي يكون إيمانه أقوى من غيره ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

دال: الكفار هم المعاندون للحق، المخالفون لتقدم الأمة، الذين يفضلون مصالح قومهم، أو أهواء أنفسهم على مصلحة الأمة، إنهم عقبات لا يمكن معالجتها، إنما يجب تصفيتهم بالكامل، ولكن كيف يمكن للأمة أن تتعرف على هذه العناصر، وتميزها من العناصر المتعلقة بها، أو الخاضعة لها لضعف أو عاطفة؟ وكيف يحق للرسالة أن تقتل الناس، بدعوى انهم يشكلون عقبة للمستقبل؟ كيف يمكن تبرير ذلك للجماهير؟.

أما إذا وقعت المجابهة الساخنة، وأخذت هذه العناصر تشكل تهديدا خطيرا للأمة، فإن الأمة تجد المبرر الكافي للحرب والتصفية، كما أن المجابهة سوف تفرز العناصر الكافرة فعلا، عن الأخرى المخدوعة بها. كما تساهم في تصفية العناصر المعاندة التي تقف عقبة في طريق تقدمها. وهذا ما يسميه القرآن بالمحق ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الجهاد والأماني الكاذبة

[١٤٢] هاء: ومن فلسفة الحرب الجهادية: أنها تعطي المؤمنين جدارة الدخول في الجنة،

التي هي مأوى المجاهدين الصابرين، وإذا لم يدخل المسلم الحرب كيف يميز المجاهد الصابر، عن القاعد المنهزم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إن البشر يُمَنّي نفسه بأشياء كثيرة، هي بالخيال أشبه منها بالواقع، يُمَنّي نفسه بالثروة بلا تعب، وبالسلطة بلا كفاءة، وبالشهرة بلا استحقاق، ويحتاج البشر إلى أن يتذوق مرارة الحياة عشرات المرات، حتى يقتنع أن تلك الأمنيات كانت أحلاما صبيانية، وكذلك يمني بعض المؤمنين أنفسهم بالجنة بلا عمل صالح ولا تضحية، ويحذرهم القرآن من هذه الأمنية الباطلة، لأن لها نتائج خطيرة، ففي الدنيا تقعدنا عن العمل، وفي الآخرة تجعلنا نواجه النار، ولا ينفعنا الندم، ولا يمكننا العودة إلى الحياة للتوبة.

[١٤٣] والمؤمن الحقيقي هو الذي يشري حياته في الدنيا بالآخرة، ويقدم كل ما عنده لله، في مقابل الجنة، ولذلك فأمنية المؤمن تخالف أمنية الرجل العادي، فهو يريد مزيدا من التعب، مزيدا من الجهاد، وبالتالي الموت في الله حتى يحصل على الآخرة.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فكان الأجدر بكم أن تفوا بعهدكم، وتقتحموا غمار الموت باطمئنان نفسي، لأنها أمنيتكم التي وصلتم إليها.

[١٤٤] ثم إن ارتباط المؤمن برسالة الله أشد من ارتباطه بالرسول، ولذلك فإن موت الرسول لا يؤثر فيه سلبيا، لأنه كان هناك رسل ماتوا وبقيت من بعدهم الرسالة، إذن فالرسالة هي الهدف لا الأشخاص، وعلينا أن نضحي بأنفسنا من أجل أن تبقى الرسالة ولا نفكر بان موتنا، يؤثر في الرسالة، بل -بالعكس- إن استشهادنا من أجل الرسالة سيدعم موقفها في المجتمع ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ولكن الصامدين الذين يربطون أنفسهم بالرسالة وحدها، هم المنتصرون أخيرا، لأنهم شكروا نعمة الرسالة بالإيمان بها والتضحية من أجلها ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

[١٤٥] إذن: الرسالة هي الهدف، والموت من أجلها يهون مادامت الرسالة تنتصر بهذا الموت، والموت الهادف أفضل من الموت المحتوم، لأنه موت بثمن، في حين أن الآخر موت بلا ثمن.

وما دمنا نموت بآجالنا شئنا أم أبينا، فلماذا لا نموت لأفكارنا ومن أجل رسالتنا؟.

ثم من يقول: إن من يدخل المعركة سيموت، وإن من يتخلف عنها سيبقى، إنها سنة الله في عباده، متى بلغ كتاب الشخص أجله، مات في المعركة، أو على الفراش.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ والفرق بين من يموت على الفراش، ومن يموت في المعركة، أن هذا يحصل على ثمن الآخرة دون ذاك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ويحصل المؤمن على جزاءين:

الأول: جزاء نيته الصادقة، وعمله الصالح (الاستشهاد).

الثاني: جزاء شكره لله، أي وفائه بمسؤولية نعم الله عليه، ومن أبرزها نعمة الحياة، حيث قدمها لله، والله يجزيه على ذلك ﴿وَسَنَجْزِي الشَّٰكِرِينَ﴾.

إن تكرار توجيه القرآن إلى جزاء الشكر في آيتين هنا، يأتي لمواجهة صفة الجزع والهلع التي تصيب الإنسان الساذج عندما تقع الحرب. فيتساءل:

لماذا الحرب؟، لماذا نقاتل؟. لماذا نُقتل؛ بل لماذا نقتل الناس؟.

والقرآن يزرع في قلوب المؤمنين الاطمئنان، والشعور بالرضا بهذا الواقع مؤقتا، لحين تغييره بالأفضل، وتركيز النظر في الجوانب الإيجابية له، وذلك بالشكر لله على نعمه، والعمل بمسؤوليات تلك النعم.

كيف قاتل الربيون

[١٤٦] والحرب ليست بدعة في تاريخ الرسالة. إنها كانت قديما وكان المقاتلون الرساليون هم أبرز من دخل المعارك، فما كان يصيبهم وهن نفسي (جبن - جزع - تردد)، ولا ضعف بدني، ولا كسل، إنما كانوا مطمئنين قلبيًّا، أقوياء بدنيًّا، نشطين حربيًّا، وصابرين على البأس، فاحبهم الله وجزاهم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ كلمة كأين للدلالة على الكثرة، والقتال معه يدل على أن النبي نفسه كان يقاتل، والربيون هم المتنسبون إلى الرب، أي مجاهدون من أجل الله ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ ﴾ لقد كانت عناصر الانتصار مكتملة عندهم: القوة الروحية، والقناعة بالفكرة، والاستعداد للتضحية من أجلها، والقوة المادية، والنشاط، والصبر.

الدعاء سلاح المؤمن

[١٤٧] وكانت قوة هؤلاء الروحية، نابعة من الدعاء الذي يعتبر عملية شحن الذات

بالقوة المعنوية وذلك عبر:

ألف: القناعة بإن إصلاح الذات هو طريق التقدم، لذلك كانوا يبدؤون دعاءهم - وعملهم بالطبع - بإصلاح الذات، ويقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا.

بـاء: إن أهم عنصر تربوي هو منع الإسراف في الأمر. يعني التقيد -دائماً- بالمقاييس الرسالية، فلا نوم إضافي، ولا راحة كثيرة، ولا استهلاك، ولا تبذير ولا توغل في الشهوات. إنهم كانوا يستغفرون ربهم من إسرافهم، ويقولون: ربنا اغفر لنا إسرافنا في أمرنا.

جيم: الثبات وعدم التردد، وبالتالي التصميم والعزم الراسخ، انه عنصر أساسي في النصر، ذلك لأن الإرادة النافذة هي التي تصنع المعجزات: «مَا ضَعُفَ بَدَنٌ عَمَّا قَوِيَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ»[1]. لذلك كان هؤلاء يدعون ربهم ويقولون ربنا: ثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

إن هذا السلوك الرسالي لهؤلاء، دليل كل المقاتلين من أجل الله إنهم لم يكونوا يسخطون، أو يترددون، أو يجزعون ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

[١٤٨] والنتيجة الطبيعية لما وفره المؤمنون في أنفسهم والتزموا به في سلوكهم: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ثواب الدارين، وليس فقط الآخرة: ﴿ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ من السكينة والنصرة والتسديد وإصلاح البال، بل: ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ هو فضل الثواب فوق عدله لأن: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وقد وصف ثواب الآخرة بالحسن دون الدنيا لأنها دار الخلود.

وعطف السياق على اعترافهم بالإساءة والتقصير أنه تعالى سماهم محسنين، فالاعتراف بالقصور والتقصير هو منطلق للإحسان والاستكثار من فعل الخير وتلافي النواقص.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١، ص٥٣.

التضحية سبيل الانتصار وزكاة المجتمع

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ (١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ (١) وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم (٢) بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ (٣) وَلَا تَلْوُۥنَ (٤) عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم

---

(١) سلطاناً: حجة وبرهاناً، وأصله القوة فسلطان الملك قوته، والسلطان البرهان لقوته على دفع الباطل.

(٢) تحسونهم: الحس القتل على وجه الاستئصال، وسمي القتل حساً لأنه يبطل الحس.

(٣) تصعدون: هو المسير في مستوى من الأرض، وقيل: الإصعاد الابتداء في السفر.

(٤) لا تلوون: لا تعرجون على أحد كما يفعله المنهزم.

مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا[1] فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى[2] لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

هدى من الآيات:

لايزال السياق يبين جوانب الإعداد المعنوي للحرب مع الكفار، ففي الآية الأولى، نجد التحذير الشديد من التفكير في الاستسلام للكفار، الذين لا يرضون إلا بإعادة الأمة إلى حالتها السابقة، حيث الخسارة لكل مكاسبها الرسالية.

ثم تبين الآية الثانية أن الله مولاكم وينصركم، والآية الثالثة تبين أن الكفار يشعرون بالخوف من مواجهتكم، وأن عاقبتهم إلى النار.

ويضرب القرآن مثالا في الآيات التالية على ذلك، حيث استطاع المسلمون إلحاق الهزيمة بالكفار، ولكنه لا يدعهم يسدرون في الأحلام، بل يذكّرهم بمثال الهزيمة وأسبابها، ومن أبرزها ضعف الروح المعنوية، والاختلاف، والعصيان.

ويذكرهم بأن الله مع ذلك أيدهم بنصره، حيث غشيهم الأمن والنعاس فاطمأنوا إلى نصر الله.

بيد أن طائفة أخرى كانت في المعركة هزتها الخسارة فأخذت تتشكك في القيم الرسالية،

(١) ضربوا: الضرب في الأرض السير فيها، وأصله الضرب باليد، وقيل: هو الإيغال في السير.
(٢) غزّى: جمع غازٍ.

وتقول: لو كان لنا النصر إذن ما خسرنا قتلى. وبعد أن يبين القرآن فلسفة التضحيات، والخسائر، يحدد الأسباب التربوية التي جعلت هذه الطائفة تنهار أمام الخسائر البسيطة فيقول: إنها تعود إلى ما قبل المعركة، حيث إن هذه الطائفة كانت تمارس المعاصي، ولذلك لم ينمُ الإيمان في قلوبهم نموا كافيا لمواجهة التضحيات.

ثم يحذر القرآن المؤمنين من الاهتمام بالخسارة وتضخيمها ويقول: إن القتلى كان من الممكن أن يموتوا بسبب آخر (كالمرض) بينما هم الآن قتلوا من أجل إحياء الرسالة وذهبوا إلى رحمة الله، وسوف يجمعهم الله وكل الموتى للحساب.

بينات من الآيات:

التضحية حصن المكاسب

[١٤٩] إن المكاسب الرسالية بحاجة إلى قوة تحافظ عليها، ومن دون الاستعداد للتضحية في سبيلها، فإنها سوف تتعرض لخطر الأعداء، إذ إنهم لا يقبلون من المسلمين مجرد كف اليد عن الحرب، بل يريدون منهم العودة إلى الجاهلية التي أنقذهم الله منها، وفي تلك خسارة لا تعوض للأمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي إنكم إذا عدتم إلى الوراء فقد عدتم إلى حيث الخسارة والضرر.

[١٥٠] إنما الطاعة لله وحده ولا خوف من الكافرين لأن الله سينصر من ينصره وهو خير الناصرين ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

[١٥١] والسؤال: كيف ينصر الله عباده المؤمنين؟

الجواب: إن الله ينصر عباده بإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولسبب بسيط هو شركهم بالله، ذلك أن الشرك يعني تقديس قيمة مادية من دون الله، كقيمة المال أو الجاه أو الأرض، وفي الواقع هذه القيم لا تقدس لذاتها، بل لأنها متصلة بالذات البشرية. فالرجل الذي يقدس أرضه، إنما يقدس ذاته أولا، ثم يقدس أقرب مكان لذاته، وهو أرضه، كذلك الذي يقدس المال، فإنما يقدس ذاته، ولأن المال يخدم ذاته فهو يقدسه وهكذا.

فالشرك يأتي نتيجة حب عميق للذات وتمحور كامل حولها. وهذا يؤدي بالطبع إلى الخوف والجبن أما المؤمن فهو يخلص عبادته لله.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ بينما المؤمنون لا يخشون شيئا، لأنهم لا يقدمون ذاتهم ولا يخافون عليها، ولأن مصيرهم إلى الجنة، وهي خير مقام للمؤمنين.

[١٥٢] والدليل الواقعي البسيط على هذه الحقيقة، تجدونه في حربكم مع العدو كيف نصركم الله، إلى أن أخذتم تُعمِلون السيف في أجسادهم.

ولكن هذه الحرب كانت ذات جانب آخر، هو أن الله إنما ينصر من ينصره، وأما إذا وهن المؤمنون، وانتشرت فيهم الخلافات، وعصوا قيادتهم، فإنهم لايستحقون النصر بل الهزيمة، والهزيمة نوع من الامتحان، فإنما يعرف الأبطال عند الهزيمة.

والآن وقد انتهت الحرب (بانتصاركم أولا، وهزيمتكم ثانيا) فإن الله عفا عنكم لفضله العظيم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ حيث إنه نصركم تصديقا لوعده لكم بأن ينصركم، حتى إنكم أخذتم تُعملون السيف في أجسادهم، ولكنكم اغتررتم بالنصر فدب الوهن فيكم.

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر والغلبة. ذلك أن الإنسان إذا شعر بالخطر يوحد صفوفه، ويشحذ عزيمته أما إذا زال الخطر فيشعر بالراحة ويفكر في تقسيم الغنائم، كذلك المسلمون في حرب أحد، حيث إنهم لما رأوا أنفسهم منتصرين، ترك بعضهم الثغر الذي كان يرابط فيه، فاستغل العدو الفرصة وقام بحركة التفاف حول الجيش، وفقد المسلمون توازنهم وولّوا هاربين.

والواقع أن القرآن يصور مراحل الهزيمة في الحرب، في كلمات قصيرة وهي مراحل الهزيمة ذاتها في السلم أيضا وهي:

ألف: الفرح ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ حيث يفقد المجتمع تطلعه إلى أعلى، فيفقد الرباط القوي بين طبقاته وفئاته.

باء: انتشار الوهن في نفوس الأمة ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾. وذلك بفقدان العزيمة والخلود إلى الراحة.

جيم: بروز الخلافات المصلحية، والطائفية، والإقليمية، والعنصرية إلى السطح، بفعل

فقدان الهدف والعزيمة ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾.

دال: تأثير الخلافات الاجتماعية على مستوى الانضباط والطاعة للقيادة، بل على درجة الثقة بها، إذ يزعم كل فريق أن القيادة منحازة إلى جانب خصمها، فتقل ثقته فيها وطاعته لها ﴿وَعَصَيۡتُم﴾.

وفي خضم الخلاف تكون فئة على حق وأخرى على باطل ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ ولهذه الأسباب انهزمتم بعد انتصاركم على العدو ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ لأن الهزيمة هي التي تكشف المؤمنين الصامدين من غيرهم، فتعطي للأمة دروسا في نقاط ضعفها وتعطي للقيادة فرصة جيدة لتصحيح مسيرة الأمة وإصلاح تلك النقاط، أو حتى تصفية بعض العناصر المسببة للهزيمة أو إبعادها عن مراكز المسؤولية.

والآن وقد انتهت الحرب، فإن الله عفا عنكم حتى تعودوا إلى وحدة الصف، وتبادروا في إصلاح الذات ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالعفو لا يدل على أن الله يجعل المؤمنين والكافرين في مستوى واحد بل إن للمؤمنين الصادقين في الحرب فضلا على الكافرين.

عِبَرٌ من الهزيمة

[١٥٣] ما هي عِبر الهزيمة؟ وكيف نستفيد منها حتى لا تتكرر الهزيمة مرة أخرى؟.

ألف: تحدث القرآن عن ذلك، بعد أن أعطى صورة واقعية عن الهزيمة، هي صورة الفرار عن المعركة دون نظر إلى ورائهم توغلا في حب الذات.

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وهنا كان يعالج الرسول الهزيمة في نفوسهم، بتذكيرهم بالآخرة وضرورة التضحية، لأن أفضل علاج لحب الذات هو التذكير بالله واليوم الآخر.

باء: ثم بيَّن القرآن بعد إعطاء هذه الصورة عن الهزيمة، أن الهزيمة ذات آثار سلبية تتجاوز ساحة المعركة.

[١٥٤] المؤمن بشر، يتعرض لعوامل الهزيمة ولكنه يتغلب عليها بفضل الإيمان بالله الذي يعينه على ذاته، ويملأ قلبه بالاطمئنان، ومن ثم يملأ جسمه بالراحة. ذلك لأن اطمئنان القلب ينعكس على سلامة الجسم، وقدرته على مواجهة المواقف الصعبة.

أما المنافق فلأن إيمانه كان مجرد سراب يخادع نفسه به، ويحاول أن يخدع الناس، لذلك فإن عوامل الهزيمة تؤثر في نفسيته، ولا يشفى منها، ولذلك فهو يتعلق بذاته ويخشى عليها ويظن بالله ظنون السوء الباطلة ويقول: نحن منهزمون لا محالة ويحتج على فكرته اليائسة بعدد القتلى، ولكن الله يدحض حجته، ويذكره بأن الله هو الذي يقدر المستقبل، وليس ظن المنافق المشحون بعوامل اليأس والخوف والهزيمة، ثم إن القتلى هم الذين قدر الله لهم أن يستشهدوا لكي يتم اختيار الناس، وتطهير قلوب المؤمنين منهم، ولو شاء الله لمنع القتل عن أي فرد من المؤمنين، والله يقدر الموت بوسائل شتى، وحتى لو لم يكن القتال مشتعلا إذن لاستشهدت طائفة من المؤمنين بأسباب أخرى، مثلا: بفعل غارات الكفار عليهم في عقر دارهم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ هم المؤمنون وحدهم والغم هو حالة انعدام الرؤية في القلب، حيث تظلم النفس بسبب خوف شديد منشؤه حب الذات والخوف عليها. والنعاس حالة الراحة الجسدية المنبعثة من راحة نفسية واطمئنان كاف.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ إنهم يمارسون الظن الباطل الذي يشبه ظنون الجاهلية، وذلك لأنهم يقيسون أوضاعهم بعد الإسلام بأوضاعهم قبله، فيزعمون أن مقياس النصر أو الهزيمة، هو بضعة قتلى أو جرحى، يبعدون من جهة أخرى دور الله ورسوله ورسالته في القوة العسكرية وتحقيق النصر.

والظن الذي يظنونه هو أنهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ إنهم يهتمون بأنفسهم اكثر من اهتمامهم بالرسالة، ويريدون الوصول سريعا إلى المكاسب الشخصية، ومن دون التضحيات.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وعليكم أن تفكروا في انتصار الرسالة التي يرعاها الله، لا انتصاركم أنفسكم ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ إنهم يخفون حب الذات، والخوف الشديد عليها، وعدم الإيمان بالله، وعدم الاهتمام بتقدم الرسالة، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وكأن مقياس الانتصار هو انتصار أشخاصهم، لا انتصار الأمة كأمة، أو انتصار الرسالة الإلهية، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ

مَضَاجِعِهِمْ﴾ ذلك لأن هؤلاء الذين قتلوا إنها هم غيركم، ويختلفون عنكم، هؤلاء قوم ناداهم ربهم للاستشهاد فلبوا النداء، وحين كتب عليهم القتل أسرعوا إلى الشهادة، حتى ولو لم تكونوا تبرزون أنتم إلى المعركة.

والله قادر على أن ينصر رسالته من دون أية تضحيات، ولكنه لا يفعل ذلك أوَ تدري لأية حكمة؟ لأهمية التضحيات في كشف العناصر المنافقة، وفي تطهير قلوب العناصر المؤمنة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

دور الذنوب في الهزيمة

[١٥٥] ويبقى أن نعرف الأسباب الأساسية وراء هزيمة طائفة وأمنة طائفة، هل هي أسباب وقتية تمليها مواقف الطرفين داخل المعركة، أم تمتد إلى خارج المعركة؟

الجواب: بل هي امتداد لما قبل المعركة، وما المعركة إلا كالنار التي تكشف الذهب من غيره، إن الرجل المؤمن الذي يتحمل مسؤولياته الإيمانية كاملة، هو الذي يثبت في المعركة، أما الذي لا يلتزم بواجباته الإيمانية ويكتسب المعاصي فإنه ينهزم في المعركة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ فهم قد كسبوا السيئات فأصبحت تلك السيئات مدخل الشيطان إلى قلوبهم، يوسوس ليهم ويضلهم عن الإقدام في سبيل الله.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وأعطاهم مهلة جديدة ليمارسوا فيها اختيارهم إن خيرا أو شرا.

[١٥٦] المؤمن يرى في الشهادة حياة جديدة، أما الكافر فإنه يراها نهاية أبدية للحياة ولذلك يتحسر كلما سقط شهيد من إخوانه وأقاربه، وكان الكفار من أهل الكتاب يحسبون الموت نهاية (بالرغم من كون عقائدهم الدينية خلاف ذلك)، وإذا قتل أحدهم في المعركة فإن قتله كان يدعوهم إلى ترك القتال، لأنه يحسب خسارة، وينعكس في صدورهم حسرة، ولقد نهى الله المؤمنين عن هذه الحالة لأنها كفر بالله وباليوم الآخر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وهاجروا من بلد إلى بلد في سبيل الله، أو ذهبوا لتحقيق مهام رسالية ثم ماتوا، ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى ﴾ يقاتلون في سبيل الله فقتلوا، كانوا يقولون لهؤلاء ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾. إن هذه

النظرة الكافرة إلى الموت أو إلى القتل جعلتهم يتحسرون كثيرا لقتلاهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. وهل الموت خاص بمن يضرب في الأرض، أو يقاتل في سبيل الله؟ وهل الحياة خاصة بمن يحتضن بيته؟ كلا.. الله يقدّر الموت والحياة كما يشاء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يبخس جزاء من يسافر ويقاتل في سبيله.

[١٥٧] فإذا بقي الإنسان فإنه يتسلم جزاءه من الله غير منقوص، وأما إذا مات فإنه يذهب إلى رحمة الله ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ إننا كبشر نتعرض لضغوط الشهوات، وقد نسقط ونكتسب السيئات، فإذا أدركنا الموت فإن تلك السيئات تلاحقنا، وتتحول هناك إلى عذاب شديد. أما إذا قتلنا في سبيل الله فإن الشهادة تمحو الذنوب كلها. وطوبى لمن مات طاهرا من الذنوب إنه يدخل الجنة بغير حساب.

[١٥٨] العمل لله والموت، أو القتل، مدخل إلى رحمة الله فلماذا يخاف المؤمن الصالح منهما ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ظروف الهزيمة، ومسؤوليات القيادة

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا[1] غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ[2] فَتَوَكَّلْ[3] عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ[4] ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ[5] بِسَخَطٍ[6] مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾.

هدى من الآيات:

في جو الهزيمة التي عاشها المسلمون -بعد واحدة من معاركهم الصعبة (أحد)- تنتشر الشائعات المغرضة، وتطفو على السطح النفسيات المنافقة والمترددة، ويكون من واجب الرسالة

(١) فظاً: الغليظ الجافي القاسي القلب.

(٢) عزمت: العزم عقد القلب على الشيء تريد أن تفعله.

(٣) توكل: أي فوّض الأمر إلى الله وثق بحسن تدبيره.

(٤) يغل: أصل الغلول من الغلل، وهو دخول الماء في خلل الشجر. والغلول الخيانة، ومنه الغل الحقد.

(٥) باء: رجع.

(٦) سخط: إرادة العقاب لمستحقه.

ترصد هذه النفسيات لمعالجتها، أو إبعادها عن الساحة، كما يجب عليها ترقب شائعاتها الضالة، لدحضها وتبديلها بأفكار إيجابية بناءة، والقرآن حينما يعالج هذه الأمور بشيء من التفصيل يعالج -أيضا- موضوع القيادة، باعتبارها مما يتعرض للنقد ولا سيما في ظروف الهزيمة.

إن المنافقين والانهزاميين من المسلمين، أخذوا ينالون من كفاءة بل من أمانة قيادة الرسول لهم، وكذلك تفعل الفئات المنافقة والمنهزمة مع كل قيادة في ظروف النكسة، بيد أن القرآن يدحض هذه الفكرة فيما يخص رسول الله بالذات، وفيما يخص كل قيادة أمينة اتبعت نهج قيادة الرسول بصفة عامة، ذلك النهج الذي تتحدث عنه الآيات وهو اللين والعفو والاستغفار (محاولة إصلاح الناس بشتى الطرق) والمشاورة والعزم والتوكل.

ثم يتحدث عن أمانة الرسول كرسول، وأمانة كل قائد رسالي ذي سوابق في التضحية فيما يرتبط بالمهمة التي نسبت إلى الرسول، والبعيد جدًّا عن طبيعة الأمة. ثم يختم الحديث ببيان درجة الرسول، وكرامة الله للإنسانية بأن بعثه إليها.

بينات من الآيات:

[١٥٩] من أبرز صفات القائد، أي قائد سعة الصدر والقدرة على تحمل الناس، بما فيهم من سوء خلق، وتناقض، وجهل، وانحراف. وسعة الصدر بدورها لا تأتي للقائد إلا إذا كان هادفا، يحمل في قلبه رسالة عظيمة يستهين من أجلها بالصعوبات التي يلاقيها من قبل الناس، ولذلك ربط القرآن بين لين الرسول، وبين رحمة الله (المتمثلة في رسالته).

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ خصوصا وأن مجتمع أهل الجزيرة العربية -كما كل مجتمع بدائي خشن- قد تشبع بالعنف بما فيه الكفاية، كان يحتاج إلى قدر كبير من الليونة، حتى يجتمع ويفكر في تصفية مشاكله بالتي هي أحسن.

بينما المجتمعات المتحضرة التي تعودت على الدعة، فإن الليونة قد لا تنفعها دائما مثل قوم موسى الذي كان نبيهم موسى عليه السلام شديدا معهم، لأنهم فقدوا إحساسهم بالكرامة.

والقائد يجب أن يربي نفسه على صفة الليونة، حتى لا تفلت منه كلمة نابية فيجر قومه إلى شر مستطير. والليونة تعني الصفات التالية: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الناس تكون فيهم صفات سيئة، وأعمال خاطئة، وعلى القائد أن يصلحها ولكن بالحكمة ذلك أن هذه الصفة إنما هي نتيجة ظروف تربوية، واجتماعية، واقتصادية معينة، فلا يتحمل الفرد كل مسؤولياتها. وبالإضافة إلى ذلك فإن رؤية الفرد إلى تلك الصفات، والأعمال، قد لا تكون

مثل رؤية القيادة، فعليها أن تصلح رؤيتهم، قبل إصلاح صفاتهم أو أعمالهم.

من هنا يجب أن تتعود القيادة على العفو، ولكن لا يعني العفو السكوت إلى الأبد عن الانحراف، بل يجب العمل من أجل إصلاحه. وذلك بالاستغفار (طلب الغفران من الله)، والدعاء بالمغفرة -كأي دعاء آخر- يجب أن يقرن بعمل مناسب، وهو محاولة الإصلاح.

ثم إن القيادة يجب أن تقوم برفع مستوى الناس، وذلك عن طريق التشاور. ذلك أن التشاور يجعل الناس يتحسسون بمسؤولياتهم، فيفكرون في شؤونهم بجدية أكثر، ويحاولون إصلاح أنفسهم بأنفسهم، كما أن القائد يضطر من خلال التشاور إلى بيان مختلف وجوه الأمر للناس، مما يعمق فيهم معرفتهم بالحياة، ويجعلهم أكثر إحساسا بواجباتهم تجاهها.

بيد أن هذه الصفات يجب ألاَّ تُنزل القائد إلى مستوى منسق بين الآراء، أو الإرادات فقط، بل عليه أن يحتفظ بحقه في اتخاذ القرار الحازم. ذلك لأن الأمة التي تفقد (القرار) تفقد كل شيء، لأن القرار هو الذي يتجاوز الاختلافات، ويعطي دفوعات هائلة للأمة باتجاه تجاوز العقبات، التي تضخمها عادة الخلافات في الرأي.

من هنا فقد قال الله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ القائد يجب أن يكون صاحب قرار، ولكن القرار يحتاج إلى قوة إرادية هائلة، من أين يأتي بها القائد؟ من التوكل. ذلك أن التوكل على الله (وليس على الناس) يجعل القائد سابقا لأمته، رائدا في مسيرتهم، يعطيهم أبدا روحا جديدة، ويجعله أكثر حزما وإقداما.. وبالتالي أكثر قدرة على تفجير طاقات أمته وتحريك فاعلياتها.

[١٦٠] وبمناسبة الحديث عن التوكل، يذكرنا القرآن بدور التوكل في حياة المؤمنين ويقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فليست القيادة وحدها التي ينبغي أن تتوكل على الله، بل المؤمنون أيضا، وذلك لأن النصر الحقيقي آت من الله، ومن رسالته التي يتمسك بها المؤمنون، وليس من قوة السلاح أو كثرة العدد.

[١٦١] ويتابع القرآن حديثه عن القيادة، وعن الشكوك التي حامت حولها بسبب جو الهزيمة، والشائعات المفروضة، التي بثها المنافقون وزرعوها في النفوس الضعيفة ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ النبي الذي اختاره الله ليس ممن ينطوي قلبه على نية سوء لامته، ويتظاهر بغيرها، ذلك أن هذه الازدواجية سوف تنكشف في يوم القيامة، حيث تبلى سرائر الناس جميعا.

والغل أنواع، أبرزها خيانة القيادة في أموال الأمة، والرشوة، والسرقة، والضغينة، كلها غل، وازدواجية، ونفاق، يبتعد عنها القائد وبالذات الرسول، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الذين يخونون أمانتهم، ويسرقون أموال الأمة، إنهم سوف يعرضون للحساب أمام الله، حيث يجازون بعدالة تامة.

[١٦٢] والطريق الوحيد لمعالجة الغل هو تطهير نفوس القادة، وأن يكون هدفهم من مسؤولياتهم المناطة بهم رضوان الله، وليس الوجاهة عند الناس، أو الحصول على مكاسب مالية أخرى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي ليس سواء الرجل الذي يجعل رضا الله هدفه الذي يحدد مسيرته -والذي يتمثل في اتباع الرسول وقيادته الأمينة- وذلك الرجل الذي يجعل مكاسبه الشخصية هدفه، كالمنافقين الذين يُشيعون حول الرسول الأقاويل الكاذبة، ثم تكون حصيلتهم النهائية، إنهم يعودون بسخط من الله في الدنيا، وجهنم في الآخرة.

[١٦٣] ليس المؤمنون سواء، فمنهم من يشبه في بعض مواقفه المنافقين، ومنهم من هو في أعلى القمم، وكذلك المنافقون درجات مختلفة، ويجب ألاّ يساقون بعصى واحدة، بل يحسب لكل فرد منهم أو فئة منهم حسابه الخاص.

ذلك أن الإيمان أو النفاق ممارسة عملية أكثر منها أقوال حدية، والممارسة تختلف حسب الأعمال الإيمانية أو النفاقية، والله يعلم درجات المؤمنين والمنافقين ويحاسبهم عليها حسب أعمالهم ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

[١٦٤] القيادة التي يديرها رسول الله، لا تقاس أبدا بالقيادات الجاهلية التي تُشيع الدعايات المغرضة، وعلى الأمة أن تعرف واقع كلتا القيادتين، وطبيعة الإشاعات المغرضة، وألاّ تنساق وراء كل قوّال لا يعرف غير صناعة الكلمة الكاذبة والقول الباطل.

على الأمة أن تفكر لدى تقييمها لهذه الإشاعات (وفي ظروف الهزيمة بالذات) تفكر من هو رسول الله؟ وما هي رسالته؟ ومن هم أعداؤه؟

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا رسول الله الذي أنعم الله به على المؤمنين، حيث بعثه برسالته لكي يربيهم على التقوى، ويعلمهم دستور حياتهم الثابت، ونظام حياتهم المتغير ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، ويخرجهم من ضلالتهم السابقة إلى نور الهدى.

فهل من الصحيح أن تقبل فيه الإشاعات المغرضة، الصادرة من القيادات الجاهلية؟

إن الناس بحاجة إلى توعية لكي يقيّموا الكلام، خصوصا وأن الطواغيت والظلمة في كل عصر، يستخدمون الكلام الباطل لتبرير ظلمهم للناس، ومحاربتهم لدعاة الإصلاح. وإذا لم يرتفع الناس إلى مستوى التقييم السليم، فإنهم لن يتخلصوا من الطغيان والظلم. وعلى الناس أن ينظروا إلى الممارسات العملية، ولا ينخدعوا بالألفاظ البرّاقة.

لماذا نخسر؟ وكيف ننتصر؟

﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٦٥) وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ (١٦٧) ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ[1] عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (١٧٠) ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٧١) ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا[2] ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ (١٧٣) فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧٥)﴾.

---

(١) فادرؤوا: ادفعوا.

(٢) حسبنا: كافينا.

هدى من الآيات:

لاتزال الآيات القرآنية تبين واقع الهزيمة، والصبر، الذي يجب أن تستفيد الأمة منه، فتبدأ الحديث بأن الهزيمة في معركة واحدة لا تعني الهزيمة أبدا، إذ إن الأمة التي انهزمت الآن كانت قد ألحقت سابقا هزيمتين بأعدائها، ثم تبين ضرورة الهزيمة لكشف حقيقة الجبهة الرسالية التي انقسمت على ذاتها إلى مؤمنين ومنافقين.

أما المؤمنون فهم الشهداء الذين استضافهم الله في رحمته، والصامدون الذين استجابوا للرسول من بعد ما أصابهم القرح، وأنهكتهم الحرب بجروحها وأضرارها المادية والبشرية.

وعند الحديث عن المنافقين يقسمهم القرآن إلى فئات، بعضهم نتحدث عنه في هذا الدرس، وبعضهم في الدروس القادمة، وهذا التقسيم نابع من أعمالهم. فكل من مارس نوعا واحدا أو اكثر من هذه الممارسات فهو منافق، ذلك أن النفاق ليس حديثا يقال، بل هو عمل. مثل الهروب من المعركة تحت غطاء الجهل بها، وتجبين الناس وتضخيم الخسارة.

والله سبحانه ينعت هؤلاء ليس بالنفاق وحده، بل بالكفر أيضا، بالرغم من ادعاء هؤلاء أنهم مسلمون. ثم يدعوهم إلى مقاومة الموت إن كانوا صادقين، ثم يتحدث عن الشهداء الذين يعتبرهم هؤلاء خسارة.

بينات من الآيات:

[١٦٥] لماذا تخسر الأمة معركة معينة؟ لسبب واحد هو عدم الإعداد الجيد لها وذلك من الناحية البشرية، وانعدام الروح المعنوية، أو لعدم وجود السلاح الجيد أو لتفكك الجبهة الداخلية، أو ما أشبه.

وأية هزيمة عرفت الأمة أنها من نفسها، ودأبت على استخلاص عبرها ودروسها، فهي أشبه بالنصر منها بالهزيمة، أما الهزيمة الحقيقية، فهي التي يعتبر الإنسان عواملها خارجية، فلا يعتبر بها أبدا.

من هنا فإن القرآن ركز على أن الهزيمة هذه من عند الأمة نفسها، وذلك بعد أن يبين أنها كانت بعد انتصار الأمة في معركتين سابقتين، لتخفيف هول الهزيمة عن النفوس.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ أي إنكم أصبتم وأوردتم المصيبة ذاتها بغيركم مرتين في السابق، ثم إنكم مع ذلك وهنتم وتساءلتم: ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ

﴿أَنفُسِكُمْ﴾ فكما أن أعداءكم قد انهزموا سابقا بسبب ضعفهم المعنوي والمادي، فكذلك أنتم انهزمتم للضعف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فليس هو الذي انهزم في المعركة بل أنتم.

[١٦٦] وكان الله قادرا على أن يمنع الهزيمة عنكم بقوة غيبية، ولكن لم يفعل بل ترككم وشأنكم، وأذن بذلك في هزيمتكم (أذن بمعنى سمح أي لم يمنع) وذلك لتستفيدوا عبرا كثيرة، منها: تقييم عناصر جبهتكم المؤمنين والمنافقين ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٦٧] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ والتعبير القرآني يستعيض عن كلمة المعركة بـ (يوم التقى الجمعان) لأنه أشد وقعا في النفوس وأقدر على تصوير حقيقة المعنى.

والمنافقون الذين كشفتهم الهزيمة، هم الذين هربوا من مسؤولية القتال، فحينما طُلبوا للحرب أو للدفاع عن دار المسلمين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ فلأننا لا نعلم وقوع المعركة، أو لا نعلم فنون القتال لذلك فانا لا نتبعكم.

وهؤلاء لم يحسبوا أنفسهم جزءا من الأمة، لذا قالوا: لاتبعناكم، وكان الأجدر بهم - حال كونهم جزء الأمة- أن يبادروا بأنفسهم للقتال، لأنه مسؤوليتهم، كما هي مسؤولية سائر المسلمين، والله وضعهم حيث وضعوا أنفسهم وقال عنهم ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لأن الإيمان ممارسة عملية، وبالذات في ظروف تعرض الأمة للخطر، والمؤمن الذي لا ينفع عند الضرورة فمتى يمكن أن ينفع، وكل التبريرات التي يتذرع بها هؤلاء باطلة إذ انهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ إنهم يقولون (كذبا): إنهم مؤمنون، وإنما لا يقاتلون بسبب جهلهم بفنون القتال. ولكن الله يفضحهم.

[١٦٨] ومن صفات هؤلاء أنهم يضخمون خسارة الأمة، ويبثون الدعايات الهدامة، فيقولون عن الشهداء: لو أنهم لم يذهبوا للمعركة لما قتلوا.

أجل ولكن ماذا كان مصيرهم؟ ألم يكونوا يموتون بالنهاية؟! ومادام الإنسان يقتل أو يموت، فلماذا يعظم الموت عند نفسه؟! ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ أي الذين قالوا لإخوانهم: اقعدوا، وهم بدورهم قعدوا، ثم لما قتلوا، قالوا: لو أنهم أطاعوا أمرنا بالقعود لما قتلوا ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فما دمتم لا تقدرون على مواجهة الموت، لا تتكلموا عمن يقتل في سبيل الله، أوَليس

الجميع يسير نحو الفناء؟!

[١٦٩] ولكن هناك فرق بين من يقتل، ومن يموت لأن الشهيد حي والميت فانٍ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ أحياء بحياة الرسالة التي سقوها بدمائهم، فإذا بكل قطرة دم أريقت حول شجرة الرسالة، تحولت إلى غصن اخضر وثمرة نافعة، تحولت إلى عدالة تنفع ملايين البشر، وحرية وكرامة وحياة. وهم أحياء لأن ذكرهم خالد في الناس.

وهم أحياء ربما لأن الله يعطي أرواحهم الطاهرة قدرة وعلما في عالم البرزخ، فإذا بهم يرزقون عند ربهم، إنما هم بعيدون عن أجسادهم هذه ومتحررون منها.

أما الأموات فإن أرواحهم قد تنتزع منها القدرة والعلم وتعتقل في زنزانة الجهل والضعف.

ولنتصور: أن رجلا يقتل في سبيل الله، فتنفصل روحه عن جسده، لتعيش إلى يوم القيامة، في عالم الأرواح، طليقة حرة قادرة وعالمة. ورجل يموت على الفراش، فتتحول روحه إلى عالم مظلم، فأيهما الأفضل؟ الموت أم الشهادة؟

[١٧٠] حياة الشهداء حياة حافلة بالنعم المادية (يرزقون عند الله)، والمعنوية إذ إنهم لا يزالون في فرح، وشكر، وبشارة، كلما وجدوا قتيلا في سبيل الله، التحق بهم زادهم أنسا وكرامة ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من نعمة الشهادة التي فتحت عليهم أبواب نعم الله الأخرى في الآخرة ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ إن المؤمنين الذين لم يلحقوا بالشهداء، هم أداة البشارة للشهداء، لعلم الشهداء بأن أولئك سوف يقدمون على حياة فاضلة، حياة لا خوف فيها ولا حزن، ولذلك فهم يفرحون بالمؤمنين.

[١٧١] وللشهداء عند الله سبب آخر للبشارة، هي نعمة الله التي تزيد عن القدر الذي يتصور الإنسان أنه جزاء العمل. ويستبشرون حين يجدون ثمار أعمالهم التي ما ضاعت عند الله، وكم يكون فرح الإنسان كبيرا حين يجد ثمرة جهوده، فيرى أنها كاملة غير منقوصة ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[١٧٢] هؤلاء فريق من المؤمنين استشهدوا في سبيل الله، أما الفريق الآخر فهم الصامدون، الذين لم ينهزموا بالرغم من أصابتهم بالقرح، فحين دعاهم الرسول لإعادة تنظيم

صفوفهم، والقيام بهجوم مضاد، استجابوا للرسول وألحقوا الهزيمة بالعدو.

إن هؤلاء كانوا يتمتعون بعدة صفات:

ألف: إن قدرة الإنسان على تحمل الصعاب كبيرة، ولكن المؤمنين فقط هم الذين يستثمرون هذه القدرة، بفضل إيمانهم بالله وابتغائهم مرضاته ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ والقرح: هي الآلام الجسدية والنفسية.

باء: ثم إنهم كانوا يضاعفون جهودهم بسبب ظروف الهزيمة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

جيم: ويزدادون التزاما ببنود الشريعة، وانضباطا في تنفيذ الأوامر ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أولئك لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

[١٧٣] ثم إنهم يزدادون صلابة في الحق، وشجاعة في مواجهة العدو بسبب إيمانهم وإحسانهم وتقواهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ إنهم ازدادوا إيمانا بسبب تصميمهم المسبق على مواجهة العدو في كل الظروف، فلم يزدهم التحدي إلا صلابة -ثم ومن جهة ثانية- كان التوكل على الله، والثقة بنصره زادا كافيا لهم في معركتهم مع العدو، ومع وسوسة الشيطان في قلوبهم.

[١٧٤] بسبب الاستجابة في ظروف الهزيمة (بالإحسان والتقوى والشجاعة) ألحق هذا الفريق من المؤمنين الهزيمة بالعدو، وانتصروا عليه، وحصلوا منه على مغانم، ولم يصبهم أذى في معركتهم الجديدة. وحصلوا على أهم جائزة وهي رضوان الله ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إن وجود العزم الراسخ لدى هذا الفريق على مجابهة العدو، هو الذي قلل من خساراتهم في المعركة. بل جعلهم يربحون المعركة من دون خسارة، ولو أنهم جبنوا لاستطاع العدو أن يهجم عليهم كرة أخرى، فيذيقهم العذاب الأليم.

[١٧٥] من أين يكتسب الإنسان الشجاعة الكافية لمواجهة ظروف الهزيمة؟

يجيب القرآن عن ذلك: بأن مصدر الهزيمة النفسية، هو الخوف، والخوف فطرة في البشر، ولكن على المؤمن أن يوجه خوفه إلى المصدر الحقيقي للخوف وهو الله، وليس إلى أعدائه من البشر. لأن الله -وليس البشر- هو القادر على إنزال أشد العقوبات في الدنيا والآخرة على الإنسان فعليه أن يخشاه.

أما البشر فالخوف منهم مجرد وسواس شيطاني، لأن كل ما يملكه البشر، يمكن أن أملكه أنا أو أملك ما يواجهه، ولكن هل بإمكاني أن أملك ما يملكه الله؟

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والإيمان بالله وبأنه الضار النافع، وأنه بصير بعباده، هو الذي يجعلنا نخافه، فلا نخاف أحدا سواه. أما الإيمان بالشيطان، بماله، وشهرته، واغراءاته، فهو الذي يجعلنا نخافه، ونخاف الناس الذين يملكون المال، والسلطة، والإغراء.. إذن: دعنا نطرد حب زينة الحياة الدنيا من قلوبنا حتى نتمتع بالشجاعة.

الرسالة الإلهية والمواقف الاجتماعية

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي[1] لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾.

هدى من الآيات:

بعد الهزيمة انقسم المسلمون إلى فريقين:

١- فريق المؤمنين منهم والصامدين؛

٢- وفريق المنافقين، وهم -بدورهم- كانوا فئات:

- فئة تجبن الناس عن القتال، تحدث عنهم القرآن في الدرس السابق؛

---

(١) نملي: الاملاء اطالة المدة.

- وفئة أسرعت إلى الكفر وانضمت عمليًّا إلى الجبهة المضادة للرسالة؛

- وفئة كان عليهم أن يدعموا صمود الأمة بأموالهم، فبخلوا بها في ساعة العسرة.

هؤلاء إنما فعلوا ذلك لما رأوا ما عند الكفار من مظاهر الانتصار والعزة. ولم يعرفوا أن هذه المظاهر خداع وباطل، وأن الله يمهلهم فيها، حتى يزدادوا إثما، وأن مصيرهم إلى النار.

ويكرر القرآن القول: أن الهزيمة كشفت هذه الفئة المنافقة، التي أسرعت في الكفر، كما كشفت تلك الفئة التي بخلت بحقوق الله، ولم تجاهد بأموالها.

وبمناسبة الحديث عن الأغنياء البخلاء، يتحدث القرآن عن اليهود في الدرس القادم، ليبين لنا: كيف أنهم ابتُلوا بغضب الله، بسبب تركهم واجب العطاء والإنفاق.

بينات من الآيات:

[١٧٦] فئة من المسلمين الذين لم يترسخ الإيمان في قلوبهم، أسرعوا في الكفر حين وجدوا انتصار الكفار، هؤلاء لم يضعفوا الجبهة الداخلية للمسلمين، لأنهم كانوا لا ينفعون المسلمين أساسا، وذلك بسبب ضعف إيمانهم، ثم إنهم لا ينفعون الجبهة المضادة، لأنهم انهزاميون بطبيعتهم، وضعفاء القلوب.

ولكن الخاسر الوحيد بعملهم هم أنفسهم، الذين خسروا مكاسبهم السابقة، التي ربما كانت تؤهلهم للجنة، أما الآن فليس لهم نصيب منها، بل لهم عذاب عظيم بنقضهم الميثاق ومخالفتهم أمر ربهم ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والتعبير القرآني يقول: في الكفر، للدلالة على أن الكفر عمل وليس نهاية حدية يسارعون إليها، فلم يقل إلى الكفر. كأن القرآن يقول: يسارعون في أعمال الكفر، أو في درجاته.

[١٧٧] هؤلاء بدلوا الإيمان بالكفر، فهل خسر الله شيئا؟ كلا، لأن الله واسع القدرة، غني عن العالمين، وتقدم الأمة الإسلامية لا يعتمد على هذا الشخص أو ذاك بقدر ما يعتمد على نوع الأشخاص، ومدى تفاعلهم مع الإيمان.

وهؤلاء اشتروا بعملهم عذابا أليما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ويبدو أن الفئة الأولى سارعوا في أعمال الكفر، أما هؤلاء فقد أعلنوا تمردهم علنا وربما لذلك كان عذاب الفئة الأولى عظيما (من الناحية الكمية)، وعذاب هؤلاء

أليها (من الناحية الكيفية).

[١٧٨] ويعتقد هؤلاء بأن مكاسب الكفار دليل على تفوقهم في الدنيا، أو حتى قربهم إلى الله. ولا يعرفون أن زيادة الثروة، أو الانتصار، أو ما أشبه، من مكاسب الدنيا، قد تكون طريق النهاية، إذ يسبب الطغيان، والطغيان يسبب الانفلات والفوضى، وبالتالي التوغل في الذنوب، ونهاية الذنوب معروفة. إذن فقد يمكن أن يزيد الله الكفار بعض النعم، بهدف تحطيمهم وأبادتهم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إن النعمة سلاح ذو حدين، وإن الإيمان بالله، هو الذي يمنع تحول النعمة إلى سبب للخسارة. فإذا فقد الإنسان الإيمان، فإن النعم تضره بدل أن تنفعه.

ولنتصور طفلا، أو مجنونا تعطى له قيادة السيارة، فكلما زاد وقود السيارة واندفاعها كانت أقرب إلى الهلاك والدمار.

والطغيان الذي يتشبع به الكفار نتيجة النعم يقابل عند الله بالمهانة؛ لأن الطغيان يدعو إلى الاستكبار.

[١٧٩] تمييز الخبيث من الناس، من الطيب نتيجة طبيعية للهزيمة، حيث يتعرض الجميع للضغوط فينهار المنافقون، ويصمد المؤمنون الصادقون، السؤال: لماذا لم يميز الله الخبيث من الطيب غيبيًّا، بأن ينزل قائمة بأسماء هؤلاء وهؤلاء؟

الجواب: إن الحياة الدنيا هي حياة المسؤولية ولا يتدخل الغيب فيها إلا جزئيًّا، فمثلا: عن طريق الأنبياء يهدي الله إلى مناهج العلم، وعلى الناس أن يتفكروا، وأن يكتشفوا الحقائق من خلال تجارب الحياة، (مثل اكتشاف حقيقة الأفراد من خلال الهزيمة).

فعلينا اتباع الرسول فيما يشرعه لنا من مناهج، ولا ننتظر بعدئذ أن يطلعنا الله على كل صغيرة وكبيرة من حياتنا، إلا بالطرق العادية ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ الخبيث هو الذي اختار طريق النفاق، والطيب هو الذي آمن بالله إيمانا صادقا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

[١٨٠] وكما الجهاد بالنفس: يصبح الجهاد بالمال دليلا على مدى تفاعل الإيمان مع النفس، كما أن البخل بالمال خصوصا في ظروف الهزيمة دليل الخبث والنفاق.

وماذا يجني البخيل؟ إنه يكدس الثروة -التي أعطاه الله- لأي يوم؟ هل يكدسها ليوم القيامة، حيث تتحول ثرواته المغتصبة إلى حزام من النار يحيط به ويأخذه إلى جهنم؟.

أما في الدنيا: وإذا كان المال ناراً في الآخرة. وهو على كل حال ينفصل عنه وينتقل إلى غيره، فإن هذا سلوك سفهي يُقدم عليه البخيل ضمن تبريرات راهيه تنطلق من قصر طموحه على الحياة الدينا وسؤ ظنه بالله. فإنه سيموت، ويورث الله ثرواته لمن يشاء، أو ينتصر الرساليون على أخذ ثرواته شاء أم أبى، ولا ينفعه التعليل والتبرير، لأن الله خبير بما يعمل العباد ويجازي الناس حسب خبرته لا حسب أقوالهم وادعاءاتهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

صفات عبدة العجل

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ [١] وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

---

(١) الزبر: جمع زبور، وكل كتاب فيه حكمة فهو زبور.

هدى من الآيات:

بمناسبة الحديث عن المتقاعسين عن الجهاد بأموالهم، وختما لسورة آل عمران التي أعطتنا رؤية متكاملة عن أهل الكتاب، يحدثنا الدرس هذا عن بعض صفات اليهود، الذين عبدوا العجل وكانوا أكثر خلق الله بخلا.

إنهم كانوا يتهامسون بأن الله فقير لذلك نجد المؤمنين به هم الفقراء أما نحن فأغنياء ويهددهم القرآن ويقول: إن كلامهم هذا مسجل عليهم كما سجلنا سائر أعمالهم السيئة كقتل الأنبياء -إن قولهم بأن الله فقير ما هو إلا تبرير لكفرهم وبخلهم وذلك مثل أنهم برروا سابقا عدم إيمانهم بالرسول، بأنه يفقد آية الرسالة التي كانت في زعمهم قربانا تأكله النار، والدليل على ذلك أنهم قتلوا الأنبياء الذين جاؤوا بهذه الآية ذاتها.

إن تكذيب اليهود للرسول ليس جديدا عليهم، بل إنهم كذبوا الأنبياء من قبله، بسبب تشبثهم بالماديات، تلك الزخارف التي لابد أن يرحل عنها الإنسان في يوم، فكل بشر محكوم عليه بالموت، وإنما الفائزون هم الذين يكتسبون الجنة بعد الموت.

ثم يبين القرآن الحكيم: أن مواجهة اليهود -وكذلك طبقة الأغنياء البخلاء- تتطلب جهودا مضنية، حيث لابد أن يسمع المسلمون من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، ومن ذلك الأذى أنهم يكذِّبون بالرسالة، بالرغم من ميثاق الله والرسول عليهم في الكتاب، بأن يؤيدوها ويصدقوا بها. إن طبقة الأحبار تتحد مع طبقة الأغنياء البخلاء في محاربة الرسالة الجديدة وإن الأغنياء يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. والله غني عن أموالهم لأن له ما في السماوات والأرض.

بينات من الآيات:

[١٨١] الطبقة الغنية قد تكون متحالفة مع أولياء الرسالة، فتكون مجاهدة بما لها في سبيل انتصارها، ومتعاونة مع الضعفاء من الناس، وقد تكون متحالفة مع أعداء الرسالة، وهذه هي السنة الغالبة.

وعن هذه الطبقة يتحدث القرآن هنا، ولكن بالرغم من تجسدها في أشخاص اليهود، لا يذكر القرآن اسم اليهود لكيلايقتصر عليهم الحديث، بل يبقى شاملا لكل الأغنياء الذين يعادون الرسالة.

إن هؤلاء يزعمون أن مقياس الحق والباطل هو الثروة، ويتهكمون على المؤمنين، ويقولون: إن الله فقير، ولذلك يقبل الفقراء.

وهم يعادون الرسالة إلى درجة حمل السلاح في وجه الأنبياء، واقتراف جريمة القتل بحقهم، وكل هذه الأعمال دليل على أن الثروة ليست مقياس التقرب إلى الله بل أعد الله لهؤلاء عذابا يحرقهم ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

[١٨٢] عذاب الحريق الذي يصيب هؤلاء الأغنياء البخلاء ليس لأنهم أغنياء بل لأنهم بخلوا بحقوق الله ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

[١٨٣] ومن أكاذيب هؤلاء التي يبررون بها كفرهم بالإسلام، وموقفهم العدائي من الرسالة الجديدة، أنهم يقولون: إن العلامة الضرورية لصدق الرسالة غير موجودة في هذه الرسالة، وهي: نزول قربان تأكله النار، ولكن الله يفند هذا القول، ويبين أن تكذيب الرسول ليس جديدا عليهم، بل هو ناشئ عن موقفهم العام من الرسل. ولذلك حين جاءهم رسل مزودون بتلك العلامة كذبوا بهم، وفوق ذلك قتلوهم.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ حيث كانت من العادة أن تنزل النار من السماء، فتأكل ما يُتقرَّب به إلى الله من الذبائح، للدلالة على تقبل الله لهذا القربان، وبالتالي للدلالة على سلامة نية الرسول.

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ حيث لم تكن العلامة الفارقة بين الرسل وغيرهم، مجرد قربان، بل بينات كثيرة أخرى جاءت بها الرسل، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنما أنتم تبررون كفركم عبر هذه الأكاذيب، وهكذا يبرر طبقة الأغنياء المترفين، كفرهم بالرسالات وبالحركات التقدمية، بأكاذيب باطلة حيث يلصقون بها أبشع التهم.

[١٨٤] والتكذيب بالرسالة الجديدة، إنما هو ناشئ من موقف هؤلاء المبدئي، من كل رسالة وكل رسول ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ إذن لا داعي للخوف من هذه الطبقة، إذ إن رسالات السماء كلها انتصرت بالرغم من تكذيب هؤلاء لها، كما لا ينبغي أن يتزلزل الناس من تكذيب هؤلاء، ويشكون في صدق الرسالة، كلا لأنهم مصلحيون يتبعون أهواءهم، وليس أي شيء آخر.

البينات: المعاجز الظاهرة كعصا موسى وإحياء عيسى للموتى. والزبر: الكتب المنزلة.

وربما يكون الكتاب المنير: هو الآيات المحكمة من الزبر، وهي تلك التي تنير درب الضالين، وهو يساوي في المعنى كلمة الفرقان.

[١٨٥] وعلينا ألاَّ نركع لهذه الطبقة، ولا نتأثر بما لديها من زينة الحياة الدنيا. إذ إنها ستزول، أو يزول عنها أصحابها. وإن العظمة الحقيقية ليست لمن يملك بضعة دنانير أكثر، إنما لمن يستطيع أن يخلص نفسه من نار جهنم، ويدخل الجنة، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ إن الحياة الدنيا سلعة تغر الإنسان، أو أنها رأس مال المغترين. أما الواعي فإنه يعرف أنها حياة زائلة، فلا يغتر بها، ولا يتخذها لنفسه متاعا، ولا رأس مالا، ولا رصيدا يعتمد عليه.

[١٨٦] وعلى الأمة أن تتسلح بالصبر في مقاومة الطبقة الغنية، وتعرف أن مقاومتها ليست بالهينة بل تحتاج إلى التضحية بالمال، والنفس، وتحمل الإشاعات الكاذبة، حتى تستطيع الرسالة الانتصار عليها، وعلى أمثالها من الكفار والمشركين. وسلاح الصبر النافذ يصنعه الإيمان الصادق بأن الحياة الدنيا زائلة وأن الدار الآخرة لهي الحياة.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي إن الله يختبركم ويمتحنكم بإصابتكم في الأموال، والأنفس ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وعلى الأمة إلاَّ تقتصر على الصبر فحسب، بل وتتسلح -أيضا- بالتقوى، وهي الالتزام بواجبات، ومحرمات الدين بالضبط، وإذا فعلت ذلك فإنها استطاعت أن تمتلك أزمة الأمور بيدها، لأن عزم الأمور ولبابها يتمثل في الصبر والتقوى، في الصمود والالتزام.

[١٨٧] ومن مفاسد أهل الكتاب التي يجب مواجهتها، دعاياتهم السلبية تجاه الرسالة الجديدة، هذه الدعاية التي تدخل في إطار ما حذر منه القرآن في الآية السابقة، حيث أكد أن الأمة سوف تسمع من الذين كفروا أذى كثيرا.

وإن هذه الدعاية مخالفة صارخة لعهد الله معهم، ومع كل صاحب ثقافة، ذلك العهد يقضي بأن عليه أن يبينها للناس ولا يكتمها ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ويؤكد القرآن أن وراء دعايات هؤلاء ثمنا قليلا من متاع الدنيا.

[١٨٨] وكما أن على من يملك العلم أن يتحمل مسؤولية نشره من دون خوف ولا

رغبة، فكذلك على من يملك مالا أن يبذله في سبيل الله، من دون أي طمع مادي (كأن يحب أن يمدح أمام الناس) ولا حتى عُجْب بما أتاه في الله (بأن يفرح وكأنه قد أدى ما عليه بالكامل).

إن القرآن الحكيم يقصد بالآية السابقة طرد طبقة الأحبار عن إطار التأثير في المجتمع، حيث يقول انهم كانوا قد خانوا أمانة الله في العلم.

وهنا يريد ضرب طبقة الأغنياء البخلاء، الذين لا يبذلون مالهم إلا من اجل الإطراء، أو يزعمون أن قليلا من المال يخلصهم من مسؤولياتهم الرسالية ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[١٨٩] والله لا يحتاج إلى مال هؤلاء، لأنه مالك السماوات والأرض، وهو قادر على كل شيء من دون أموال هؤلاء ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ولأن الله ملك السماوات والأرض، فإن على أصحاب الرسالة أن يتسلحوا بالتوكل على الله، في مقاومة هذه الطبقة، والطبقة الحليفة لها، وهي طبقة تجار الدين الذين يركعون للأغنياء، لبضعة دراهم ويخونون دينهم.

الرسالي بين التأمل الهادف وواجبات الرسالة

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١) (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ (٢) عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

هدى من الآيات:

من هو المجاهد الرسالي؟ وما هي العوامل الدينية التي تدفعه إلى الشهادة؟.

إن القرآن لا يقف في أمره للجهاد عند بعض العوامل الاجتماعية، بل يضرب في العمق، حيث يصلح النفوس، ويهيئها لتقبل الشهادة، بل لطلبها بإصرار، وذلك لتحقيق أهداف

(١) الأبرار: جمع بر وهو الذي بر الله بطاعته إياه حتى أرضاه.
(٢) أضيع: أهلك.

الإنسان الرئيسية في الحياة ويقول: (إنك حين تنظر إلى السماء والأرض، فإن أول ما يملأ عينك هو: الاختلاف الواسع فيها). وأبرز اختلاف هو: (تناوب الليل والنهار)، وهذا يدعوك إلى التفكر لماذا الاختلاف؟ وتجد الجواب ببساطة: لأن لكل شيء هدفا محددا يحققه، الليل يأتي ليحقق أهدافا معينة، ثم يعقبه النهار لأهداف أخرى، إذن لكل شيء قدر وهدف محدد.

ترى أي هدف للحياة؟ وإذا انحرفنا عن مسيرة هذا الهدف فما هو مصيرنا؟ أليس النار والخزي؟! دعنا إذا نتوجه إلى الله، وهنا يهبط الوحي، ليوجه فطرتنا الصادقة ويبين لنا: كيف نسير حتى نحقق هدف حياتنا. والمؤمنون الصادقون يهرعون إلى الاستجابة للوحي، ويحاولون تحقيق مهامهم بدقة ابتغاء مرضاة الله.

ولكن الله يشترط عليهم شروطا، تبدو متعبة لنا، أما للذي وضع هدفه الأساسي خلاص نفسه من نار جهنم، فإنه عمل بسيط وهو الإيمان والتحدي، وتحمل الأذى في الله والهجرة والقتال والاستشهاد في الله.

بينات من الآيات:

[١٩٠] كيف خُلقت السماوات والأرض، وهي لاتزال تُخلق وتتطور حسب خطة حكيمة، وإرادة مطلقة، ويد قوية؟. ما هذا الليل الذي يلف الكون بظلامه وسكونه؟ وما هذا النهار الرائع الصاخب؟ ومن يسلخ النهار من الليل، فيغرق الكون في بحر من الهدوء والظلام؟.

إنها حقائق تثير عقول الذين ينفذون إلى لب الحياة، وما وراء قشورها من أنظمة وأهداف ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

[١٩١] إن هؤلاء أصحاب العقول النيرة، يعرفون ربهم في أول نظرة إلى الحياة، ولا يرون ظاهرة في الحياة، إلا ويذكرون ربهم، لأنهم يعبرون فوق جسر الظاهرة بسرعة، ويصلون إلى الحقيقة، التي تقول: إن الله هو خالق هذه الظاهرة، ومدبرها الآن، والذي يطورها من حال لحال ومن لحظة لأخرى.

فهم يذكرون الله قياما وقعودا، وذكرهم آتٍ من تفكرهم العميق في ظواهر الحياة، وتفكرهم سليم لأنه سوف يؤدي إلى معرفة الحقائق، وأبرزها معرفة أن الحياة ليست باطلا وبلا هدف، وليست فوضى وبلا سنن، وهدف حياة الإنسان وسنتها التي تتحرك ضمنها هو: التقوى، والالتزام بمنهج الله الذي يلتزم به ما في السماوات والأرض، وإلا فإن نهاية الإنسان

هي النار.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ إن تفكُّر هؤلاء تفكُّر واعظ، حيث ينقل الدروس والعبر من واقع الحياة إلى واقعهم، ويجعلهم يتعرضون للحياة بما فيها من سنن ومناهج.

[١٩٢] إن هدف الإنسان في الحياة هو اختبار إيمانه ووعيه، ومدى فاعلية إرادته في مقاومة ضغط الشهوات، فإن نجح في الامتحان فإن الجنة مأواه، أما إذا فشل فإن مصيره إلى النار، وهي خزي يلاحق الذين ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم الله شيئا، وسوف لا ينفع الظالمين شيء مما استفادوه في الدنيا بظلمهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

[١٩٣] هذه هي العبرة التي يستلهمها أولو الألباب من تفكرهم في الحياة. وسوف تستوضح هذه العبر، عن طريق الوحي الذي يسارع هؤلاء إلى التصديق به بسبب خلفيتهم الفكرية السليمة.

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ واكتشفوا بعد الإيمان أن بعضا من أعمالهم كانت مخالفة للمنهج الإلهي، فاستغفروا منها، وطلبوا من الله أن يصلح حياتهم، بعد أن أفسدتها ذنوبهم بالتوبة إليه منها وطلب الاستقامة من الله، على أن يجعلهم مستمرين في هذا الخط حتى الموت ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾.

[١٩٤] ولأن هؤلاء اكتشفوا بتفكرهم النافذ والبصير في الحياة، إأن الهدف الأسمى للإنسان، هو الجنة التي وعد بها الله عباده المؤمنين بواسطة الأنبياء، فهم سألوا الله ذلك وتطلعوا إليه وقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

[١٩٥] واستجاب الله لهم، ولكنه فرض عليهم شروطا، وطالبهم بامتلاك عدة مواصفات، أبرزها الهجرة. وهي الانفصال الفكري والعملي من الجاهلية.

ويستلزم هذا الانفصال التحدي، والصراع، وبالتالي الخروج من بلاد الجاهلية، وتحمل أنواع الأذى من الاغتراب، والفقر والذل. بيد أن كل ذلك يدفعهم لتنظيم أنفسهم، والاستعداد للعودة إلى بلادهم بالقتال.

وهدف الجيش من القتال هو الانتصار، بيد أن هدف الجنود هو الشهادة، لذلك فهم مستبسلون في ذات الله.

إن هذا هو شرط الله على المؤمنين الذي إذا وفوا به آتاهم أجرهم بالكامل، وبالتساوي بين الذكر والأنثى، أدخلهم الجنة جزاء حسنا من عند الله ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ وليس الدعاء وحده كاف للحصول على الثواب، بل العمل الصالح هو الذي يُعطى الجزاء عليه بقدره بالذات ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ أي كلكم في الثواب سواء، لأن بعضكم من بعض، وقد انحدرتم من أب واحد فلا فرق بينكم.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ الهجرة هي الخروج تلقائيًا. وهو يخالف الإخراج لأنه بإكراه، وربما الهجرة هنا هي الهجرة المعنوية، والإخراج هي الهجرة الجغرافية.

﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ إن الشهيد يغتسل بدمه فإذا به طاهر من الذنوب ويدخل الجنة بغير حساب.

اصبروا وصابروا ورابطوا

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ[1] تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ[2] قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ[3] (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ[4] (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ[5] لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا[6] وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

هدى من الآيات:

الذين يهاجرون في سبيل الله لا يملكون إلا زاد التقوى، وقوة الإيمان. فهم يعرفون أن نهاية أعدائهم قريبة، بالرغم من تمتعهم بقوى ظاهرة، تملأ العين وتغر البسطاء، وبعد النهاية سوف يُرمون في جهنم وساءت مصيرا.

---

(١) يغرنك: الغرور إيهام حال السرور فيما الأمر بخلافه في المعلوم.

(٢) متاع: النفع الذي يتعجل به اللذة إما بوجود اللذة أو بما يكون به اللذة نحو المال الجليل والأولاد والإخوان.

(٣) المهاد: الذي يسكن فيه الإنسان ويفترشه.

(٤) الأبرار: جمع بَرّ.

(٥) خاشعين: أصل الخشوع السهولة من قولهم: الخشعة وهي السهولة في الرمل، والخاشع الخاضع.

(٦) رابطوا: أصل الرباط ارتباط الخيل للعدو، والربط الشد ومنه قولهم: ربط الله على قلبه بالصبر، ثم استعمل في كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه ممن أرادهم بسوء.

أما المتقون: فإن نهايتهم هي الجنة وحسنت مستقرا، ولذلك فعلى المؤمنين أن يصبروا ويشجعوا أنفسهم بالصبر ويرابطوا في الحدود، ويتقوا الله، حتى يفلحوا في الدنيا والآخرة.

هذه خلاصة هذا الدرس الذي جاء متمما للحديث عن الخلفية الإيمانية للأمة التي تحارب أهل الكتاب، وتصبر على أذاهم، وتقاوم ضغوط طبقة الأغنياء البخلاء، المتحالفة مع الأحبار والرهبان الخونة.

ولكي تكمل الصورة وتكون واقعية، بيّن القرآن في الآية ما قبل الأخيرة: أن أهل الكتاب ليسوا كلهم كفارا، بل فيهم متقون حتى لا نتصور أن اليهود مثلا أهل النار، لأنهم يهود وكفى، ونحن نصبح أهل الجنة لأننا مسلمون وحسب، بل إن العمل هو وحده، مقياس الحق بين أهل الجنة أهل النار.

بينات من الآيات:

[١٩٦-١٩٧] بالرغم من تمتع الذين كفروا بقوى ظاهرة، وحرية الحركة، والتصرف في البلاد، فإن أيامهم معدودة ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

[١٩٨] أما المتقون الذين يلتزمون بمنهج السماء بالكامل فهم الفائزون ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ إن المؤمنين بحاجة إلى صفتين هما: الالتزام والانضباط التام بالمنهج، والنشاط ويسمي القرآن -حسبما يبدو لي- الالتزام الإلهي بالتقوى، كما يسمي النشاط في سبيل الخير بالبر.

وقد أوحت هذه الآية بهاتين الصفتين معا.

[١٩٩] ولا يكفي أن يكون المؤمن معتقدا بالله وبرسوله، وأن يقول: أنا مسلم؛ في أن يحصل على الجنة، كلا. إن الجزاء يلحق العمل، سواء كان الشخص مسلما أو كان من أهل الكتاب ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ويبدو أن هذه هي صفات بعض علماء اليهود والنصارى حيث جاء أنهم لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا.

[٢٠٠] في مواجهة الأعداء، من الكفار والأغنياء والأحبار لابد من التطلع إلى مستقبل

النصر، والصبر على بعض الأذى الموجود في الطريق، ثم بث روح الإيجابية في الأمة، حتى يشجع بعضهم بعضاً على الصبر، ثم القيام عمليًا بالاستعداد الدائم للعدو. والانضباط بالأوامر التي تصدرها القيادة، إن هذه هي سبيل السعادة، سواء على مستوى الأمة أو على مستوى الأفراد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

المحتويات